الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلّية أصول الديـن والشريعـة
والحضارة الإسلامية
قســم: علوم القرآن والحديـث
تخصّص: تفسير وعلوم القرآن

الرقم التسلسلي:
رقم التسـجيـل:

موضوع البحث

أساليب المدح والذم في القرآن الكريم

مذكّرة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالب:
هواري طالبي

إشراف الدكتور:
هلال خزاري

أعضاء اللجنة

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصيلة
د. رمضان يخلف	رئيسا	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
د. هلال خزاري	مقررا	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
د. صونيا وافق	عضوا	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة
د. مراد مزعاش	عضوا	أستاذ محاضر	المدرسة العليا للعلوم الإنسانية قسنطينة

السنة الجامعية: 1430 -1431هـ الموافق لـ 2009 - 2010م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

- إلى التي غمرتني بحنانها، إلى التي عجز التعبير عن وصفها، إلى أولى الناس بصحبتي ومحبّتي (أمّي).
- إلى الذي تحمّل مرارة الحياة ليعطيني حلاوتها (أبي).
- إلى الذين أجد عندهم أنسي وترتاح لهم نفسي، أشدّ بهم أزري وأشركهم في أمري (إخوتي).
- إلى معلّمي في الطور الأوّل الذي علّمني مبادئ العلوم والآداب (العربي الحبيب) ومن خلاله إلى كلّ من علّمني وأدّبني من أساتذتي الفضلاء من غير تخصيص أو استثناء.
- إلى الذين سُررت بمعرفتهم وسَعدت بملازمتهم (أصدقائي).
- إلى كلّ طالب علم مخلص ينشد الحقّ ويسعى جاهداً في طلابه.
- إلى كلّ هؤلاء أهدي هذه الباكورة الجَنيّة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

إذا كان الشكر هو عرفان الجميل لمن أولاكه فإنّ أولى الناس به بعد الله تعالى ثم الوالدين أساتذتي الكرام، بدءاً بمعلّمي في الطور الابتدائي الذي فتح عينيّ فأبصرت بعد عمى وعلمت بعد أن لم أكن أعلم، وانتهاءاً بأساتذتي المبجّلين في هذه الجامعة المحترمة الذين فتحوا لي أبواب العلم ومهّدوا لي طرق المعرفة، كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف الدكتور: هلال خزاري على قبوله الإشراف على هذه الرسالة رغم تعدّد أشغاله وكثرة أتعابه وتنوّع اهتماماته، وأشكره مجدّداً على ما أبداه من ملاحظات قيّمة سديدة وتوجيهات رشيدة مفيدة، والشكر موصول أيضا إلى لجنة المناقشة العلميّة على صبرهم على قراءة الرسالة، وعلى ما سيسجّلونه من نقد وتوجيه علميّ يزيل الزلل ويسدّ الخلل ويكمّل العمل، كما أشكر الأستاذ الفاضل الدكتور: رمضان يخلف الذي كان له الفضل بعد الله في اختيار الموضوع، وأشكر صاحب الفضيلة الدكتور حسن كاتب الذي أشهد أني استفدت من علمه وتواضعه، ومنه إلى كلّ من أعانني وآزرني ولو بكلمة طيّبة.

إلى كلّ هؤلاء أقول: شكراً لكم وجزاكم الله خيراً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ**﴾ [آل عمران: **102**]

وقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا**﴾ [النساء: **1**]

وقال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا، يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: **70- 71**].

أمّا بعد، فقد اعتنى العرب في الجاهليّة والإسلام بموضوع المدح والذمّ أو المديح والهجاء، حيث كانوا يتفاخرون بأحسابهم ويتمدّحون بفضائل أعمالهم، ويتهاجون مع خصومهم وأعدائهم، يظهر ذلك جليّاً في قصائدهم وخُطَبهم التي كانت تُلقى في أسواقهم وملتقياتهم، كـ"عكاظ" و"مجنّة" و"ذي المجاز" وغيرها، حيث استخدموا في ذلك أساليب كثيرةٍ ومتنوعةٍ جادت بها قرائح الفطاحل منهم، وسواءٌ كانوا يفعلون ذلك تكسُّباً للثروة أو طمعاً في نيل الحظوة، أو خوفاً من ذي السطوة أو استجداءً بإبداء الشكوى، أو غير ذلك من الأسباب فإنهم قد أجادوا وأبدعوا بما خلّفوه من ذلك التراث الأدبيّ العظيم، الذي ندرك من خلاله أنهم كانوا على جانب كبير من التمكّن في فنّ القول وأساليبه وطرائقه.

وإذ يمدحون أو يذمّون فهم إنما يُبينون عمّا في أنفسهم من الرضا أو السخط أو يزعمون ذلك، ولكي يتمّ مرادهم على الوجه الأكمل كان لا بدّ أن يستخدموا من الأساليب ما يكون مناسباً للمقام ولما تقتضيه الحال، وعليه فإنه ستتعدّد أساليب المدح والذمّ وستتنوّع صُوَر الكلام المبين عنه بحسب تعدّد المقامات والأحوال، ثم لا تزال تتجدّد خاضعةً للواقع ولإبداعات القوم وقدراتهم على استخدام ما يحسُن استخدامه من الصِّيَغ والأساليب، واختيارِ ما يجمُل اختياره من المفردات

والتراكيب، وعند ذاك سَينشأ تفاوتٌ في الكلام، فمنه العالي المنتهي إلى أعلى درجات البلاغة، والنازلُ إلى أقصى دركات الركاكة، ولو أراد البليغ منهم أن يحافظ على مستواه من غير أن ينحطَّ عنه لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وستعتريه أحوالٌ يسمو فيها كلامه وينزل ويتوسّط، بل أيُّ كلام – لا محالة – سيخضع لهذا النظام إلا كلامُ العليم العلاّم، وهو هذا القرآن الذي –كما ذكر السيوطي في الإتقان – استمرّت البلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا يوجد له فَترة ولا يقدر عليه أحد من البشر، فهو الكتاب الكامل الذي لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه، ولا غرو في ذلك، فالكمال المطلق لله وحده.

إنّ كتاباً هذا شأنه لحريّ بالدراسة والنظر، والغوص في أعماقه واستخراج الدُّرر، ومن حقّ لغتنا العربية علينا أن ندرسها في ضوئه وتحت مظلّته، وتحقيقاً لهذا المطلب فإنّ دراسة أساليب المدح والذمّ في ضوئه قد تفي بالمطلب؛ فهي – أزعُم – قادرةٌ على إماطة اللثام عن وجه بلاغة القرآن، وإظهار البيان في هذا البيان، وإجلاء بعض أوجه الروعة والإتقان وكمال البراعة والإحسان بالبيّنة والبرهان، ولهذا حاولتُ جَهد استطاعتي أن أصل ببحثي هذا الموسوم بـ: «**أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم**» إلى مرتبة الإحسان، وذلك بحسب المِنّة وعلى قدر الهمّة، مستعيناً بالله العظيم في تحقيق هذا المقصد الجسيم، فإن أصبت فمن الرحمن، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله حسبنا وعليه التُّكلان.

إشكاليّة البحث:

يقوم هذا البحث على إشكالية تتمثل فيما يلي: كيف عالج القرآن الكريم موضوع المدح والذم أسلوبيا؟ وفي ضمنها مجموعة من التساؤلات والاستفسارات ألخصها في نقاط:

1 – ما هي الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في المدح والذمّ؟

2 – ما هي الأساليب التي هجرها القرآن ولم يستخدمها في المدح والذمّ؟ وما تفسير ذلك؟

3 – ما مدى شيوع ظاهرة المدح والذمّ في القرآن الكريم؟

4 – فيم تتمثّل بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم؟

5 – ما هي الخصائص الأسلوبية للمدح والذمّ في القرآن الكريم؟

6 – فيم تتمثل الأوجه الإعجازية البلاغية للمدح والذم في القرآن الكريم؟

أهمّية الدراسة:

تظهر أهميّة هذه الدراسة في كونها متعلقةً – مباشرةً – بالنصّ القرآني وبأساليبه من حيث تأديتُها للغرض الذي سيقت من أجله، وهو هنا المدح والذمّ، كما تظهر أهمّيّتها أيضاً في كونها داخلةً ضِمن سلسلة الدراسات النحوية والبلاغية التي تُعنى بدراسة أسلوب القرآن الكريم، وهي – بلا شكّ – دراسات مُهمّة يحتاج إليها المفسّر، وبدونها لا يستطيع أن يبلُغ من مَقصِده شيئاً، وقد ذكر الزمخشريّ وغيره أنه لا بدّ لمن أراد خوض غِمار التفسير أن يكون على دِراية كبيرة بعلمَي المعاني والبيان.

دوافع اختيار الموضوع:

توجد عدّة دوافعَ انقدحت في ذهني دفعتني لاختيار الموضوع، أهمّها:

1 – رغبتي في الاطِّلاع والتوسّع في دراسة لغة القرآن الكريم، ومعرفةِ أسرار بلاغته وأوجُه إعجازه.

2 – أهمّية الموضوع باعتباره داخلاً ضِمن مجموعة الدراسات العربية المتّصلة مباشرةً بكتاب الله العزيز.

3 – رغبتي في السَّير في اتجاه بعض المتأخرين الذين عُنوا بهذا اللون من الدراسة، مثل: «**دراسات لأسلوب القرآن الكريم**» للدكتور: محمّد عبد الخالق عضيمة، و«**أساليب التوكيد في القرآن الكريم**» للأستاذ عبد الرحمن المطّردي، و«**أساليب النفي في القرآن الكريم**» للدكتور أحمد ماهر البقري، وغير ذلك من الدراسات العربية المتّصلة بالقرآن الكريم، ولما كانت هذه البحوث في غالبيّتها تُعنى بالجانب التصريفيّ والنحوي أحببت أن تكون لي دراسةٌ جاريةٌ على النمطِ نفسِه، لكنّها – علاوةً على ما تقدّم – تهتمّ بالجانب البلاغيّ والتفسيريّ.

الدراسات السابقة:

إنّ البحوث التي تناولت دراسةَ أساليب الكلام وطُرقِ التعبير المختلفة عنه في ضوء القرآن الكريم كثيرةٌ جداً ومتنوعة، ولعلّ أشملَها كتابُ «**دراسات لأسلوب القرآن الكريم**» للدكتور: محمّد عبد الخالق عضيمة، وهو كتابٌ أشبهُ ما يكون بموسوعة قرآنية شاملةٍ تناول فيه مؤلِّفُه جُلّ مباحث علمَي النحو والتصريف ودرسها دراسة دقيقة ومعمّقةً في ضوء القرآن الكريم، وقد تعرّض فيه لـ:"نِعْمَ وبِئْسَ" المقترنتين بـ: "ما"؛ وذلك في مَعرِض دراسته للكلمة "ما"، فاكتفى بسرد مواقعهما في القرآن الكريم ولم

يفصِّل، وهناك دراساتٌ أخرى تناولت أساليب محددةً تحدّثت – عَرَضاً – عن المدح والذمّ، كأساليب العطف أو الشرط أو الاستفهام أو النفي أو التوكيد أو غير ذلك، غير أنّ معظمها مواضيع نحويةٌ أكثرُ منها بلاغيّة.

لكني وجدت كتاباً يتناول المدح والذمّ في القرآن الكريم، ويدرسه دراسة موضوعية بلاغيةً، اطّلعتُ عليه من خلال أحد المواقع في الشبكة العنكبوتية، ومع أنه لا يمكن تصفُّحه إلا أنه قد نُشرت صورة غلافه الخارجيّ وبأسفلها فقرةٌ موجزة هي عبارة عن بطاقة تعريفيّة بهذا الكتاب، والحاصل أنّ هذا الكتاب أصلُه رسالةٌ علميّة حاز بها مؤلِّفُها درجة الدكتوراه، حيث كانت بعنوان: «**المدح والذمّ في القرآن الكريم: دراسة موضوعيّة بلاغيّة**»، ومؤلِّفها هو الدكتور: مَعن توفيق الحيّالي، المدرسُ بكليّة الإمام الأعظم بـ: "نينوى"، وقد طَبعت هذه الرسالةَ دارُ الكتب العلميّة ببيروت، ونشرتها بتاريخ: 07 يناير 2006م – أي: بعد اختياري لموضوع البحث – حيث كُتب على غلافه تحت العنوان: يَبحث في بلاغيّة وأساليب المدح العقائديّ ومدح الشخصيّات والذمّ العقائديّ وذمّ الشخصيّات، وقد ذُكر في البطاقة التعريفيّة المنوّه عنها سابقاً ما يلي: "كتابٌ يتناول موضوعاً هامّاً وهو موضوع المدح والذمّ في القرآن الكريم، حيث ذكر المواضع التي ورد فيها المدح والذمّ وأسماءَ الممدوحين والمذمومين وكلَّ ما يتعلّق بذلك، ثم يُبيِّن بلاغةَ المدح والذمّ" اهـ.

وقد بذلت الوُسع – على قلّة الإمكانات – في البحث عن هذا الكتاب في كثير من دُور النشر، وقمت باتصالاتٍ ومحاولاتٍ للحصول عليه فلم أرجع من ذلك بشيء، ثم وجدتّه – بحمد الله– وقد كنت أنهيت الدراسة أو قاربت، فتصفّحته من أوله إلى منتهاه فألفيته – كما ذكرتُ آنفاً – قد تناول فيه مؤلّفه المدح والذمّ ودَرَسهما دراسةً موضوعية بلاغية، حيث قام بتجميع الآيات المتعلّقة بالمدح أو الذمّ وقسّمها بحسب الممدوحين أو المذمومين، ثم قام بتحليلها تحليلاً أسلوبيّاً بلاغيّاً، والكتاب وإن كان لا يُستغنى عنه في بابه فإنه – برأيي – لم يتعرّض لبعض الجوانب أراها مهمّة فيما يتعلّق بدراسة المدح والذمّ في القرآن الكريم، وهي التي تناولتها بالدراسة والتحليل، وتتمثّل هذه الجوانب فيما يلي:

1 – دراسة الجانب النحوي والبلاغي المتعلِّق بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" وما يُلحق بهما دراسةً مستوفية في ضوء القرآن الكريم، وعدم إهمال دراسة الأساليب التي هجرها القرآن الكريم ولم يستخدمها، كالمدح والذمّ بـ: "حَبَّذا ولا حَبَّذا وحَبَّ" مع التعريج على الجانب البلاغي.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – دراسة الأساليب المتنوِّعة للمدح والذمّ الصريحةِ والضِّمنية دراسةً وصفية وتحليلية.

3 – تحرّي الدِّقة في اختيار الشواهد القرآنية للمدح والذمّ؛ من خلال اعتبار السياق وغيره من القرائن التي تساعد على تحديد المقصد من الكلام، فقد يُفهم منه ابتداءً المدح أو الذمّ، وعند التحقيق يتّضح أنه قُصد به الترغيب أو الترهيب، أو الوعد أو الوعيد، أو الإغراء أو التحذير، أو التحضيض أو التنفير، والمؤلِّف قد أدخل في كتابه المذكور آنفاً كل تلك الأغراض في المدح والذمّ، ولعلّ طبيعة موضوعه اقتضت ذلك، إلا أنّ موضوع بحثي لا يُعنى إلا بالآيات التي سيقت للمدح والذمّ أصالةً، وبالتالي ستضيق دائرة البحث، وسيكون التركيز على أساليب المدح والذمّ من حيثُ كيفيّةُ تأديتِها للغرض المطلوب، مع مراعاة الجوانب البلاغية والجمالية، ويكون تقسيم الدراسة باعتبار الأساليب المستخدمة في التنزيل العزيز لا باعتبار الممدوحين والمذمومين – كما صنع المؤلِّف –، وعليه فإني أحسب هذه الدراسةَ مكمِّلةً لتلك بحسب ما ذكرت، والله أعلم.

هذا عن الأبحاث الحديثَة، أمّا القديمةُ فلا أعلم أنها تُعنى بمثل هذا اللون من الدراسة، ولا يعني هذا أنها لم تتعرّض لأساليب المدح والذمّ بالبحث والشرح؛ فهذه كتبهم الكثيرة والمتنوعة تزخر بذلك، منها ما هو متعلِّق بالنحو، كـ"الكتاب" لسيبويه، و"المقتضَب" للمُبرِّد، و"التسهيل" لابن مالك، وغيرها كثير، ومنها ما هو متعلِّق بالبلاغة، كـ"دلائل الإعجاز" للجرجانيّ، و"المفتاح" للسكّاكي، وشروحه للقزويني وغيرِه، ومن ذلك كتب التفسير، خاصةً التي يغلب عليها الجانب اللغوي والبلاغي، كـ"الكشّاف" للزمخشريّ و"البحر المحيط" لأبي حيّان و"جامع البيان" للطبري، وغيرُ ذلك كثير، فكانت دراسةُ أساليب المدح والذمّ فيها متفرقةً متناثرةً، ثم جاء هذا البحث ليجمع ما تفرّق ويَنظِم ما تناثر من تلك اللآلئ والدرر في سلك واحد، ليكتمل العِقد حُسناً وبهاءً متمثِّلاً في هذه الدراسة العلميّة التي أرجو أن تكون كشجرة طيّبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

أهداف الدراسة:

إنّني أهدف من خلال هذه الدراسة إلى:

1 – الكشف عن أهمّية دراسة أساليب القرآن الكريم؛ إذ هو المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى به.

2 – تجميع أساليب المدح والذمّ في دراسة مستقلّة يتبيّن من خلالها المسلك القرآني في عرضها واستعمالها.

3 – الكشف عن بعض أوجه البيان والبلاغة والإعجاز في النصّ القرآني.

المنهج المتّبع في الدراسة:

تستند هذه الدراسة لأساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم على عدّة مناهج، هي:

1 – **المنهج الاستقرائي**: وذلك لاستيعاب جميع الأساليب المراد دراستها، حيث يتمّ استقراء جميع ما ورد من ذلك في القرآن الكريم.

2 – **المنهج الوصفي**: ويكون بتجميع كلّ ما تمّ استقراء، ثم يقوم البحث بوصفه وتصنيفه؛ بذكر أقوال المفسّرين والبلاغيّين والنحويّين وعلماء اللغة.

3 – **المنهج التحليلي**: يصاحب ذينك المنهجين المنهجُ التحليليّ، حيث يقوم البحث بمناقشة الأقوال غير المسلَّم بها أو التي تحتاج إلى نظر؛ بالنقد تارةً وبالتحليل والتعليق أو التعقيب عليها تارةً أخرى، وهذا ممّا يزيد في عمق الدراسة وجودتها.

وبمجموع هذه المناهجِ يكون البحث قد جمع بين دراسة الكمّ ودراسة الكيف على حد سواء دون تغليب أحدهما على الآخر.

أمّا طريقتي في هذا البحث فقد كانت على النحو الآتي:

1 – أجمع كلاًّ من أساليب المدح والذمّ في دراسة واحدة دون أن أفْصل بينهما بحيث أدرس كلاًّ منهما على حدة.

2 – أقوم باستقراء كلّ الآيات والشواهد التي يجمعها أسلوب واحد، ثم أدرس نماذج منها مكتفياً ومنبّهاً بها عن غيرها، ثم أذكر سائر الآيات سرداً إلا ما يحتاج منها إلى شرحٍ أو بيانٍ فأبيّن.

3 – أقوم بتخريج الآيات في الأصل؛ بذكر اسم السورة ورقم الآية بعدها، ثم أبيّن نوعها بالرمز (م) إذا كانت مدنيةً وبالرمز (ك) إذا كانت مكّية.

4 – أخرّج الأحاديث بعزوها إلى مظانّها الأصيلة، فإن كانت في البخاريّ ومسلمٍ فأكتفي بهما عن غيرهما، فإن لم توجد فيهما فإني أخرّجها حيث وُجدت في مصادرها، ثم أبحث – ما أمكن – عن أقوال المحدّثين في الحكم عليها صحةً وضعفاً على حسب ما يليق بحالها.

5 – أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في البحث، وربما أكتفي بذكر سنة الوفاة (ت ...هـ) إذا كان العَلَم مشهوراً جدّاً؛ أو جاء ذكره عَرَضاً، وربما أترجم له ترجمة موجزة لفائدة أو مناسبة يدعو إليها المقام.

6 – أقوم ببعض التعليقات المتنوّعة التي تشمَل توضيحَ معنىً أو رفع إيهامٍ أو بيان إبهامٍ أو شرح غريبٍ أو تخريج شعرٍ، أو غيرَ ذلك من الفوائد، ولم يَفُتني – بحمد الله – إلاّ اليسير.

7 – ما أضيفه من كلامٍ في ثنايا النصّ المقتبس فهو للتبيين، وأضعه بين معقوفتين هكذا [......]، فإن كان النصّ وحياً فأجعله بين العلامتين ﴿...﴾ إذا كان قرآناً، وبين قوسين كبيرتين مزدوجتين هكذا ((...)) إن كان حديثاً نبويّاً، وإن كان من غير الوحي فأجعله بين شولتين "..."، وأضع رقم الهامش في آخر الكلام، فإن سمّيتُ كتاباً جعلته بين مزدوجتين «...»، وإذا اخترت لفظة من النصّ للتعليق عليها فإني أضعها بين قوسين كبيرين (...)، وأحياناً بين شولتين صغيرتين "..."، وإذا حذفت كلاماً نبّهت عليه بوضع ثلاث نقط هكذا ...

8 – أُدرِج القراءات الشاذّة في البحث مع أنّها ليست قرآناً، لكنّها محتجّ بها في اللغة لصحّة أسانيدها، بل بعضها أصحّ إسناداً من بعض شواهد اللغة؛ وإنما لم تُعدَّ قرآناً لفقدها شرطَ التواتر، أو عدمِ موافقتها للرسم العثماني.

9 – أعتمد في الفهارس وفي كلّ ما يحتاج إلى ترتيب على الترتيب الأبجدي، كما أني في فهرسة الأعلام أدخل الكنى والأنساب والألقاب ولكن لا أضع في الاعتبار كلاًّ من: (أب) و(أبو) و(ابن) و(الـ) التعريف عند مراعاة الترتيب؛ وذلك طلباً للتسهيل.

أمّا الموضوع فقد قسّمته إلى مقدّمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، أمّا المقدمة فذكرت فيها أنّ العرب قد استخدموا أساليب كثيرةً في مدائحهم ومهاجيهم، وبيّنت أنّ القرآن الكريم مدَحَ وذمَّ بأساليبهم نفسِها، ومع ذلك ففرقٌ بين الأسلوبين، فذاك كلام خالقٍ وهذا كلام مخلوقٍ، ثم طرحت الإشكال الذي قام عليه البحث وأهمّية الموضوع ودوافع اختياري له، والدراسات السابقة، والمنهجية المتّبعة في الدراسة. أمّا التمهيد فجعلته كالتوطئة للدخول في الموضوع، حيث بيّنت فيه معنى كلٍّ من

المدح والذمّ في اللغة والقرآن، ثم ذكرت المعاني الداخلةَ في المدح والذمّ أو القريبةَ منهما، وأخيراً تحدثتُ إجمالاً عن أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم، وبعد ذلك دخلت في صلب الموضوع فجعلت الفصل الأول في المدح والذمّ الصريح، حيث قسّمته إلى مبحثين، تناولت في المبحث الأول صيغَ المدح والذمّ التي استخدمها القرآن الكريم والتي لم يستخدمها؛ فتحدثت في مطلب عن: "نِعْمَ وبِئْسَ"، وفي مطلب آخر عمّا يلحق بهما، وفي آخر عن: "حَبّذا" و"لا حَبّذا" و"حبّ"، وهي من الصيغ التي لم يستخدمها القرآن الكريم، وفي المبحث الثاني تناولت المدح والذمّ بالوصف، وقسّمته إلى مطلبين، أمّا الأول منهما فجعلته في المدح والذمّ بالإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه، إمّا بإثباتها له أو نفيها عنه أو حصرها فيه، وأمّا الثاني فجعلته في المدح والذمّ بالنعت سواء بإتباعه أو قطعه، ثم ألحقت به فرعاً خاصّاً بخطاب المدح والذمّ وبه ختمت دراسة المدح والذمّ الصريح، ثم عقدتّ فصلاً آخر للمدح والذمّ الضمني، حيث قسّمته إلى ستة مباحث، فتحدثت في المبحث الأول عن الاستفهام وكيف خرج عن أصل دلالته إلى المدح أو التوبيخ أو التهكّم أو التحقير، والثاني تناولت فيه المدح والذمّ بأسلوب التفضيل والتعجّب، والثالث كان عن المدح والذمّ بالتشبيه والتسوية والتمثيل، والرابع يتناول أسلوب الأمر والدعاء، والخامس في المدح والذمّ بالتعريض والإشارة، وأخيراً تناولت في المبحث السادس أساليب أخرى للمدح والذمّ، كأساليب النفي والترجّي والتحضيض وغير ذلك، وبه ختمت الفصل الثاني، ثم عقدت بعد ذلك فصلاً ثالثاً حاولت من خلاله أن أكشف عن بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم، ثم ختمت البحث بخاتمة جامعةٍ ضمّنتها أهمَّ النتائج المتوصّل إليها خلال هذه الرحلة العلمية، ثم أعقبت ذلك كلَّه بذكرِ ملخَّصٍ يجمع أهمَّ ما ذُكر في البحث، ثم أدرجت ملحقاً هو عبارةٌ عن جدولٍ يجمع كلَّ الشواهد القرآنية الواردة في المدح والذمّ بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" وما يلحق بهما، ثم قمت بصنع فهارس للقراءات والأحاديث والآثار والأشعار والمفردات الغريبة والأعلام والمصادر والمراجع، وأخيراً فهرسَ الموضوعات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطّة البحث

مقدّمة

مبحث تمهيدي:

المطلب الأول: معنى المدح والذمّ في اللغة والقرآن.

المطلب الثاني: المعاني الداخلة في المدح والذمّ أو القريبة منهما.

المطلب الثالث: حول أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم.

الفصل الأول

المدح والذمّ الصريح في القرآن الكريم

المبحث الأول: صيغ المدح والذمّ واستعمالاتها في القرآن الكريم.

المطلب الأول: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: ما يلحق بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: صيغ المدح والذمّ التي لم تُستخدم في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: المدح والذمّ بالوصف في القرآن الكريم.

المطلب الأول: المدح والذمّ بالإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه.

المطلب الثاني: النعت للمدح أو الذمّ وما يلحق به.

الفصل الثاني

المدح والذمّ الضمني في القرآن الكريم

المبحث الأول: المدح والذمّ بأسلوب الاستفهام (الاستخبار) في القرآن الكريم.

المطلب الأول: استفهام المدح.

المطلب الثاني: استفهام التوبيخ.

المطلب الثالث: استفهام التهكّم والسخرية.

المطلب الرابع: استفهام التحقير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل والتعجّب في القرآن الكريم.

المطلب الأول: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل.

المطلب الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التعجّب.

المبحث الثالث: المدح والذمّ بأساليب التشبيه والتسوية والتمثيل في القرآن الكريم.

المطلب الأول: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه والتسوية.

المطلب الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التمثيل.

المبحث الرابع: الذمّ بأسلوب الأمر والدعاء في القرآن الكريم.

المطلب الأول: الذمّ بأسلوب الأمر.

المطلب الثاني: إجراء الدعاء مجرى الذمّ والتوبيخ.

المبحث الخامس: المدح والذمّ بالتعريض والإشارة في القرآن الكريم.

المطلب الأول: المدح والذمّ بالتعريض.

المطلب الثاني: المدح والذمّ بالإشارة.

المبحث السادس: أساليب أخرى للمدح والذمّ في القرآن الكريم.

المطلب الأول: الخبر الدالّ على المدح والذمّ بالقرائن.

المطلب الثاني: الذمّ بأسلوب التهكّم.

المطلب الثالث: المدح والذمّ بأسلوب النفي والترجّي والتحضيض والقَسَم.

الفصل الثالث

بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم.

المبحث الأول: الأساليب الدالة على المبالغة في المدح والذم في القرآن الكريم

المطلب الأول: استخدام صِيَغ المدح والذمّ الدالّة على المبالغة.

المطلب الثاني: استخدام صيغة المبالغة في المدح والذمّ.

المطلب الثالث: تكرير اللفظ من أجل المبالغة في المدح والذمّ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الرابع: استخدام أسلوب التوكيد للمبالغة في المدح والذمّ.

المطلب الخامس: عَكس الكلام وحُسن انتقاء اللفظ المناسب لمقام المدح والذم.

المطلب السادس: استخدام الألفاظ المحتملة للمدح والذمّ بحسب متعلّقها.

المطلب السابع: استخدام ضمير الجمع بدل ضمير الإفراد للتعظيم.

المطلب الثامن: بلاغة أسلوب الحصر والقصر في المدح والذمّ.

المطلب التاسع: بلاغة التشبيه والتمثيل في المدح والذمّ.

المطلب العاشر: المجاز والكناية في المدح والذمّ.

المبحث الثاني: **الأساليب البديعيّة للمدح والذم في القرآن الكريم.**

المطلب الأول: الإيهام والإبهام في المدح والذمّ.

المطلب الثاني: الالتفات في المدح والذمّ.

المطلب الثالث: الإضراب في المدح والذمّ.

المطلب الرابع: الإيجاز في المدح والذمّ.

المطلب الخامس: الإطناب في المدح والذمّ.

المطلب السادس: استتباع المدح والذمّ.

المطلب السابع: الترقّي والنزول في المدح والذمّ.

المطلب الثامن: الافتنان في المدح والذمّ.

المطلب التاسع: المشاكلة في المدح والذمّ.

المطلب العاشر: تجاهل العارف أو سَوق الكلام مساق غيره للمدح والذمّ.

المطلب الحادي عشر: النزاهة في الذمّ.

المطلب الثاني عشر: نماذج من الجناس والطباق والمقابلة في المدح والذمّ.

خاتمة

ملخّص وفهارس عامّة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهمّ المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع أذكر منها ما يلي:

أوّلاً: كتب التفسير:

1 – جامع البيان للطبري 2 – تفسير الزمخشري 3 – تفسير أبي حيّان الأندلسي.

ثانياً: كتب علوم القرآن:

1 – البرهان في علوم القرآن للزركشي 2 – الإتقان في علوم القرآن ومعترك الأقران للسيوطي.

ثالثاً: كتب القراءات:

1 – كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد 2 – شرح طيّبة النشر لابن الجزري 3 – البدور الزاهرة في القراءات المتواترة لعبد الفتّاح القاضي...، وغيرها.

رابعاً: كتب إعراب القرآن:

1 – الفريد في إعراب القرآن المجيد للمُنتجَب الهمذاني 2 – إعراب القرآن لأبي جعفر النحّاس.

خامساً: كتب النحو والتصريف:

1 – الكتاب لسيبويه 2 – المقتضَب للمبرِّد 3 – الأصول في النحو لابن السرّاج.

سادساً: كتب البلاغة والأدب:

1 – دلائل الإعجاز للجرجاني 2 – مفتاح العلوم للسكّاكي 3 – المطوَّل للتفتازاني.

هذا وقد استعنت ببعض كتب أصول الفقه كـ "نهاية السُّول في شرح منهاج الأصول" للإسنوي، و"مناهج العقول" للبدخشي وغيرهما، واستعنت أيضاً بالمعاجم والقواميس في شرح المفردات وغريب اللغة، وعلى الدواوين الشعرية في تخريج الأشعار، وعلى مصادر السنة في تخريج الأحاديث.

وعليه فإني أسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقني في إحكام هذا العمل، وأن يجنّبني الوقوع فيما لا يحمد من الشطط والزلل، إنه نعم المعوّل عليه ونعم المتكل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مبحث تمهيدي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: معنى المدح والذمّ في اللغة والقرآن.

المطلب الثاني: المعاني الداخلة في المدح والذمّ أو القريبة منهما.

المطلب الثالث: حول أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قبل الخوض في دراسة أساليب المدح والذمّ لا بدّ – أوّلاً – من بيان معنى المدح والذمّ في اللغة والقرآن، ثم ذكرِ المعاني الأخرى الداخلةِ فيهما أو القريبة منهما، وأخيراً الكلامُ على أساليبهما إجمالاً؛ ليكون ذلك كالتوطئة للدخول في الموضوع، والله المستعان.

المطلب الأوّل

معنى المدح والذمّ في اللغة والقرآن

الفرع الأوّل: معنى المدح والذمّ في اللغة.

أوّلاً: معنى المدح في اللغة:

ذكر ابن منظور (ت 711هـ) أنّ المدح نقيضُ الهجاء، وهو حُسن الثناء. يقال مدحته مِدحةً واحدةً، ومَدَحَه يمدَحُه مَدْحاً ومِدْحَةً. هذا قول بعضهم، والصحيح أنّ المدح المصدرُ والمِدحةُ الاسمُ، والجمع مِدَح، وهو المديح، والجمع المدائح والأماديح على غير قياس، وتمدَّح الرجل: تكلَّف أن يُمدَح، ومَدَحَ للمُثني لا غير، ويقال: فلانٌ يتمدَّح، إذا كان يقرِّظ نفسه ويُثني عليها، والمِمَادِح ضدُّ المقابح[1].

وجاء في معجم مقاييس اللغة: "الميم والدال والحاء أصلٌ صحيح يدلُّ على وصفِ محاسنَ بكلام جميلٍ، ومَدَحَه يمدَحُه مَدْحاً: أحسنَ الثناء عليه"[2].

والمدح غرض من أغراض الشعر الأدبية، وهو الثناء على ذي شأنٍ بما يُستحسن من الأخلاق النفسيّة، كرَجَاحة العقل والعِفّة والعدل والشجاعة، وأنّ هذه الصفاتِ عريقةٌ فيه، وفي قومه، وتعداد محاسنه[3].

وممّا سبق يمكن أن نُعرِّف المدح بأنه: الحكمُ بالصلاح والتعبيرُ بما يدلّ على استحسان الشيء بالثناء الحسن عليه، وتعداد صفاته المحمودةِ للعاقلين، ونفيُ ما يُضادّ ذلك عنه.

---

(1) – ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم، لسان العرب، مج6 ص4156، مادّة: مدح.

(2) – ابن فارس: أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، مج5 ص308، مادّة: مدح.

(3) – السيّد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، ج2 ص25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً: معنى الذمّ في اللغة:

جاء في لسان العرب أنّ الذمّ نقيضُ المدح، وذَمَّه يَذُمُّه ذمّاً ومَذَمَّةً فهو مذمومٌ وذَمٌّ، وأَذَمَّهُ: وجده مذموماً، والعرب تقول: ذمّ يذُمُّ ذمّاً، وهو: اللَّوم في الإساءة، والمذَمَّة: الملامة، والذام مُشدّد ومخفّف: العيب، ورجلٌ مُذَمَّمٌ، أي: مذموم جدّاً، وشيءٌ ذميمٌ: مَعيب، والذُّموم: العيوب(1).

وفي معجم مقاييس اللغة: "الذال والميم في المضاعف أصلٌ واحد يدلّ كلُّه على خِلاف الحمد، يقال: ذَمَمْتُ فلاناً أَذُمُّه فهو ذَميم ومذمومٌ إذا كان غيرَ حميد"(2).

وجاء في المعجم الوسيط: "ذمّ، أي: عاب ولام"(3).

والذمّ غرض من أغراض الشعر الأدبية، ويسمّى الهجاء أو الهَجْو، وهو: تعداد مثالب المرء وقبيلِه ونفيُ المكارم والمحاسن عنه(4).

وممّا تقدّم يمكن أن نُعرِّف الذمّ بأنه: الحكمُ بالرداءة واللومُ في الإساءة بالتعبير عن الشيء بما يدلّ على القدح فيه واستقباحه بالثناء السيّئ عليه، وتعدادِ معايبه ونفيِ المحاسن عنه، وقد يشتمل على سبٍّ وتعيير.

الفرع الثاني: معنى المدح والذمّ في القرآن الكريم.

أوّلاً: معنى المدح في القرآن الكريم:

لم يَرِد الأصل (مدح) أو ما يتصرّف منه في القرآن الكريم، ولكنه جاء فعلاً مقدَّراً بـ: (أمدح) في مواضع كثيرةٍ، منها:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: **177**]م.

---

(1) – ابن منظور: لسان العرب، مج3 ص1516، مادّة: ذمم.

(2) – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مج2 ص345، مادّة: ذمم.

(3) – مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم أنيس، مج2 ص857، مادّة: ذمم.

(4) – السيّد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، مج2 ص25.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال السيوطي (911هـ): "(**الصَّابِرِينَ**) نُصب على المدح، وقُرئ بالرفع"[(1)].

2 – قال الله تعالى: ﴿**لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ [النساء: **162**]م.

قال أبو حيّان (ت 745هـ): "انتصب (**والمقيمين**) على المدح"[(2)].

ومعنى قولهم: انتصب على المدح، أي: أنّ كلاًّ من: (**الصابرين**) و(**المقيمين**) انتصب بفعل مقدّر بـ: (أمدح)، أي: أُثني بالثناء الحسن.

ثانياً: معنى الذمّ في القرآن الكريم:

لا يختلف معنى الذمّ في القرآن عن معناه في اللغة، وقد ورد الأصل (ذمم) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع كلها جاءت على صيغة اسم المفعول، وهي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومًا مَّدۡحُورًا**﴾ [الإسراء: **18**]ك.

قال الآلوسي (ت 1280هـ): "(مَذْمُوماً) حال من فاعل (**يَصْلَى**)، وهو من الذمّ ضدّ المدح، وفِعلُه: ذمّ، وذممته ذَيْماً وذأمته ذأماً بمعناه"[(3)].

2 – قال الله تعالى: ﴿**لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا**﴾ [الإسراء: **22**]ك.

قال الآلوسي: "(**مَذْمُوماً مخْذُولاً**) إمّا خبران لـ: (**تَقْعُدَ**) – على القول الأخير –، وإمّا حالان مترادفان، أي: فتقعد جامعاً على نفسك الخذلان من الله تعالى والذمَّ من الملائكة والمؤمنين ومن ذوي العقول"[(4)].

3 – قال الله تعالى: ﴿**لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ**﴾ [القلم: **49**]ك.

قال عبد الرحمن السعدي: "ولكنّ الله تغمّده برحمته فنُبِذ وهو ممدوح"[(5)].

---

(1) – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، ص24.

(2) – أبو حيّان الأندلسي: محمّد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، ج3 ص395.

(3) – الآلوسي: السيّد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج5 ص53.

(4) – المرجع نفسه: مج5 ص53.

(5) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص882.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد ورد الفعل: (ذمّ) في المواضع السابقة على معناه في اللغة، وهو اللَّوم في الإساءة، وقد جاء في موضع رابع بلفظ: (مذءوماً) من الفعل: (ذأم) في قوله تعالى: ﴿**قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ**﴾ [الأعراف: **18**]ك، قال أبو جعفر الطبري (ت 310هـ): "(**اخْرُجْ مِنْهَا**)، أي: مِن الجنّة (مذءوماً **مَدْحُوراً**) يقول: مَعيباً، والذأْم: العيب، يقال منه: ذأَمَه يذْأَمُه ذأْماً فهو مذؤومٌ، ويَتركون الهمز فيقولون: ذِمْتُه أَذِيمُه ذَيْماً وذاماً، والذّأْم والذيْم أبلغُ في العيب من الذمّ"[1]، وأسند الطبريّ إلى قتادة (ت 117هـ) تفسير (**مَذْءُوماً**) بـ: لعيناً، وعن ابن عبّاس ﷺ (ت 68هـ) قال: **ممقوتاً**، وعن السدّي (ت 127هـ) مَنفيّاً، وكذا عن مجاهد (ت 103هـ)، وعن ابن زيد (ت 93هـ) أنه قال: ما نعرف المذؤوم والمذموم إلا واحداً"[2].

هذا وقد ورد الفعل: (ذمّ) محذوفاً مقدّراً بـ: (أذمّ) في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ**﴾ [المسد: **4**]ك، نُصبت (**حمّالةَ**) – كما في رواية حفص (ت 180هـ) عن عاصم (ت 127هـ) وغيره – بفعل مقدّر بـ: أذمّ[3].

---

(1) – أبو جعفر الطبري: محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 ج3 ص103، وقال أبو عُبيدة: "وهي من ذأمت الرجل، وهي أشدّ مبالغةً من ذممت ومن ذِمت الرجل تذيمه، وقالوا في المثل: لا تَعدِم الحسناء ذاماً، أي: ذمّاً، وهي لغات". [أبو عبيدة: مَعْمر بن المثنّى التيميّ، مجاز القرآن، ج1 ص211].

(2) – المصدر نفسه: مج4 ج2 ص103.

(3) – ابن هشام: عبد الله بن يوسف الأنصاري، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص314 .

المطلب الثاني

المعاني الداخلة في المدح والذمّ أو القريبة منهما

يَقرُب من معنى المدح أو الذمّ معانٍ أخرى كثيرةٌ هي نفسها متقاربة فيما بينها، فمن المعاني القريبة من معنى المدح: الحمد والشكر والفخر والتزكية والتعظيم، ومن المعاني الداخلة في معنى الذمّ أو تُعدُّ شكلاً من أشكاله: التوبيخ والتهكّم والتحقير والإهانة والإذلال ونحو ذلك، حتى إنّ بعض المعاني تتقارب من بعضها وتقوى المناسبة فيما بينها، وتترابط مع بعضها ارتباطاً وثيقاً لدرجة أنه يمكن القولُ بتصحيح نشأة أحدها عن الآخر، أو جعلها في محلّ واحد.

الفرع الأوّل: **المعاني القريبة من معنى المدح.**

أوّلاً: **معنى الحمد:**

جاء في لسان العرب: "الحمد نقيض الذمّ، يقال حَمِدته على فعله، ومنه المحمَدة خلافُ المذَمّة، وفي التنزيل: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾، وقال الأزهري (ت 370هـ): الحمد يكون ابتداءً للثناء على الرجل، فحمدُ الله الثناءُ عليه"(1).

وقال الراغب الأصفهاني (ت 502هـ): "الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة"(2)، وقال أبو حيّان: "(الحمد): الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده ونقيضُه الذمّ، وليس [الحمد] مقلوبَ المدح خلافاً لابن الأنباري(3)؛ إذ هما في التصريفات متساويان؛ إذ قد يتعلّق المدح بالجماد، فتُمدح جوهرةٌ ولا يقال تُحمد"(4)، وقال الفيّومي: "ويكون – أي: الحمد – فيه معنى التعظيم للممدوح وخضوع المادح، كقول المبتَلى: الحمد لله؛ إذ ليس هنا شيءٌ من نِعَمِ الدنيا"(5).

---

(1) – ابن منظور: لسان العرب: مج2 ص987، مادّة: حمد.

(2) – الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، ص131، مادّة: حمد.

(3) – **ابن الأنباري**: هو أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمّد النحوي الفقيه المناظر الزاهد، من مؤلّفاته: «الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين»، و«البلغة في أساليب اللغة»، وغيرها كثير، توفي سنة: (577هـ). [بغية الوعاة للسيوطي: مج2 ص86، وإنباه الرواة للقِفْطي: مج2 ص169].

(4) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج1 ص18.

(5) – الفيّومي: أحمد بن محمّد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج1 ص206، مادّة: حمد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والحمد أخصُّ من المدح، ذكر الفيّوميّ (ت 770هـ) في المصباح: "مدحته مدحاً، من باب نَفَعَ: أثنيت عليه بما فيه من الصفات الحميدة خَلْقيّةً أو اختياريّةً، ولهذا كان المدح أعمَّ من الحمد، [قال الفيّومي] قال الخطيب التّبريزيّ[1]: المدح: من قولهم: انمدحت الأرض، إذا اتسعت؛ فكأنّ معنى مدحتُه وسّعتُ شُكره"[2].

وقد جاء الحمد بمعنى المدح في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: 188]م.

قال أبوالسُّعود[3]: "فيفرح به فرحَ إعجاب، ويَودّ أن يمدحه الناس بما هو عارٍ من الفضائل"[4]، وربما جاء بمعنى الشُّكر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ [التوبة: 112]م، أي: الشاكرون؛ لأنه كثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والشكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]م، وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: 147]م، وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]م، وغيرها من الآيات.

ثانياً: معنى الشُّكر:

جاء في لسان العرب: "الشُّكر: هو عِرفانُ الإحسان ونشرُه، وهو الثناء على المحسِن بما أولاكَه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له، وباللام أفضل"[5].

(1) – **الخطيب التّبريزي:** هو أبو زكريّا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي، كان أحدَ الأئمّة في النحو واللغة والأدب، أخذ عن أبي العلاء المعَرّي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهما، له: «تفسير القرآن» و«شرح شعر المتنبّي» وغير ذلك، ولد سنة: (421هـ) ومات في سنة: (502هـ). [ينظر بغية الوُعاة: مج2 ص338، وإنباه الرُّواة: مج4 ص28].

(2) – الفيّومي: أحمد بن محمّد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج2 ص777، مادّة: حمد.

(3) – **أبو السعود:** هو محمّد بن محمّد العِمَادي، مفسّر أصوليّ وشاعر من فقهاء الحنفية وعلماء التُّرك المستعربين، من مصنّفاته: «تعاقد الظِّراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشّاف»، ولد قريباً من قُسْطنطينيّة سنة: (898هـ) وتوفي سنة: (982هـ). [معجم المفسرين لعادل نويهض: مج2 ص225].

(4) – أبو السعود: محمّد بن محمّد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مج2 ص126.

(5) – ابن منظور: لسان العرب، مج3 ص396، مادّة: شكر.

وقال أبو جعفر الطبري بأنّ الشكر والحمد بمعنى واحد، وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنه وغيرِه[1]، لكنّ الشكر غيرُ الحمد، فقد قال ابن منظور: "والشكر ليس الحمدَ، وأنّ الحمد أعمُّ منه، قال الأزهري: الشكر لا يكون إلا ثناءً ليد أُولِيتَها، والحمد قد يكون للصَّنيعة ويكون ابتداءً للثناء على الرجل.اهـ، والحمد والشكر متقاربان والحمد أعمُّهما؛ لأنّك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته"[2].

وممّا تقدّم يظهر أنّ المدح والحمد والشكر هي معانٍ متقاربةٌ ومتداخلةٌ فيما بينها، لكن بين بعضها البعض عمومٌ وخصوص مطلقٌ أو من وجهٍ، قال الراغب الأصفهاني: "الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر، فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره وما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يُمدَح الإنسان بطول قامته وصَباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشُّكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكلُّ شكرٍ حمدٌ وليس كلُّ حمدٍ شكراً، وكلُّ حمدٍ مدحٌ وليس كلُّ مدحٍ حمداً"[3].

فالحمد إذاً أعمُّ من الشكر، والمدح أعمُّ منهما جميعاً، وقد يقال أيضاً إنّ الشكر أخصُّ من الحمد من حيث المقامُ أو الحال، وأعمُّ منه من حيث المورد؛ ذلك بأنّ الشكر لا يكون إلا عن يدٍ، وأمّا الحمد فيكون عن يدٍ وعن غير يد. فهذا من حيث المقام، وأمّا من حيث المورد، فمورد الشكر اللسان والجوارحُ، ومورد الحمد اللسان فقط، وفي المسألة أقوالٌ كثيرة جُلُّها يرجع إلى ما ذُكر، والمقام لا يتّسع لذكر أزيد من هذا[4].

ثالثاً: معنى الفخر:

ذكر ابن فارس (ت 395هـ) في معجمه: "(فخر) الفاء والخاء والراء أصل صحيح، وهو يدلّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ، من ذلك الفخرُ، ويقولون في العبارة عن الفخر: هو عدُّ القديم، والتفخُّر: التَعَظُّم"[5].

---

(1) – أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 ج2 ص46.

(2) – ابن منظور: لسان العرب، مادّة: مج3 ص396، شكر .

(3) – الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص131، مادّة: حمد.

(4) – ينظر للتوسّع في المسألة كتاب الكُلّيّات لأبي البقاء الكفوي: ص (365– 370).

(5) – ابن فارس: أبو الحُسين أحمد، معجم مقاييس اللغة: مج2 ص480، مادّة: فخر.

وقال الراغب الأصفهاني: "(الفخر)، المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان، كالمال والجاه، ويقال له: الفَخَر، ورجلٌ فاخرٌ وفَخِيرٌ على التكثير، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾، ويقال: فَخَرْتُ فلاناً على صاحبه أَفخُرُه فَخْراً: حكمتُ له بفضلٍ عليه"[1]، وقال أبو حيّان: "(الفَخْر)، وهو عدّ المناقب على سبيل التطاوُل بها والتعاظُم على الناس"[2].

والفخر من أغراض الشعر الأدبيّة، وهو: تَمدُّحُ الشاعر بخصالِ نفسِه وقومه، والتحدُّثُ بحُسن بلائهم ومكارمهم، وكرمِ عنصرهم ووَفرة قِيلهم، ورِفعةِ حَسَبهم وشُهرة شجاعتهم"[3].

رابعاً: معنى التزكية:

أصل التزكية من الزكاة، وهو النموّ الحاصل عن بركة الله تعالى[4]، وذكر ابن منظور: "زكا الرجل يزكوا إذا صلح، وزكّيتَه – بالتثقيل – نسبْتَه إلى الزكاة، وهو الصلاح، والرجل زَكِيٌّ، ويجمع على أزكياء"[5].

وقال الراغب الأصفهاني: "وتزكية الإنسان نفسَه ضربان: **أحدهما**: بالفعل، وهو محمود، وإليه قُصِد بقوله تعالى: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا**﴾ و﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾، **والثاني**: بالقول، كتزكية العدل غيرَه، وذلك مذمومٌ أن يفعل الإنسانُ بنفسه، وقد نهى الله عنه: ﴿**وَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ**﴾، ونَهيُه عن ذلك تأديبٌ لقُبح مدحِ الإنسان نفسَه عقلاً وشرعاً، ولذا قيل لحكيمٍ: ما الذي لا يحسن وإن كان حقّاً؟ فقال: مدحُ الرجلِ نفسَه"[6].

فالتزكية مدحٌ خاصٌّ فيه نسبة الشخص إلى الصلاح والطُّهر، وتتضمّن معنى التنزيه عن العيب والخطأ، وتكون باللسان، وتفارق الفخرَ في أنها ليس فيها تمدُّحٌ بالأحساب والأنساب وتعدادٌ لمحاسنهم وممادحهم، ويشتركان في أصل المدح.

---

(1) – الراغب الأصفاني: المفردات في غريب القرآن، ص374، مادّة: فخر.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص245.

(3) – السيّد أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، ج2 ص25.

(4) – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مج3 ص17، وينظر أيضاً المفردات للراغب الأصفهاني: ص214 .

(5) – ابن منظور: لسان العرب، مج2 ص346، مادّة: زكا.

(6) – الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص124، مادّة: زكا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: المعاني القريبة من معنى الذمّ.

أوّلاً: معنى التوبيخ:

قال الجوهري (ت 393هـ): "التوبيخ: التهديد والتأنيب"[(1)]، وجاء في لسان العرب: "التوبيخ: هو التهديد والتأنيب واللوم، يقال: وبّخت فلاناً بسُوء فِعلِه توبيخاً"[(2)].

والتوبيخ غير العتاب؛ لأنّ العتاب مخاطبةُ الغير مخاطبةَ الإدلال طالباً حُسن مراجعته، ومُذكِّراً إيّاه بما كرِهتَ منه[(3)]، فالعتاب يكون على من يُرجى عنده الرجوع عن الذنب والإساءة، وفيه الرغبة في تصحيح الخطأ دون جرح مشاعر المعاتَب، بخلاف التوبيخ فيكون على المخطئ المصرّ على خطئه جاهلاً كان أو معانداً، وقد يكون فيه تعنيفٌ وتعييرٌ، قال الفيّومي: "وبّخته توبيخاً: لُمته وعنَّفته وعتَبت عليه. كلّها بمعنى، وقال الفارابيّ (ت 450هـ): عيّرته"[(4)].

يُعتبر التوبيخ شكلاً من أشكال الذمّ؛ لأنه في معناه، إلا أنه يختصّ بالعاقل، فهو إذاً ذمّ خاص مشتمل على تأنيبٍ ولوم وتذكير بالعيب وسُوءِ الفعل؛ بغرض الإنكار وجعلِ الموَبَّخ في موقفٍ لا يستطيع أن يتحمَّله من الإحساس بالعار أو الخزي، مع ما يصْحَب ذلك من التألُّمِ والعذابِ النفسيّ مع الشُّعور بالتهديد والوعيد.

ثانياً: معنى التهكّم:

قال الجوهري: "(هكم) تهكّمت البئر إذا تهدّمت، وتهكّم عليه إذا اشتدّ غضبه، والمستهكِم: المتكبّر، قال أبو زيد [سعيد بن أوس] (ت 215هـ): تهكّمتُ: تَغَنَّيْت، وهكمتُ غيري تهكيماً: غنَّيتُه، وذلك إذا انبريتَ تُغَنّي له بصوت"[(5)].

وجاء في لسان العرب: "المتهكِّم المتقحِّم على ما لا يعنيه، الذي يتعرّض للناس بشرِّه. وقد تهكّم على الأمر وتهكّم بنا: زَرَى علينا وعبث بنا، والتهكّم التكبّر، والتهكّم الاستهزاء، وفي حديث

(1) – الجوهري: الصِّحاح، مج1 ص434، فصل: الواو، مادّة: وبخ.

(2) – ابن منظور: لسان العرب، مج6 ص4751، مادّة: وبخ.

(3) – الفيروز آبادي: مجد الدين محمّد، القاموس المحيط، مج2 ص581، مادّة: عتب.

(4) – الفيّومي: المصباح المنير، ج2 ص888.

(5) – الجوهري: الصِّحاح، مج3 ص2060، فصل: الهاء، مادّة: هكم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أسامة ﷺ (ت 54هـ): فَخَرَجْتُ فِي إِثْرِ رَجُلٍ مِنْهُمْ جَعَلَ يَتَهَكَّمُ بِي، أي: يستهزئ ويستخف"[1].

ومحصِّل القول أنّ التهكّم هو السخرية والاستهزاء لعدمِ المبالاة بالشيء - وربما تكون عدمُ المبالاة ناتجةً عن تحقيره - وإن كان كبيراً عظيماً في نفسه[2].

هذا في اللغة، أمّا في الاصطلاح البلاغيّ فهو كما عرّفه ابن حِجّة الحمويّ[3] بأنه نوع عزيزٌ في أنواع البديع؛ لعلوِّ مَناره وصعوبة مسلكه وكثرةِ التباسه بالهجاء في معرض المدح، وبالهزل الذي يُراد به الجِدُّ، وهو عبارةٌ عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدحِ في مَعرض الاستهزاء، وذَكَر أنّ أول من اخترع هذا النوع ابنُ أبي الإصبع (ت 654هـ) في كتابه: «تحرير التحبير»[4].

وقال صاحب المعجم المفصّل في علوم البلاغة عند تعريفه للتهكّم: "عرّفه ابن معصوم المدنيّ (ت 1119هـ) في كتابه «أنوار الربيع»، فقال: هو في الاصطلاح أخصُّ منه في اللغة؛ لأنه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التنذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللّوم، والمدح في مَعرض السخرية، ونحو ذلك"[5].

والفرق بين التهكّم والهجاء في معرض المدح دقيقٌ جدّاً، وهو أنّ التهكّم تخلو ألفاظه من اللفظ الدالّ على نوع من أنواع الذمّ، بخلاف الذمّ في معرض المدح، فهو أن يقصد المتكلم ذمّ إنسان فيأتي بألفاظ مُوَجّهة ظاهرها المدح وباطنها القدح، فيُوهم أنه يمدحه وهو يهجوه، ولا تزال تدلّ ألفاظه بظاهرها على المدح حتى يقترن بها ما يصرفها عنه[6]؛ فمثال التهكّم قوله تعالى:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) - ابن منظور: لسان العرب، مج6 ص4681، مادّة: هكم.

(2) - ينظر الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية لعبد العزيز أبو سريع: ص288.

(3) - **ابن حِجّة الحمويّ**: هو تقيّ الدين أبو بكر بن علي، إمام أهل الأدب في عصره، كان شاعراً جيّد الإنشاء، من مصنّفاته: «خزانة الأدب» في شرح بديعيّة له و«قهوة الإنشاء» وغير ذلك، ولد بحماه (سورية) سنة: (777هـ) وبها توفي سنة: (837هـ). [شذرات الذهب: مج4 ص219، وذكر الزِّرِكلي أنه ولد سنة: (767هـ). الأعلام: مج2 ص67].

(4) - ابن حجّة الحموي: تقيّ الدين أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيتو، مج1 ص261.

(5) - إنعام نوال عكّاوي: المعجم المفصّل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، مج1 ص215.

(6) - المرجع السابق: مج1 ص262، والمعجم المفصّل في علوم البلاغة: مج1 ص215.

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49]ك، أي: إنّك أنت الذليل المهان، فهذا تهكّم؛ لأنه عكَسَ الكلام فاستخدم لفظ المدح بدل لفظ الذمّ، وهذا يدلّ على السخرية والاستهزاء، أمّا الذمّ في معرض المدح فليس فيه تعكيسٌ للكلام، وإنما هو تلبيس وإيهام، وقد مثّل له ابن حجّة الحمويّ بقول الحماسيّ(1):

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً *** وَعَنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَاناً
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ *** سِوَاهُمُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَاناً

قال ابن حِجّة: "فظاهر هذا الكلام المدحُ بالعلم والعِفّة والحِشمة والتقوى، وباطنُه المقصودُ أنهم في غايةِ الذلّ وعدمِ المَنعَةِ"(2)، ولو وقفنا عند البيت الأول دون أن نكمل لظننّا أنه يمدح بالصفح والإحسان، لكن إذا انتقلنا إلى البيت الثاني أحسسنا بتغيّر ما، وأنّ الشاعر في داخله ثورة غضب وأنه واجد على قومه؛ لأننا نتلمّح من خلال البيت قصداً آخر غير المدح، نتلمّح استغراباً مصحوباً بحيرة من موقف قومه الذين لم ينتصروا من بعد ما ظُلموا، بل جزَوا أهل الظلم والسوء غفراناً وإحسانا، فهل هذا تقوى منهم وخشية؟ أم هو جبن وخَوَر؟ وهو – بلا شك – يريد الأخير، فهو يريد أن يقول لقومه: إنكم – قطعاً – لم يكلّفكم الله وحدكم خشيته من دون الناس؛ فلِمَ تُصِرّون على العفو والإحسان بينما يعتدي غيركم عليكم بالإثم والعدوان، كأنّ ربكم لم يخلق لخشيته سواكم من بني الإنسان!، يريد أن يقنعهم أنّ هذا الذي هم فيه ما هو إلا محض ذلّ وخذلان، وأنّ عليهم أن ينتصروا إذا أصابهم البغي انتصار الشجعان، والحقّ أنّ هذين البيتين في الحماسة والتهييج أكثر منه في الذمّ والتوبيخ، ولكن الحموي أورده في الذمّ في معرض المديح وله وجه وجيه. ويُفارِق التهكّم الهزلَ الذي يُرادُ به الجِدُّ في أنّ التهكّم ظاهره جدٌ وباطنه هزلٌ، وهو ضدّ الآخر؛ لأنّ الهزل الذي يراد به الجِدُّ يكون ظاهره هزلاً وباطنه جدّاً(3).

---

(1) – هو قُرَيْط بن أُنَيْف، أفاده الزِّركلي في ترجمته لقُرَيْطِ بنِ أُنَيْف حيث قال: "افتتح أبو تمّام كتابه: «ديوان الحماسة» بمختارات منها، وقال: إنّها لبعض شعراء بَلعنبر أو "بني العنبر" ولم يُسمّه". [الأعلام: مج5 ص195]، وذكر محقّق شرح ديوان الحماسة لأحمد المرزوقي أنه قريط، وقيل: أبو الغول الطهوي. [شرح ديوان الحماسة: مج1 ص22].

(2) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، مج1 ص261.

(3) – المرجع نفسه: مج1 ص ن.

ثالثاً: معنى التحقير والسخرية والإهانة والإذلال:

التحقير من الفعل (حقر)، قال ابن منظور: "الحَقْرُ في كلّ المعاني الذِلّة. حَقَرَ يَحقِر حَقراً وحُقريَة، وكذلك الاحتقار، والحقير الصغير الذليل، وحقّره واحتقره واستحقره: استصغره ورآه حقيراً"[1]، ويرتبط التحقير بالسخرية ارتباطاً وثيقاً؛ لأنّ مَن سَخِرَ بالشيء فقد احتقره؛ لأنه لا يبالي به، قال ابن فارس: "(سخر) السين والخاء والراء أصلٌ مطَّرد مستقيمٌ يدلّ على احتقارٍ واستذلال"[2].

والإهانة كالإذلال، من الفعل أهانه، أي: استخفّه، وأصله: هان يهون إذا لان وسكن، فعلى هذا تكون الهمزة في: (أهان) لسلب هذه الصفة الجميلة[3]، أي: لم يَلِن ولم يسكن بل غلُظ وجفا فعنّف على غيره ونَهره وكهره وأذلّه، والإهانة تختلف عن التحقير قليلاً؛ ذلك بأنّ الإهانة فيها معنى إلزامِ الذلّ والهوان بقول أو فعلٍ، أي: إظهارٌ لما فيه تصغيرٌ للمُهان وقلّةُ المبالاة به، وأمّا التحقير فيكون في الاعتقاد أكثر ما يكون في الأقوال والأفعال، أو يقال: إنّ الإهانة يظهر فيها معنى الإنكار، كقوله تعالى للكافر: ﴿**ذُقۡ**﴾، ولا يظهر ذلك في التحقير، كقوله تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿**أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ**﴾[4] [الشعراء: **43**]ك.

---

(1) – ابن منظور: لسان العرب، مج2 ص939، مادّة: حقر.

(2) – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مج3 ص144.

(3) – ينظر الكلّيّات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ص211.

(4) – ينظر شرح البَدَخشي: مج2 ص (18– 19)، وعبد العزيز أبو سريع: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية: ص52.

المطلب الثالث

معنى أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أعني بالأساليب في هذا البحث طُرقَ التعبير المختلفة التي وردت في القرآن الكريم واستخدمها النحاة والبلاغيّون.

إنّ المدح والذمّ كغيرهما من الأغراض الأدبية والبلاغيّة التي تُؤدَّى بأساليبَ متعددةٍ ومتنوعةٍ، وعند التحقيق فإنّها لا تخرج عن نوعين من الأساليب، أحدهما صريح والآخر ضمني يعتمد على السياق والقرائن، أمّا المدح أو الذمّ الصريح فيكون بألفاظِ المدح أو الذمّ الصريحة، ك: أمدح وأُثني وأستحسن ونِعْمَ وحَبَّذا وحَ ُبّ وحَسُنَ وجَمُلَ، أو أَذُمُّ وأهجو وأستقبح وبِئْسَ وساء وقَبُحَ ونحو ذلك، ومن المدح الصريح ذكرُ صفات المدح، ك: جميل وعظيم وفاضل، أو صفاتِ الذمّ، ك: بخيل وخبيث وخائن.

ومن النوع الثاني الذي يحتاج لقرينة ما لا يمكن حصرُه، لكنّه قد يَرِدُ على أساليبِ الاستفهام أو التعجّب أو التفضيل أو النفي أو الأمر أو الدعاء أو التهكّم أو ما يُفهم بالتعريض والإشارة، أو غير ذلك.

وقد جاء المدح والذمّ في القرآن الكريم بأساليب كثيرة ومتنوعة، منها ما هو صريح ومنها ما هو ضمني، وذلك بالتتبّع والاستقصاء، وليس في القرآن الكريم تَعرُّضٌ لجميع أساليب المدح والذمّ التي استخدمها العرب في كلامهم، فقد ترك – على سبيل المثال – المدحَ والذمَّ بـ: "حبّذا" و"حبّ" و"لا حَبّذا"، والقرآنُ الكريم وإن لم يتعرّض لمثل هذه الأساليب فليس مُلزَماً بذلك، بل إذا هجرها فتلك مَظِنّة ضعفها لغرابتها أو ما شابه. وعلى كلٍّ فالقرآن الكريم يستخدم من الأساليب ما هو مناسب لمقتضى الحال، وسيرى الناظر فيها قوةً في المعنى وسهولةً في اللفظ، وحُسناً في التركيب وبراعةً في التأليف.

إنّ نظم القرآن قد بلغ من قوة البيان وكمال الإتقان ما يعجز عن الإتيان بمِثْله إنسٌ أو جانٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138]م. لقد عجز عن مضاهاته العرب البلغاء والجهابذة الفصحاء من الشعراء والخطباء، فقد أدهشهم نظمه العجيب

وأخرس ألسنتهم أسلوبه الغريب؛ حيث صار إلى أقصى غايات البلاغة والفصاحة، وانتهى إلى أبعد نهايات الحسن والمِلاحة، ترى انسجاماً فيه، بين ألفاظه ومعانيه، ولله درّ من قال فيه:

تَزِينُ مَعَانِيهِ أَلْفَاظَهُ *** وَأَلْفَاظُهُ زَائِنَاتُ المِعَانِي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

المدح والذمّ الصريح في القرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: صيغ المدح والذمّ واستعمالاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: المدح والذمّ بالوصف في القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأوّل

صيغ المدح والذمّ واستعمالاتها في القرآن الكريم

المطلب الأوّل: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم.

الفرع الأوّل: "نِعْمَ وبِئْسَ": أصلهما – معناهما – فِعليّتهما.

أوّلاً: أصل "نِعْمَ وبِئْسَ":

"نِعْمَ وبِئْسَ" كلمتان تدلاّن على استحقاق المدح أو الذمّ العامّ، وأصلهما من الفعل: نَعِمَ وبَئِسَ، وشاهدُ ذلك قول طَرَفة بن العبد:

مَا أَقَلَّتْ قَدَمِي أَنَّهُمْ *** نَعِمَ السَّاعُونَ فِي الأَمْرِ المبِرّ[1]

قال سيبويه[2]: "وأصل "نِعْمَ وبِئْسَ": نَعِمَ وبَئِسَ، وهما الأصلان اللذان وُضعا في الرداءة والصلاح، ولا يكون منهما فعلٌ لغير هذا المعنى"[3].

وقال الطبري: "وأصل "بِئْسَ": بَئِسَ، من البُؤْسِ، سُكِّنت همزتها ثم نُقلت حركتها إلى الباء، كما قيل في (ظَلَلْت): ظَلْت، وكما قيل لـ: (كَبِد): كِبْد، فنُقلت حركة الباء إلى الكاف لما سُكِّنت الباء، ويُحتمل أن تكون "بِئْسَ" – وإن كان أصلها بَئِسَ – من لغة الذين ينقلون حركة العين من"فَعُلَ" إلى الفاء إذا كانت عين الفعل أحدَ حروف الحلْق الستَّة، كما قالوا من (لَعِبَ): لِعْبَ ومن (سَئِمَ)، سِئْمَ، وذلك فيما يقال لغةٌ فاشيةٌ في تميم، ثم جُعلت دالةً على الذمّ والتوبيخ"[4].

وقد حكى النحويّون في "نِعْمَ" أربعَ لغات[5]: فتحُ النون وكسرُها مع سكون العين (نَعْمَ،

---

(1) – البيت من الرمل، وهو لطرفة بن العبد من قصيدة طويلة، وهي في ديوانه (مع اختلافٍ في الرواية): ص (50– 59).

(2) – **سيبويه:** هو أبو بِشر عمر بن عثمان مولى بني الحارث بن كعب، ولُقّب بـ: "سيبويه" ومعناه: رائحة التفاح، كان أصله من البيضاء من أرض فارس، ونشأ بالبصرة، وأخذ عن الخليل وأبي الخطّاب الأخفش وغيرهما، صنّف كتاباً في النحو اشتهر بـ: «الكتاب» فيه علم جَمّ، توفي سنة: (180هـ)، وقيل بعد ذلك، عن نيّف وأربعين سنة. [بغية الوعاة للسيوطي: مج2 ص229، وإنباه الرواة للقِفْطي: مج2 ص346].

(3) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص179.

(4) – الطبري: محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج1 ص327 .

(5) – قال المبرّد: "اعلم أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" كان أصلهما نَعِمَ وبَئِسَ إلا أنّه ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلْق، وهي: (الهمزة والهاء والعَين والحاء والغين والخاء) جازت فيه أربعة أوجه اسماً كان أو فعلاً". [المقتضَب: مج2 ص140].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نِعْمَ)[1] وفتحُهما مع كسر العين (نَعِمَ)، وكسرُهما (نِعِمَ)[2]، وقُرِئ بها جميعاً في السبع والشواذّ[3]، أمّا "بِئْسَ" ففيها اللغات السابقة، ولم يأت في التنزيل منها إلا "بِئْسَ"[4]، وقد قرأها كلٌ من ورش (ت 197هـ) والسُّوسي (ت 261هـ) وأبي جعفرَ (ت 130هـ) - مطلقاً -، وحمزةَ (ت 156هـ) - عند الوقف -: (بِيسَ) بإبدال الهمزة ياءً[5].

وحيث كان أصل "نِعْم" هو "نَعِمَ"، فقد قُرئ بهذا الأصل في الشواذّ، فقرأ يحيى ابن وثّاب (ت 103هـ): (**فنَعِمَ** عُقْبَى الدَّارِ) [الرعد: 24]م، (**نَعِمَ** العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: 30]ك[6]، وقال ابن الحاجب[7]: "وقرأ ابن وثّاب في الشاذّ: (**فنَعْمَ** عُقْبَى الدَّارِ) بفتح الفاء وسكون العين، ولم يأت "بِئْسَ" في القرآن الكريم إلا مكسورَ الفاء ساكنَ العين، وإنما لم يُتصرّف فيهما؛ لأنهما علَمين في المدح والذمّ، كما ذكرنا في باب التعجّب"[8].

وقال المبرّد[9]: ""نِعْمَ وبِئْسَ" هما الأصل في المدح والذمّ، فلمّا كثر استعمالهما أُلزِما التخفيفَ وجريا فيه وفي الكسرة كالمَثَل الذي يلزم طريقةً واحدةً"[10].

---

(1) - قال ابن منظور: "وحكى سيبويه أنّ مِن العرب من يقول: نَعْمَ الرجلُ في: (نِعْمَ)، كان أصله: نَعِمَ ثم خُفِّف بإسكان العَين على لغة بَكْر بن وائل". [لسان العرب: مج6 ص4483، ويُنظر الكتاب لسيبويه: مج4 ص116].

(2) - قال سيبويه: "وأمّا قول بعضهم في القراءة: ﴿**إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾ [النساء: 58] فحرّك العين فليس على لغة من قال: "نِعْمَ" فأسكن العين، ولكنه على لغة من قال: "نِعِمَ" فحرّك العين، وحدثنا أبو الخطّاب أنها لغةُ هذيل، وكسروا، كما قالوا: لِعِبَ، وقال طَرَفة: مَا أَقَلّتْ قَدَمٌ نَاعِلَها *** **نِعِمَ** السَّاعُونَ فِي الحَيِّ الشُّطُرُ". [الكتاب: مج4 ص439].

(3) - ينظر الأفعال في القرآن الكريم لعبد الحميد مصطفى السيّد: مج1 ص93.

(4) - ينظر المرجع نفسه: مج1 ص ن.

(5) - عبد الفتّاح القاضي: البدور الزاهرة في القراءات المتواترة من طريقي الشاطبية والدرّة، ص59.

(6) - أبو حيّان: البحر المحيط، مج5 ص387.

(7) - **ابن الحاجِب**: هو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر الكردي المقرئ النحوي المالكي الأصولي الفقيه، كان الأغلب عليه النحو، من مصنّفاته: «الكافية» وشرحها ونظمها و«الوافية» وشرحها، وغير ذلك، ولد بعد سنة: (750هـ) بـ: "إِسْنَا" من الصعيد، ومات بالإسكندرية سنة: (646هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص134].

(8) - ابن الحاجب النحوي المالكي: الكافية في النحو، مج2 ص312.

(9) - **المبرّد**: هو أبو العبّاس محمّد بن يزيد، امتاز بكثرة العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ ووضوح الشرح، قرأ كتاب سيبويه على الجرمي ثم على المازني، كان مقدّماً عند الوزراء الأكابر، وكان له شِعر جيّد، من مصنّفاته: «الكامل»، و«المقتضَب»، و«معاني القرآن»، وغير ذلك، ولد سنة: (220هـ)، وتوفي سنة: (280هـ). [إنباه الرواة: مج3 ص241].

(10) - المبرّد: محمّد بن يزيد، المقتضَب، مج2 ص140.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً: معنى "نِعْمَ وبِئْسَ":

قال سيبويه: "وهما [أي: نِعْمَ وبِئْسَ] الأصلان اللذان وُضعا في الرداءة والصلاح"[1]، وقال ابن مالك[2]: "ومعنى "نِعْمَ وبِئْسَ" المبالغةُ في المدح والذمّ، وربما تُوُهِّم غيرُ ذلك، ورُوي أنّ شَريك بن عبد عبد الله النَّخَعي (ت 177هـ) ذكر عليَّ بن أبي طالب ﷺ (ت 40هـ) فقال جليس له: نِعْم الرجلُ عليٌّ، فغضب وقال: ألعليٍّ تقول: نِعْمَ الرجل؟ فأمسك عن شريك حتى سكن غضبه ثم قال له: يا أبا عبد الله، ألم يقل الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ**﴾ [الصافّات: 75]ك، ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ**﴾ [المرسلات: 23]ك، ﴿**نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 44]ك، قال شَريك: بلى، فقال ألا ترضى لعليّ ما رضي الله لنفسه ولأنبيائه، فنبّهه على موضع غلطه"[3]، و"نِعْمَ وبِئْسَ" تدلاّن على على المدح والذمّ العامّ[4]، قال ابن فارس: ""نِعْمَ" كلمة تُنبئُ عن المحاسن كلِّها"[5]، وذكر عبّاس حسن أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" تدلاّن على المدح والذمّ العامّين، وأنّ المراد بالعموم في المدح أو الذمّ أنه ليس مقصوراً على الشيء المعيَّن، ولا على صفة خاصّة، ولا يتّجه إلى أمر دون آخر، ولا يتضمَّن معنى التعجّب، بل يتّجه بغير تعجّبٍ إلى كلّ أمور الممدوح أو المذموم، فالمدح العامّ يشمل الفضائل كلّها مبالغةً ولا يقتصر على بعضٍ منها، كالعلم أو الكرم أو الشجاعة، وكذلك الأمر بالنسبة للذمّ العامّ يشمل العيوب كلَّها مبالغةً ولا يقتصر على بعضٍ منها، كالكذب أو الجهل أو السفه، ومثّل للمدح العامّ بقوله تعالى: ﴿**فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾[الحج: 78]م، ومثّل للذمّ العامّ بقوله تعالى: ﴿**وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾[آل عمران: 162]م، ونبّه على أنّه إنّما يُستفاد العموم مع "نِعْمَ وبِئْسَ" عند الإطلاق وعدمِ التقييد، فإن وُجد تقييدٌ زال التعميم، نحو: نِعْمَ الغنيُّ محسناً[6].

---

(1) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص179.

(2) – **ابن مالك:** هو أبو عبد الله جمال الدين محمّد بن عبد الله الطائي النحوي، أحد الأئمّة في علوم العربية، ولد بالأندلس وانتقل إلى دمشق، صنّف: «الألفية» في النحو و«تسهيل الفوائد» وشرحه وغير ذلك، توفي سنة: (672هـ). [بغية الوعاة: مج1 ص130].

(3) – ابن مالك: أبو عبد الله جمال الدين محمّد بن مالك، شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص8 .

(4) – ينظر المفصَّل في علم اللغة للزمخشري: ص325.

(5) – ابن فارس: أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، ص179، وكذلك "بِئْسَ" فهي كلمة تُنبئ عن المساوئ كلّها.

(6) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص373، ببعض التصرّف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثاً: فِعليّة "نِعْمَ وبِئْسَ"[1]:

سبق – آنفا – بيانُ أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" أصلُهما من الفعل: نَعِم وبَئِسَ، ثم أُجريتا مجرى المثل وأُلزمتا طريقةً واحدة، وهذا لا يعني بالضرورة أنهما فعلان، بل قد يكونا اسمين، ومن هذا كان البحث في فعليّتهما.

لقد اختلف النحويّون في ذلك، فمن قائل أنهما فعلان، ومن قائل أنهما اسمان، ومذهب الجمهور[2] من البصريّين وبعضِ الكوفيّين أنهما فعلان ماضيان جامدان، وذهب بعض الكوفيّين – وعلى رأسهم الفرّاء[3] – إلى أنهما اسمان، واحتجّ كلّ فريق على ما ذهب إليه بحججٍ، والصحيحُ عند علماء النحو ومحققيهم القولُ بفعليتهما، قال ابن الأنباري: **"والصحيح ما ذهب إليه البصريّون"**[4]، أي: الصحيح أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" فعلان وليس اسمين.

أمّا الجمهور فقد استدلُّوا على فِعليتهما من ثلاثة أوجه[5]:

الأوّل: أنّ الضمير يتصل بهما إلى حدّ اتصاله بالأفعال، فإنهم قالوا: نِعْمَا رجلين، ونِعْمُوا رجالاً[6] كما قالوا: قاما وقاموا.

الثاني: أنّ تاء التأنيث الساكنة تتصل بهما كما تتصل بالأفعال[7].

الثالث: أنهما مبنيّان على الفتح، كالأفعال الماضية، ولو كانا اسمين لما بُنيا على الفتح من غير علّة.

---

(1) – قد بسط ابن الأنباري الخلاف حول فعليّة "نِعْمَ وبِئْسَ" في كتابه الماتع: «الإنصاف في مسائل الخلاف» في المسألة الرابعة عشر تحت عنوان: القول في: "نِعْمَ وبِئْسَ" أفعلان هما أم اسمان؟، وبعد كلام طويل رجّح فعليّتهما. [الإنصاف في مسائل الخلاف: مج1 ص97 وما بعد].

(2) – قال ابن عَقيل: "مذهب جمهور النحويّين أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" فعلان" [شرح ابن عقيل: مج2 ص150]، وقال السكّاكي: "والأظهر والأكثر شيوعاً في الاستعمال هو رأي البصريّين القائل بأنهما فعلان". [مفتاح العلوم: ص155].

(3) – **الفرّاء**: هو أبو زكريّا يحيى بن زياد، كان أعلمَ الكوفيّين بالنحو بعد الكِسائي، أخذ عنه وعليه اعتمد، قيل له الفرّاء لأنه كان يَفري الكلام، وكان يميل إلى الاعتزال، صنّف: «معاني القرآن»، و«الجمع والتثنية في القرآن»، وغير ذلك، مات سنة: (207هـ) عن سبع وستين سنة. [بغية الوعاة: مج2 ص333، وإنباه الرواة: مج5 ص7].

(4) – ابن الأنباري: عبد الرحمن بن محمّد،، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، كتاب أسرار العربية، ص104.

(5) – المصدر نفسه: ص (104– 107).

(6) – قال ابن منظور: "وحكى أيضاً [يعني ثعلب]: مررت بقوم نِعْمَ قوماً، ونِعْمَ بهم قوماً، ونِعْمُوا قوماً". [لسان العرب: مج6 ص4483].

(7) – عن سمرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الجمُعَةِ فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَمَنْ اغْتَسَلَ فَالغُسْلُ أَفْضَلُ**)) أخرجه الترمذي، باب في الوضوء يوم الجمعة، رقم (495)، مج2 ص4، وقال: حديث سمرة حديث حسن.

وأمّا الكوفيّون فذهبوا إلى أنهما اسمان، واستدلّوا على ذلك من خمسة أوجه(1):

الأوّل: دخول حرف الجرّ عليهما، كقولهم: ألستَ بنِعْمَ الجار؟، وقولهم: ما هي بنِعْمَ الولد.

الثاني: يجوز دخول حرف النداء عليهما، والنداءُ من خصائص الأسماء، كما في قولهم: يا نِعْمَ المولى ويا نِعْمَ النصير.

الثالث: لا يحسُن اقتران الزمان بهما كسائر الأفعال، نحو: نِعْمَ الرجلُ أمسِ، وبِئْسَ الرجلُ غداً.

الرابع: لا يتصرّفان؛ لأنّ التصرّف من خصائص الأفعال.

الخامس: أنهم قالوا: نَعِيمَ الرجلُ زيدٌ، وليس في أمثلة الأفعال شيء على وزن: "فَعِيل".

وقد عَرَض ابن الأنباري جميعَ تلك الأوجه من أدلّة البصريّين والكوفيّين وناقشها وجهاً وجهاً، ورجّح – في الأخير – مذهبَ الجمهور القائل بفعليّة "نِعْمَ وبِئْسَ"، ولعلّه المذهبُ الصحيح في المسألة، وإليه ذهب أكثر أكابر النحاة(2).

ولقائلٍ أن يقول: إذا كان هذا هو المذهبَ الصحيح بدليل دخول تاء التأنيث الساكنة عليهما – ومعلوم أنها لا تدخل إلا على الأفعال –، فلماذا لم تَرِد متّصلةً بهما في لغة القرآن الكريم؟ والجواب عن هذا التساؤل يكمُن في أنّه قد تقرّر أنّ إلحاق تاء التأنيث بالأفعال مع الفاعل المؤنّث يكون جائزاً – لا واجباً – في أربع حالات: منها أن يكون الفعل هو: "نِعْمَ وبِئْسَ"(3) ثم إنّ حذف التاء في: "نِعْمَتْ" و"بِئْسَتْ" هو الأكثر استعمالاً في لغة العرب، قال سيبويه: "واعلم أن "نِعْمَ" تؤنّث وتذكّر ...، والحذف في "نِعْمَتْ" أكثر"(4)، وقد علّل السيرافي(5) في شرحه على الكتاب ذلك ذلك بنقصان تمكّن هذه التاء في الأفعال، وبطلانِ استعمال المستقبل منهما [أي: نِعْمَ وبِئْسَ]، وقال: "فإن قال قائل: لِمَ لم يكن لهما مستقبل، والأفعال لا تمتنع من الاستقبال إذا أريد بها

(1) – ابن الأنباري: عبد الرحمن بن محمّد،، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، كتاب أسرار العربية، ص (107– 110).

(2) – كسيبويه في الكتاب: مج2 ص175، والمبرّد في المقتضب: مج2 ص140، وابن جنّي في اللُّمَع في العربية: ص200، وابن مالك في الألفية وشرح تسهيل الفوائد: مج3 ص5، وابن الأنباري في الإنصاف: مج1 ص97، وفي كتاب أسرار العربية: ص96، والزمخشري في المفصّل وشروحه، وابن السرّاج في الأصول: ج1 ص111، وغيرهم كثير.

(3) – ابن هشام الأنصاري: شرح قطر الندى وبَلّ الصدى، ص200.

(4) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص178.

(5) – **السيرافي**: أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزُبان، أصله من سيراف، وبها ولد، سكن بغداد وولي بها القضاء، قرأ على أبي بكر بن مجاهد القرآن وعلى أبي بكر بن دُريد اللغة، ودرسا جميعاً عليه النحو، وقرأ على أبي بكر بن السرّاج النحو، من تصانيفه: «أخبار النحاة»، وغير ذلك، توفي سنة: (368هـ) عن ثمانين سنة. [إنباه الرواة: مج1 ص348].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاستقبال؟ ويجاب بأنّ المانع من الاستقبال أنهما وُضعا للمدح والذمّ، ولا يصحّ المدح والذمّ إلا بما قد وُجد وثَبت في الممدوح أو المذموم"[1].

فإذا عُلم هذا تبيّن أنه لا يوجد في القرآن الكريم ما يشير إلى اسميّة "نِعْمَ وبِئْسَ"، أو ما ينقُض مذهبَ من يرى فعليّتهما، بل العكس هو الصحيحُ؛ خصوصاً إذا علمنا أنّ "نِعْمَتْ وبِئْسَتْ" استُخدمتا في لغة الرسول ﷺ أفصحَ العرب بَيدَ أنه من قريش.

الفرع الثاني: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ":

ذكر النحويّون أنّ فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" يكون – في الغالب – معرفةً[2]: فإن كان اسماً ظاهراً فإنه لا يحتاج إلى تمييز، وإن كان مضمراً فلا بدّ له من تمييز يفسّره، وهو في الحالين أقسامٌ كثيرة هي:

1 – أن يكون محلًّى بالألف واللام[3]، كقولهم: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ.

2 – أو مضافاً[4] إلى ما فيه الألف واللام، نحو قولهم: نِعْمَ غلامُ الرجلِ زيدٌ.

3 – أو مضافاً إلى مضافٍ إلى ما فيه الألف واللام، نحو: نِعْمَ حكيمُ شعراءِ الجاهليّةِ زهيرٌ.

4 – قد يجيء – أحياناً – نكرةً، كقولهم: نِعْمَ شاعرٌ أنت، وبِئْسَ قائدٌ أنت.

5 – قد يجيء – أحياناً – مضافاً[5] إلى نكرة، كقول الشاعر[6]:

فَنِعْمَ صَاحِبُ قَوْمٍ لاَ سِلاَحَ لهم *** وصَاحِبُ الرَّكْبِ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانا

6 – قد يأتي الفاعل اسماً موصولاً[7]، نحو: نِعْمَ الذي يصون لسانَه عمّا لا يحسُن.

---

(1) – ينظر الهامش رقم (3) من الكتاب لسيبويه بتحقيق: عبد السلام محمّد هارون، مج2 ص (178– 179).

(2) – لكن لا يجوز أن يكون فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" اسمَ عَلَم [ينظر الكتاب: مج2 ص175، والمقتضب: مج2 ص42، وغيرهما]

(3) – قال ابن عقيل: "واختُلف في هذه اللام، فقال قوم: هي للجنس حقيقةً، فمدحتَ الجنسَ كلَّه من أجل زيد ثم خصَصْت زيداً بالذِّكر؛ فتكون قد مدحته مرّتين، وقيل: هي للجنس مجازاً، وكأنّك قد جعلت زيداً الجنسَ كلَّه مبالغةً، وقيل: هي للعهد". [شرح ابن عقيل: مج2 ص151].

(4) – قال ابن السرّاج: "فما أضفته إلى الألف واللام [فهو] بمنزلة الألف واللام". [الأصول في النحو: ج1 ص117].

(5) – قال ابن السرّاج: "فما أضفته إلى النكرة [فهو] بمنزلة النكرة". [الأصول في النحو: ج1 ص117].

(6) – البيت من البسيط، وهو لكُثيِّر بن عبد الله النهشلي، وقيل لغيره. [ينظر شرح المفصّل لابن يعيش: مج7 ص131].

(7) – قال المبرّد: "يجوز أن يلي "نِعْمَ وبِئْسَ": (الذي) إذا كان عامّاً غيرَ مخصوص". [المقتضب: مج2 ص143]، وقال ابن السرّاج: "قال أبو العبّاس [المبرّد]: فإن جاءت [الذي] بمعنى الجنس، كقوله تعالى: ﴿**وَالذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ** =

7 - قد يكون الفاعل لفظَ "ما" وتكون "ما" معرفةً تامّة - على رأي سيبويه[1]-، أو معرفةً ناقصة بمعنى اسم الموصول.

8 - قد يكون الفاعل ضميراً مستتراً عائداً على نكرة منصوبة بعده تفسّره تُعرب تمييزاً.

من هذه الأقسام توجد ثلاثةٌ منها أو أربعةٌ[2]هي الأشهر والأكثر استخداماً في كلام العرب[3]، وهي التي استخدمها التنزيل العزيز دون سواها، **أحدها:** أن يكون الفاعل اسماً ظاهراً محلّى بالألف واللام، و**الثاني:** أن يكون مضافاً إلى ما فيه الألف واللام، و**الثالث:** أن يكون ضميراً مبهماً مستتراً في: "نِعْمَ" أو "بِئْسَ" يعود على تمييز بعده، **والرابع:** أن يكون الكلمةَ **"ما"** التي بمعنى الشيء أو الموصوليّة، وسأذكر هذه الأقسام معزوَّةً إلى مواضعها من القرآن الكريم مع شيء من المناقشة والتحليل.

البند الأوّل: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" اسمٌ ظاهر محلّى بالألف واللام.

أوّلاً: فاعل "نِعْمَ":

ورد فاعل "نِعْمَ" في القرآن اسماً ظاهراً محلًّى بالألف واللام في تسعة مواضع، هي:

1 - قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: 173]م.

2 - قال الله تعالى: ﴿**نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾ [الأنفال: 40]م.

3 - قال الله تعالى: ﴿**نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف: 31]ك.

4 - قال الله تعالى: ﴿**فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾ [الحج: 78]م.

5 - قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ**﴾ [الصافّات: 75]ك.

6 - قال الله تعالى: ﴿**نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ**﴾ [ص: 30]ك.

= **وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ**﴾ [الزُّمَر: 33]ك، فإنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" تدخلان على: (الذي) في هذا المعنى". [الأصول في النحو لابن السرّاج: ج1 ص116].

(1) - ينظر الكتاب: مج2 ص178، ونبّه ابن مالك على غلط من نسب إلى سيبويه خلافَ هذا. [التسهيل: مج3 ص12].

(2) - وهذا يرجع إلى معنى كلمة "ما" المقترنة بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ"؛ فإن كانت نكرةً فإنها لا تكون فاعلاً وتُعرب تمييزاً، وإن كانت معرفةً فهي عندئذٍ تكون فاعلاً.

(3) - ينظر شرح ابن عقيل: مج2 ص151، وشرح قطر الندى لابن هشام: ص204.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7 - قال الله تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]ك.

8 - قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48]ك.

9 - قال الله تعالى: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23]ك.

في هذه المواضع جاءت جملة المدح في أبسط أشكالها: فعل المدح + فاعله + مخصوص بالمدح محذوف - سيأتي الكلام عليه لاحقاً -، ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فعلُ المدح هو: (**نِعْمَ**)، والفاعل هو: (**الوَكِيلُ**)، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: "هو"، أي: الله سبحانه وتعالى.

ولا بدّ من التنبيه على أنّ (**الوَكِيلُ**) في قوله: ﴿**نِعْم الوَكِيل**﴾ ليس اسمَ العَلَم المعروف في أسماء الله الحسنى؛ لأنه تقدّم أنه لا يجوز أن يكون فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" اسمَ علَم[1]، ولكنّ (**الوَكِيلُ**) اسمٌ محلًّى بالألف واللام على وزن "فَعيلٌ" بمعنى مفعول، أي: الموكول والمفوَّض إليه الأمر، واللام فيه قد تكون للجنس - وهو الأحسن - ويكون في الكلام انتقالٌ من التعميم إلى التخصيص، فتَمدَح كلَّ مُوَكَّلٍ إليه الأمرُ ويدخل فيه الله - سبحانه - دخولاً أوّليّاً ثم يُخصُّ - **تعالى ذِكرُه** - بالذكر والتعيين، فيكون قد مُدح مرّتين: مرّةً في عموم الجنس، ومرّةً بالتخصيص، وهذا معنى المبالغة في المدح.

وقد تكون اللام للعهد؛ إمّا للعهد الذهني وإمّا للعهد الخارجي[2]، فإن كانت للعهد الذهني فإنّ مَدخُولها هو: (**وكيل**)، وهو فَردٌ مُبهمٌ يحتاج إلى تفسير، ومُفسِّره هو المقصود بالمدح، وهو الله تعالى، والقصد تفخيمُ الممدوح، وإن كانت للعهد الخارجي، فيكون المعهود هو الفرد المعيَّن الذي هو المخصوص بالمدح، وعليه فالوكيل في: ﴿**نِعْمَ الوَكِيلُ**﴾ ليس هو جنسَ الوكيل، ولا فرداً مبهماً، بل هو الله ﷻ تماماً كما لو وضعت الظاهر موضع المضمر، والمقصود: زيادة التقرير والتفخيم[3].

والقول بأنّ اللام للعهد الخارجيّ فيه نظر؛ لأنّه قد يلزم منه أن تكون "نِعْمَ" عاملةً في مُعيَّن وهو محال، ولكن على هذا قد تُستشكل عبارة سيبويه في قوله: "وأمّا قولهم: نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله، فهو بمنزلة ذهب أخوه عبدُ الله، عمل "نِعْمَ" في: الرجل ولم يعمل في: عبد الله، وإذا قال: عبد الله نِعْمَ

---

(1) - ينظر الهامش رقم (2) من الصفحة (22) من هذا البحث.

(2) - **العهد الذهني**: هو الذي لم يُذكر قبله شيء، **والعهد الخارجي**: هو الذي يُذكر قبله شيء.[الكلّيات للكفوي: ص641].

(3) - ينظر تحقيق شرح ابن عقيل، لمحمّد محيي الدين عبد الحميد: مج2 ص151.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرجلُ، فهو بمنزلة عبد الله ذهب أخوه"[1]، وقولِه أيضاً: "واعلم أنه محالٌ أن تقول: عبد الله نِعْمَ الرجلُ، والرجل غير عبد الله، كما أنه محالٌ أن تقول: عبد الله هو فيها، وهو غيره"[2]، والذي يظهر أنّ سيبويه لم يقصد أنّ "نِعْمَ" تعمل في معيّن؛ فإذا قال قائل: عبد الله نِعْمَ الرجلُ، فلا بدّ أن يكون بين المبتدأ وهو عبد الله، والخبر وهو جملة: "نِعْمَ الرجلُ" رابط، فإن لم يكن الرجل هو عبد الله، فكيف عاد الخبر على المبتدأ؟[3]، فهولم يُرِد أنّ "نِعْمَ" عاملةٌ في: عبد الله؛ لذا قال في موضع آخر: "كما أنك إذا قلت: عبد الله نِعْمَ الرجلُ، فإنما تريد أن تجعله من أمّة كلهم صالح، ولم تُرد أن تُعرِّف شيئاً بعينه بالصلاح بعد: "نِعْمَ"، كما أنّ الرجل هو عبد الله حين قلت: عبد الله نِعْمَ الرجلُ، ولستَ تريد أن تخبر عن: "عبد الله" بعينه، فالاسم الذي يظهر بعد: "نِعْمَ" إذا كانت "نِعْمَ" عاملةً فيه [هو] الاسمُ الذي فيه الألف واللام، نحو: الرجل وما أضيف إليه وما أشبهه، نحو: غلام الرجل، إذا لم تُرِد شيئاً بعينه"[4]، يؤيّده قول المبرّد: "فإن زعم زاعم أنّ قولك: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ، إنما زيدٌ بَدَلٌ من الرجل مرتفعٌ بما ارتفع به كقولك: مررت بأخيك زيدٍ، وجاءني الرجلُ عبدُ الله، قيل له: إنّ قولك جاءني الرجل عبد الله، إنما تقديره – إذا طرحت الرجل– جاءني عبد الله؛ فقل: نِعْمَ زيدٌ؛ لأنّك تزعم أنه بـ: "نِعْمَ" مرتفعٌ، وهذا محال"[5]، فـ (ال) في: (الرجل) تفيد العموم و(زيد) فردٌ من أفراده وقد دخل في العموم فحصل الربط بين المبتدأ (زيد) والخبر (نِعْمَ الرجلُ)، وهذا هو المقصود، قال ابن السرّاج[6]: "ولا يجوز أن تقول: زيدٌ نِعْمَ الرجلُ، والرجل غير زيد؛ لأنه خبر عنه"[7].

وخلاصة القول أنّ فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" إذا كان اسماً ظاهراً محلًّى بالألف واللام فإنّ اللام فيه الأفضل أن يقال إنها للجنس حقيقةً أو مجازا، وقد تكون للعهد – على التفصيل المذكور –، ولا تعمل "نِعْمَ

---

(1) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص177.

(2) – المصدر نفسه: مج2 ص178.

(3) – قال ابن هشام: "وإعرابه [أي: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ]: مبتدأ والجملة قبله خبر، والرابط بينهما العموم الذي في: الألف واللام". [شرح قطر الندى وبلّ الصدى: ص204، وقال في موضع آخر منه: "وذلك لأنّ (ال) في: "الرجل" تفيد العموم، و"زَيدٌ" فردٌ من أفراده، فدخل في العموم فحصل الربط". المصدر نفسه: ص130].

(4) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص178.

(5) – المبرّد: المقتضب، مج2 ص142.

(6) – **ابن السرّاج**: هو أبو بكر محمّد بن السريّ النحوي، صحب المبرّدَ وأخذ عنه العلم، من مؤلّفاته: «الشعر والشعراء»، وله شرح على كتاب سيبويه، وغير ذلك، مات سنة: (316هـ). [إنباه الرواة: مج3 ص145].

(7) – ابن السرّاج: أبو بكر محمّد بن السريّ، الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ج1 ص114.

وبئْسَ" في معيّن ولا اسمِ علَم؛ فلا تقول: نِعْمَ الذي في الدار، ولا نِعْمَ زيدٌ، ولم يَرِد في القرآن الكريم شيءٌ يخالف هذا.

ثانياً: فاعل "بِئْسَ":

جاء فاعل "بِئْسَ" اسماً ظاهراً محلًّى بالألف واللام في أربعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: 126]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ**﴾ [البقرة: 206]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ **وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ**﴾ [آل عمران: 12]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ **وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: 162]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ **وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ**﴾ [آل عمران: 197]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ **وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [الأنفال: 16]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ **وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: 73]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ**﴾ [هود: 98]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿**بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ**﴾ [هود: 99]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ **وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ**﴾ [الرعد: 18]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ **وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ**﴾ [إبراهيم: 29]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿**بِئْسَ ٱلشَّرَابُ** وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿**لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ**﴾ [الحج: 13]م.

14 – قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ **وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [الحج: 72]م.

15 – قال الله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ **وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [النور: 57]م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

16 – قال الله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [ص: 56]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [ص: 60]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 38]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجرات: 11]م.

20 – قال الله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: 15]م.

21 – قال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: 8]م.

22 – قال الله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: 10]م.

23 – قال الله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9]م.

24 – قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك: 6]ك.

1 – يقول الله ﷻ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: 98]ك.

إنّ فاعل "**بِئْسَ**" في هذه الآية هو المضاف المقدَّر الذي أقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير: بِئْسَ مكانُ الوِرد المورود؛ إذ (الوِرد) قد يُطلق على الورود أو الوارد، وكلاهما لا يكون الموردَ – وهو النار –، فلا بدّ إذاً من التقدير حتى يتطابق الفاعل والمقصود بالذمّ في المعنى[1]، وعليه فإنّ (**الوِرْد**) هو فاعلُ "بِئْسَ" على معنى: مكان الوِرد، أمّا (**المَوْرُودُ**) – إذا عُني به النار – فهو المخصوص بالذمّ، والمعنى: بِئْسَ مكانُ الوِردِ الموروُد، وهي النار[2].

(1) – ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي: مج5 ص259، وفيما يتعلّق بالمخصوص بالمدح والذمّ ينظر الصفحة (41) من هذا البحث.

(2) – المرجع نفسه: مج5 ص ن.

هذا وقد يكون (**المَوْرُودُ**) نعتاً لـ: (**الوِرْد**)، أي: المكان المورود أو الواردون المورود بهم، ويكون المخصوص بالذمّ محذوفاً، لكن في جواز نعت فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" خلافٌ، قال ابن هشام[1]: "وأجاز غير الفارسيّ وابنِ السرّاج نعتَ فاعلَيْ "نِعْمَ وبِئْسَ" متمسِّكاً بقوله: نِعْمَ الفتى المرّيُّ[2]، وحَمَله الفارسيّ[3] وابن السرّاج على البدل"[4].

إنّ الذي حمل الفارسيّ وابنَ السرّاج على منع نعتِ فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" هو أنّ الفاعل فيهما ينبغي أن يكون اسمَ جنس عامّاً، والنعتُ قد يخرجه عن هذا العموم، أو – على الأقلّ – يوهِم إرادة الخُصوص؛ ولذلك لم يُجوِّز النحاة أن يؤكَّد فاعلُهما بالتوكيد المعنوي، وجَوّزوا أن يؤكَّد بالتوكيد اللفظي؛ لأنه ليس في هذا الأخير ما لأجله منعوا من الأوّل؛ ولذلك قال ابن مالك: "لا يؤكَّد الفاعل بالتوكيد المعنوي[5]؛ لأنّ القصد بالتوكيد المعنوي رفعُ تَوهّمِ إرادة الخُصوص بما ظاهره العموم، أو رفعُ توهُّم المجاز بما ظاهره الحقيقة، وفاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" – في الغالب – بخلاف ذلك؛ لأنه قائم مقام الجنس"[6].

(1) – **ابن هشام**: هو أبو محمّد جمال الدين عبد الله بن يوسف الأنصاري النحوي الحنبلي، له مصنّفات عديدة، منها: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» و«عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب» وغير ذلك، ولد سنة: (708هـ) وتوفي سنة: (761هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص69].

(2) – قطعة من بيت لزهير، وتمامُه: نِعْمَ الفَتى المرّيُّ أَنْتَ إِذَا هُمُ *** حَضَرُوا لَدَى الحَجَراتِ نَارَ المُوْقِدِ وهو في ديوانه: ص25، وينظر خزانة الأدب: مج4 ص114، وعَجُزُ البيت كنايةٌ عن فصل الشتاء .

(3) – **أبو علي الفارسيّ**: هو الحَسن بن أحمد، ولد بـ: "فَسَا" من أرض فارس، وقدم بغداد وأخذ عن علمائها، كان مُتّهَماً بالاعتزال، وله من الكتب: «التذكرة»، وكتاب «الحجّة في القراءات»، وغير ذلك، توفي في شهر ربيع الأول سنة: (377هـ). [إنباه الرواة: مج1 ص308].

(4) – ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص650، وقال ابن السرّاج: "هذا يجوز أن يكون بدلاً غيرَ نعتٍ، فكأنه قال: نِعْمَ المرّيُّ أَنْتَ". [الأصول في النحو: ج1 ص121].

(5) – قال عبّاس حسن: "**امتناع فاعلهما المفرد الظاهر[أن يؤكّد] توكيداً معنوياً**"، فلا يصحّ: نِعْمَ الرجلُ كلُّهم محمّدٌ، فإن كان فاعلهما مثنىّ أو جمعاً جاز، نحو: نِعْمَ الصديقان كلاهما محمّدٌ وعليٌّ، ونِعْمَ الأصدقاء كلُّهم محمّدٌ وعليٌّ وحامدٌ، ومثلهما المثنّى والجمع للمؤنث، أمّا التوكيد اللفظي فلا يمتنع، وكذلك البدل والعطف". [النحو الوافي: مج3 ص377]، لكن كيف يجوز وعلّة المنع باقية، وهي رفع توهّم إرادة الخصوص؟ ينظر كلام ابن مالك أعلاه.

(6) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص9.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لكن ليس كلّ النعت يأتي للتخصيص، فقد يَرِد للكشف والبيان، وعليه فلا بدّ من التفصيل في مسألة نعت فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ"؛ فلا يجوز مطلقاً ولا يمنع مطلقاً، قال عبّاس حسن: **"**وأمّا النعت فيجوز إذا أُريد به الإيضاحُ والكشف لا التخصيص**"**(1).

بناءً على ما تقدّم فإنّ (**المَوْرُود**) إذا فُهم منه ما يخصِّص مكان الورد فلا يصلح أن يكون نعتاً، فإن قُصد به الكشف والإيضاح جاز، قال أبو حيّان: **"**ويكون المخصوص محذوفاً لفهم المعنى ...، وهذا التخريج مبنيٌّ على جواز وصف فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ"، وفيه خلاف**"**(2)، وعليه تكون جملة الذمّ هذه بالشكل الآتي: فعل الذمّ (بِئْسَ) + الفاعل (الورد)، أي: مكان الورود، أو الواردون + نعت أو بدل (المورود)، أي: الذي يَرِده الواردةُ أو المورود بهم + المخصوص بالذمّ محذوف (النارُ) أو (هم).
هذا وقد ذكر أبو حيّان أنه يجوز إطلاق الورد على المورود مجازاً عند من يقول به(3)، ويكون التقدير: بِئْسَ المورودُ(4)المورودُ، أي: النارُ.

ومحصِّل القول أنّ فاعل "بِئْسَ" في هذه الآية هو: (**الوِرْدُ**)، وفيه ثلاثة تقديرات:

الأوّل: بِئْسَ مكانُ الوِرد المورودُ، على أنّ (**الوِرْد**) بمعنى المصدر، أي: الوُرود، و(**المَوْرُود**) هو المخصوص بالذمّ، أي: النار، ويجوز أن يكون (**المَوْرُودُ**) نعتاً لـ: مكان الوِرد أو بدلاً منه، والمخصوصُ بالذمّ محذوفاً، تقديره: النار، أي: بِئْسَ المكانُ المورودُ النارُ.
الثاني: (**الوِرْد**) بمعنى: الجمع الوارد، و(**المورود**) صفة لهم، والمخصوص بالذمّ هو الضمير المنفصل: "هم"، ويكون الذمّ واقعاً على الواردين لا على مكان الورود(5)، والتقدير: بئس الوِردُ – أي: القوم – المورودُ بهم هُم.
الثالث: (**الوِرْد**) بمعنى: المورود، وهذا على سبيل المجاز، أي: بِئْسَ الموروُدُ الموروُدُ، وهو أشبه بالأول.

2 – قال الله تعالى: ﴿**بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ**﴾ [هود: 99]ك.

---

(1) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص377 .
(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج5 ص259 .
(3) – أي: بالمجاز، ينظر المرجع نفسه: مج5 ص260.
(4) – أي: المكان المورود.
(5) – ينظر المرجع نفسه: مج5 ص ن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الآية كالتي قبلها، ولكنّها لا تحتمل كلَّ تلك الأوجه التي في الآية الأولى، والرِّفد معناه: العَون والعطاء، قال الزمخشري (ت 538هـ): "(**بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ**) رفدُهم، أي: العون المعان"[1]، ففاعل "بِئْسَ" هو: (**الرِّفْدُ**)، و(**المَرْفُودُ**) نعت له، قال أبو حيّان: "ويظهر من كلامه [أي: الزمخشري] أنّ (**المَرْفُودُ**) صفةٌ لـ: (**الرِّفْدُ**)"[2]، فيكون (**المَرْفُودُ**) بدلاً، وذلك عند من لا يَرى جواز نعت الفاعل، وتكون جملة الذمّ هذه على الشكل الآتي:

فعل الذمّ + الفاعل + نعت أو بدل + المخصوص بالذمّ محذوف.

3 – قال الله تعالى: ﴿**بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ**﴾ [الحُجُرات: 11]م.

هذه الآية كباقي الآيات المذكورة في الباب فـ (**الاسم**) فاعل بِئْسَ بمعنى: المسمَّى أو الذِّكر المرتفع، أي: التنابز بالألقاب، و(**الفُسُوقُ**) هو المخصوصُ بالذمّ، أو محذوف تقديره: ذِكرُ الفسوق، وسيأتي الكلام عليه لاحقاً[3].

البند الثاني: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" مضافٌ إلى ما فيه الألف واللام.

أوّلاً: فاعل "نِعْمَ":

ورد فاعل "نِعْمَ" اسماً مضافاً إلى ما فيه (ال) في خمسة مواضع من القرآن الكريم، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ**﴾ [آل عمران: 136]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ **فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ**﴾ [الرعد: 24]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾ [النحل: 30]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿**نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ**﴾ [العنكبوت: 58]ك.

5 – قال الله تعالى: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ ۖ **فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ**﴾ [الزُمَر: 74]ك.

جاء فاعل "نِعْمَ" في الموضعين الثاني والثالث مؤنّثاً ولم تُلحق بـ: "نِعْمَ" تاءُ التأنيث الساكنة؛ فلم يقل ﷻ: (**فَنِعْمَتْ عُقْبَى الدَّارِ**) ولا (**وَلَنِعْمَتْ دَارُ المتَّقِينَ**)، وقد تقدّم[4] الكلام عليها في: فعليّة

(1) – الزمخشري: محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مج2 ص (426– 427).

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص260.

(3) – ينظر الصفحة (45) من هذا البحث.

(4) – ينظر الصفحة (21) من هذا البحث.

"نِعْمَ وبِئْسَ"، وكان التعليل أنّ إلحاقها بفعلَي المدح والذمّ مع الفاعل المؤنَّث ليس واجباً، وأنّ الأكثرَ استعمالاً عدمُ الإلحاق، وذلك لنقصان تمكُّنها في الأفعال وامتناع إرادة المستقبل منهما، ولعلّه في إثبات التاء في الموضعين المذكورين خاصّةً ما يُحدِث ثِقَلاً على اللسان عند النطق بهما.

ثانياً: فاعل "بِئْسَ":

1 – قال الله تعالى: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: 29]ك.

3 – قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزُّمَر: 72]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76]ك.

ما يضاف إلى الألف واللام بمنزلة الألف واللام، واللام في هذا القِسم إمّا للجنس وإمّا للعهد، وقد مرّ الكلام عليها هناك(1) فلا حاجة إلى إعادته هنا.

البند الثالث: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" ضمير مستتر.

أوّلاً: فاعل "نِعْمَ" ضمير مستتر:

قد يقع فاعل "نِعْمَ" ضميراً مستتراً، لكن لا بدّ له من تمييز يفسِّره، مثال ذلك قولهم: نِعْمَ رجلاً زيدٌ، ففي هذا المثال نجد أنّ فاعل "نِعْمَ" ليس اسماً ظاهراً، ولكنّه ضميرٌ مستترٌ ووقعت بعده نكرةٌ مفسِّرة له منصوبةٌ تُعرَب تمييزاً، ولا يمكن أن نقول: نِعْمَ زيدٌ، على اعتِبار أنّ الفاعل ضميرٌ مستترٌ و(زيدٌ) هو المخصوص بالمدح؛ لئلاّ يبقى الفاعل ضميراً مُبهماً ليس له ما يفسِّره.

ولم يوجد هذ الأسلوب في القرآن الكريم، أعني: نِعْمَ + ضمير مستتر + نكرة (تمييز) + مخصوص بالمدح، وهو أحدُ أساليب المدح بـ: "نِعْمَ" التي لم تُستخدم في القرآن الكريم.

ثانياً: فاعل "بِئْسَ" ضمير مستتر:

وقعت "بِئْسَ" في القرآن الكريم بحيث يكون فاعلُها ضميراً مستتراً في موضع واحدٍ، وهو قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: 50]ك. قال الطبري: "يقول – جلّ ذِكره –: بِئْسَ البدلُ

(1) – ينظر الصفحات (24– 26) من هذا البحث.

للكافرين بالله اتخاذُ إبليسَ وذرّيّتِه أولياءَ من دون الله – وهم لكم عدوّ؛ مِن تركهم اتخاذَ الله وليّاً باتباعهم أمرَه ونهيَه، وهو المنعِمُ عليهم وعلى أبيهم آدم من قَبلهم المتفضلُ عليهم من الفواضل ما لا يحصى – بدلاً"[1].

جاء الفاعل في جملة الذمّ هذه مُضمراً مُبهماً مفسَّراً بنكرة بعده، هي: (**بدلاً**)، وقد فُصِل بين الفاعل والتمييز بقوله: (**للظالمين**) وهو جائز، وإنما الذي لا يجوز هو أن يُفصَل بين فعل المدح أو الذمّ وفاعلِه بفاصلٍ، في نحو قول القائل: بِئْسَ عنك الراغبُ زيدٌ، ولم يجعل "عنك" صلةً للراغب بل للتبيين فتكون متعلّقة بـ (بِئْسَ) لا بـ (الراغب)، فإنه لا يجوز ذلك؛ لأنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" ليستا كسائر الأفعال؛ لأنهما لا تتصرّفان، وهذه الأشياء التي جُعلت كالأمثال لا ينبغي أن نستجيز فيها إلا ما جاء مسموعاً[2]، واللام في قوله: (**للظَّالِمين**) ليست متعلقةً بـ: "بِئْسَ"، بل بقوله: (**بَدَلاً**)، وهي للبيان، قال ابن الأنباري: "﴿**بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً**﴾ تقديره: بِئْسَ البدلُ بدلاً للظالمين ذريةُ إبليس، فالمرفوع بـ: "بِئْسَ" مُضمَرٌ فيها، و(**بَدَلاً**) منصوب على التمييز مفسِّرٌ لذلك المضمَر، و(**للظالمين**) فصلٌ بين "بِئْسَ" وما انتصبت به"[3].

البند الرابع: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" كلمة "ما" الواقعة بعدهما.

قال أبو حيّان: "اختلف النحويّون في: "ما" الواقعة بعد "نِعْمَ" وفي إعرابها...، وذهب جمهور النحاة إلى أنّ لها موضعاً من الإعراب، لكن اختلفوا في ذلك"[4]، وقال ابن مالك: ""ما" معرفةٌ تامّة وفاقاً لسيبويه والكِسائي[5] لا موصولةٌ خلافاً للفرّاء والفارسيّ، وليست بنكرة مميِّزة خلافاً للزمخشري والفارسيّ في أحد قوليه"[6].

فإذا وقعت "ما" بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" جاز فيها إعراباتٌ كثيرة، أشهرُها:

أوّلاً: "ما" ليس لها موضع من الإعراب:

---

(1) – أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج7 ج2 ص171.

(2) – ينظر الأصول في النحو لابن السرّاج، ج1 ص120.

(3) – ابن الأنباري: أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد، البيان في إعراب القرآن، مج2 ص (111- 112).

(4) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج1 ص304.

(5) – قال أبو حيّان: "والكِسائي في أحد قوليه". [البحر المحيط، مج1 ص304].

(6) – ابن مالك: محمّد جمال الدين، شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص8 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في هذه الحال تكون "ما" و"نِعْمَ" أو "بِئْسَ" شيئاً واحداً رُكِّب فصار بمنزلة: (كلّما)، ويُعزى هذا القول إلى الفرّاء، قال أبو جعفر النحّاس[1]: "وقول الفرّاء تكون "ما" مع "بِئْسَ" [أو"نِعْمَ"] مثل: (كلّما) لا يجوز؛ لأنه يبقى الفعل بلا فاعل، وإنّما تكون "ما" كافّةً في الحروف، نحو: (إنّما) و(ربما)"[2].

ثانياً: "ما" لها موضع من الإعراب:

وهذا مذهب الجمهور– كما تقدّم – لكنّهم اختلفوا: أهي في موضع رفعٍ أو نصب؟

1 – "ما " في موضع رفع: الذين قالوا إنّ "ما" في موضع رفع اختلفوا أيضاً على أقوالٍ ثلاثة:

القول الأوّل: "ما" معرفة تامّة فاعلُ "نِعْمَ وبِئْسَ"، بمعنى: الشيء، وبه قال سيبويه والكِسائي[3] فيما حكاه عنه الفرّاء[4].

القول الثاني: "ما" معرفةٌ ناقصة، فهي اسمٌ موصول بمعنى: (الذي)، قال أبو حيّان: "وبه قال الفرّاء والكِسائي – فيما نُقل عنه –، وبذلك قال الفارسيّ في أحد قوليه، وقد عزا ابنُ عطيّة (ت 546هـ) هذا القول إلى سيبويه، ووَهِم في ذلك"[5]، لكنّ (الذي) – هنا – اسمُ جنسٍ غيرُ مخصوص، وإلاّ فقد عُلِم أنه لا يجوز أن يليَ "نِعْمَ وبِئْسَ" الاسمُ الموصول إلاّ إذا كان عامّا غيرَ مخصوص[6]، وعليه فإنّ جملة الموصول وصلتَه إن دلّت على شيء مخصوصٍ معلومٍ فإنها لا تكون فاعلاً لـ: "نِعْمَ وبِئْسَ"، فإن لم تُعيِّن شيئاً جاز كونها فاعلاً.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – **أبو جعفر النحّاس:** هو أحمد بن محمّد المصري، رحل إلى العراق وسمع من الزَّجَّاج، من مصنّفاته: «اشتقاق أسماء الله عزّ وجلّ»، و«ناسخ القرآن ومنسوخه»، وغير ذلك، توفي سنة: (337هـ). [إنباه الرواة: مج1 ص136].

(2) – أبو جعفر النحّاس: إعراب القرآن الكريم، مج1 ص247، ولكنّ الفرّاء لا يرى فعليّة "نِعْمَ وبِئْسَ".

(3) – **الكِسائي:** هو أبو الحسن علي بن حمزة مولى بني أسد، إمام الكوفيّين في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة المشهورين، وسمّي الكِسائي لأنه أحرم في كِساء، وقيل لغير ذلك، رُوي عنه أنه مات وهو لا يحسن حدّ "نِعْمَ" و"بِئْسَ" و"أن" المفتوحة والحكاية، صنّف: «معاني القرآن» وغير ذلك، مات سنة: (182هـ)، وقيل: (189هـ)، وقيل غير ذلك. [بغية الوعاة: مج2 ص162، معرفة القرّاء الكبار للذهبي: مج1 ترجمة رقم (45)، إنباه الرواة: مج2 ص286].

(4) – ينظر شرح التسهيل لابن مالك: مج3 ص14، والبحر المحيط لأبي حيّان: مج1 ص304.

(5) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج1 ص304.

(6) – المبرّد: المقتضَب، مج2 ص143.

القول الثالث: "ما" مصدرية، وبه قال الكِسائي فيما نَقَل عنه ابنُ عطيّة[1]، قال أبو جعفر النحّاس: "فأمّا قول الكِسائي فمردودٌ من هذه الجهة"[2] يقصِد أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" لا تدخلان على معرفةٍ إلاّ للجنس، وكون "ما" مصدريةً يجعل "نِعْمَ وبِئْسَ" تدخلان على معرفةٍ مخصوصة.

2 – "ما" في موضع نصب:

تكون "ما" في موضع نصب نكرةً منصوبة مفسِّرة لفاعل "نِعْم" و"بِئْسَ" المضمرِ فيهما، وهي بمعنى: شيئاً، لكن اختلف أصحاب هذا القول في الجملة الواقعة بعدها على ثلاثة أقوال[3]، وإلى القول بأنّ "ما" في موضع نصبٍ على التمييز ذهب الأخفش[4] والفارسيّ في أحد قوليه، واختاره الزمخشري والكِسائي فيما نُقل عنه[5].

هذه خلاصة أقوال علماء النحو والتفسير في "ما" المقترنة بـ: "نعم وبِئْسَ"، وأَولى هذه الأقوال بالصواب – حسب ما ظهر لي – قول سيبويه وهو قول الطبري على ما يفهم من كلامه[6] أنّ "ما" معرفةٌ تامّة بمعنى: "الشيء" وليست تمييزاً؛ لأنّ التمييز – كما ذكر ابن مالك[7]– إنما يُجاء به لتعيين جنسِ المميَّز، و"ما" المذكورةُ مساويةٌ للمضمَر في الإبهام فلا تكون تمييزاً[8].

وفي القرآن الكريم وردت جملتَي المدح والذمّ "نِعْمَ مَا" و"بِئْسَ مَا" في مواضع كثيرةٍ منه، أحياناً يَليهما اسمٌ مفردٌ وغالباً ما يَليهما جملةٌ فعلية.

---

(1) – المرجع السابق: مج1 ص304، والمحرَّر الوجيز لابن عطيّة: مج2 ص475.

(2) – أبو جعفر النحّاس: إعراب القرآن، مج1 ص247.

(3) – تأمّلْها – لاحقاً – في القولين الرابع والخامس في الصفحة (38) من هذا البحث.

(4) – **الأخفش**: هو أبو الحسن سعيد بن مَسعَدة المجاشِعي الملقّب بالأوسط، أخذ عن سيبويه وهو أسنّ منه، وصحب الخليل، وكان معلِّماً لولد الكِسائي، له من الكتب: «معاني القرآن»، و«الأوسط» في النحو، مات سنة: (211هـ)، وقيل: (215هـ). [إنباه الرواة: مج2 ص36].

(5) – ينظر البحر المحيط لأبي حيّان: مج1 ص305، الكشّاف للزمخشري: مج1 ص165، معاني القرآن للأخفش: ص144، إعراب القرآن للنحّاس: مج1 ص247.

(6) – أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج3 ج1 ص61.

(7) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص14.

(8) – والغريب في الأمر أنّ صاحب كتاب: «الفريد في إعراب القرآن المجيد» في إعراب الآية: (90) من سورة البقرة، فذكرَ خمسة أقوالٍ ورجّح منها القولَ بأنّ "ما" نكرةٌ منصوبةٌ تُعرَب تمييزاً، ولم يذكرقولَ سيبويه ولم يُعرّج عليه. [الفريد في إعراب القرآن المجيد للمنتَجَب الهمذاني: مج1 ص338].

أوّلاً: حين يَلِي "نِعْمَ ما" و"بِئْسَما" اسم مفرد.

1 – حين يلي "نِعْمَ مَا" اسم مفرد:

مثاله: الزراعةُ نِعْمَ مَا الحرفةُ، فـ "ما" في هذا المثال إمّا معرفة تامّة فتكون فاعلاً، وإمّا نكرةٌ تامّة فتعرب تمييزاً، ويكون الفاعل ضميراً مستتراً يعود على هذا التمييز، ولا يوجد في القرآن من هذا النوع إلا مثالٌ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: 271]م، قال أبو حيّان: "والفاعل بـ: "نِعْمَ" مضمَر مفسَّر بنكرة...، وقد أعربوا "ما" هنا تمييزاً لذلك المضمر الذي في: "نِعْمَ" وقدّروه: "شيئاً"، فإنه نكرةٌ تامّةٌ لا موصوفةٌ ولا موصولةٌ، و(**هي**): ضمير عائد على الصدقات"[1]، لكن إذا كانت "ما" معرفةً تامّة – على رأي سيبويه –، فإنها تُعرَب فاعلاً، وتقدَّر بـ: "الشيء"، قال ابن مالك: "لأنّ أبا عليّ والزمخشريّ يجيزان التمييز في هذا الباب، ويزعمان أنّ فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" في قوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ وشِبْهِهِ مضمَرٌ، كما هو في: نِعْمَ رجلاً زيدٌ، و"ما" في موضع نصب على التمييز، وربما اعتقد مَن لا يعرف [حقيقة الحال] أنّ هذا هو مذهبُ سيبويه، وذلك باطل، بل مذهب سيبويه أنّ "ما" اسمٌ تامٌّ مُكْنى به عن اسمٍ مُعَرَّف بالألف واللام الجنسية مُقدَّرٌ بحسَب المعنى، كقولك في: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أنّ معناه: فنِعْمَ الشيءُ إبداؤها"[2].

ويضيف ابنُ مالكٍ مدافعاً عن رأي سيبويه ورادّاً على مخالفيه في أنّ "ما" معرفةٌ تامّة وليست نكرةً تامّةً تعرَب تمييزاً: "ويُقوّي أيضاً فاعليّةَ "ما" المذكورةِ وأنها ليست تمييزاً أنّ التمييز إنما يُجاء به لتعيين جنس المميَّز، و"ما" المذكورةُ مساويةٌ للمضمَر في الإبهام فلا تكون تمييزاً"[3].

وخلاصة القول أنّ النحويّين اختلفوا في تحليل هذا الأسلوب على قولين مشهورين:

الأوّل: "ما" معرفةٌ تامّة، وهي فاعل "نِعْمَ" في محلّ رفعٍ، ويكون التأليف بهذا الشكل:

فعل المدح + "ما" بمعنى: الشيء (فاعل) + المخصوص بالمدح.

الثاني: فاعل "نِعْمَ" ضمير مستتر و"ما" نكرةٌ تامّة في محلّ نصبٍ على التمييز، ويكون التركيب: فعل المدح + فاعل مستتر + "ما" بمعنى: شيئاً (تمييز) + المخصوص بالمدح.

---

(1) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج2 ص323.

(2) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص13.

(3) – المصدر نفسه: مج3 ص14.

2 – حين يلي "بِئْسَمَا" اسم مفرد:

نحو قولنا: بِئْسَمَا الكذبُ، فـ"ما" إمّا فاعل وإمّا تمييز، ولم يَرِد هذا الأسلوب في القرآن الكريم، مع جوازه واستعماله في كلام العرب.

ثانياً: حين يَلِي "نِعْمَ ما" و"بِئْسَما" جملة فعليّة:

1 – حين يلي "نِعْمَ مَا" جملة فعلية:

مثاله: نِعْمَ مَا يقوله العقلاءُ الحقُّ، فـ "ما" إمّا نكرةٌ موصوفة تمييز، والجملة بعدها صفةٌ لها، وإمّا معرفةٌ تامّة والجملة بعدها صفةٌ لها أو ناقصةٌ بمعنى اسمٍ موصولٍ فاعلٌ، والجملة بعدها صلتُها، وقد وقع في القرآن من ذلك مثالٌ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾ [النساء: 58]م، والخلاف فيها يكون بحسب ما ذكرته – سابقاً –، قال ابن مالك: "وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**﴾ يجوز أن تكون "ما" معرفةً وأن تكون نكرةً، فإنْ حملتَه على أنه معرفةٌ كان رفعاً ولم يكن لقوله: (**يَعِظُكُم بِهِ**) موضع من الإعراب، وإنْ حملتَه على أنه نكرةٌ كانت منصوبةً، وكان (**يَعِظُكُم بِهِ**) وصفاً للاسم المنصوب"[1]

وقد لخّص أبو حيّان الخلاف فيها فقال: " (**نِعِمَّا**) أصله: نِعْمَ مَا، و"ما" معرفةٌ تامّة على مذهب سيبويه والكسائي، وكأنّه قال: نِعْمَ الشيءُ يعظكم به، أي: شيءٌ يعظكم به، و(**يَعِظُكُم**) صفة لـ:"شيء"، وشيءٌ هو المخصوص بالمدح، وموصولةٌ على مذهب الفارسيّ في أحد قوليه، والمخصوص محذوف، والتقدير: نِعْمَ الذي يعظكم به تأديةُ الأمانةِ والحكمُ بالعدلِ، ونكرةٌ في موضع نصب على التمييز، و(**يَعِظُكُم**) صفة له على مذهب الفارسيّ في أحد قوليه، والمخصوص محذوف تقديره كتقدير ما قبله، وقد تُأُوِّلت "ما" هنا على كل هذه الأقوال، وتحقيق ذلك في علم النحو"[2]، وعليه يمكن اختصار جملة المدح هذه إلى الشكل الآتي:

1 – فعل المدح + "ما" معرفة تامّة بمعنى: الشيء (فاعل) + المخصوص بالمدح محذوف + الجملة الفعليّة نعتٌ له، والتقدير: نِعْمَ الشيءُ شيءٌ يعظكم به.

2 – فعل المدح + "ما" اسم موصول (فاعل) + جملة صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب.

---

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص14.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص (277– 278).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والتقدير: إنّ الله نِعْمَ الذي يعظكم به تأديةُ الأمانة والحكمُ بالعدل، والاسمُ الموصول (الذي) هنا يفيد العموم لا التعيين.

3 – فعل المدح + الفاعل (ضمير مستتر) + "ما" نكرة ناقصة (تمييز) + الجملة الفعلية صفةٌ لـ: "ما" + المخصوص بالمدح محذوف، والتقدير: إنّ الله نِعْمَ هو شيئاً يعظكم به تأديةُ الأمانة والحكمُ بالعدل، والضمير "هو" مبهم عائد على التمييز الذي بعده لا على ما قبله[1]، ويجوز أن يكون التقدير: إنّ الله نِعْمَ الشيءُ شيئاً يعظكم به تأديةُ الأمانة والحكمُ بالعدل.

تنبيه: وقعت جملة المدح في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ**﴾ خبراً لِ: "إنّ"، والمدحُ إنشاءٌ وليس خبراً، وهذا إشكال، وحَلُّه أن يقال: هذا على حسب الظاهر، وإلا فهو على تقدير حذف خبرِ "إنّ"، والمعنى: إنّ الله مَقُولٌ في حقّه: **نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ**.

هذا وقد قُرئت كلٌّ من الآيتين السابقتين: ﴿**إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ**﴾ و﴿**إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ**﴾ بقراءات مختلفة جمَعها ابن الجَزَري[2] في قوله:

مَعاً نِعِمَّا افْتَحْ (كَ)مَا (شَ)فَا وَفِي *** إِخْفَاءِ كَسْرِ العَينِ (حُ)زْ (بِ)هَا (صَ)فِي

قال الشارح – وهو ابنه – : "يُريد قولَه تعالى: ﴿**إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ**﴾ وفي النساء: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ**﴾ ففتحَ النون فيهما ابنُ عامر (ت 118هـ) وحمزةُ والكِسائي وخلَف (ت 229هـ)، وكسر الباقون، وأخفى العينَ – أي: اختلس كسْرها – أبو عمرو (ت 154هـ) وقالونُ (ت 220هـ) وشعبة (ت 193هـ)...، فيصير في: "نِعِمَّا" أربعُ قراءات:

1 – كسرُ النون مع الاختلاس لهؤلاء الثلاثة: أبو عمرو، وقالون، وشعبة.

2 – ومع إسكان العين عنهم أيضاً ولأبي جعفر.

3 – فتحُ النون مع كسر العين لابن عامر وحمزةَ والكِسائي وخلَف.

4 – وكسرُ النون والعين للباقين وهم: ورش وابن كثير (ت 120هـ) وحفص"[3].

---

(1) – وهذا أحد المواضع التي يجوز أن يعود الضمير فيها على متأخرٍ لفظاً ورتبةً.

(2) – **ابن الجزَري:** هو شمس الدين أبو الخير محمّد بن محمّد الشافعي، ولد بدمشق عام: (751هـ)، كان مقرئَ الممالك الإسلامية، له مصنّفات منها: «النشر في القراءات العشر»، توفي سنة: (833هـ) [شذرات الذهب: مج4 ص206].

(3) – ابن الجزري: شهاب الدين أبو بكر أحمد بن محمّد، شرح طيّبة النشر، ص202، وينظر أيضاً البدور الزاهرة لعبد الفتاح القاضي: ص59، ومعجم القراءات لعبد اللطيف الخطيب: مج1 ص393.

جمعية الأمير عبد القادر لعلوم الإسلامية

2 – حين يلي "بِئْسَما" جملة فعليّة:

جاء بعد "بِئْسَما" جملةٌ فعليّةٌ في تسعة مواضع من القرآن الكريم، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 90]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 102]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 62]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 63]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 80]م.

9 – قال الله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ [الأعراف: 150]ك.

كلُّ هذه المواضع تشترك في حكمٍ واحد، ولذا سأقتصر على دراسة واحد منها، وهو قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 90]م.

قد تقدّم ذكرُ خلافِ أهل العربية في: "ما" التي بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" أهي معرفةٌ تامّة أم ناقصةٌ أم نكرة تامّة أم موصوفة؟ ولذا سيكون التقدير في الآية على النحو الآتي:

1 – **"ما" معرفة تامّة:** بِئْسَ الشيءُ شيءٌ اشتروا به أنفسهم على حذف "شيء" وهو المخصوص بالذمّ، أو بإضمار "ما" أخرى، ويكون التقدير: بِئْسَ الشيءُ ما اشتروا به أنفسهم، و"ما" هذه اسم موصول.

2 – **"ما" معرفة ناقصة:** بِئْسَ الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا، على أن يكون "الذي" اسمُ جنسٍ غيرُ مخصوص، فإن عيّنت شيئاً لم يصِحَّ أن تكون فاعلاً لـ: "بِئْسَ".

3 – **"ما" مصدرية:** بِئْسَ اشتِراؤهم أن يكفروا. وهذا القول مردود أو فيه نظر؛ لأنه قد تقدّم أنّ بِئْسَ لا تدخل على معرفة إلاّ للجنس[1].

(1) – ينظر الصفحة (33) من هذا البحث: القول الثالث.

4 – "ما" **نكرة تامّة:** بِئْسَ شيئاً اشتروا به أنفسهم، أو بِئْسَ شيئاً شيءٌ اشتروا به أنفسهم، وفاعل "بِئْسَ" مضمَر فيها عائدٌ على: (شيئاً).

5 – "ما" **نكرة موصوفة:** بِئْسَ شيئاً اشتروا به أنفسهم أن يكفروا، و(اشتروا) صفةٌ لـ: (شيئاً).

الفرع الثالث: علاقة "نِعْمَ وبِئْسَ" بالفاعل.

أوّلاً: من حيث الإفراد والتثنية والجمع:

قال المبرّد: "فلمّا كثر استعمالهما [أي: "نِعْمَ وبِئْسَ"] أُلزِما التخفيف وجَريا فيه وفي الكسرة كالمثَل الذي يلزم طريقةً واحدةً"[(1)]، وقال ابن السرّاج: "نِعْمَ القومُ الزيدون، ونِعْمَ رجالاً الزيدون، والزيدون نِعْمَ قوماً"[(2)]، فمهما كان الفاعل مفرَداً أو مُثنّى أو جمعاً فإنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" لا تتغيّران وتجريان على طريقة واحدة، وقال سيبويه: "واعلم أنك لا تُظهر علامةَ المضمَرين في: "نِعْمَ"، لا تقول: نِعْمُوا رجالاً، يكتفون بالذي يفسِّره، كما قالوا: مررتُ بكلٍّ..." [(3)]، وقال ابن السرّاج: "اعلم أنه لا يجوز أن تقول: قومُك نِعْمُوا أصحاباً، ولا قومُك بِئْسُوا أصحاباً ...، وقوم يجيزون: الزيدون نِعْمُوا رجالاً، وهو غير جائز عندنا"[(4)].

وقد جرى كلّ من: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم على طريقة واحدة؛ إذ لم يتّصل بهما ضميرُ جمعٍ أو تثنيةٍ، وذلك أنه لم يَرِد في القرآن فاعل "نِعْمَ" و"بِئْسَ" ضميرَ جمعٍ أو تثنية مستتراً، أمّا قوله تعالى: ﴿**بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً**﴾ [الكهف: 50]ك فمن حيث المعنى هو كقولنا: بِئْسَ للظالمين أبدالاً؛ لأنّ المراد بالبدل إبليسُ وذرّيته، وعندئذ لا يجوز أن نقول: إبليسُ وذرّيته بِئْسُوا للظالمين أبدالاً – على خلافٍ سبق ذكره – لكن هذا افتراض؛ لأنّ التنزيل العزيز لم يَرِد بهذا، أمّا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ**﴾ [الصافّات: 75]ك، وقوله تعالى: ﴿**وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ**﴾ [الذاريات: 48]ك، وقوله تعالى: ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ**﴾ [المرسلات:23]ك – وهذه هي المواضع التي ورد فيها فاعل "نِعْمَ" اسماً ظاهراً مجموعاً –، فالكلام فيها ليس مختصّاً بـ: "نِعْمَ"

---

(1) – المبرِّد: المقتضب، مج1 ص140.

(2) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

(3) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص179.

(4) – المصدر السابق: ج1 ص116.

و"بِئْسَ"؛ إذ قد اشتهر عند النحويّين أنه لا يُلحق بالفعل علامةُ المثنّى أو الجمع مع الفاعل الظاهر، إلا ماحكي عن بعض قبائل العرب أنها تفعل ذلك، وهي لغة غير فاشية اشتهرت بلغة: أكلوني البراغيث، وقد اختُلف في وجودها في القرآن الكريم قديماً وحديثاً في مثل قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ**﴾ [المائدة: 71]م، وقوله: ﴿**وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ**﴾ [الأنبياء: 3]ك، فعلى تقدير وجود هذه اللغة في القرآن الكريم فإنها لم تُستخدم مع "نِعْمَ" كما مرّ في المواضع الثلاثة السابقة، وأمّا "بِئْسَ" فلم يَرِد فاعلها مجموعاً إلا في موضعٍ واحد وفيه خلاف، وهو قوله تعالى: ﴿**وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ**﴾ [هود: 98]ك، على تفسير (الوِرْد) بالجماعة الواردة، ولم يَرِد فاعلُ "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم مثنًّى مطلقاً.

ثانياً: من حيث التذكير والتأنيث:

الأصل أن يتطابق الفعل والفاعل تذكيراً وتأنيثاً، غير أنه يُستثنى من ذلك أربعُ حالات يكون فيها إلحاق التاء بالفعل مع الفاعل المؤنث جائزاً، منها أن يكون الفعل "نِعْمَ" و"بِئْسَ"، نحو: نِعْمَتْ المرأةُ هندٌ، ونِعْمَ المرأةُ هندٌ(1)، قال سيبويه: "وأمّا قولهم: هذه الدارُ نِعْمَتْ البلدُ، فإنه لما كان البلد الدارَ أقحموا التاء، فصار كقوله: مَن كانت أمُّك، وما جاءت حاجتُك، ومن قال: نِعْمَ المرأةُ، قال: نِعْمَ البلدُ، وكذلك: هذا البلد نِعْمَ الدارُ؛ لما كانت البلدَ ذُكِّرت، فلزم هذا في كلامهم لكثرته؛ لأنه صار كالمثَل، كما لَزِمت التاء في: ما جاءت حاجتك، ومِثْلُ ذلك قولُ الشاعر(2):

هَلْ تَعْرِفُ الدارَ يُعْفِيها المورُ(3) *** والدَّجْنُ يوماً والعَجَاجُ المهمُورُ

لِكُلِّ رِيحٍ فِيهِ ذيلٌ مَسْفُورُ

فقال: (فيه)؛ لأنّ الدار مكان، فحمله على ذلك"(4).

---

(1) – ينظر شرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام: ص200.

(2) – لم أعثر على قائل هذا البيت، ولعلّه مجهول، لكني وجدتُ بيتاً لمنظور بن مرثد الأسدي بلفظ:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ بِأَعْلَى ذِي القُور *** قَدْ دَرَسَتْ غَيْرَ رَمَادٍ مَكْفُور

وهو من مشطور السريع. [تاج العروس للزّبيدي: مج14 ص63]

(3) – **المُور** – بالضمّ – : الغبار بالريح، وقيل: التراب تُثيره الريح. [لسان العرب: مج3 ص755، مادّة: مور].

(4) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص 179.

يجعل سيبويه مسألة التذكير والتأنيث للفعل متعلّقةً بالمعنى واللفظ والاستعمال؛ فالدار مؤنثةٌ لكن أُريد بها معنى التذكير، وهو المكان أو المنزل، فسواءٌ قلت: نِعْمَ الدارُ أو نِعْمَتْ الدارُ، فكلاهما جائز، فأمّا عدم إلحاقها فلأجل معنى التذكير، وأمّا إثباتها فلأجل اللفظ المؤنّث، وأمّا كثرة الحذف فلكثرة استعمالهم لـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" اللتان أُجريتا مجرى المثل الذي يَلزم طريقةً واحدةً، قال المبرِّد: "... "نِعْمَتْ وبِئْسَتْ"، والحذف موجودٌ في كلّ ما كثر استعمالهم إيّاه"(1).

ولم يقع بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم فاعلٌ مؤنّثٌ إلا في موضعين، كلاهما في المدح، وجاءت فيهما "نِعْمَ" مجردةً عن إلحاق التاء بها، وهو جائز –كما تقدّم–، والموضعان هما:

1 – قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ **فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ**﴾ [الرعد: 24]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ**﴾ [النحل: 30]ك.

فكلّ من: (**عُقْبَى**) و(**الدّار**) فاعل "نِعْمَ" مؤنثٌ، وكان جائزاً أن يقال: فنِعْمَتْ عقبى الدار، ولنِعْمَتْ دارُ المتّقين، لكن لم يَرد شيءٌ من ذلك في القرآن الكريم(2)، وتركُ استعماله يدلّ على أنّ حذف التاء أولى، على أنّ الحذف هو الأكثرُ استخداماً في لغة العرب، قال سيبويه: "اعلم أنّ "نِعْمَ" تُذَكَّر وتُؤنَّث...، والحذفُ في: "نِعْمَتْ" أكثر"(3).

الفرع الرابع: المخصوص بالمدح أو الذمّ.

أوّلاً: حاجة "نِعْمَ وبِئْسَ" إلى اسم مرفوع بعدهما هو المقصود بالمدح أو الذمّ:

إذا استوفت كلٌّ من: "نِعْمَ وبِئْسَ" فاعلَها الظاهر أو المستترَ وتمييزَه فلا بدّ من وجود المخصوص بالمدح أو الذمّ بعدهما ظاهراً أو مضمراً، كقولهم: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ، وبِئْسَ رجلاً عمرُو، والمخصوص بالمدح أو الذمّ: هو الممدوح مرّتين، مرّةً مع غيره؛ لدخوله في عموم الجنس، ومرّةً على سبيل التخصيص؛ لأنه قد خُصَّ بالذكر(4).

---

(1) – المبرِّد: المقتضَب، مج2 ص146.

(2) – قال أبو حيّان: "وقرأ زيد بن علي: (**وَلَنِعْمَتْ دَارِ المتّقِينَ**) بتاء مضمومة، و(**دارِ**) مخفوضة بالإضافة". [البحر المحيط: مج5 ص488]، وهذه التاء ليست تاء التأنيث التي نحن بصددها.

(3) – سيبويه: الكتاب، مج2 ص178.

(4) – ابن عَقيل: عبد الله، شرح ابن عقيل، مج2 ص151، الخليل معجم مصطلحات النحو العربي لنوال عكّاوي: ص372.

ثانياً: شروط المخصوص بالمدح أو الذمّ [1]:

وللمخصوص بالمدح أوالذمّ شروط، أهمّها:

1 – أن يكون معرفةً، نحو: نِعْمَ الفتى سيفُ الدين.

2 – أن يكون نكرةً مختصّة بوصفٍ أو إضافةٍ أو غيرهما من وسائل التخصيص، نحو: نِعْمَ العملُ طاعةٌ وقولٌ معروفٌ.

3 – أن يكون أخصَّ من الفاعل أو مساوياً له لا أعمَّ منه[2].

4 – أن يكون المخصوص مطابِقاً للفاعل في المعنى؛ فيكون مثلَه إفراداً أو تثنية أو جمعاً وفي مدلوله تذكيراً أو تأنيثاً، لكنّ هذا ليس شرطاً لازماً في جميع الأحوال، بل على الأغلب، فقد يكون الفاعل مُذكَّراً والمخصوص مؤنّثاً، كما في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف:31]ك، أي: الجنّة، وقوله: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126]م، أي: النار؛ لأنّ كلاًّ من: (**الثَّوَاب**) و(**المَصِير**) في معنى: الجنّة والنار.

5 – أن يكون متأخِّرا عن الفاعل؛ فلا يتوسّط بينه وبين فِعْله، ولكن يجوز أن يتقدّم المخصوص على الفعل والفاعل، وفي هذه الصورة لا يسمّى مخصوصاً، ويجب تأخيره عن التمييز إذا كان الفاعل ضميراً مستتراً، نحو: نِعْم رجلاً المخترعُ، أمّا إذا كان اسماً ظاهراً فيجوز تقديم المخصوص على التمييز[3] وتأخيرُه، فتقول: نِعْمَ العالمُ رجلاً إبراهيمُ ونِعْمَ العالمُ إبراهيمُ رجلاً، كقول الشاعر[4]:

والتَّغْلِبيّونَ بِئسَ الفَحْلُ فَحْلُهُمُ *** فَحْلاً وأُمُّهُمْ زَلاّءُ[5] مِنْطِيقُ[6]

---

(1) – استفدتُ هذه الشروط من: شرح ابن عقيل: مج2 ص (151– 155)، تسهيل الفوائد لابن مالك: مج3 ص (12– 17)، النحو الوافي لعبّاس حسن: مج3 ص (375– 377).

(2) – لأنّ المراد من الفاعل هو الجنسُ كلُّه، وحُجّتهم في كون المخصوص أخصَّ من الفاعل هي أنْ يحصل التفصيلُ بعد الإجمال؛ ليكون أوقعَ في النفس وأدعى إلى التشويق. [النحو الوافي لعبّاس حسن: مج3 ص377].

(3) – هذا على القول بجواز الجمع بين الفاعل والتمييز؛ إذ من النحويّين من مَنعه كسيبويه، وفصّل بعضهم فقال: إنْ أفاد التمييزُ فائدةً زائدةً على الفاعل جاز وإلاّ فلا. [ينظر شرح ابن عقيل: مج2 ص (153– 155)].

(4) – البيت من البسيط، وهو لجرير بن عطيّة في ديوانه، ص489.

(5) – رجلٌ أَزَلُّ وامرأةٌ **زلاّء**، وهو خِفّة لحم العَجُز. [جمهرة اللغة لابن دُرَيد: مج2 ص1008، مادّة: زلل].

(6) – جاء في تاج العروس: "**المِنْطِيقُ**: البليغ، وقال شَمِر: **المنطيق** في قول جرير: هي المرأة المتأزّرة بحَشِيّةٍ تُعظِّم بها عُجيزتَها". [تاج العروس من جواهر القاموس للزّبيدي: مج13 ص460، مادّة: نطق].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

6 – أن يصلح للإخباريّة، أي: أن يصلح أن يكون خبراً إذا جعلنا الفاعل مبتدأً موصوفاً بكلمةِ: (الممدوح) على حسب المعنى؛ لأنّ مُفسِّر الفاعلِ كالفاعل، نحو: نِعْمَ التاجرُ خليلٌ، أي: التاجرُ الممدوحُ خليلٌ.

ثالثاً: إعراب المخصوص بالمدح أو الذمّ:

في إعراب المخصوص وجهان مشهوران(1):

أحدهما: أنه مبتدأ والجملة قبله خبر عنه.

والثاني: أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وجوباً، فيكون التقدير في قولنا: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ، هو: (هو زيدٌ)، أي: الممدوحُ زيدٌ.

قال ابن عقيل(2): "ومنعَ بعضهم الوجه الثاني وأوجب الأوّلَ، وقيل: هو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، والتقدير: زيدٌ الممدوحُ"(3)، وقال ابن مالك: "وأجاز سيبويه كونَ المخصوص خبرَ مبتدأٍ واجبِ الإضمار، والأوّل أوْلى بل هو عندي متعيّن"(4).

قال عبّاس حسن: "وكلّ هذه الإعرابات قائمٌ على الحذف والتقدير والتقديمِ والتأخير مع الرّكاكة والضعف، مع أنّ هناك رأياً قديماً آخرَ أوْلى بالاعتبار؛ لخُلُوِّه من تلك العيوب وغيرها، هو: إعراب المخصوص بدلاً من الفاعل، فيكون مثلاً: (البُلبُل) بدلاً من (المغرِّد) في قولنا: نِعْمَ المغرِّدُ البُلبلُ، وحبّذا الأخذُ بهذا الرأي السهلِ الواضح في تقديرنا ...، ومن العجيب أن يكون هذا رأيُ قِلّةٍ من النحاة مع وضوحه وقوة انطباقِ قواعد البدل عليه، وعدمِ مناقضته مع قاعدة أخرى"(5)، لكنّ هذا الرأيَ في تقدير المبرِّد ضعيفٌ بل مردود، كما تُفصِح عنه عبارته، حيث يقول: "فإن زعم زاعمٌ أنّ قولك: نِعْمَ الرجلُ زيدٌ، إنما زيدٌ بدلٌ من الرجل مرتفعٌ بما ارتفع به، كقولك: مررت بأخيك

---

(1) – ينظر شرح ابن عقيل: مج2 ص156، وشرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام: ص204.

(2) – **ابن عَقيل:** هو بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن الهمذاني الأصل ثم البالسي المصري، لازم الجلال القزويني وأبا حيّان، له تصانيف منها: «التفسير» وصل فيه إلى آخر سورة آل عمران و«المساعد في شرح التسهيل»، ولد سنة: (698هـ)، ومات بالقاهرة سنة: (769هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص47].

(3) – المصدر السابق: مج2 ص156.

(4) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص (16– 17).

(5) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص379.

زيدٍ، وجاءني الرجلُ عبدُ الله، قيل له: إنّ قولك جاءني الرجلُ عبدُ الله، إنما تقديره إذا طرحتَ الرجل: جاءني عبد الله، فقل: نِعْمَ زيدٌ؛ لأنّك تزعم أنّه بـ: "نِعْمَ" مرتفعٌ، وهذا محال"[1].

رابعاً: حذف المخصوص بالمدح أو الذمّ:

قد تقرّر عند النحاة أنه لا يجب أن يُصرَّح بذكر المخصوص عند إرادة المدح أو الذمّ، بل الواجب أن يكون معلوماً[2]، فإن كان محذوفاً فلا بدّ إذاً من شروطٍ حتى يَصِحَّ حذفُه، وهذه الشروط هي[3]:

1 – أن يتقدّم على جُملتِه لفظٌ يدلّ عليه بعد حذفِه ويُغني عن ذكره، ويمنع اللَّبس والخفاء في المعنى، ويسمّى هذا اللفظ: المُشعِرُ بالمخصوص، سواء كان صالحاً لأَن يكون هذا المخصوصَ أو غيرَ صالح، وفي هذا يقول ابن مالك:

وإِنْ تَقَدَّم مُّشْعِرٌ بِهِ كَفَى *** كالعِلْمِ نِعْمَ المُقْتَنَى والمُقْتَفَى

يُريد إنْ تقدّم على المخصوص ما يُشعر به ويَدلّ عليه من غير لَبسٍ كفى وأغنى عنه وجاز حذفُه، وضرب لذلك مثالاً بقوله: العلمُ نِعْمَ المقتنى والمقتفى، فالمخصوص محذوفٌ، والتقدير: العلمُ نِعْمَ المقتنى والمقتفى هو، ولا يقال: المخصوصُ متقدِّمٌ؛ لأنه إن كان كذلك فلا يسمّى مخصوصاً[4]، ومعنى قوله: (**كفى**)، أي: أغنى عن تكرار ذكرِ المخصوص الذي لا فائدة من ذكره هنا[5].

2 – أن تقوم صفتُه مقامَه، كقولك: نِعْمَ الصديقُ حليمٌ كريمٌ، وبِئْسَ الصاحبُ عذولٌ خذولٌ، والتقدير: نِعْمَ الصديقُ صديقٌ حليمٌ كريمٌ، وبِئْسَ الصاحبُ صاحبٌ عذولٌ خذولٌ، ويكثر هذا الاستعمال إذا كانت الصفةُ فعلاً والفاعل كلمةُ "ما"، ويندر إذا كان الفاعل اسماً ظاهراً[6]، كما في

---

(1) – المبرّد: المقتضب، مج2 ص142.

(2) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص 16.

(3) – ينظر الأصول في النحو لابن السرّاج: ج1 ص116، وشرح التسهيل لابن مالك: مج3 ص (16– 17).

(4) – ينظر الصفحة (42) من هذا البحث.

(5) – ابن عقيل: عبد الله العقيلي، شرح ابن عقيل، مج3 ص (156– 157)، والنحو الوافي لعبّاس حسن: مج3 ص379.

(6) – وهو ليس بالقويّ، فقد حكى ابن السرّاج عن الكِسائي أنه يجيز: نِعْمَ الرجلُ يقوم وقام عندك، فيُضمره، يُريد: نِعْمَ الرجلُ رجلٌ عندك، ونِعْمَ الرجلُ رجلٌ قام ويقوم، ولا يجيزه مع المنصوب، فلا يقول: نِعْمَ رجلاً قام ويقوم، قال ابن السرّاج: "وهذا عندي لا يجوز من قِبَل أنّ الفعل لا يجوز أن يقوم مقام الاسم، وإنما تُقيم مِن الصفات مقام الأسماء الصفاتِ التي هي أسماءُ صفاتٍ [بحيث] يدخل عليها ما يدخل على الأسماء، والفعلُ إذا وصفْنا به فإنما هو شيءٌ وُضِع في غير موضعه يقوم مقام الصفة للنكرة، وإقامتُهم الصفةَ مقامَ الاسمِ اتِّساعٌ في اللغة، وقد يُستقبَح ذلك في مواضع، فكيف تُقيم الفعلَ مقامَ الاسمِ؟! وإنما يقوم مقامَه الصفةُ، وإنْ جاء من هذا شيءٌ شذَّ عن القياس فلا ينبغي أن يُقاس عليه، بل نقوله فيما قالوه فقط". [الأصول في النحو لابن السرّاج: ج1 ص (116– 117)].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]م، والتقدير: بِئْسَ الشيءُ شيءٌ يأمركم به إيمانُكم، فحُذف المخصوص، وهو: "شيء" وأُقيمت الصفة – الجملة الفعلية (يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ) – مقامَه، ومثاله مع الفاعل الظاهر، قولُك: نِعْمَ الصاحبُ تستعين به فيُعينُك، وتقدير الكلام: نِعْمَ الصاحبُ صاحبٌ تستعين به فيعينك، ومنه قول الشاعر[1]:

بِئْسَ المرْءُ قَدْ مُلِئَ ارْتِيَاعاً *** ويَأْبَى أَنْ يُرَاعِي مَنْ يُرَاعَى

والتقدير: بِئْسَ المرءُ رجلٌ قد ملئ ارتياعاً، فحُذِف الموصوفُ (رجل) وأُقيمت صفتُه مقامَه.

3 – إذا حُذِف الموصوفُ وصفتُه وبقي ما يتعلّق بهما، كقول الشاعر[2]:

بِئْسَ مَقَامُ الشَّيْخِ أَمْرِسْ أَمْرِسْ *** إمَّا عَلَى قَعْوٍ وإِمَّا اقْعَنْسِسْ

والتقدير: بِئْسَ مقامُ الشيخ مقامٌ (الموصوف) مَقُولٌ فيه (الصفة) أمرِسْ أمرس، فحُذِف كلٌّ من الصفةُ والموصوف، وهما المخصوص بالذمّ.

4 – أن يكون مضافاً، فيقوم المضاف إليه مقامَه، كما في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات: 11]م، وذلك إذا فسَّرنا الاسمَ بالذِّكر المرتفع، فيكون التقدير: بِئْسَ الذكرُ ذكرُ – وهو المخصوص بالذمّ المحذوف – الفسوقِ يَنبُز به المؤمنُ أخاه المؤمن[3]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 5]م، فالمخصوص بالذمّ – هنا – محذوفٌ، تقديره – على أحد الأقوال فيها – (مَثَلُ)، ويكون التقدير: بِئْسَ مثلُ القومِ مثَلُ الذين كذّبوا بآيات الله، فحُذف المضاف: (مَثَلُ)، وأقيم المضاف إليه: (الذين) مقامَه في الرفع بالابتداء؛ كما ينبغي

---

(1) – هذا الرجز بلا نسبة، ولا يُعلَم قائله.[ينظر المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع يعقوب: مج10 ص302].

(2) – يُذكر هذا البيت بلا نسبة، قال ابن منظور في اللسان: "يقول: إن استقى ببَكْرة وقع حبلُها في غير موضعه فيقال له: **أمرِسْ** [أي: أَعِد المرَسَ – وهو الحبل – إلى موضعه على البكرة]، وإن استقى بغير بَكْرة ومَتَحَ [أي: جذب الدلو] أَوْجَعَه ظهرُه، فيقال له: **اقْعَنْسِسْ** [أي: تقهقر إلى الوراء] واجذِب الدلو". [لسان العرب لابن منظور، مج4 ص279، مادّة: قعس].

(3) – ينظر الكشّاف للزمخشري: مج4 ص371.

للمخصوص الجائي على الأصل[1]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: 271]م، والمعنى: فنِعْمَ الشيءُ إبداؤها[2]، فحُذف المضاف (إبداءُ) وهو المخصوص بالمدح -، وأقيم المضاف إليه وهو الضمير: (هي) العائد على الصدقات مقامَه[3].

هذا وقد جاء مخصوص "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم أكثرُه محذوفاً إلا في مواضع يسيرة - على خلافٍ فيها - جاء مُصرَّحاً به، ويمكن حصرُها في سبعة مواضع، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: 271]م.

المخصوص بالمدح في هذه الآية الكريمة هو الضمير المنفصل (هي)، قال المنتجَب[4]: "و(هي): المخصوص بالمدح"[5]، لكن من العلماء من قال: إنّ المخصوص بالمدح محذوفٌ، تقديره على حذف مضافٍ، أي: فنِعِمَّا إبداؤها[6].

2 – قال الله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النحل: 30- 31]ك.

قال الزمخشريّ: "(جَنَّاتُ عَدْنٍ): خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ويجوز أن يكون المخصوصَ بالمدح"[7]، وقال أبو حيّان: "والظاهر أنّ المخصوص بالمدح هو: (جَنَّاتُ عَدْنٍ)"[8].

3 – قال الله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 90]م.

---

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص19.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج2 ص 323، الكشّاف: مج1 ص316.

(3) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص14.

(4) – **المُنتجَب**: هو أبو يوسف المنتَجَب بن أبي العزّ رشيد الهمذاني، نزيل دمشق، كان صوفيّاً نحويّاً مقرئاً فاضلاً، صنّف: «شرح المفصَّل» و«شرح الشاطبيّة» وغير ذلك، مات سنة: (643هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص300].

(5) – المنتَجَب: الفريد في إعراب القرآن المجيد، مج1 ص516.

(6) – شرح تسهيل الفوائد لابن مالك: مج3 ص14، البحر المحيط لأبي حيّان: مج2 ص323، الكشّاف للزمخشري: مج1 ص316، إعراب القرآن لسليمان ياقوت: مج2 ص356.

(7) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص603.

(8) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج5 ص488.

قال أبو جعفر النحّاس: "بِئْسَ الشيءُ اشتروا به أنفسهم، ثم قال: (**أَنْ**) على التفسير، كأنه قيل: ما هو؟"[1]، يعني بذلك أنّ (**أَنْ يَكْفُرُوا**) هو المخصوص بالذمّ، وقال أبو حيّان: "(**أَنْ يَكْفُرُوا**) وهو المخصوص بالذمّ، وبه قال الفارسيّ في أحد قوليه، واختاره الزمخشريّ"[2]، وقال السيوطي: "والمخصوص بالذمّ (**أَنْ يَكْفُرُوا**)، أي: كفرُهم"[3].

4 – قال تعالى: ﴿**لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ [المائدة: 80]م.

قال أبو جعفر الطبري: "وأنّ في قوله: (**أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ**) في موضعِ رفعٍ ترجمةً عن "ما" التي في قوله: (**بِئْسَ مَا**)"[4]، يريد أنّ جملة: (**أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ**)، هي المخصوص بالذمّ، وقال نِظامُ الدين النيسابوريّ (ت بعد 850هـ): "(**أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ**) رُفع على أنه المخصوصُ بالذمّ، أي: بِئْسَ الزادُ إلى الآخرة أنْ سخط الله عليهم، يعني: مُوجِب سخَط الله وسببه"[5].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ**﴾ [هود: 98]ك.

قال أبو حيّان: "ويطلق الوِرْد على الوارد؛ فالواردُ لا يكون الموردَ، فاحتِيج إلى حذفٍ ليطابق فاعلُ "بِئْسَ" المخصوصَ بالذمّ، والتقدير: بِئْسَ مكانُ الوردِ المورودُ، يعني به: النار، فـ (**الوِرْدُ**) فاعل (**بِئْسَ**)، والمخصوص بالذمّ: (**المَوْرُودُ**)، وهي النار"[6].

6 – قال الله تعالى: ﴿**بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ**﴾ [الحُجُرات: 11]م.

قال ابن المنيّر[7]: "وأَوْلاها [أي: التآويل التي ذكرها الزمخشري] هو: أَوَّلُها، ولكن بعد صرف الذمّ إلى نفس الفسق، وهو مستقيم؛ لأنّ الاسمَ هو المسمّى"[8]، فيكون المخصوص بالذمّ عنده هو: هو: (**الفُسُوقُ**)، و(**الاسْمُ**) فاعل (**بِئْسَ**)، على أنّ الاسم بمعنى: المسمّى.

---

(1) – أبو جعفر النحّاس: أحمد بن محمّد، إعراب القرآن، مج1 ص336.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج1 ص304، وينظر الكشّاف: مج1 ص165.

(3) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص14.

(4) – أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 ج2 ص206.

(5) – نظام الدين القمّي: الحسن بن محمّد، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مطبوع مع تفسير الطبري، مج5 ج1 ص12.

(6) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج5 ص259.

(7) – **ابن المُنَيِّر**: هو أبو العبّاس ناصر الدين أحمد بن محمّد الجذامي الإسكندراني المالكي، قاضي الإسكندرية، برع في الفقه والأصول والعربية والبلاغة، له تصانيف منها: «الانتصاف من الكشاف» وغير ذلك، ولد سنة: (620هـ) وتوفي سنة: (683هـ). [شذرات الذهب لابن العِماد الحنبلي: مج3 ص381، والأعلام للزِّركلي: مج1 ص220].

(8) – ابن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف، مطبوع بهامش تفسير الكشّاف، مج4 ص370.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7 – قال الله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 5]م.

قال الزمخشريّ: "(**بِئْسَ**) مثلاً (**مَثَلُ القَوْمِ الذِين كَذَّبُوا بآيَاتِ اللهِ**)، وهم اليهود"[1]، فيكون المخصوصُ بالذمّ هو: (**مَثَلُ القَوْمِ**) على أن يجعل فاعلُ "بِئْسَ" مضمراً والتمييزُ محذوفاً، وذلك من أجل أن يُطابق الفاعلُ المخصوصَ ويجانِسَه، وإن كان لا يحسُن حذفُ التمييز مع استتار الضميرِ (الفاعلِ) العائدِ عليه؛ لئلاّ يبقى الضميرُ مُبهَماً ليس له ما يفسّره؛ فالتمييزُ إذاً لازمٌ[2]، فإن وُجدت قرينةٌ تدلّ عليه بعد حذفِه صحّ الحذفُ، وهي هنا ضرورةُ مجانسةِ الفاعلِ للمخصوص.

تلك هي المواضع التي جاء فيها مخصوص "نِعْمَ وبِئْسَ" مُصرَّحاً به – على خلافٍ – وجاء في سائر المواضع الأخرى محذوفاً، والحاصل أنّ حذف المخصوص في القرآن أكثرُ من التصريح به إلى درجة أنه لا يَبعُد أن يُقال: إنّ مخصوص "نِعْمَ وبِئْسَ" لم يَرِد في القرآن الكريم إلاّ محذوفاً.

الفرع الثالث: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالفعل والفاعل والتمييز.

أوّلاً: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالفعل والفاعل:

قال ابن مالك: "وإن كان الفاعلُ مُذكَّرَ اللفظ والمخصوصُ مؤنّثاً جاز أن يقال: "نِعْمَتْ وبِئْسَتْ" مع كون الفاعل عارياً من التأنيث؛ لأنها في المعنى شيءٌ واحدٌ، إلاّ أنّ ترك التاء أجودُ، كقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ [الكهف: 31]ك، ولو قيل: نِعْمَتْ الثوابُ الجَنّةُ كان جيّداً ، كقول الشاعر [يمدح الجنّة][3]:

نِعْمَتْ جَزَاءُ المتَّقِينَ الجَنَّه *** دَارُ الأَمَانِي والمنَى والمِنَّه

ومثله [قول ذي الرُّمّة يمدح ناقة له][4]:

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص530.

(2) – قال المبرّد: "أمّا "نِعْمَ وبِئْسَ" فلا يقَعَان إلاّ على مُضمَر يفسّره ما بعده، والتفسير لازم". [المقتضب: مج2 ص 144].

(3) – الرَّجز بلا نسبة في خزانة الأدب: مج9 ص1421، وسرّ صناعة الإعراب لابن جنّي: مج2 ص455.

(4) – البيت من البسيط، وهو لذي الرُّمّة في ديوانه، ص152، و(**عَيْطَلٌ**): جاء في الصّحاح: "والعيطل من النساء: الطويلة العنق" [الصّحاح للجوهَري: مج5 ص1768، مادّة: عطل]، وقال الزمخشري: "وامرأة وناقة **عَيْطَلٌ**: طويلة في حُسْن" [أساس البلاغة للزمخشري: ص306، مادّة: عطل]، (**ثَبْجَاءُ**): قال ابن دُريد: "ثَبَجُ كلِّ شيء وسطُه، وجمعُه أثباجٌ وثُبوجٌ، وامرأة **ثَبجاء** ورجل أثبَج: إذا كان عظيمَ الجوف". [جمهرة اللغة لابن دريد: مج1 ص258]، (**مُجْفِرَةٌ**): المجْفَرُ: العظيم الجنْبَين من كلّ شيء، وناقةٌ **مُجْفَرةٌ**، أي: عظيمة الجُفْرَة، وهي وسطها. [لسان العرب: مج3 ص135، مادّة: جفر]، (**الزَّوْر**): الصدر،

أَوْ حُرَّةٌ عَيْطَلٌ ثَبْجَاءُ مُجْفِرَةٌ *** دَعَائِمَ الزَّوْرِ **نِعْمَتْ** زَوْرَقُ البَلَدِ"[1]

فكلٌّ من: (**جَزَاء**) و(**زَوْرَق**) – وهما فاعل "نِعْمَ" – مُذكَّر، وقد أُلحِقت التاء بها مراعاةً للمخصوص بالمدح المؤنّث، ففي الأولى المخصوص هو: الجنّة، وفي الثانية: الناقة، وكلاهما مؤنّث.

هذا وقد وقع بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" فاعلٌ مذكّر ومخصوصٌ مؤنّثٌ في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، كلّها جاءت فيها "نِعْمَ وبِئْسَ" مجردتان عن التاء، وهذه المواضع هي:

﴿**وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ**﴾، أي: الجنّة أو المغفرة، تكرّرت ثلاث مرّات:

1 – [آل عمران: 136]م 2 – [العنكبوت: 58]ك 3 – [الزُّمَر: 74]ك.

﴿**نِعْمَ ٱلثَّوَابُ**﴾ [الكهف: 31]ك، أي: الجنّة أو الأرائك.

﴿**وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾، أي: جهنّم، تكرّرت عشر مرّات:

1 – [البقرة: 126]م 2 – [آل عمران: 162]م 3 – [الأنفال: 16]م 4 – [التوبة: 73]م 5 – [الحج: 72]م 6 – [النور: 57]م 7 – [الحديد: 15]م 8 – [المجادلة: 8]م 9 – [التحريم: 9]م 10 – [الملك: 6]ك.

﴿**بِئْسَ ٱلْمِهَادُ**﴾، أي: جهنّم، تكرّرت خمس مرّات:

1 – [البقرة: 206]م 2 – [آل عمران: 12]م 3 – [آل عمران: 197]م 4 – [الرعد: 14]م 5 – [**ص**: 56]ك.

﴿**بِئْسَ ٱلْقَرَارُ**﴾، أي: النار، تكرّرت مرّتين: 1 – [إبراهيم: 29]ك 2 – [**ص**: 60]ك.

﴿**بِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ**﴾، أي: النار: تكرّرت أربع مرّات:

1 – [آل عمران: 151]م 2 – [النحل: 29]ك 3 – [الزُّمَر: 72]ك 4 – [غافر: 76]ك.

﴿**وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ**﴾ [هود: 98]ك، أي: النار.

﴿**بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ**﴾ [هود: 99]ك، أي: اللعنة.

ثانياً: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالتمييز:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقيل: وسط الصدر، وقيل: أعلاه، وناقة زَوْرَةٌ: قويّة غليظة. [لسان العرب: مج3 ص311، مادّة: زور]، (**زَوْرَق**): جاء في تاج العروس: "**الزَّوْرَقُ** كجَوْهَر: السفينة الصغيرة". [تاج العروس: مج13 ص192، مادّة: زرق].

(1) – ابن مالك: تسهيل الفوائد، مج3 ص15، وينظر أيضاً إعراب القرآن للنحّاس: مج2 ص455.

الأصل أن يجيئ التمييز للتفسير ورفعِ الإبهام في الاسم الواقع قبله، فإذا زال الإبهامُ فلا حاجةَ إلى التمييز، وفي جملة المدح والذمّ قد يكون الفاعل مُضمَراً، وفي ذلك الإضمار غموضٌ وإبهامٌ يحتاج إلى تفسير، فلأجل ذلك يُؤتى بالتمييز، أمّا إذا كان الفاعل اسماً ظاهراً ففي الإتيان بالتمييز بعده خلافٌ[1]، وتتلخّص علاقةُ المخصوص بالمدح والذمّ بالتمييز فيما يلي:

أ – لا يصحّ أن يتأخّر التمييز عن المخصوص بالمدح أو الذمّ إذا كان الفاعل ضميراً مستتراً، ولهذا حكموا بالشذوذ[2] على مثل: نِعْمَ عبدُ الصمدِ رجلاً، باعتبار أنّ (عبد الصمد) هو المخصوص بالمدح، أمّا باعتباره فاعلاً فلا يصحّ ذلك؛ لأنه ليس من الأنواع التي تصلُح أنْ تكون فاعلاً في هذا الباب.

ب – لا بدّ من مطابقة التمييز لمعنى المدح والذمّ، بأن يُطابِق التمييزُ المخصوصَ إفراداً وغيرَ إفراد، وتذكيراً وتأنيثاً، نحو: نِعْمَ رجلاً فارسٌ، ونِعْمَ رجلين عبدُ القادر وخليفةُ، ونِعْمَ رجالاً محمّدٌ ومحمودٌ وبدرٌ، ونِعْمَ نساءً شيماء ونُسيبة وزينب.

ولم يَرِد في القرآن الكريم مميِّز الضمير في: "نِعْمَ وبِئْسَ" اسماً ظاهراً إلاّ في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿**بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا**﴾ [الكهف: 50]ك، حيث جاء مُتقدِّماً على المخصوص – على الأصل – مطابقاً له في المعنى، ومع أنّ المخصوص بالذمّ مثنّى أو جمعٌ – وهو إبليس وذرّيتُه، فإنّ التمييز جاء مفرداً، وهو: (**بَدَلاً**)، فلم يقل: بِئْسَ للظالمين أبدالاً، وإنما قال: (**بَدَلاً**)؛ لأنّ إبليس وذريتَه لهم حقيقةٌ واحدةٌ يشتركون فيها، وهي الإبليسيّة، فلم يكن مِن داعٍ لمعنىً التثنية أو الجمع،

(1) – سبق ذكره، ينظر هامش رقم (2) من الصفحة (42).

(2) – اعتَرض على هذا الحكم ابنُ مالك بقوله: "وأمّا ما رُوي من قول بعضهم: نِعْمَ زيدٌ رجلاً، على أنّ الفاعل مُضمَر، و(رجلاً) مُفسِّرُه، و(زيدٌ): مبتدأٌ، خبرُه: (نِعْمَ) وفاعلها المستتر، فليس بشُذوذٍ إلا بِكَونِ مميِّزِ الضميرِ مسبوقاً بالمبتدأ [الذي هو المخصوص بالمدح]، فيكون في ذلك نَظيرَ قولِ الشاعر: والتغلِبيُّون **بِئْسَ الفَحْلُ فَحْلُهُمُ** *** **فَحْلاً** وَأُمُّهُمْ زَلاَّءُ مِنْطِيقُ". [شرح التسهيل: مج3 ص14]. إنّ إيراده لبيت جرير فيه نظر؛ لأجل أنّ الفاعل فيه اسمٌ ظاهرٌ، بخلاف قولنا: (نِعْمَ زيدٌ رجلاً) فالفاعل ضمير مستتر، ووجه الفرق بين الأسلوبين أنّ **الأوّل** – وهو ما كان فيه الفاعل ضميراً مستتراً – لا بُدّ له من تمييز يرفع الإبهام في الضمير، ومن ثَمّ لم يصحَّ حذفه إلا بقرينة تدلّ عليه، وبالتالي لا يحسُن تأخيره عن المخصوص بل لا يجوز؛ لأنّ فيه حاجةً إلى البيان، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، وأمّا **الثاني** فالأمر يختلف باعتبار أنّ الفاعل اسم ظاهر لا يحتاج إلى تمييز يفسِّره، ومن ثَمّ قد يُستغنى عنه في جملة المدح والذمّ بل يكون تركه أَوْلى، فتأخيره والحالة هذه عن المخصوص لا يضرّ؛ لانتفاء ما لأجله منعوا في الأوّل؛ فافترقا.

وفي غير هذا الموضع جاء التمييز بلفظ "ما" – نكرةً تامَّة أو ناقصةً –، وهذا على رأي من يرى أنّ "ما" الواقعة بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" في موضع نصب على التمييز[1].

المطلب الثاني

ما يلحق بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم

الفرع الأوّل: ما جاء على وزن "فَعُلَ" مراداً به المدح أو الذمّ:

كلّ فِعلٍ ثلاثيّ لا يخرج عن ثلاثة أوزانٍ تنشأ من تحريك عَينه بالفتح أو الكسر أو الضمّ، نحو: فَعَلَ وفَعِلَ وفَعُلَ، أمّا أوّلُه فمفتوحٌ دائماً إذا كان مبنيّاً للمعلوم، والثلاثيُّ مضموم العين لا يكون إلا لازماً؛ ولهذا يصير الفعل المتعدّي لازماً إذا تحوّل من صيغته الأصيلة إلى صيغة: "فَعُلَ"[2].

ومعلومٌ أنّ الفعل الثلاثي أيّاً كان وزنُه فهو يؤدّي معنىً مُعيّناً، نحو: (فَهِمَ) يؤدّي معنى الفهْم، و(ظَرُفَ) يؤدّي معنى الظَّرافة، و(حَسَدَ) يؤدّي معنى الحَسَد، فإذا أردنا أن نُضمِّن هذه الأفعالَ – زيادةً على معناها الأصيل – معنى المدح أو الذمّ، فيكفي عندئذٍ أن نَصُوغ جميعَ هذه الأفعال على الوزن: "فَعُلَ" – مضموم العين – فنقول في فَهِمَ: فَهُمَ، أي: نِعْمَ الفاهمُ وما أفهَمَه!، وفي ظَرُفَ: ظَرُفَ، تبقى كما هي، والمعنى: نِعْمَ الظريفُ وما أظرَفَه!، وفي حَسَدَ: حَسُدَ، أي: بِئْسَ الحاسدُ وما أحسَدَه!، قال ابن مالك: "وأمّا مِنْ أمثلةِ المحوَّل عن: (فَعُل وفَعِل) فمنها قول العرب: لَقَضُوَ الرَّجُلُ فلانٌ، وعَلُمَ الرجلُ فلانٌ، بمعنى نِعْمَ القاضِي هو، ونِعْمَ العالِمُ هو، وفيه معنى: ما أقضاه! وما أعلمَه! ولا يُقتصَر في هذا النوع على المسموع، كما لم يُقتَصر في التعجّب"[3].

والمدح والذمّ بالتحويل إلى "فَعُلَ" – مضموم العين – هو مدحٌ وذمٌّ خاصٌّ؛ لأنه يَقتصِر على المعنى الذي يدلّ عليه الفعل، وهو معنى مُعيَّن محدود، أضف إليه معنى التعجّب، وهذا الأسلوب للمدح

---

(1) – ينظر الصفحة (33) من البحث، وينظر مواضع "ما" بعد "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم في الصفحات (34- 37)، من هذا البحث، وهي أحد عشر موضعاً، موضعان لـ: "نِعْمَ" وتسعةٌ لـ: "بِئْسَ".

(2) – ابن عقيل: شرح ابن عقيل، مج2 ص (117- 118)، وينظر النحو الوافي لعبّاس حسن: مج3 ص387.

(3) – شرح التسهيل لابن مالك: مج3 ص21، وقال ابن عقيل شارحاً قولَ ابنِ مالك: ...، واجْعَلْ **فَعُلاً** *** مِنْ ذِي ثَلاثةٍ **كـ"نِعْمَ" مُسْجَلاً**: "ومقتضى هذا الإطلاق أنه يجوز في: (عَلِمَ) أن يقال: عَلُمَ الرجلُ زيدٌ – بضم عين الكلمة –، وقد مثّل هو وابنه به، وصرّح غيرُه أنه لا يجوز تحويل (عَلِمَ وجَهِلَ وسَمِعَ) إلى: "فَعُلَ" بضمّ العين؛ لأنّ العرب حين استعملتها هذا الاستعمالَ أبقتْها على كسرة عينها، ولم تحوّلها إلى الضمّ، فلا يجوز لنا تحويلُها، بل نُبقيها على حالها كما أبقَوها، فنقول: عَلِمَ الرجلُ زيدٌ، وجَهِلَ الرجلُ عمرٌو، وسَمِعَ الرجلُ بكرٌ ". [شرح ابن عقيل: مج2 ص158].

والذمّ بهذه الصورة مختلفٌ شيئاً ما عنه في: "نِعْمَ وبِئْسَ"؛ لأنّ معناهما المدح والذمّ العامّان الخاليان من إفادة التعجّب(1)، قال المبرِّد: "وأمّا ما ذَكرتُ لك أنه يقع في معناهما [أي: نِعْمَ وبِئْسَ] مُقارِبٌ لهما، نحو: لَكَرُمَ زيدٌ"(2)، وقال أيضاً: "واعلم أنه ما كان مثلَ: كرُم زيدٌ، وشرُف عمرُو، فإنّ معناه في المدح معنى ما تعجّبتَ منه، نحو: ما أشرَفَه! ونحوُ ذلك: أَشْرِفْ به!، وكذلك معنى "نِعْمَ" إذا أردت المدح، ومعنى "بِئْسَ" إذا أردت الذمّ"(3).

ويُلحق "فَعُلَ" بفِعلَي المدح والذمّ "نِعْمَ وبِئْسَ" في الأحكام إذا تحقّق في صَوغه أمران:

الأوّل: أن يستوفي جميع الشروط(4) التي يجب اجتماعها في الفعل الذي تُصاغ منه صيغتا التعجّب.

الثاني: أن يكون على وزن "فَعُلَ" – وفيه خلاف(5)– سواءٌ كان مَصُوغاً على هذا الوزن من أوّل الأمر نقلاً عن العرب، مثل: شَرُفَ وكَرُمَ وحَسُنَ أو لم يكن، كـ: فَهِمَ وسَمِعَ وبَرَعَ.

وذكر أبو حيّان أنّ النحويّين اختلفوا في إجراء "فَعُلَ" المرادِ به المدحُ أو الذمُّ مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام على مذهبين(6):

المذهب الأوّل: وهو مذهب الفارسيّ وأكثرِ النحويّين، وهو جواز إلحاقه بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" فقط، فلا يكون فاعلُه إلاّ ما يكون فاعلاً لهما.

المذهب الثاني: وهو مذهب الأخفش والمبرّد، وهو جوازُ إلحاقه بباب "نِعْمَ وبِئْسَ" فيُجعل فاعلُه كفاعلهما، وذلك إذا لم يَدْخُله معنى التعجّب، وجوازُ إلحاقه أيضاً بفعل التعجّب فلا يجري مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في الفاعل ولا في بقيّة أحكامهما، بل يكون فاعله ما يكون مفعولاً لفِعل التعجّب.

---

(1) – عبّاس حسن: النحو الوافي: مج3 ص387، وذكر ابن منظور أنّ صوَر التعجّب ثلاثٌ: ما أحسن زيداً! أَسْمِعْ به! كَبُرَتْ كلمةً! وقد شذّ عنها "نِعْمَ وبِئْسَ". [لسان العرب: مج5 ص220، مادّة: طمع]، والذي يظهر أنّه لا يعني بالشُّذوذ أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" خاليتان مِن إفادة التعجّب، ولكن يقصد أنّهما شذّتا لمخالفتهما للقياس في التعجّب، فقد وردتا بالكسر فالإسكان، والقياسُ أن تُضمّ العين على وزن: "فَعُلَ".

(2) – المبرّد: المقتضب، مج2 ص144.

(3) – المصدر نفسه: مج2 ص (149– 150).

(4) – قال ابن عقيل: "يُشترَط في الفِعل الذي يُصاغ منه فِعْلاَ التعجّب شروط سبعة: **أحدها**: أن يكون ثلاثيّاً...، **الثاني**: أن يكون متصرِّفاً...، **الثالث**: أن يكون معناه قابلاً للمفاضلة...، **الرابع**: أن يكون تامّاً...، **الخامس**: أن لا يكون مَنفيّاً ...، **السادس**: أن لا يكون الوصفُ فيه على "أَفْعَل"، واحترُز بذلك من الأفعال الدالّة على الألوان، كـ: سَوِدَ فهو أسود...، والعيوب، كـ: حَوِلَ فهو أحول...، **السابع**: أن لا يكون مَبنيّاً للمفعول"[شرح ابن عقيل: مج2 ص145].

(5) – ينظر الهامش رقم (2) في الصفحة السابقة.

(6) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص289.

إنّ ما ذهب إليه الأخفش والمبرِّد من جواز إلحاق "فَعُلَ" بباب "نِعْمَ وبِئْسَ"، وجعْلِ فاعلِه كفاعلهما إذا لم يدخُله معنى التعجّب فيه نظر؛ إذ لا يكاد يُتصوَّر انفصالُ التعجّب عن المدح والذمّ في هذا الأسلوب، وقد تقدّم القول بأنّ الثلاثيّ إذا حُوِّل إلى فَعُلَ – بضمّ العين – قصداً للمدح أو الذمّ فإنه يتضمّن التعجّب حتماً، وفي هذا يقول ابن السرّاج: "وما كان مثلَ: كَرُم رجلاً زيدٌ!، وشرُف رجلاً زيدٌ! – إذا تعجّبتَ – فهو مثلُ: نِعْمَ رجلاً زيدٌ؛ لأنّك إنما تمدح وتذمّ وأنت متعجِّبٌ"[1]، وقال ابن مالك: "وأُجري باطِّرادٍ مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" ما كان على "فَعُل" مُضمَّناً تعجُّباً، نحو: حَسُن الخُلُق حِلْمُ الحلُماء، وعظُم الكرمُ تقوى الأتقياء، وقَبُح العملُ عِنادُ المبطِلين، وشَنُعَت الوجوهُ وجوهُ الكافرين"[2]، وقال عبّاس حسن – بعد نقله كلام الأشموني حول السبب الذي يجعل الفعل المتعدّي لازماً، وهو تحويله إلى "فَعُل" –: "فلم يأت في كلامه ولا في حاشية الصَّبَّان ما يدلّ صراحةً على أنّ المبالغة والتعجّب يلازمان مدحاً أو ذمّاً، مع أنّ النحاةَ صرّحوا بأنّ تحويل الفعل الثلاثي إلى "فَعُل" – بضمّ العين – بقصدِ المدح أو الذمّ يستلزم التعجّب حتماً"[3].

وإذا اتجهنا إلى قول الفارسيّ وأكثر النحويّين بإلحاق "فَعُل" بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" فقط، فلا يخلو من نظر أيضا؛ لأنه إن أُريد أنّ "فَعُل" لا يُعامَل معاملة فِعل التعجّب وإنما يُجرى مجرى: "نِعْمَ وبِئْسَ" فقط، فهذا يرُدّه قول الأخطل التغلبِيّ (ت 90هـ) يمدح الخمر: وحَُبَّ بها مَقْتُولَةً حينَ تُقْتَلُ[4]، قال ابن السرّاج: "والاستشهاد فيه على أنّ (حَبَّ) للمدح والتعجّب، وأصلُها بضمّ العين للتحويل إلى المدح...، وفاعلُها الضمير المؤنّث المجرورُ بالباء؛ لأنّ هذه الصيغةَ تعجُّبِيةٌ؛ لكونها بمعنى: أَحْبِبْ بها"[5]، فـ"حَبَّ" من باب "فَعُلَ" المرادِ به المدح، ومع ذلك لم تجرِ مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" – كما هو مذهب الفارسيّ وجمهور النحويّين –؛ إذ الفاعل في: "نِعْمَ وبِئْسَ" لا يجوز أن يكون مُعَيَّناً، وفي قول الأخطل الفاعلُ – وهو الضمير المؤنّث المجرور بالباء الزائدة – هو نفسه المخصوص بالمدح، وفي: "نِعْمَ وبِئْسَ" لا يكون الفاعل هو المخصوص بالمدح أو الذمّ، وقد نَقل

(1) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

(2) – ابن مالك: شرح التسهيل، مج3 ص21.

(3) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص (347– 348).

(4) – وصَدْرُ البيت: فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمِزَاجِهَا، وهو للأخطل التغلبيّ في ديوانه بلفظ: وأطْيِب بها، ص263.

(5) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

عبّاس حسن عن الخضريّ ما نصّه: **"**وكلّ "فَعُل" يخالف "بِئْسَ ونِعْمَ" في ستّة أمور، **اثنان في معناه:** إشرابُه التعجّب، وكونُه للمدح الخاصّ أو الذمّ الخاصّ، **واثنان في فاعله الظاهر**: جوازُ خلُوّه من: (ال)، نحو: حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً، وكثرةُ جرّه بالباء الزائدة تَشْبيهاً بـ: أَسْمِعْ بهم، كقولهم[1]:

حَبَّ بِالزَّوْرِ الذِي لاَ يُرَى *** مِنْهُ إِلاَّ صَفْحَةٌ أَوْ لِمَامٌ

واثنان في فاعله المضمر: جوازُ عَودِه ومطابقتِه لما قبله، ففي قولنا: محمّدٌ كرُم رجلاً، يحتمَل عَود الضميرِ على (رجلاً)، كما في: "نِعْمَ"...، وعلى (محمّد)، كما في فعل التعجّب؛ لتضمُّنِه معناه، وتقول: المحمّدون كرُمَ رجالاً، على الأوّل [أي: على التقدير الأوّل الذي يعود فيه الضمير المستتر على التمييز من غير أن يطابقه فيظلّ الضمير مُفرَداً مُذكَّراً]، وكرُمُوا رجالاً، على الثاني [أي على التقدير الثاني الذي يرجع فيه الضمير المستتر إلى مَرجِع قبله فيطابقُه]؛ فقول المصنّف[2]**(كَنِعْمَ مُسْجَلاً)** هي على سبيل الوجوب في كلّ الأحكام**"**[3].

وأمّا إن أُريد أنّ "فَعُل" المراد به المدح أو الذمّ يَجرى مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام، على سبيل الجواز لا الوجوب – كما هو ظاهر كلام ابن مالك في ألفيّته[4] – فهو قول حسن ولعلّه الراجح، وقد تقدّم من كلام الخضري ما يؤيّده.

وخلاصة الأمر أنه إذا تمّ تحويل الفعل على الوجه المذكور – آنفاً – صار بمنزلة "نِعْمَ وبِئْسَ" في الجمود وفي أصل دلالتهما على المدح أو الذمّ، ويجري عليه من الأحكام ما يجري عليهما[5]، ويَزيد عليها أنّه تجري عليه أحكام فِعل التعجّب، يوضّحه أنّه إذا أردنا مدْحَ زيدٍ بالكرم فإنّنا نقول: كرُمَ زيدٌ، ولنا أن نقول أيضاً: كَرُمَ الرجلُ زيدٌ، وهو كقولنا: نِعْم الكريمُ زيدٌ؛ وذلك لتضمُّنه معنى المدح والتعجّب جميعاً.

---

(1) – هو الطِرِمّاح بن حكيم، ذكره الزَّبيدي في تاج العروس، وقد رواه بلفظ: إلاّ صفحة عن لمام، و(الزَّوْر): الخيال يُرى في النوم. [تاج العروس: مج6 ص477، مادّة: زور].

(2) – هو جمال الدين أبو عبد الله محمّد بن مالك صاحب الألفيّة في النحو، مرّت ترجمته في الصفحة (19) من هذا البحث.

(3) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص (388- 389).

(4) – أي: قول ابن مالك في ألفيّته: وَاجْعَلْ كَبِئْسَ سَاءَ وَاجْعَلْ **فَعُلاَ** *** مِنْ ذِي ثَلاَثَةٍ **كَ"نِعْمَ" مُسْجَلاَ**

(5) – قال السكّاكي: "كل فِعلٍ يُحوّل إلى "فَعُل" ثم يتضمّن معنى "نِعْمَ وبِئْسَ" يصبح جامداً؛ فينطبق عليه أحكام "نِعْمَ وبِئْسَ" وأحكام فاعلهما ومخصوصهما". [مفتاح العلوم: ص158].

وقد جاء في القرآن الكريم "فَعُل" مراداً به المدح أو الذمّ في ستّة مواضع، سأذكرها مع شيء من الشرح والتحليل، وهذه المواضع هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: 5]ك.

3 – قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 76]ك.

5 – قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: 35]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]م.

أوّلاً: قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]م.

(**حَسُنَ**) فِعلٌ ثلاثيّ على وزن "فَعُل" قُصد به المدح، وهو متضمّن لمعنى التعجّب، وفاعله – بحسب الظاهر – هو: (**أُولَئِكَ**) إشارةً إلى النبيّين والصِدّيقين والشهداء والصالحين، أو إشارةً إلى المقصودين بقوله قبله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وجُمع مراعاةً لمعنى (**مَن**)، أمّا (**رَفِيقاً**) فانتصب على الحال، أو على التمييز، وهذا إذا عاملنا (**حَسُنَ**) معاملة فعل التعجّب، أمّا إذا أُجريت مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" فإنه على هذا يكون في الجملة تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: حسُن رفيقاً أولئك، ويكون (**أُولَئِكَ**) هو المخصوص بالمدح و(**رَفِيقاً**) تمييزٌ، ويكون الفاعل هو الضمير المستتر في: (**حَسُنَ**) العائد على التمييز، لكن قد يُعترض على هذا بأن يقال: إنّ جملة المدح والذمّ لا يُتصرّف فيها بالتقديم والتأخير؛ فقد ذكر النحويّون أنه لا يجوز بإجماعٍ أن يقال: نِعْم زيدٌ الرجلُ، ولا نِعْم زيدٌ رجلاً على خلاف[1]، ويجاب بأنّ ذلك لا يلزم؛ فـ (**حَسُنَ**) ليس كـ: "نِعْمَ" في جميع الأحكام، وقد تقدّم ذكر كلام الخضري أنّ كل "فَعُل" يخالف "نِعْمَ" في ستّة أمور، وقال ابن السرّاج: "وقومٌ يجيزون: نِعْمَ زيدٌ رجلاً، ويحتجّون بقوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ و(**حَسُنَ**) ليس كـ "نِعْمَ""[2]، فإذا تبيّن هذا عُلم أنّ ما يلزم في: "نِعْمَ وبِئْسَ" لا يلزم بالضرورة في: "فَعُل"

---

(1) – ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص204، وذكر أنّ الكوفيّين يجيزون: نِعْمَ زيدٌ رجلاً.

(2) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص117.

هذا وظاهر عبارة الزمخشري يفيد بأنّ (حَسُنَ) في هذه الآية لا يُراد به إلاّ معنى التعجّب، حيث قال: "ولاستقلاله بمعنى التعجّب قُرئ: (وَحَسْنَ) بسكون السين"[1]، والحقُّ أنه لا علاقةَ بين كونه قُرئ بسكون السين واستقلاله بمعنى التعجّب، ولهذا قال أبو حيّان: "وذكر - أي: الزمخشري - أنّ المتعجِّب يقول: (وحُسْنَ) (وحَسْنَ)، فهذا ليس بشيء؛ لأنّ الفَرّاء ذكر أنّ تلك لغاتُ العرب، فلا يكون التسْكين ولا هو والنقلَ لأجل التعجّب"[2].

وخلاصة القول أنّ جملة: (**وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**) تدلّ على المدح والتعجّب معاً، أو على التعجّب فقط وهو بعيد؛ لأجل السياق، فهي في المدح بمنزلة: نِعْمَ الرفيقُ أولئك في الحسن، وفي التعجّب بمنزلة: ما أحسن أولئك رفيقاً! ولأجل هذا المعنى - أي: التعجّب - استُحسِن مع "فَعُلَ" ما لم يُستحسَن مع "نِعْمَ وبِئْسَ"[3]، وعليه يكون في جملة: (**وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**) ثلاثة تقديرات:

الأوّل: **وحَسُنَ** (فِعلٌ قُصد به المدح والتعجّب) **أُولَئِكَ** (فاعل ومخصوص بالمدح) **رَفِيقاً** (تمييز أو حال).

الثاني: **وحَسُنَ** (فِعلٌ قُصد به المدح والتعجّب) **رَفِيقاً** (تمييز مؤخّر) **أُولَئِكَ** (مخصوص بالمدح مقدَّم).

الثالث: **وحَسُنَ** (فِعلٌ مستقلٌّ بمعنى التعجّب) **أُولَئِكَ** (فاعل) **رَفِيقاً** (تمييز أو حال).

تنبيه: قال الزركشي: "(**رفيقاً**) أي: رُفَقَاء، من باب خطاب الجمع بلفظ الواحد"[4].

ثانياً: قال الله تعالى: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ [الكهف: 5]ك.

في هذه الآية ذمّ وتعجيب من عِظم شناعة مَقالتهم: ﴿**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**﴾ [الكهف: 4]، وأيُّ شناعةٍ أعظمُ مِن وصفِ الله ﷻ بالاتخاذ للولد الذي يقتضي نقصَه؟! و(كَبُرَ) على وزن "فَعُل" قُصد به الذمّ وهو متضمّنٌ للتعجّب؛ فيكون في فاعله وجهان[5]:

أحدهما: أنه مُضمَر عائدٌ على المقالة المفهومة من قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**﴾.

والثاني: أنه مُضمَر عائدٌ على (**كَلِمَةً**)، وتكون (**كَبُرَ**) كـ: "بِئْسَ"، قال ابن مالك: "وأُجرِي باطِّرادٍ مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" ما كان على "فَعُلَ" مُضمَّناً تعجّباً...، ومنه قوله ﷻ: ﴿**كَبُرَتْ**

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص531.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص288.

(3) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص21.

(4) – الزركشي: أبو عبد الله محمّد بن بهادِر، البرهان في علوم القرآن، مج2 ص233.

(5) – ينظر البحر المحيط لأبي حيّان: مج6 ص97، والدُّرّ المصُون للسمين الحلبي: مج4 ص433.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾"[1]

ومن هذا يكون قد تحصّل لنا في هذه الآية ثلاثةُ أساليب:

الأوّل: **كَبُرَتْ** (فِعلٌ قُصد به الذمّ والتعجّب)، **والفاعل**: (ضمير عائد على تلك المقالة، وهو نفسه المخصوص بالذمّ)، **كَلِمَةً** (تمييز)، وجملة: ﴿**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ **(نعت)** للتمييز.

الثاني[2]: **كَبُرَتْ** (فِعلٌ قُصد به الذمّ والتعجّب)، **والفاعل**: (ضمير عائد على التمييز بعده)، **كَلِمَةً** (تمييز)، **والمخصوص بالذمّ** (محذوف، تقديره: تلك المقالة).

الثالث[3]: **كَبُرَتْ** (فِعلٌ قُصد به التعجّب فقط)، **والفاعل**: (ضمير عائد على تلك المقالة).

ثالثاً: قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]ك.

(حَسُنَتْ) من باب "فَعُل" والضمير فيها عائدٌ على الجنّات أو الأرائك[4]؛ فإن كانت للتعجيب فقط فالمعنى: ما أحسنها مرتفقاً! وإن اقترن بها مدحٌ فإنّ الضمير فيها (الفاعل) يعود إمّا على ما قبله (الجنّات أو الأرائك) أو ما بعده (مرتفقاً)، فعلى الأول يكون الفاعل هو نفسُه المخصوصَ بالمدح، قال الطبري: "**(وحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)** يقول: وحسنت هذه الأرائك مرتفَقاً، ولو ذُكِّرَ لِتذكير المرتفَق كان صواباً؛ لأنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" إنما تُدخلُهما العرب في الكلام لتدُلاَّ على المدح والذمّ للفعل، فكذلك تُذكِّرهما مع المؤنَّث وتُوحِّدُهما مع الاثنين والجماعة"[5]. إنّ الذي يظهر من تعليل الطبري المتعلّق بجواز بجواز تذكير **(حَسُنَتْ)** هو أنه يجعلها كـ: "نِعْمَ"، لكنه يُرجع الضمير فيها على الأرائك، وهذا غير جائز في أسلوب "نِعْمَ وبِئْسَ"؛ ممّا يدلّ على أنّ الطبري يرى[6] أنّ: "فَعُل" قد لا يجري مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام، وهو جائزٌ – كما سبق –، وإن كان الضمير عائداً على ما بعده وهو التمييز فإنه – والحالة هذه – يُعامل معاملة "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام، ويكون المخصوصُ بالمدح محذوفاً، تقديره: هي، أي: تلك الآرائك أو الجنّات، والمعنى: وحَسُنَ موضعُ الترافقِ الأرائكُ أو الجنّاتُ الموصوفةُ لكم.

---

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص21، وينظر الكشّاف للزمخشري: مج2 ص703.

(2) – ينظر تفسير الطبري: مج7 ج2 ص (128– 129)، والبحر المحيط لأبي حيّان: مج6 ص97.

(3) – ينظر الكشّاف للزمخشري: مج2 ص703.

(4) – ينظر تفسير الطبري: مج**7** ج2 ص171، والبحر المحيط: مج6 ص123، وروح المعاني: مج5 ج10 ص273.

(5) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج**7** ج2 ص171.

(6) – لأنه سيأتي قريباً أنه يُجري "فَعُل" مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام. ينظر الصفحة (59) من هذا البحث.

رابعاً: قال الله تعالى: ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا**﴾ [الفرقان: 76]ك.

(**حَسُنَتْ**) فعلٌ لإنشاء المدح والتعجّب، وفاعلُها ضميرٌ مبهمٌ يفسِّره التمييز الذي بعده، وهو: (**مُسْتَقَرّاً**)، والمخصوص بالمدح محذوفٌ، تقديره: هي، أي: الغرفة أو الجنّة، والمعنى: حَسُنَ موضعُ الاستقرارِ والمقامِ هي، ولا يضرُّ تأنيث الفعل مع عَود الضمير على مُذكَّر، وهو المستقرّ والمقام، فإنه قد تقدّم في باب "نِعْمَ وبِئْسَ" أنه يجوز تأنيثهما مع الفاعل المذكّر إذا كان المخصوص مؤنّثاً؛ لأنّ المستقرّ والمقام عبارةٌ عن الجنة، فجاز التأنيث لهذا المعنى، وقد يعود الضمير في: (**حَسُنَتْ**) على ما قبله، أي: الغرفة أو الجنة، وذلك إذا عوملت معاملة فِعل التعجّب، فلا تجري مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في الفاعل وفي غيره من الأحكام.

خامساً: قال الله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ [غافر: 35]ك.

إن أُريد بـ: (**كَبُرَ**) معنى التعجّب والاستعظام فقط، ففي فاعله عدّةُ أوجهٍ أحسنها أنه ضمير عائد على جدالهم المفهوم من قوله: ﴿**ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ**﴾ أو على المضاف المقدّر بـ: جِدَالُ الذين يجادلون[(1)]، فإن اقترن به ذمّ صار كـ: "بِئْسَ"[(2)] وجرى عليه من الأحكام ما يجري عليهما، وزاد عليها أنه تجري عليه أحكام فِعل التعجّب، ويكون فاعله هو الضمير المبهم في: (**كَبُرَ**) يفسِّره التمييز بعده (**مَقْتاً**)، والمخصوصُ بالذمّ محذوفاً، تقديره: جدالهم ذلك، والمعنى: كَبُرَ المقتُ مقتاً جدالُهم ذلك، كما يجوز أن يكون الضمير عائداً على ما قبله ويكون هو المخصوصَ بالذمّ.

سادساً: قال الله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**﴾ [الصف: 3]م.

القول في: (**كَبُرَ**) في هذه الآية كالقول فيما تقدّمها؛ لأنّ الأسلوب واحد، وهو أنه إمّا أن يكون للتعجّب، وفي هذا يقول الزمخشري: "قُصد في: (**كَبُرَ**) التعجّب من غير لفظه، كقوله: غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤها[(3)]، ومعنى التعجّب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنّ التعجّب لا يكون إلا من

---

(1) – الطبري: جامع البيان، مج9 ج2 ص42، الكشّاف: مج4 ص166، البحر المحيط: مج7 ص465، الفريد في إعراب القرآن المجيد: مج4 ص212، الدرّ المصون: مج6 ص41.

(2) – السمين الحلبي: الدرّ المصون، مج6 ص41.

(3) – لم أعثر على قائل هذا البيت.

شيء خارج عن نظائره وأشكاله"[1]، وعلى هذا تكون جملة: **(أَنْ تقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)** فاعل **(كَبُرَ)** أو يكون الفاعل هو الضمير العائد على المصدر المفهوم من قوله: **(لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)**، والتقدير: كَبُرَ هو – أي: قولكم ما لا تفعلون – مقتاً، وتكون جملة: **(أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ)** إمّا بدلاً من الضمير أو خبر مبتدأ محذوفٍ، تقديره: هو، وقد يكون الفاعل في الأصل (مقتُ) ثم نُقل إلى التمييز **(مَقْتاً)**، والتقدير: كَبُرَ مقتُ قولِكم ما لا تفعلون[2]، والوجه الثاني في: **(كَبُرَ)** أن تكون للمدح والتعجّب، ففي هذه الحال يجوز أن تُعامل كفعل التعجّب، ويجوز أيضا أن تُجعل ك: "نِعْمَ وبِئْسَ" مطلقاً، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "يقول: عَظُمَ مقتاً عند ربّكم قولُكم ما لا تفعلون"[3]، وهذا القول محتمل للوجهين المذكورين آنفاً؛ لأنّ قوله: (قولكم ما لا تفعلون) جائزٌ أن يكون هو المخصوصَ بالذمّ والفاعلُ ضمير مبهم يعود على تمييز بعده، أو يكون هو الفاعلَ والمخصوصَ بالذمّ، وهو يريد الأول بلا شكّ؛ بدليل قوله بعد ذلك: "فـ**(أَنْ)** في موضع رفع؛ لأنّ **(كَبُرَ)** كقوله: بِئْسَ رجلاً أخوك...، والصواب من القول في ذلك عندي: أنّ قوله: **(مَقْتاً)** منصوب على التفسير، كقول القائل: كبُر قولاً هذا القولُ"[4].

الفرع الثاني: "ساء" في القرآن الكريم.

"**ساء**" فعلٌ ثلاثيّ معتلّ العين يدلّ على معنى السُّوء، كما قال تعالى: ﴿**لِيَسُـࣳٔـُوا۟ وُجُوهَكُمۡ**﴾ [الإسراء: 7] ك، وكقوله تعالى: ﴿**سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ**﴾ [الملك: 27]ك، وهو فعلٌ متعدٍّ إذا عومل معاملةَ سائر الأفعال، فتقول: ساءت جهنّمُ الكافرين، وهو لازمٌ إذا قُصد به إنشاءُ الذمّ، وقد يدلّ على التعجّب[5]أيضاً.

لكن هل "ساء" المقصود به إنشاء الذمّ ك: "بِئْسَ" تماماً في المعنى والأحكام؟ قال عبّاس حسن: "أمّا "ساء" فالخلاف شديدٌ فيه، أهو مثل "بِئْسَ" تماماً في المعنى والأحكام أم هو مثلها في المعنى ولكنه في الأحكام كالأفعال المحوّلة؟"[6].

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص523.

(2) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج8 ص261، الدرّ المصون: مج6 ص (309– 310).

(3) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج10 ج1 ص56.

(4) – المصدر نفسه: ص ن.

(5) – ينظر الكشّاف للزمخشري: مج1 ص658.

(6) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص391.

أمّا من جهة المعنى فقد تقدّم أنّ "بِئْسَ" تدلّ على الذمّ العامّ الخالي من التعجّب؛ لأنها وُضعت أساساً للذمّ، و"ساء" إذا قُدّر فيه أنه مَبنيٌّ على "فَعُلَ"، فعلى هذا يَدخُله معنى التعجّب، قال ابن الأنباري: "وما كان مثلَ: كرُم رجلاً زيدٌ فهو على التعجّب، كما قال تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾"[1]، فإن لم تقدِّر فيه التحويلَ إلى "فَعُلَ" فيكون عندئذٍ موضوعاً من أصله للذمّ فكان كـ: "بِئْسَ".

وأمّا من حيث الأحكامُ، فإن كان مُحوّلاً عن: "فَعُل" فقد تقدّم ذكرُ الخلاف فيما إذا كان الفعل ثلاثيّاً حُوِّل إلى "فَعُلَ" بقصد المدح أو الذمّ أيجري مجرى "نِعْمَ وبِئْسَ" في جميع الأحكام أم لا؟ فإن لم يكن من باب "فَعُلَ" وإنما هو في الأصل للذمّ، فإنه يكون كـ: "بِئْسَ" في المعنى والعمل، قال عبّاس حسن – في معرض كلامه عن "ساء" –: "ويدخل في هذا النوع [أي: "فَعُلَ" المراد به المدح أو الذمّ] أنْ يلاحَظ فيه التحويل عند قيام قرينة، فيُستعمَل استعمال الأفعال التي تحوّلت، ويصحّ أن لا يلاحَظ فيه ذلك؛ لأنه موضوع في أصله للذمّ العامّ الصريح، مثل: "ساء"، فتجري عليه أحكام "بِئْسَ" من نواحيها المختلفة"[2]، وقال ابن مالك: "ساء الرجلُ أبو لهب، وساءت المرأةُ حمالةُ الحطب، وساء رجلاً هو، وساءت امرأةً هي، بإجراء "ساء" مجرى "بِئْسَ" في كلّ ما ذُكر، ولذلك استُغني بـ: "ساء" عن: "بِئْسَ" في قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ﴾، و"بِئْسَ" عن: "ساء" في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذِينَ﴾، وقد جمعها في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾" [3].

وقد ورد "ساء" في القرآن الكريم في ثلاثةٍ وعشرين موضعاً، اقترنت فيها "ساء" بـ: "ما" في عشرة مواضع؛ ممّا يُرجِّح أنها كـ: "بِئْسَ" تماماً؛ إذ لا يصحّ دخولها على ما كان من باب "فَعُلَ"، فلا يقال: كَرُمَ ما زيدٌ، أو قَبُحَ ما الكذب، وفي هذه الحال تُعامَل "ساء" معاملة "بِئْسَ"، ويجري عليها الخلاف في: "بِئْسَمَا"، وهذا في عشرة مواضع، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 66]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: 31]ك.

(1) – ابن الأنباري: كتاب أسرار العربية: ص110.

(2) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص392.

(3) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص20.

3 – قال الله تعالى: ﴿يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 9]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: 59]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [العنكبوت: 4]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المجادلة: 15]م.

10 – قال الله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: 2]م.

كلّ هذه المواضع ترجع إلى هذه الجمل الأربع: 1 – (**سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ**) 2 – (**سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) 3 – (**أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ**) 4 – (**سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**)، والأحكام في جميعها واحدةٌ، ولذا سأختار انموذجاً واحداً وعلى ضوئه تُفهم سائر الآيات.

قال الله تعالى: ﴿أُمَّةٌ مُّقۡتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 66]م.

يجوز في: (**سَاءَ**) ثلاثة أوجه(1):

الأوّل: (**سَاءَ**) من باب "فَعُلَ"، تفيد الذمّ والتعجّب، فهي بمنزلة: ما أسوأ عملَهم! قال الزمخشري: "فيه معنى التعجّب، كأنه قيل: وكثيرٌ منهم ما أسوأ عملَهم!"(2)، و(**ما**) معرفة ناقصة بمعنى: "الذي" دالّةٌ على التعيين، أو مصدريّة، والتقدير: ساء عملُهم.

الثاني: أنها بمعنى "بِئْسَ" وتجري عليها أحكامُها في الجمود وفي الفاعل والمخصوص، وعليه يكون الفاعل إمّا (**ما**) إذا كانت معرفةً تامّة، وإمّا الضمير المبهم المستكِن فيها العائد على التمييز الذي بعده، وهو (**ما**) إذا كانت نكرة تامّة أو ناقصة، وقد تكون مصدرية، فيتحصّل من ذلك أساليبُ كثيرة، نجملها في ما يلي:

1 – ساء الشيءُ يعملونه أعمالُهم المذكورةُ، من إيقاد الحربِ ضدّ المؤمنين والإفساد في الأرض ووصفِ الله تعالى بالبخل، ونحو ذلك من أعمال السُّوء.

---

(1) – ينظر الدرّ المصون للسمين الحلبي: مج2 ص569.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص658.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – ساء الشيءُ شيءٌ يعملونه.

3 – ساء الشيءُ الذي يعملونه، و"الذي": هو المخصوص بالذمّ، وليس صفةً لـ: "الشيء".

4 – ساء شيئاً يعملونه عملُهم المذكور.

5 – ساء شيئاً شيءٌ يعملونه.

6 – ساء شيئاً الذي يعملونه، و"الذي": هو المخصوص بالذمّ.

7 – ساء عملُهم، على أنّ (ما) مصدرية، وهذا الوجه قد يكون ضعيفاً؛ لأنه يلزم منه حذفُ التمييز، وإذا كان فاعل (سَاءَ) ضميراً مبهماً فلا يحسُن إذ ذّاك حذفُ المميّز لئلاّ يبقى الضمير مبهماً ليس له ما يفسِّره، أو يلزم منه أن تكون (سَاءَ) قد دخلت على معيَّن، وهو غير جائز.

الثالث: أن تكون "سَاءَ" هي المتصرِّفة المتعدّية، نحو: ساءه يَسُوؤه، ويكون مفعولها محذوفاً، و"**مَا**" مصدريةً، أو موصولةً و(**يَعْمَلُونَ**) صِلتَها، والتقدير: ساء عملُهم المؤمنين، وإنما حُذف المفعول لفَهْمِ المعنى[1].

هذا وقد ورد "ساء" مجرّداً عن: "ما" في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: 22]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا**﴾ [النساء: 38]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: 97]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: 115]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿**سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا**﴾ [الأعراف: 177]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: 32]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿**وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف: 29]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلاً**﴾ [طه: 101]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾ [الفرقان: 66]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ**﴾ [الشعراء: 173]ك.

---

(1) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص14.

11 – قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: 58]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافّات: 177]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: 6]م.

جاء فاعل (سَاءَ) في هذه المواضع تارةً ضميراً مبهماً، وتارة اسماً ظاهراً معرّفاً بـ: (ال) أو بالإضافة، وأمّا المخصوص بالذمّ فلم يَرِد إلا محذوفاً، وسأختار نماذج من هذه المواضع تكون محلاًّ للدراسة والتحليل.

1 – قال الله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [الأعراف: 177]ك.

تقدّم في باب "نِعْمَ وبِئْسَ" أنّ المخصوص لا بدّ أن يكون من جنس الفاعل أو التمييز، قال ابن مالك: "فإن ورد ما لا يصلح جعلُ آخرِه خبراً عن الفاعل تُؤوِّل وقُدِّر إلى ما حقُّه أن يكون عليه"(1)، وفي هذه الآية الكريمة لا يمكن جعل (القَوْمُ) خبراً عن: "المثَل"، في نحو قولنا: المثلُ المذمومُ القومُ، فكان لا بدّ من التأويل على حذف المضاف، أي: مثلُ القوم، قال الطبري: "وقيل ساء مثلاً من الشرّ، بمعنى: بِئْسَ مثلاً، وأُقيم (القَوْمُ) مقام المثل، وحُذف "المثَل" إذْ كان الكلام مفهوماً معناه، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فإنّ معناه: ولكنّ البرَّ بِرُّ مَن آمن بالله"(2)، وقال الزمخشري: "ومن حقِّ المخصوص أن يجانس الفاعل، وقولُه ﷻ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ على حذف المضاف، أي: ساء مَثَلاً مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآياتنا"(3)، وله في الكشّاف(4) تأويل آخر، حيث قدّر الفاعل بـ: أصحاب مثل القوم، أي: ساء أصحابُ مَثَلِ القوم مثلاً القومُ الذين كذّبوا بآياتنا، وذكر أنّ الجَحْدَريّ (ت 237هـ) قرأ: ﴿ساء مَثَلُ القومِ﴾، وهو محمول على حذف التمييز(5)أو على إجراء (سَاءَ) مجرى "فَعُلَ"، وقال أبو حيّان:

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص19.

(2) – أبو جعفر الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج5 ج3 ص89.

(3) – الزمخشري: المفصّل في صنعة الإعراب بشرح الخُوارزمي، مج3 ص320.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص179.

(5) – ينظر الهامش رقم (5) من الصفحة (48) من هذا البحث.

"ولا بدّ أن يكون المخصوص بالذمّ من جنس التمييز فاحتِيج إلى تقدير حذفٍ، إمّا في التمييز، أي: ساء أصحابُ مَثَلِ القومِ، وإمّا في المخصوص، أي: ساء مَثَلاً مَثَلُ القوم"[(1)].

غير أنّ الخُوارزمي[(2)] يتأوّل الآية على نحوٍ آخر، فيجعل **(القَوْمُ)** هو الفاعل، و**(مَثَلاً)** منصوباً على التمييز، وأمّا المخصوص بالذمّ فهو: **(الذِينَ كَذَّبُوا)**، ثم قال: "فبعد ذلك لا يخلو من أن يجوز ذلك التمييزُ في: "بِئْسَ" ولا يجوز، فإن جاز فذاك، ولئن لم يجُزْ، فالفرق بين "بِئْسَ" و"ساء" ظاهر؛ وذلك أنّ "ساء" فِعلٌ مُتصرِّف بخلاف "بِئْسَ"، ويشهد له قولهم: نِعْم زيدٌ رجلاً، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿**وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا**﴾، وقال ابن السرّاج وحَسُنَ ليس كـ"نِعْم""[(3)].

إنّ ما ذهب إليه الخوارزمي فيه نظر كثير بل لا يخلو من تعقيد؛ لأنه إذا كان **(القَوْمُ)** هو الفاعل فعلى هذا يكون **(مَثَلاً)** مُمَيِّزاً له، وهذا غير وارد مطلقاً وذلك لعدم التطابق بينهما، فلم يبقَ إذاً إلا أن يكون مُمَيِّزاً للضمير في: **(سَاءَ)**، وهذا يعني أنّ الضمير المستتر هو الفاعل، وعندئذٍ يكون قد رجع الأمر إلى التأويلين المذكورين آنفاً، فإذا تبيّن هذا عُلم أنّ كلام الخوارزمي عن جواز الفصل بالتمييز بين الفعل وفاعله، وأنه إن لم يجُز في: "بِئْسَ" فليس بلازمٍ أن لا يجوز في: "سَاءَ" للفرق الظاهر بينهما؛ إذ هذا متصرِّف وذاك جامد مستشهداً بكلام ابن السرّاج، كلّ ذلك مبنيّ على مقدّمة غير مُسلَّم بها؛ وذلك أنّ التمييز غير مطابق للفاعل، فلا مندوحة إذاً من التأويل، ولا يكون الكلام على ظاهره.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا**﴾ [الكهف: 29]ك.

قال البيضاوي: "**(وسَاءَتْ)** النار **(مُرْتَفَقاً)** متّكأ"[(4)]، وقال المحلّي: "أي: وساءت، أي: النار **(مُرْتَفَقاً)** تمييز منقول عن الفاعل، أي: قَبُحَ مرتفقُها"[(5)]. والأرجح[(6)] أن تكون **(سَاءَ)** – هنا – هي هي المتصرِّفة ، وفاعلُها هو الضمير العائد على النار، و**(مُرْتَفَقاً)**: تمييز منقول عن الفاعل، أي: ساء

---

(1) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص289.

(2) – **الخُوارزمي**: هو مجد الدين القاسم بن الحسين من أهل خوارزم عالم بالعربية ، يلقّب بصدر الأفاضل، كان حنفيّاً سُنياً، صنّف: «شرح المفصّل» و«الزوايا والخبايا» في النحو، قتله التتار سنة: (617هـ) [بغية الوعاة: مج2 ص252].

(3) – الخوارزمي: التجمير شرح المفصّل، مج3 ص321.

(4) – البيضاوي: عمر بن محمّد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مج5 ص (170– 171)

(5) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص246.

(6) – ينظر الدرّ المصون للسمين الحلبي: مج4 ص451.

مرتفقُ النار، ومفعولها محذوف، تقديره: داخليها، وفي هذا الأسلوب إخبارٌ بحالة مرتفق النار، وأنه مذمومٌ وقبيح، وإذا جعلنا (**سَاءَ**) بمعنى "بِئْسَ" فسيكون فاعلُها ضميراً مبهماً لا يعود على شيء قبله، ولكن على التمييز بعده (**مُرْتَفَقاً**)، وأمّا المخصوص بالذمّ فمحذوف، ويكون التقدير: ساءت مرتفقاً هي، أي: النار، قال السعدي: "وهذا ذمّ لحالة النار أنها ساءت المحلُّ الذي يُرتفق به"[1].

3 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا**﴾ [الفرقان: 66]ك.

قال الزمخشري: ""ساءتْ" في حكم "بِئْسَتْ"، وفيها ضميرٌ مبهمٌ يفسره: (**مُسْتَقَرّاً**)، والمخصوص بالذمّ محذوفٌ معناه: وساءت مستقراً ومقاماً هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم (**إِنَّ**) وجعلها خبراً لها، ويجوز أن يكون (**سَاءَتْ**) بمعنى: أحْزنَت، وفيها ضميرُ اسم (**إِنَّ**) و(**مُسْتَقَرّاً**) حال أو تمييز"[2]، فإذا كان (**سَاءَ**) بمعنى أحزن، فهي إذاً متصرفةٌ ومتعدِّيةٌ تنصب مفعولاً؛ فما هذا المفعول؟ والجواب: إنه محذوفٌ، والتقدير: إنها – جهنّم – ساءت وأحزنت أصحابَها وداخلِيها، أمّا إذا كان (**سَاءَ**) بمعنى "بِئْسَ"، فإنها تُعطى حكمَها، والتقدير: إنها ساءت موضعُ الاستقرار وموضعُ الإقامة هي[3].

وقال السَّمِين الحلبي[4]: "وقال أبو البقاء [العُكبَري] و(**مُسْتَقَرّاً**) تمييز، و(**سَاءَتْ**) بمعنى: "بِئْسَتْ"، فإن قيل: يلزم من هذا إشكال؛ وذلك أنه يلزم تأنيثُ فعل الفاعل المذكَّرِ من غير مسوّغ لذلك، فإنّ الفاعل في: (**سَاءَتْ**) على هذا يكون ضميراً عائداً على ما بعده، وهو: (**مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً**) وهما مُذكَّران، فمن أين جاء التأنيث؟، والجواب: إنّ (المستقرّ) عبارة عن جهنّم، فلذلك جاز تأنيث فِعله، ومثلُه قولُ ذي الرُّمّة[5]:

أَوْحُرَّةٌ عَيْطَلٌ ثَبْجَاءُ مُجْفِرَةٌ *** دَعَائِمَ الزَّوْرِ نِعْمَتْ زَوْرَقُ البَلَدِ"[6]

4 – قال الله تعالى: ﴿ **وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ**﴾ [الشعراء: 173]ك.

---

(1) – عبد الرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص476.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص292.

(3) – ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، مج6 ص32، والبحر المحيط: مج6 ص513.

(4) – **السمين الحلبي**: هو أبو العبّاس أحمد بن يوسف الحلبي ثم المصري الشافعي النحوي المقرئ الفقيه، قرأ النحو على أبي حيّان، له: «شرح التسهيل» وغير ذلك، توفّي سنة: (576هـ). [شذرات الذهب: مج3 ج6 ص179].

(5) – سبق تخريجه، ينظر الصفحة (48) من هذا البحث.

(6) – السمين الحلبي: الدرّ المصون، مج5 ص (262– 263).

الأَوْلى أن يقال إنّ (ساء) في هذه الآية هي التي بمعنى "بِئْسَ"، وأنّ الفاعل هو: **(مَطَرُ)**، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: مطرُهم، قال الزمخشري: "ولم يُرِد بالمنذَرين قوماً بأَعْيانهم، إنما هو للجنس، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو: مطرُهم"[1].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا**﴾ [النساء: 38]م.

هذه الآية كالتي قبلها فـ (**سَاءَ**) لا تكون إلا التي بمعنى "بِئْسَ"؛ لأنها وقعت في جواب شرطٍ مقترنةً بالفاء فوجب أن تكون فِعلاً جامداً غير متصرِّف؛ ذلك لأنّ الجملة الواقعة جوابا للشرط إذا لم تصلح أن تقع شرطاً وجب قَرْنُها بالفاء، قال ابن هشام: "وإذا لم تصلح الجملة الواقعة لأنْ تقع بعد أداة الشرط وجب اقترانها بالفاء، وذلك إذا كانت الجملة اسميةً أو فعلية فعلُها طلبيّ أو جامد أو منفيّ بـ: "لن" أو "ما" أو مقرونٌ بـ: "قد" أو حرف تَنفيس"[2]، فإذا كان الأمر كذلك فـ (**سَاءَ**) في هذه الآية فعلٌ جامدٌ لإنشاء الذمّ، وفاعلها ضميرٌ مبهمٌ مستترٌ فيها يفسِّره (**قَرِيناً**)، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: هو، أي: الشيطان، قال أبو حيّان: "والفاء جواب الشرط، و(**سَاءَ**) هنا هي التي بمعنى "بِئْسَ" للمبالغة في الذمّ، وفاعلها على مذهب البصريّين ضميرٌ عامٌّ، و(**قَرِيناً**) تمييزٌ لذلك الضمير، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو: "هو" العائد على الشيطان، الذي هو قرين، ولا يجوز أن تكون (**سَاءَ**) هنا هي المتعدِّية، ومفعولها محذوفٌ، و(قَرِيناً) حال؛ لأنها إذ ذاك تكون فعلاً متصرِّفاً فلا تدخله الفاء أو تدخله مصحوبةً بـ "قد""[3].

6 – قال الله تعالى: ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلًا**﴾ [طه: 101]ك.

اللام في: (**لهم**) غير متعلّقة بـ: (**ساء**) بل بـ: (**حِمْلاً**)، وهي للبيان، و(**ساء**) فعلٌ لإنشاء الذمّ كـ"بِئْسَ"، والفاعل ضميرٌ مبهمٌ يفسره (**حِمْلاً**)، وقد حصل هنا فصلٌ بين الفاعل والتمييز كما في قوله تعالى: ﴿**بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا**﴾، ولا يضرّ هذا الفصل، أمّا المخصوص بالذمّ فمحذوفٌ، تقديره: (وِزْرُهُمْ)، قال المحلّي: "(**حِمْلاً**) تمييزٌ مفسّر للضمير في: (**ساء**)، والمخصوص بالذمّ محذوفٌ، تقديره: وِزْرُهُمْ، واللام للبيان"[4].

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص332.

(2) – ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص102.

(3) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج3 ص249.

(4) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص266.

7 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا**﴾ [النساء: 22]م.

إنّ جملة (**سَاءَ سَبِيلاً**) معطوفةٌ على خبرِ (**كان**) على تقدير: إنه كان فاحشةً ومقتاً ومقولاً فيه: ساءَ سبيلاً، أي: وساءَ سبيلاً سبيلُ نكاحِ مَنْ نَكحهنَّ الآباءُ، أو ساء هذا السبيلُ المؤمنين، والمعنى: قَبُحَ هذا الفعلُ طريقاً كنتم تسلكونه في الدين(1)، فعلى هذا يكون في: (**سَاءَ**) ثلاثة أوجه(2):

أحدها: أنه بمعنى "بِئْسَ" في المعنى والعمل، وفيه ضميرٌ مبهمٌ يفسره ما بعده (**سَبِيلاً**)، أي: طريقاً، والمخصوص بالذمّ محذوف، والتقدير: وساء سبيلاً سبيلُ هذا النكاح.

والثاني: أنه من باب "فَعُلَ" المراد به الذمّ، ويكون فاعله هو المخصوص بالذمّ، والتقدير: ساء سبيلُ هذا النكاح سبيلاً، ويجوز في هذا الباب أن يُجرى مجرى "بِئْسَ" في جميع الأحكام.

والثالث: أنه لا يجري مجرى "بِئْسَ" في العمل بل هو كسائر الأفعال؛ فيكون الضميرُ فيه عائداً على ما عاد عليه الضمير في: (**إنّه**)، و تكون (**سَبِيلاً**) على كِلاَ التقديرين تمييزٌ، ويكون مفعولُ (**سَاءَ**) – هنا – **محذوفٌ**، تقديره: (المؤمنين)، أي: ساء هذا النكاحُ سبيلاً المؤمنين.

---

(1) – ينظر الفريد في إعراب القرآن المجيد: مج1 ص712، والبيان لابن الأنباري: مج1 ص248، وإعراب القرآن الكريم لسليمان ياقوت: مج4 ص67.

(2) – ينظر البحر المحيط لأبي حيّان: مج3 ص209، والدرّ المصون للسمين الحلبي: مج2 ص340.

المطلب الثالث

صيغ المدح والذمّ التي لم تستخدم في القرآن الكريم.

الفرع الأوّل: "حَبّذا" و"لا حَبّذا": معناهما ودلالتهما:

سبق في المطلبين السابقين دراسةُ زُمرتين من صيغ المدح والذمّ، أمّا الأولى فهي "نِعْمَ وبِئْسَ"، وأمّا الثانية فهي ما كان من الفعل الثلاثي على وزن "فَعُلَ" مقصوداً به المدح أو الذمّ، ويُلحق بهما "ساء"، وقد تقدّم الخلاف فيها أهي من الزمرة الأولى أم من الثانية؟، وبقيت زمرةٌ ثالثة تختلف – شيئاً ما – عن سابقيتها، وهي لغةٌ مستعمَلةٌ في كلام العرب لكن لا نجد لها ذكراً في لغة القرآن الكريم.

هذه الزمرة تتمثّل في هاتين الصيغتين: "حَبّذا" و"لا حَبّذا"، فالأولى للمدح والثانية للذمّ، وهما تفيدان المدح والذمّ العامّين مع الإشعار بالحُبّ والقرب من القلب (حَبّذا)، أو البغضِ والبعد من القلب (لا حَبّذا)، قال ابن جِنّي: "اعلم أنّ "حَبّذا" معناه: المدح وتقريب المذكور بعدها من القلب"[(1)]، وقال الزمخشري: "و"حَبّذا" ممّا يناسب هذا الباب، ومعنى "حَبَّ" صار محبوباً جدّاً"[(2)]، وقال ابن مالك: "والصحيح أنّ "حَبّ" فِعلٌ يقصد به المحبة والمدح، وجُعل فاعلُه "ذا" ليَدلّ بذلك على الحضور في القلب، ولم يُغيّرا لجريانهما مجرى الأمثال، فإن قُصد بهما بغضٌ وذمٌّ قيل: "لا حَبّذا""[(3)].

هذا الإشعار بالحُبّ والقرب أو البغض والبعد من القلب هو أحد الميزات الخاصّة بـ: "حَبّذا" و"لا حَبّذا"، قال السيوطي: "قال ابن النحّاس في التعليقة: "حَبّذا" كـ "نِعْمَ وبِئْسَ" في المبالغة في المدح والذمّ إلا أنّ بينهما فرقاً، وهو أنّ "حَبّذا" مع كونها للمبالغة في المدح تتضمّن تقريب الممدوح من القلب، وكذلك في الذمّ فـ "لا حَبّذا" تتضمّن بُعدَ المذموم من القلب، وليس في: "نِعْمَ وبِئْسَ" تَعرُّضٌ لشيء من ذلك"[(4)].

---

(1) – ابن جنّي: أبو الفتح عثمان، اللُّمَع في العربية، تحقيق: حامد المؤمن، ص (202– 203).

(2) – الزمخشري: المفصّل بشرح الخُوارزمي المسمّى بالتجمير، مج3 ص321.

(3) – ابن مالك: تسهيل الفوائد، مج3 ص26.

(4) – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر، مج2 ص (470– 471).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال عبّاس حسن: "وإنما كان معنى الفعل "حَبّ" هو المدح مع الإشعار بالحُبّ والقرب من القلب؛ لأنه فعل مشتقّ من مادّة الحُبّ، وفاعله اسم إشارة للقريب، وهو ينفرد بهذه المزِيّة دون "نِعْمَ""(1).

الفرع الثاني: أصل "حَبَّذا":

"حَبّذا" كلمة هي في الأصل مُركّبة من: "حَبَّ" و"ذا"، أمّا "ذا" فاسم إشارةٍ للقريب، وأمّا "حَبَّ" فأصلها: حَبُبَ – بضمّ العين – وهو من باب "فَعُل"، قال الخُوارزمي في شرحه لكتاب المفصّل: "قال المشرّح "حَبَّ" ها هنا من باب فعُلَ – بضمّ العين –، فإن سألتَ لم لا يجوز أن يكون "فَعَل" أو "فَعِل" – بفتح العين وكسرها – أُجبتَ لوجهين: **أحدهما**: أنّ الصفة منه حبيب، **والثاني**: أنه قد ورد فيه – كما علمت – نقلُ الضمة من العين إلى الفاء"(2).

وقال ابن عقيل: "وأصل "حَبَّ": حَبُبَ ثم أُدغمت الباء في الباء فصار: حبّ، ثم إن وقع بعد "حبّ" "ذا" وجب فتحُ الحاء، فتقول: "حَبّذا"، وإن وقع بعدها غيرُ "ذا" جاز ضمُّ الحاء وفتحُها، فتقول: حُبَّ زيدٌ، وحَبَّ زيدٌ، ورُوي بالوجهين قولُه(3):

فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمُ بِمِزَاجِهَا *** وحَ ُبَّ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تُقْتَلُ"(4).

ويوضِح ابن السرّاج سببَ الفتح والضمّ في حاء "حبّ" من الناحية التصريفية فيقول: "فإن نقلنا حركة العين إلى الفاء بعد حذف حركتها صارت: "حُبَّ" – بالضمّ –، وإن حذفنا ضمّة العين صارت: "حَبَّ" – بالفتح –، والإدغامُ في الحالتين واجبٌ؛ لاجتماع المِثلَين والأولُ منهما ساكن"(5).

---

(1) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص381.

(2) – الخُوارزمي: شرح المفصّل للزمخشري المسمّى بالتجمير، مج3 ص323.

(3) – سبق تخريجه، ينظر الصفحة (52) من هذا البحث.

(4) – ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، مج2 ص161.

(5) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

الفرع الثالث: إعراب "حَبَّذا":

اختلف النحويّون في: "حَبّذا" أهو فعلٌ أم اسمٌ أم فعلٌ وفاعلٌ؟ على ثلاثة مذاهب(1):

المذهب الأول: "حَبّذا" مركّب من: "حَبَّ" و"ذا"، وحَبَّ: فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاء المدح، و"ذا" اسمُ إشارة فاعل، وأمّا المخصوص بالمدح فيجوز أن يكون مبتدأ والجملة المكوّنة من فعل وفاعل خبره، ويجوز أيضاً أن يكون خبراً لمبتدأ محذوفٍ في نحو قولك: حَبّذا زيدٌ، فيكون التقدير: حَبّذا هو زيدٌ، وممّن ذهب إلى هذا القول: أبو علي الفارسيّ في البغداديات وابن بَرهان(2)، وابن خروف(3) وزعم أنه مذهبُ سيبويه، وأنّ من نقل عنه غيرَه فقد أخطأ عليه(4)، واختاره ابن مالك في ألفيّته حيث قال:

ومِثْلُ (نِعْمَ) (حَبَّذا) الفَاعِلُ (ذا) *** وإن تُرِدْ ذَمّاً فَقُلْ (لا حَبَّذا)

وقال في التسهيل: "والذي اخترتُه من كون "حبّ" باقياً على فِعليّته، وكونِ "ذا" باقياً على فاعليّته هو مذهبُ اختيارِ أبي عليّ، ذكر أبو عليّ الفارسيّ كون "حَبّذا" فعلاً وفاعلاً في البغداديّات وابنُ بَرهان وابنُ خروف، وهو ظاهر قول سيبويه"(5).

المذهب الثاني: "حَبّذا" اسم، ويُعرَب مبتدأ والمخصوصُ خبره، أو خبرٌ مقدَّم والمخصوص مبتدأ مؤخَّر، فرُكِّبت "حَبَّ" مع "ذا" وجُعلتا اسماً واحداً، وممّن ذهب إلى هذا القول المبرِّد(6)، وابنُ السرّاج(7)، وابن هشام اللخمي، واختاره ابن عصفور(8).

---

(1) – ذكرها ابن عقيل في شرحه، مج2 ص (159– 160)، وهي مبسوطة في كتب النحو.

(2) – **ابن بَرهان** – بفتح الباء الموحّدة –: هو أبو القاسم عبد الواحد بن علي الأسدي العُكبَري النحوي، صاحب العربية واللغة والتواريخ وأيّام العرب، توفي سنة: 456هـ. [بغية الوعاة: مج2 ص120، إنباه الرواة: مج2 ص214].

(3) – **ابن خَروف**: هو أبو الحسن علي بن محمّد الأندلسي النحوي، كان إماماً في العربية، لم يتزوّج قطّ، صنّف: «شرح سيبويه» وغيره، مات سنة: (609هـ)، وقيل غير ذلك. [بغية الوعاة: مج2 ص203].

(4) – لعلّ مَنْ أخطأ عليه اعتمد عبارته الآتية: "وزعم الخليل أنّ (حَبّذا) بمنزلة حَبَّ الشيءُ، ولكنّ "حَبَّ" و"ذا" بمنزلة كلمةٍ واحدةٍ، نحو: "لولا"، وهو اسمٌ مرفوعٌ، كما تقول يا بن عمّ، فالعمّ مجرور". [الكتاب: مج2 ص180].

(5) – ابن مالك: شرح التسهيل: مج3 ص22، وينظر الكلّيات للكفوي: ص403.

(6) – المبرّد: المقتضب، مج2 ص146.

(7) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

(8) – **ابن عُصفور**: هو أبو الحسن علي بن مؤمن النحوي الحضرمي الإشبيلي، حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، صنّف: «الممتع في التصريف» وغير ذلك، مولده سنة: (597هـ) توفي سنة: (663هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص210].

المذهب الثالث: "حَبّذا" رُكِّبت فيه "حَبَّ" مع "ذا" وجُعلتا فعلاً، وإلى هذا القول ذهب ابن دُرُسْتُويه[1]، وعليه فقولك: حَبّذا زيدٌ، يكون "حَبّذا" فعلاً ماضياً لإنشاء المدح، وزيدٌ فاعل، وهذا من أضعف المذاهب[2].

والكلام على هذه المذاهب تصحيحاً وتضعيفاً وإبطالاً مُقرَّر مبسوطٌ في كتب النحو، ولعلّ أوْلى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال بأنّ "حَبّذا" فعلٌ وفاعلٌ، وذلك للأسباب الآتية[3]:

1 – "حبّ" قبل التركيب فعلٌ و"ذا" اسم، فالأصل بقاؤها على حالتها بعد التركيب إلا بدليل يخرجهما عن هذا الأصل، ولا دليل سالماً من الاعتراض موجودٌ فوجب الإبقاء على الأصل.

2 – لا تُقاس "حَبّذا" على "إذ ما"؛ لأنّ التركيب في: "إذ ما" لازمٌ بخلاف "حَبَّذا" فغير لازم؛ إذ يجوز الاقتصار على "حَبَّ" عند العطف، كقول بعض الأنصار ﷺ: فَحَبَّذَا رَبُّ وَحَبَّ دِيناً[4] أي: وحَبّذا ديناً، فحُذف "ذا" ولم يتغيّر المعنى، ولا يُقبل ذلك في: "إذ ما" وغيرها من المركّبات تركيباً مخرِجاً من نوع إلى نوع، فعُلم بذلك أنّ تركيب "حَبّذا" ليس مُخرِجاً من نوع إلى نوع.

3 – ليس في دخول حرف النداء على: "حَبّذا" دليلٌ على اسميّتها؛ كما لم يكن دليلاً على اسميّة "نِعْمَ" في قولهم: يا نِعْمَ المولى ويا نِعْمَ النصير؛ إذ يمكن للمتأوِّل أن يقول بأنّ (يا) ليست هنا حرفَ نداء أصلاً بل جيء بها للتنبيه كـ (ألا) الاستفتاحية ونحوها، أو هي على تقدير حذف المنادى، كأن يقال في: "يا حَبّذا": يا قومِ حَبّذا.

4 – لو كان "حَبّذا" مبتدأً لدخلت عليه نواسخ الابتداء، فكان يقال: إنّ حَبّذا زيدٌ، وكان حَبّذا زيدٌ، وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ "حَبّذا" ليست مبتدأً.

قال ابن مالك: "الصحيح أنّ "حَبّذا" فعلٌ وفاعلٌ"[5]، وقال عبّاس حسن: "وممّا تقدّم أنّ

---

(1) – **ابن دُرُستويه**: هو أبو محمّد عبد الله بن جعفر بن المرزُبان النحوي، صحب المبرّد، ولقي ابن قتيبة، كان شديد الانتصار للبصريّين في النحو واللغة، صنّف: «الإرشاد في النحو» و«غريب الحديث» وغير ذلك، ولد سنة: (258هـ) ومات سنة: (347هـ). [بغية الوعاة: مج2 ص36، إنباه الرواة: مج2 ص113].

(2) – شرح ابن عقيل: مج2 ص160.

(3) – ذكرها ابن مالك في التسهيل: مج3 ص (24– 25).

(4) – وقبله: باسْمِ الإِلَهِ وبِهِ بَدِينَا *** وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا. ذكره ابن دُرَيد قال: "وبَدَيْت بالشيء وبَدِيت به إذا قدّمته، بالفتح والكسر، وهي لغة الأنصار، وأنشد عبيدةُ لعبد الله بن رواحة [وذكر الأبيات]"[جمهرة اللغة: مج2 ص1019].

(5) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص22.

"حَبّذا" جملة فعلية – على الرأي الراجح – الفعل فيها: "حَبّ"، وهو هنا ماضٍ جامدٌ، و"حَبَّ" هو في الأصل مشتقٌّ ولكنّه صار جامداً كاملَ الجمود بعد انتقاله إلى حالته الجديدة التي قُصد بها إنشاء المدح، فصار مع فاعله جملةً إنشائيةً خاليةً من الدلالة الزمانية على الوجه الذي شرحناه"[1].

الفرع الرابع: فاعل "حبّ" والمخصوص بالمدح أو الذمّ:

تقدّم أنّ "حَبَّ" فعلٌ ماضٍ غيرُ متصرّف، وهو من الفعل المضعَّف الذي تجري عليه قواعد التحويل إلى "فَعُلَ" لإرادة المدح بشرط أن لا يكون فاعلُه "ذا" في مِثل: "حَبّذا"، فإن كان فاعله اسماً ظاهراً غيرَ كلمة "ذا"، فإنّه تجري عليه الأحكام الخاصّة بالمحوَّل، فتقول مثلاً: حَُبَّ زيدٌ، وحَبَّ بزيدٍ، وحَبَّ الرجلُ زيدٌ، وحَبَّ رجلاً زيدٌ، والباء الداخلة على فاعل "حبّ" زائدةٌ؛ لأنّ الفاعل – كما هو معلوم – لا يكون إلا مرفوعاً[2]وتدلّ "حبّ" في هذه الحالة على المدح الخاصّ ويدخلها معنى التعجّب، كما في قول الأخطل (ت 90هـ): وحَبَّ بها مقتولةً حين تُقتَل[3]، قال ابن السرّاج: "والاستشهاد فيه على أنّ "حبّ" للمدح والتعجّب، وأصلها بضمّ العين للتحويل إلى المدح...، وفاعلها الضمير المؤنّث المجرور بالباء؛ لأنّ هذه الصيغة تعجُّبيّة لكونها بمعنى: أَحْبِبْ بها، والباء في: (بها) زائدةٌ على غير قياس، كقوله تعالى: ﴿**وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً**﴾"[4]، والمخصوص بالمدح في هذه الحالة يكون عين الفاعل، ففي قولنا: حَُبّ زيدٌ، فـ(زيد) هو الفاعل وهو المخصوص بالمدح في الوقت نفسه، وقد عُومِلت "حبَّ "– هنا – معاملةَ فعلِ التعجّب؛ لأنها أشبهَتْه فنُزِّلت منزلته، أمّا إذا قلنا: حَبَّ الرجلُ زيدٌ، فـ (الرجل) هو الفاعل، واللام فيه للجنس،

---

(1) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص381.

(2) – فقد ورد فاعل "حبّ" غيرَ مقترنٍ بالباء في نحو قول ساعدة بن جُؤْية:

هَجَرَت غَضُوبٌ وحَبَّ مَنْ يَتَجَنَّبُ *** وَعَدَتْ عَوَادٍ دُونَ وَلْيِكِ تَشْعَبُ

والشاهد قوله: (**مَنْ يَتَجَنَّبُ**) [تحقيق شرح ابن عقيل لمحمّد محيي الدين عبد الحميد: مج2 ص162].

(3) – تقدّم تخريجه، ينظر الصفحة (52) من هذا البحث.

(4) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

وقد تكون للعهد، و(زيد) هو المخصوص بالمدح، وتكون "حبَّ" قد جرت مجرى "نِعْمَ" في المعنى والعمل. أمّا إذا كان فاعل "حَبَّ" اسمَ الإشارة "ذا" فإنه يجب في ذلك أحكام، هي[1]:

1 – يجب فتح الحاء فيها.

2 – "ذا" تبقى على حالها من الإفراد والتذكير في كلّ الأساليب مهما كان حال الممدوح من حيثُ إفرادُه أو عدمُ إفراده، وتذكيرُه أو تأنيثُه؛ لأنّ "حَبّذا" صارت كالمثَل الذي لا يتغيّر.

3 – وَصْلُ "حَبَّ" بفاعلها "ذا" كتابةً وتركيبُهما معاً تركيباً خطِّيّاً.

4 – "حَبّذا" تدلّ على المدح العامّ الذي ليس فيه تعجّب، بل إشعارٌ بالحُبّ والقرب من القلب، والعكس صحيح مع "لا حَبّذا"، بخلاف "حَبّ" إذا لوحظ فيه التحويل الذي في باب "فَعُل" فإنها تفيد المدح الخاصّ مُشْرَباً بالتعجّب.

أمّا المخصوص بالمدح أو الذمّ فهو الاسم المرفوع الواقع بعد: "حَبّذا" أو"لا حَبّذا" بالابتداء وخبرُه الجملة الفعليّة قبله، والرابط بينهما هو اسم الاشارة "ذا"، ويجوز أن يكون المخصوص خبرَ مبتدأٍ مضمرٍ.

هذا وهناك أحكام كثيرة تشترك فيها "حَبّذا" و"لا حَبّذا" مع "نِعْمَ وبِئْسَ"، وأحكامٌ أخرى هي خاصّة بـ: "حَبّذا"، وسأكتفي بذكر الأحكام الخاصة بها تجنُّباً للتكرار وطلباً للاختصار، وهذه الأحكام هي[2]:

1 – لا يكون الفاعل في: "حَبّذا" و"لا حَبّذا" إلا اسمَ الإشارة "ذا".

2 – لا يجوز للفاعل أن يُطابق المخصوص بل يلتزِمُ شكل الإفراد والتذكير.

3 – يجوز الإتيان بتمييزٍ لهذا الفاعل؛ لأنه اسمُ إشارةٍ مُبهَم[3]، لكنّ هذا التمييز لا يطابقه بل يطابق المخصوص ، فتقول: حبّذا رجلاً زيدٌ، وحبّذا رجلين زيدٌ وعمرٌو، وهكذا.

---

(1) – تنظر هذه الأحكام في شرح ابن عقيل: مج2 ص (161– 162) وشرح التسهيل: مج3 ص26، والنحو الوافي: مج3 ص181، وغيرها من كتب النحو.

(2) – ينظر شرح ابن عقيل: مج2 ص (160– 161)، شرح التسهيل: مج3 ص26، التجمير شرح المفصّل: مج3 ص323، النحو الوافي: مج3 ص381، المحيط في أسرار العربية ونحوها وصرفها لمحمّد الأنطاكي: مج3 ص7، وغيرها.

(3) – قال السيوطي: "قال ابن النحّاس: وممّا افترقا فيه أنه لا يجوز في: "حَبّذا" الجمعُ بين الفاعل الظاهر والتمييز من غير خلاف، نحو: حَبّذا رجلاً زيدٌ، وجرى في: "نِعْمَ وبِئْسَ" خلافٌ...، قال: وإنما جرى الخلاف في: "نِعْمَ وبِئْسَ"، =

4 – لا يجوز تقديم المخصوص في باب "حَبّذا"، فلا يقال: زيدٌ حَبّذا(1).

5 – يجوز أن يتقدّم المخصوص على التمييز، فتقول: حَبّذا زيدٌ رجلاً.

6 – لا يجوز دخول نواسخ الابتداء على المخصوص هنا.

وأخيراً يمكن تلخيص الأشكال المتعدّدة لأساليب "حَبّذا" على النحو الآتي:

1 – حَبّذا = فعل + فاعل

2 – حَبّذا زيدٌ = فعل + فاعل+ مبتدأ (والجملة قبله خبره) أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، تقديره: هو.

3 – حَبّذا رجلاً زيدٌ = فعل+ فاعل + تمييز للفاعل + مبتدأ أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

4 – حَبّذا زيدٌ رجلاً = فعل + فاعل + مبتدأ أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ + تمييزٌ مؤخّر .

ولم يَرِد في القرآن الكريم استخدامٌ لهذا الأسلوب في المدح والذمّ على كثرة استعماله في لغة العرب في نثرها وشعرها، مع أنّ "حَبّذا" ليست كلمةً غريبةً ولا مستهجنةً، بل هي فصيحةٌ مستعمَلةٌ، ومع هذا لم تُستخدم في لغة القرآن الكريم مع كثرة استخدامه لألفاظ المحبّة، كقوله تعالى: ﴿**فَسَيَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه**﴾، وكقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَّتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُّحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لله**﴾، ونحو هذا في القرآن كثير.

والحقّ أنه ليس كلّ ما استعملته العرب وتكلّمت به – ولو كان في نفسه فصيحاً بليغاً – يجب أن يستعمله القرآن الكريم، فالقرآن له خصوصيّتُه التي لا يشاركه فيها كتابٌ غيره، وهو الذي لم ولن تشبع منه العلماء، ولا ولن يبلى على كثرة الردّ، لا تنقضي عجائبه ولا تنفد جواهره ولآلئه، فحُبّ بالقرآن الكريم كتاباً هادياً، وحَبّذا مَن نُزِّل عليه رسولاً داعياً، وسيأتي الكلام على هذا الإشكال في فصل البلاغة بياناً شافياً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

= ولم يجرِ في: "حَبّذا"؛ لأنّ بينهما فرقاً، وهو أنّ الفاعل في: "حَبّذا" وهم اسم الإشارة مبهم فله مرتبة بين مرتبتي فاعلي "نِعْمَ" هما: المظهَر والمبهَم، فليس اسم الإشارة واضحاً كوضوح فاعل "نِعْمَ" المظهَر، فلا يحتاج إلى تمييز، ولا مبهماً لإبهام المضمر في: "نِعْمَ" فيلزم تمييزه، بل لما كان فيه إبهام فارقَ به الفاعلَ المظهر في: "نِعْمَ" جاز أن يُجمع بين الفاعل والتمييز في: "حَبّذا"، ولما قلّ إبهامُه عن إبهام المضمر في: "نِعْمَ" جوَّزنا عدمَ التمييز في: "حَبّذا" ظاهراً ومُقدَّراً ولم نجوِّزه في: "نِعْمَ"". [الأشباه والنظائر للسيوطي، مج2 ص (470– 471)].

(1) – قال ابن مالك: "وقد أغفل أكثر النحويّين التنبيه على امتناع تقديم المخصوص في هذا الباب، وعلى امتناع نسخ ابتدائيّته". [تسهيل الفوائد: مج3 ص27]، وينظر مفتاح العلوم للسكّاكي: ص158.

المبحث الثاني

المدح والذمّ بالوصف[1] في القرآن الكريم

يقع المدح والذمّ على الأشياء إمّا عامّاً أو خاصّاً، ويكون بأساليب تفيد العموم، كـ: "نِعْمَ" و"بِئْسَ" و"حَبَّذَا" و"لا حَبَّذَا"، أو بأساليب تفيد الخصوص، كالمدح والذمّ بالفعل الثلاثي المحوَّل إلى "فَعُل"، وهذه الأساليب قد سبق التفصيل فيها في المبحث السابق، أو يكون بذكر المَمَادِح أو المذامّ على سبيل التعيين، كقولك: فلانٌ كريمٌ أو بخيلٌ، أو جلست إلى زيدٍ الفقيهَ، ومررت بعمرٍو الفاسقَ، أو غير ذلك ممّا سأتناوله في هذا المبحث، وفيه أساليب متعدّدة ومتنوّعة جُلُّها في المدح أو الذمّ الخاصّ؛ لأنه يقع بالوصف المقتضي للتعيين.

المطلب الأوّل

المدح والذمّ بالإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه

الممادح هي الصفات أو الأوصاف التي يُمدح بها الشيء، والمذامّ هي التي يُذَمّ بها، والمدح أو الذمّ بالإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه هو أسلوب غالبا ما يأتي على شكل جملة اسميةٍ خبريّةٍ لفظاً إنشائيّةٍ معنى، مكوَّنةٍ من مبتدأ وخبر أو ما أصلُه المبتدأ والخبر، وتكون صفات المدح أو الذمّ فيه إمّا مُثبَتَةً أو منفيّة أو محصورة في الموصوف، وهو من أكثر أساليب المدح والذمّ شيوعاً في القرآن الكريم، وفيما يتعلّق بصفات الله تعالى فإنها كلّها جاريةٌ على المدح والتمجيد[2]، ولكثرتها فقد اكتفيت بذكر بعضها تنبيهاً على الباقي.

والآيات في المدح والذمّ بهذا الأسلوب كثيرةٌ ومتنوعةٌ، وهي تتجاوز المئة والستّين موضعاً في القرآن الكريم، وبعد التتبُّع والاستقصاء جاءت كالآتي:

---

(1) – قال الكفوي: "...، والصفةُ تقوم بالموصوف والوصفُ يقوم بالواصف، فقول القائل: (زيد قائم) وصفٌ لزيد لا صفةٌ له، وعِلمه القائم به صفتُه لا وصفُه، وقد يُطلق الوصف ويُراد به الصفة، وبهذا لا يلزم الاتحاد لغةً؛ إذ لا شكّ أنّ الوصف مصدرُ (وَصَفَهُ) إذا ذكر ما فيه، وأمّا معتقد أهل الحقّ فالصفة: هي ما وقع الوصف مشتقّاً منها وهو دالٌّ عليها". [الكلّيات: 545].

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص636، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس: ص89.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب الإثبات:

أوّلاً: إثبات الممادح:

1 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الفاتحة: 2]ك.

قال المحلّي: "(**الحَمْدُ لله**) جملةٌ خبريّةٌ قُصد بها الثناء على الله بمضمونها من أنه تعالى مالكٌ لجميع الحمد من الخلق، أو مستحِقٌّ لأنْ يحمَدَه"(1)، وقال في موضع آخر: "(**الحَمْدُ**): الوصف بالجميل، (**لله**) وهل المراد الإعلام بذلك للإيمان به؟ أو الثناء به؟ أو هما؟ احتمالات، أفيَدُها الثالث"(2)، وقال الشنقيطي: "واللام في: (**الحَمْدُ**) لاستغراق جميع المحامد، وهو ثناءٌ أثنى به تعالى على نفسه، وفي ضِمنه أمرَ عبادَه أن يُثنوا عليه به"(3)، ويشهد لهذا المعنى الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ولِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قال اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي...**))(4)، وقد مضى في التمهيد أنّ المدح والحمد متقاربان، قال الزمخشري: "الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها"(5).

يتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ الله ﷻ في هذه الآية قد مدح نفسه – وفي ضمنه أمرَ عباده أن يمدحوه – باستحقاقه لجميع أنواع المحامد، فأثبت كلّ صفات الكمال من خلال (لام) الاستغراق في لفظ (الحمد) المثبَت لله تعالى، وهذا من أعمّ المدح وأعظمه.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: 4]ك.

هذه الآية الكريمة في مدح نبيِّنا محمّد ﷺ بأنه صاحب خلقٍ عظيمٍ مَنَّ الله به عليه، قال ابن كثير (ت 774هـ): "قال العَوفي (ت 201هـ) عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنك لعلى دينٍ عظيم وهو الإسلام...، وقال عطيّة (ت 110هـ) : لَعَلى أدب عظيم"(6)، والمعنى واحد؛ لأنّ الإسلام يدعو إلى الأدب، وقال أيضاً: "ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثالُ القرآن أمراً ونهياً سجيةً وخُلُقاً تطبَّعَه وتركَ طَبْعه الجِبِلّيّ، فمهما أمرَه القرآن فَعَلَه ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلق العظيم من الحياء

(1) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص2.

(2) – المرجع نفسه: ص105.

(3) – الشنقيطي: محمّد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مج1 ص31.

(4) – أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، مج2 ج4 ص101.

(5) – الزمخشري: تفسير الكشّاف، مج1 ص8.

(6) – ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي الشافعي، تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1927.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والكرم والشجاعة والصفح والحِلم وكلِّ خُلُق جميل"[1]، فحاصل خُلقه العظيم ما أجابت به أمُّ المؤمنين عائشة (ت 58هـ) ﵂ لما سُئلت عن خُلقه فقالت: "كان خُلقه القرآن"[2]، لقد أثبت الله ﷻ في هذه الآية لنبيّه الكريم وصفاً يليق به ﷺ، وهو الأدب الموصوف بالعظيم ثم أكّده بمؤكِّدين (إنّ) و(اللام) ثم استخدم ضمير الخطاب (الكاف) والحرف (**على**) الدالّ على الاستعلاء، كلّ ذلك – بلا شكّ – يزيد في إثبات المدح وتأكيده وتقويته، فلله ما أحسنَ هذا المدح وأوقعَه على فؤاد رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

3 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ، وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [النحل: 120- 122]ك.

قال ابن كثير: "يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمامَ الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرّئه من الشرك ومن اليهودية والنصرانية بقوله: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً**﴾، فأمّا **الأمّة**: فهو الإمام الذي يُقتدى به، **والقانت**: هو الخاشع المطيع، **والحنيف**: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد"[3]، وقال البغوي (ت 516هـ): "قال ابن مسعود (ت 32هـ): الأمّةُ معلِّمُ الناس الخير، أي: كان معلّماً للخير يأتمُّ به أهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمّة"[4].

هكذا يُثني الله ﷻ بالثناء الحسن في هاتين الآيتين على نبيّه وخليله إبراهيم ﵇ بأنه إمام مقتدى به يعلِّم الناس الخير، كما قال تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾، وأنه قانت لله مطيع له شاكرٌ لأنعمه، وأنه مجتبى ومختارٌ من قِبَل الله تعالى، وأنه مَهدِيٌّ إلى صراطٍ مستقيم، وقد كرّر الله هذا الثناء عليه في آيات أُخر من كتابه العزيز، منها قوله تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾، وقولُه: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**﴾، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه، حتى إنّ الله تعالى استجاب لنبيّه فأبقى له الثناء الحسن في الآخِرين حين دعاه بقوله: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ**﴾ فما أعظم كرم الله على خواصّ عباده.

---

(1) – المصدر السابق: مج4 ص1928.

(2) – أخرجه الإمام أحمد في المسند: مج6 ص (91، 163)، والبيهقي في السنن الكبرى: مج2 ص499.

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1049.

(4) – البغوي: أبو محمّد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، مج3 ص89.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: 109]ك.

هؤلاء الذين نزلت في حقّهم هذه الآيات هم مؤمنوا أهل الكتاب من أمثال عبد الله ابن سَلاَم وغيره، حيث مدحهم الله تعالى بأن أثبت لهم الخُرور للأذقان بالسجود تعظيماً لله وحُبّاً له، وذلك أنهم كانوا يسمعون آي القرآن تتلى عليهم فيتأثّرون بها غاية التأثر، فيخضعون لها بقلوبهم وجَوارحهم وألسنتهم فيقولون: سبحان ربّنا عمّا لا يليق بجلالك مما ينسبه إليك المشركون من اتخاذ الولد ونحو ذلك، إن كان وعدك ربّنا بالبعث والجزاء على الأعمال لمفعولاً لاشكّ فيه، فهُمْ مؤمنون متيقِّنون بكل ما جاء من أمور الغيب، وبعد هذا المدح أعاد الله ﷻ وكرّر وصْفَهم بالخُرور للأذقان على وجوههم وبزيادة خشوعهم بالقرآن، وهذا من أجْل المبالغة في مدحهم، قال القرطبي(ت671هـ): "قوله تعالى: (**وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ**) هذه مبالغةٌ في صِفَتهم، ومدحٌ لهم"[1].

5 – قال الله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ**﴾ [الفتح: 29]م.

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن محمّد ﷺ أنه رسول الله حقّاً بلا شكّ ولا ريب، فقال: (**محمّدٌ رَّسُولُ الله**)، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنَّى بالثناء على أصحابه ﷺ فقال: (**وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**)، كما قال ﷻ: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ**﴾، وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدُهم شديداً على الكفّار رحيماً بالأخيار، وقولُه سبحانه: ﴿**تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً**﴾، وصَفَهم بكثرة الصلاة، وهي خيرُ الأعمال، ووَصَفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنّة"[2].

فهذه الآيةُ واحدةٌ من بين أظهر الآيات وأصرحها في مدح صحابة رسول الله ﷺ، وقد أثبتت لهم أحسن الصفات وأحبَّها إلى رب الأرض والسماوات، وهي توادُّهم وتراحُمُهم فيما بينهم، وشِدّتُهم على أعدائهم، وأثبتت لهم أيضاً صفةً هي من أهمّ صفات المؤمن التي تميّزه عن الكافر، وهي الصلاة والإخلاص فيها واحتساب الأجر، وهذا من أجْمع المدح وأحسنِه.

(1) – القرطبي: محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مج10 ص341

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1748.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا والآيات في المدح بأسلوب الإثبات للمَمادح كثيرة جدّاً، وسأكتفي بذكرها سرداً من غير شرح مبيّناً مواقعها من القرآن الكريم:

1 – كلّ آيات الصِّفات؛ لأنها محمولة على المدح والتعظيم والتمجيد.

2 – كل الآيات التي تفتتح بـ: (**الحمد**) أو (**تبارك**).

3 – قال الله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**﴾ [البقرة: 5]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿**يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ**﴾ [البقرة: 121]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ **وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**، إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 130- 131]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ **وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: 177]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: 207]م.

8 – قال تعالى: ﴿**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران: 7]م.

9 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ**﴾ [آل عمران: 62]م.

10 – قال تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ**﴾ [آل عمران: 75]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [آل عمران: 114]م.

12 – قال الله تعالى: ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: 138]م.

13 – قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ**﴾ [آل عمران: 199]م.

14 – قال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ **وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [النساء: 13]م.

15 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ **نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ**﴾ [المائدة: 18]م.

16 – قال الله تعالى: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: 159]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 4]م.

19 – قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92]م.

20 – قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [التوبة: 99]م.

21 – قال الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]م.

22 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114]م.

23 – قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]ك.

24 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56]ك.

25 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57]ك.

26 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: 75]ك.

27 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]ك.

28 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]ك.

29 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: 68]ك.

30 – قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]ك، قال السعدي: "فلمّا بيّن البيانَ المبين في هذا القرآن، قال في مدحه: ﴿هَذَا بلاَغٌ لِّلناسِ﴾، أي: يتبلّغون به ويتزوّدون إلى الوصول إلى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أعلى المقامات وأفضل الكرامات؛ لما اشتمل عليه من الأصول والفروع وجميع العلوم التي يحتاجها العباد"[1].

31 – قال الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50]ك.

32 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]ك.

33 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: 13- 14]ك.

34 – قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41]ك.

35 – قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 51]ك.

36 – قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54- 55]ك.

37 – قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا، وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 56- 57]ك.

38 – قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58- 59]ك.

39 – قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: 20]ك.

40 – قال الله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 26]ك.

41 – قال الله تعالى: ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 72]ك.

42 – قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]ك.

(1) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص428.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

43 – قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ [الأنبياء: 74]ك.

44 – قال الله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 75]ك.

45 – قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ [الأنبياء: 79]ك.

46 – قال الله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 85]ك.

47 – قال الله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: 86]ك.

48 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]ك.

49 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67]ك.

50 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61]ك.

51 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المؤمنون: 73]ك.

52 – قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمًاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: 15]ك.

53 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النمل: 16]ك.

54 – قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النمل: 33]ك.

55 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: 77]ك.

56 – قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ، وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: 52- 55]ك.

57 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]ك.

58 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64]ك.

59 – قال الله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15]ك.

60 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: 3- 4]ك.

61 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافّات: 81، 111، 132]ك.

62 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافّات: 122]ك.

63 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافّات: 133]ك.

64 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافّات: 139]ك.

65 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17، 44]ك.

66 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47]ك.

67 – قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: 48]ك.

68 – قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: 18]ك.

69 – قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7]ك.

70 – قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [فصّلت: 38]ك.

71 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصّلت: 41]ك.

72 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]ك.

73 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]ك.

74 – قال الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]م.

75 – قال الله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ، كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 16- 19]ك.

76 – قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10- 11]ك.

77 – قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]م.

78 – قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]م.

79 – قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]م.

80 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12]م.

81 – قال الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: 7- 8]م.

82 – قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: 11]ك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

83 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ﴾ [الطارق: 13]ك.

ثانياً: إثبات المذامّ:

ومن الآيات الواردة في الذمّ بإثبات المذامّ:

1 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]ك.

(**كان**) تفيد ثبوت خبرها لاسمها، ومثل هذا التركيب يفيد في استحقاق الاسم للخبر؛ فالمذمومون هنا هم قوم نوح عليه السلام، أخبر الله عنهم على سبيل الذمّ لهم أنهم عَمون عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون إليه سبيلاً، لهم بصر وليس لهم بصيرة، فهم في ظلمات الضلال يتخبّطون.

2 – قال الله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13]ك.

قال الطبري: "فاخرج من الجنّة إنّك من الذين قد نالهم من الله الصَّغار والذلّ والمهانة، يقال منه: صَغِرَ يَصغَر صَغْراناً، وقيل: صَغُر يصغُر صَغَاراً وصَغَارةً، وبنحو الذي قلنا قال السدّي"[(1)]، ولا شكّ أنّ هذا من أشنع الذمّ لإبليس وأبلغِه؛ لأنه ارتكب أقبح ذنب حيث تكبّر على أمر الله، فعامله الله بنقيض قصده فنسبه إلى الذلّ والصغار، قال الشنقيطي: "بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبّر فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متّصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلوّ والعظمة، وذلك في قوله: ﴿**فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾، والصَّغَار أشدّ الذلّ والهوان، وقولِه: ﴿**اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً**﴾، ونحو ذلك من الآيات"[(2)].

3 – قال الله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 9]م.

قال ابن كثير: "يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثّاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿**اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾، يعني أنهم اعتاضوا عن اتّباع آيات الله بما الْتهَوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿**فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ**﴾، أي: منعوا المؤمنين من اتّباع الحقّ"[(3)]، فوصفهم الله بأشدّ الصفات قبحاً، وهي استبدالُ الذي هو أدنى من عَرَض الدنيا القليل الفاني بالذي هو خيرٌ، وهو رضا ربِّ العالمين، والصفة

(1) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج5 ج2 ص98.

(2) – الشنقيطي: محمّد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مج2 ص221.

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص838.

الأخرى أشدّ وأنكى، وهي أنهم لم يَكْفهم أنْ حرموا أنفسهم من الخير حتى طَمِعوا في حرمان غيرهم بإفسادهم وصدِّ أبواب الخير عنهم، فازدادوا بهذا كفراً على كفر، وسيزيدهم الله به عذاباً على عذاب جزاءً وفاقاً.

4 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: 142]م.

في الآية ذمّ لاذعٌ للمنافقين حيث ذكر الله صفاتهم المذمومة وما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع السِّمات، وأنّ طريقتهم مخادعةُ الله تعالى بما أظهروه من الإيمان وأبطنوه من الكفر، وفي الحقيقة هم يخادعون أنفسهم ولكن لجهلهم وسفههم لا يشعرون بذلك، فلا هم من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً[1]، وهذا من أعظم الضلال، فهذه الآية واحدة من بين الكثير من الآيات التي جاءت في ذمّ المنافقين وفضحهم وكشف عُوارهم.

إنّ أسلوب الذمّ في الآيات السابقة وفي غيرها مما سأذكره بعدُ واحد، يتمثّل في إثبات صفات الذمّ وإلصاقها بأهلها بوصفهم والإخبار عنهم تفصيلاً مبالغةً في ذمّهم وتعييرهم، وفي ذلك فائدةٌ أخرى وهي التحذير منهم والزجر عن الاتصاف بصفاتهم أو التشبهِ بهم، والحثُّ على التحلّي بضدّ ذلك، وآيات الذمّ بهذا الأسلوب كثيرةٌ جدّاً في القرآن الكريم تجاوزت الثمانين موضعاً، وهي:

1 – قال الله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: 18، 171]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 51 – 86]م، أكثر من عشرين آية متتالية جاءت في ذمّ بني إسرائيل وبيان أحوالهم ومخازيهم.

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 21]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23]م.

(1) – ينظر تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص211.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: 43]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: 46]م.

9 – قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51]م.

10 – قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:41- 42]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49]م.

12 – قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: 61- 62]م.

13 – قال الله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 80]م.

14 – قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 81]م.

15 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(1) [الأنعام: 28]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: 60]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102]م.

20 – قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 133]م.

21 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]م.

22 – قال الله تعالى: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 139]م.

23 – قال الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 8]م.

24 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 53]م.

25 – قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ، لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 56- 57]م.

26 – قال الله تعالى: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63]م.

27 – قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]م.

28 – قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: 95]م.

---

(1) – قال السيوطي: "وليس المعنى في قوله: (**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) أنّ ما تمنّوا ليس بواقع؛ لأنه ورد في معرض الذمّ لهم وليس في ذلك المتمنّي ذمّ". [معترك الأقران: مج1 ص445].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

29 – قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: 101]م.

30 – قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75]ك.

31 – قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 76]ك.

32 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]ك.

33 – قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: 89]ك.

34 – قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3]ك.

35 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]ك.

36 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحِجر: 6]ك.

37 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحِجْر: 34]ك.

38 – قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحِجر: 78]ك.

39 – قال الله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22]ك.

40 – قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: 83]ك.

41 – قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: 86]ك.

42 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]ك.

43 – قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 38]ك.

44 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100]ك.

45 – قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 101]ك.

46 – قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المؤمنون: 90]ك.

47 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]ك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

48 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 166]ك.

49 – قال الله تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: 186]ك.

50 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: 12]ك.

51 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [النمل: 55]ك.

52 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: 4]ك.

53 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ [القصص: 18]ك.

54 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: 32]ك.

55 – قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ [الروم: 51]ك.

قال الزمخشري: "ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القَطْر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مُبلِسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصَّفَار ضجُّوا وكفروا بنعمة الله، فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، كان عليهم أن يتوكّلوا على الله وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار، وأن يصبروا على بلائه فكفروا"(1).

56 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]ك.

57 – قال الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأحزاب: 19]م.

58 – قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: 72]م.

59 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: 19]ك.

60 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾ [الصافات: 30]ك.

61 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: 4]ك.

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص (485- 486).

62 – قال الله تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: 24]ك.

63 – قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: 30]ك.

64 – قال الله تعالى: ﴿فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54]ك.

65 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ [الدخان: 14]ك.

66 – قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: 22]ك.

67 – قال الله تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الدخان: 31]ك.

68 – قال الله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [الدخان: 37]ك.

69 – قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الجاثية: 31]ك.

70 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7]ك.

71 – قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [الأحقاف: 23]ك.

72 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمّد: 23]م.

73 – قال الله تعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح: 12]م.

74 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ [الذاريات: 39]ك.

75 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: 53]ك.

76 – قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر: 9]ك.

77 – قال الله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: 25]ك.

78 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ، وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾
[الواقعة: 45- 46]ك.

79 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: 20]م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

80 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]م.

81 – قال الله تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: 14]م.

82 – قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6]م.

83 – قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 1- 8]م.

84 – قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: 51]ك.

85 – قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدّثّر: 16- 25]ك.

86 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطفّفين: 32]ك.

87 – قال الله تعالى: ﴿وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا، وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 19- 20]ك.

الفرع الثاني: المدح والذمّ بأسلوب النفي:

كما أنّ المدح والذمّ يكون بإثبات الصفات للممدوح أو المذموم، فإنه يكون أيضاً بنفي تلك الصفات عنه، لكنّه أقلُّ مرتبة من الأول من حيث القوة؛ إذ نفي صفة النقص عن الشيء لا يلزم منه بالضرورة إثباتُ نقيضها له إلا على سبيل القصد، كما أنه – إن كان في المدح – قد يعرِّض الممدوح للتهمة، ومثاله: إذا أردت أن تمدح شخصاً ما فقلت له: أنت لست بخائن ولا كاذبٍ ولا زانٍ ولا خبيث، فقد جعلته موضع تهمة وريبة إلا إذا قامت قرينة تدلّ على أنك تريد إثبات كمال الضدّ، كقولك له مثلاً: أنت من أحسن الناس أخلاقاً وأبعدهم عن العيب والمذمّة، فأنت لست

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بخائن ولا كاذبٍ ولا زانٍ ولا خبيث، فهذا أحسنُ في مدحه؛ لأنّ فيه إثباتاً لكمال الضدّ، وهذا معنى: المدح والذمّ بأسلوب النفي، وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، هي:

أوّلاً: نفي المذامّ:

1 – قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: 2]م.

قال عبد الرحمن السعدي: "وقوله: ﴿**ذَلِكَ الكِتَابُ**﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة المشتملُ على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدِّمين والمتأخِّرين من العلم العظيم والحقِّ المبِين ف ﴿**لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ ولا شكّ بوجهٍ من الوجوه، ونفيُ الريْب عنه يستلزم ضدَّه؛ إذ ضدُّ الريب والشكِّ اليقينُ، فهذا الكتاب مشتملٌ على علم اليقين المزيلِ للشكّ والريب، وهذه قاعدةٌ مفيدةٌ أنّ النفي المقصود به المدحُ لا بدّ أن يكون متضمّناً لضدّه وهو الكمال؛ لأنّ النفي عدمٌ، والعدم المحض لا مدح فيه"[1]، والقرينة الدالة على المدح هنا هي تصدير الكلام عن القرآن باسم الإشارة (**ذَلِكَ**) الدالِّ على البعد ما يشير إلى إرادة المدح والتعظيم وإثبات الكمال، ثم إنّ القرآن كلامُ الله، وهو صفةٌ من صفاته، وصفات الله لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه.

2 – قال الله تعالى: ﴿**مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ**﴾ [ق: 29]ك.

إنّ كلمة (**ظَلاّمٍ**) على وزن "فَعّال"، وهي صيغةُ مبالغة، ومعلومٌ أنّ إثبات صفة المبالغة يلزم منه إثبات ما دونها من باب أولى، أمّا نفيُها فلا يلزم منه نفيُ ما دونها، فقولك: فلانٌ ليس بعلاّمة، لا ينفي كونه عالماً[2]، وعَوْداً على بَدء فإنّ نفي (**ظَلاّمٍ**) لا يعني نفي (**ظالم**) – والله منفيٌّ عنه الظلم – وهذا إشكال، وقد أُجيب عنه بأجوبةٍ[3] لعلّ أحسنها أنّ (**ظَلاّمٍ**) وإن كان للمبالغة فقد جيء به في مقابلة (**العَبِيد**)، قال ﷻ: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصّلت: 46]ك، ولم يقل: (**لِلْعَبْدِ**)، يرشّحه أنه قال في موضع: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ**﴾ [المائدة: 109]م، فقابل المبالغة بالجمع، وفي موضع آخر: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ**﴾ [الحشر: 22]م، فقابل عدم المبالغة بالإفراد، ومن هنا تُحمل المبالغة في هذه المواضع وفي غيرها على المبالغة في الفعل من ناحية تكرّره لا من جهة قوّته، ويكون المعنى أنّ الله لا يريد أن يَظلم

---

(1) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص40.

(2) – قال الكفوي: "وصفات الذمّ إذا نُفيت على سبيل المبالغة لم يُنفَ أصلها". [الكلّيات: ص546].

(3) – ينظر باقي الأجوبة في معترك الأقران للسيوطي: مج1 ص (432– 433).

أيّ عبدٍ، وعلى هذا فصفات الحقّ المبالَغ فيها على قدْر متعلّقاتها، وإنما هي في الحقّ – سبحانه وتعالى – لا تحتمِل الصفةُ فيه قوّةً ولا ضعفاً[1].

والحاصل أنّ هذه الآية الكريمة لا تدلّ على أنّ الله ليس بكثير الظلم للعبيد، كما قد يُتوهَّم بادئ الرأي، وإنما المعنى المتعيّن هو أنّ الله ليس بظالمٍ أيَّ أحد من الناس، فالمبالغة جاءت من جهة تكرّرِ الفعل لا قوّته، وهي محمولةٌ على مدح الله نفسَه بنفي الظلم عنها، ويتضمّن هذا النفي كمالَ الضدّ، وهو العدل المطلق؛ يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 40]م، وغير ذلك من الآيات الدالّة على اتّصافه بكمال العدل، وأنّ الظلم ممتنع منه امتناعاً مطلقاً.

3 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]م، [آل عمران: 67]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المائدة: 82]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: 49]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ [مريم: 14]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾ [مريم: 32]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء:19]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: 26]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: 54]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصّلت: 38]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصّلت: 41- 42]ك.

(1) – ينظر معترك الأقران للسيوطي: مج1 ص432، والمختار من تفسير القرآن الكريم للشعراوي: ج2 ص11.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

14 – قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]ك.

15 – قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: 29]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: 9]م.

17 – قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: 2]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: 22]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: 14]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3]ك.

ثانياً: نفي الممادح:

ومن الآيات في الذمّ بأسلوب النفي:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 58]م.

يذُمّ الله ﷻ في هذه الآية المنافقين بأنهم قوم لا عقل عندهم، فلا يَعْدون عن كونهم سفهاء، حيث اعتقدوا أنّ شرائع الإسلام المطهَّرةِ المحكَمةِ المشتملةِ على كل خير دنيويّ وأخرويّ نوعاً من اللعب في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد[1]، قال الطبري: "فلو عقَلوا ما لهم في إجابتهم إن أجابوا إلى الصلاة وما عليهم في استهزائهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عقلوا لِمَن فعل ذلك منهم عند الله من العقاب ما فعلوه"[2]، إنّ أسلوب الذمّ هنا متمثّل في نفي صفة المدح عنهم، وهي العقل المرشد إلى اختيار أحسن البدائل وأنفع النتائج وأسلم العواقب، ونفيه يلزم منه إثبات ضدّه وهو السفه وسوء التصرّف، والقرينة الدالّة على ذلك هي السياق، فقد جاءت هذه الآية في معرض ذمّ المنافقين وكفّار أهل الكتاب والتنفير من موالاتهم، ثم هم يوم القيامة سيعترفون بأنهم لم يكن لهم يومئذٍ عقل مثمر للعمل، وذلك حين معاينتهم العذاب إذ يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10]ك.

---

(1) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج2 ص607.

(2) – الطبري: محمّد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 ج3 ص188.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: 46]ك.

جاء قبل هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ﴾، ووعدُ الله الحقُّ هو إنجاؤه وأهلَه، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾، ومعلوم لدى نبيّ الله نوح عليه السلام أنّ ابنه كان من الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَّا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ﴾، فبعد أن حال بينهما الموج دعا نوح ربّه أن ينجي ابنه من العذاب، لا تمييزاً ولا محاباةً فليس هذا من خصال الأنبياء، ولكن حمَله على ذلك الشفقةُ وأنّ الله وعده بنجاة أهله، فظنّ أنّ الوعد لعمومهم مَنْ آمن ومَنْ لم يؤمن(1)، ومع هذا فقد فوّض الأمر لحكمة الله البالغة، فأجابه الله تعالى ذامّاً لمسألته تلك فقال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، أي: هذا الدعاء الذي دعوت به لنجاة كافرٍ لا يؤمن بالله ولا رسوله غيرُ صالح، قال الطبري: "إنّ سؤالك أيّاي ما تسألينه في ابنك المخالفِ دينَك الموالي أهلَ الشرك بي من النجاة من الهلاك وقد مضتْ إجابتي إيّاك في دعائك: ﴿لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ ما قد مضى من غير استثناء أحدٍ منهم عملٌ غير صالح"(2)، فالضمير في: (إنّه) عائدٌ على الدعاء، وقد جعله الزمخشري عائداً على الابن حيث قال: "جُعلَت ذاتُه عملاً غيرَ صالح مبالغةً في ذمّه"(3).

وذكر بعض أهل التفسير أنها قرئت: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾(4)، أي من الكفر والتكذيب، قال القرطبي: "وعلى هذا [بناءً على هذه القراءة] فلا تدخل في موضوع الذمّ إنما هي تعليلٌ لعدم جواب دعاء نوح عليه السلام، وقال الزجّاج(5): إنه عملٌ غيرُ صالح على تقدير حذف مضاف، أي: ابنُك ذو عمل غيرِ صالح"(6)، وبناءً على قول الزجّاج الذي ذكره القرطبي يكون الذمّ واقعاً على الابن بإضافة العمل غير الصالح إليه لا على نفس الدعاء، ولعلّ أولى الأقوال بالصواب أن يقال: إنّ الذمّ وقع على دعاء نوح عليه السلام، بأنه عملٌ غيرُ صالح، وممّا يدلّ على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّ مَا

---

(1) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي، ص382.

(2) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج6 ج3 ص33

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص399.

(4) – قرأها الكِسائي وحده من بين السبعة. [إعرابُ القراءات السبع وعِللُها لابن خالويه: مج1 ص283].

(5) – **الزّجّاج**: هو أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ النحوي، كان من أهل الفضل والدين، له من التصانيف: «معاني القرآن» و«الاشتقاق» وغير ذلك، توفي سنة: (311هـ)، وقيل: (316هـ)، وقد أناف على الثمانين. [إنباه الرواة: مج1 ص194].

(6) – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج9 ص46.

﴿لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾، لكنّ نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأنّ سؤاله لربه في نجاة ابنه محرَّم داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، بل تعارض عنده الأمران وظنّ دخوله في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾[1].

3 – قال الله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: 102]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 12]م.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]م.

10 – قال الله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 47]م.

14 – قال الله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحُجُرات: 4]م.

15 – قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: 13]م.

16 – قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14]م.

17 – قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7]م.

18 – قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]م.

19 – قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: 17- 18]ك.

---

(1) – ينظر تفسير السعدي: ص383.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثالث: المدح والذمّ بأسلوب الحصر والقصر:

قد تُقصر الصفة على الموصوف أو الموصوفُ على الصفة، وهذا ما يُصطَلح عليه بالقصر، ويكون بالأداة "إنما"[(1)] أو بالجمع بين النفي والاستثناء أو بتقديم ما حقّه التأخير أو بذكر ضمير الفصل، أو نحو ذلك مما هو مبسوط في كتب النحو والبلاغة، قال السكّاكي[(2)]: "وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ، كقولك: زيدٌ شاعرٌ لا مُنجِّمٌ لمن يعتقده شاعراً ومُنجِّماً"[(3)]، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في المدح والذمّ في مواضع منه، هي:

أوّلاً: المدح بأسلوب الحصر والقصر:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]م

وهُم المؤمنون الموصوفون في أول السورة في قوله تعالى: ﴿**الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...**﴾ الآية، قال الزمخشري: "وفي اسم الإشارة الذي هو: (**أُولَئِكَ**) إيذانٌ بأنّ ما يَرِد عقيبه فالمذكورون قبله أهل لاكتسابه؛ من أجل الخصال التي عُدِّدت لهم"[(4)]، أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة المتضمِّنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك، فهؤلاء الذين هذه صفاتهم هم وحدهم المخصوصون دون غيرهم بالفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وفي حصر الفلاح فيهم – باستخدام ضمير الفصل (**هُمْ**) – عين المدح لهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، فمُدحوا مرّة بتعداد صفاتهم ثم بالإخبار عنهم بأنهم على هُدى عظيم من ربهم، وأخرى بحصر الفلاح فيهم، وهذا التكرار والتدرُّج يقوّى مدحهم ويُنشِط على العمل مثلهم.

---

(1) – قال السكّاكي: "والسبب في إفادة "إنما" معنى القصر هو تضمينه معنى: "ما" و"إلاّ"". [مفتاح العلوم: ص291].

(2) – **السكّاكي**: هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، كان علاّمة بارعاً في فنون شتّى خصوصاً المعاني والبيان، وله كتاب: «مفتاح العلوم» فيه اثنا عشر عِلماً من علوم العربية، ولد سنة: (555هـ) ومات بخُوارزم سنة: (626هـ). [معجم الأدباء لياقوت الحموي: مج5 ص647، بغية الوعاة للسيوطي: مج2 ص364].

(3) – السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص289، وينظر الإيضاح للقزويني: ص118.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص44.

2 – قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26]ك.

يمدح الله ﷻ نفسه بأنه الإله الحقّ الأوحد الذي لا تنبغي العبادة الحقّة إلاّ له، وفي ضِمن ذلك دعوةٌ لعباده بإخلاص العبادة له، وكلمةُ التوحيد هذه هي أعظمُ ما يُثْنى به على الله تعالى، وهي متضمِّنة لنفيٍ وإثبات، نفيِ جميع ما يُعبد من دون الله وإثباتِ العبادة لله وحده، فلا يتمّ المدح بالوَحدانية إلا بأسلوب القصر، ولما قام الصحابة ﷺ بكلمة التوحيد حقّ القيام استحقّوا مدح الله ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

3 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 157]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 272]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 73]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51]م.

9 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: 62]م.

هذه الآية باعتبار نزولها في صحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ – وهو أمر الخندق – هي مدحٌ لهم بأنهم هم المؤمنون حقّاً وصدقاً، الذين يستحقّون دون غيرهم وصف الإيمان بالله والأدب مع رسول الله ﷺ، ثم يتأكّد المدح مرّة أخرى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ﴾. هذا وفي الآية إرشادٌ وتوجيه من الله تعالى لعباده المؤمنين أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ فَعَلى أيّ أمرٍ جامعٍ بحيث يكون من ضرورته أو مصلحته أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد والمشاورة ونحو ذلك، فإنّ المصلحة تقتضي اجتماعهم بإذنٍ من الرسول ﷺ أو نائبه من بعده[1].

(1) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي، ص576.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10 – قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: 60]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]م.

14 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69]م.

15 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: 18]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: 33]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19]م.

20 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: 8]م.

21 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9]م.

ثانياً: الذمّ بأسلوب الحصر والقصر:

ومن آيات الذمّ التي جاءت في القرآن بأسلوب الحصر والقصر:

1 – قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]م.

هذا ذمّ صريحٌ من الله تعالى للمنافقين الذين من صفاتهم أنهم إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الصحابة ﷺ قالوا أنؤمن كما آمن السفاء، يَعنُون – قبّحهم الله – الصحابةَ ﷺ، يزعمون أنّ سفهَهم أوجب لهم الإيمان واتّباع الرسول، وفي ضِمن ذلك هم العقلاء أربابُ الحِجى، فردّ الله عليهم ذمّهم بذمٍّ أشدَّ وأشنع، فإن كانوا هم قد ذمّوا الصحابة ﷺ بأن نعتوهم بالسفه، فقد ذمّهم الله بأن حصر السفه فيهم، وهل السفيهُ إلا الذي يجهل مصالح نفسه ويسعى في ضررها؟ وهذه الصفة منطبِقةٌ عليهم أشدّ المطابقة، قال ابن كثير: "فأكّد وحصر السفاهة فيهم"[1].

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص55.

2 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: 90]م.

ذمّ الله في هذه الآية الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ذمّاً شديداً مستخدماً أسلوب القصر بأنها خَبَث وقَذَر، أي: ليست هذه المذكورات إلا رجساً لا غير، قال السعدي: "يذمّ تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان وأنها رجس"(1).

3 – قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النحل: 60]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ [النحل: 101]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: 105]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: 108]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: 48]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: 2]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: 25]ك.

14 – قال الله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 83]ك.

15 – قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4]م.

16 – قال الله تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: 50]م

(1) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص243.

17 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: 5]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: 153]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: 36]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: 64]ك.

21 – قال الله تعالى: ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: 58]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18]م.

23 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: 43]ك.

24 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 46- 47]ك.

25 – قال الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: 39]ك.

26 – قال الله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: 17]ك.

27 – قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: 15]م.

28 – قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 52]ك.

29 – قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: 9]ك.

30 – قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدّثر: 24- 25]ك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الرابع: تأكيد المدح بما يشبه الذمّ وعكسه.

البند الأوّل: تأكيد المدح بما يشبه الذمّ:

تأكيد المدح بما يشبه الذمّ ثلاثة أضرُب[1]، أفضلها أن يستثني من صفة ذمّ منفيّة عن الشيء صفة مدحٍ بتقدير دخولها، كما جاء في قول النابغة الذبياني في الطويل[2]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وذكرهذا النوع ابنُ حجّة الحموي في بديعيّته فقال:

فِي مَعْرِضِ الذَمِّ إِنْ رُمْتَ المدِيحَ فَقُلْ *** لاَ عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى إِكْرَامِ ضَيْفِهِمُ

وقال: "هذا النوع – أعني: المدح في معرض الذمّ – من أنواع ابن المعتزّ، وهو أن ينفي صفةَ ذمّ ثم يستثني صفةَ مدحٍ، كقولك: لا عيب في زيد سوى أنه يكرم الضيف، وأعظمُ الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلاً سَلَٰمًا سَلَٰمًا**﴾ [الواقعة: 25- 26]"[3].

وهذا النوع موجود في القرآن الكريم، ويمكن حصره في ثمانية مواضع، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ **هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ**﴾ [المائدة: 59]م.

يأمر الله ﷻ رسوله الكريم أن يُعْلِم أهل الكتاب أنّ قدْحهم فيه قدحٌ بأمرٍ ينبغي المدحُ عليه، والمعنى: هل لكم علينا مَطعَن أو عيبٌ إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذمّة[4] فلا عيبَ في النبيّ ﷺ وصحْبِه إلا الإيمانُ بما أُنزل من عند الله، وأنّ المخالفين له فاسقون، وهذا ممّا لا يُعاب عليه ولا يُنكَر، فعطفَ على صفة الذمّ المنفيّة صفةَ مدحٍ، وهو ما يسمّى بتأكيد المدح بما يشبه الذمّ، فالاستثناء يوهم الذمّ والحال أنه ليس ثمّة ذمٌّ البتّة.

---

(1) – **الضرب الأول:** أن يَستثني من صفة ذمّ منفيّة صفةَ مدح، **والثاني** أن يُثبِت لشيء صفةَ مدحٍ، ويأتي بعدها بأداة استثناء تليها صفةُ مدحٍ أخرى، **والثالث:** أن يأتي الاستثناء فيه مفرغاً كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا**﴾. [ينظر الإيضاح للقزويني: ج2 ص524، والمطوّل للتفتازاني: ص80، والصاحبي لابن فارس: ص260].

(2) – ديوان النابغة: ص47، ومعنى البيت: إن كانت **فُلول**، أي: ثُلَمُ السيف من المقارعة والمضاربة – وهو دليل الشجاعة والإقدام – عيباً فأثبِته على تقدير أنّ فلول السيف منه وذلك محال، إذاً لا عيب فيهم قَطّ. [الإيضاح: ج2 ص524].

(3) – ابن حجّة الحموي: تقيّ الدين أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح: عصام شعيتو، مج2 ص399.

(4) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص608.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا**﴾ [الأعراف: 126]ك

قال الزمخشري: "وما تعيب منّا إلا الإيمانَ بآيات الله، أرادوا: ما تعيب منّا إلا ما هو أصلُ المناقب والمفاخر كلِّها وهو الإيمان، ومنه قوله[1]:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ"[2]

3 – قال الله تعالى: ﴿**لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الأعراف: 61]ك.

بعد أن ذكر الآلوسي خلاف العلماء حول معنى **(لكن)** في هذه الآية قال: "وقال بعض فضلاء الروم: النظر الصائب في هذا الاستدراك أن يكون مثل قوله: ولا عَيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفَهم *بهنّ فلولٌ من قِراعِ الكتَائِبِ، وقولِه [أي: بديع الزمان الهمذاني]: هو البدر إلا أنّه البحرُ زاخراً * سوى أنه الضِّرغام لكنّه الوَبْل. اهـ كأنه قيل: ليس بي ضلالة وعَيب سوى أني رسولٌ من ربّ العالمين، وأنت تعلم أنّ هذا النوع يقال له عندهم: تأكيد المدح بما يشبه الذمّ"[3].

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ**﴾ [التوبة: 74]م.

قال ابن كثير: "أي: وما للرسول عندهم ذنبٌ إلا أنّ الله أغناهم ببَركته ويُمْنِ سعادته، ولو تمّت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ للأنصار: ((**ألم أجدْكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرِّقين فألّفكم الله بي، وعالَةً فأغناكم الله بي؟**)) كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. الحديث[4]، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾، وقولِه ﷺ: ((**ما يَنقِم ابنُ جميلٍ إلاَّ أن كان فقيراً فأغناه الله**))[5] انتهى كلامه"[6]، فهل يُنقَم يُنقَم ممّن كان سبباً في الهداية موصلاً إلى أكمل غاية؟ أم هل يعاب عليه إلا ما هو من أعظم الممادح وأجلّ السجايا؟ وهل حقّه عليهم إلا أن يُعظّموه ويوقِّروه ويؤمنوا به ويجِلُّوه، فالإحسان ليس له جزاءٌ إلاّ الإحسان، قال الشوكاني (ت 1250هـ): "وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيقٌ بالمدح والثناء، وهو

---

(1) – البيت للنابغة الذبياني، وقد سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص142، ينظر تطبيقات نحوية وبلاغيّة لعبد العال سالم مكرم: ج4 ص574.

(3) – الآلوسي: السيّد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج4 ج8 ص151.

(4) – أخرجه أحمد في مسنده، مج3 ص57، 104، 253، وأصله في البخاري، باب مناقب الأنصار، مج2 ج4 ص221.

(5) – أخرجه مسلم في كتاب الزكاة عن أبي هريرة ﷺ، مج4 ج7 ص56.

(6) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص267.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعمّ العام، وهو من باب قول النابغة: ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم...، فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذمّ"[1].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [يونس: 37]ك.

يَستدلّ المفسرون بهذه الآية على إعجاز القرآن الكريم، وأنّ مثلَه غيرُ مستطاع؛ لأنه كما قال ابن كثير: "...، بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يُشْبهه شيءٌ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أقواله، فكلامُه لا يُشبِه كلامَ المخلوقين"[2].

ومع ذلك يمكن أن نفهم الآية على أنها في مدح القرآن الكريم، توافُقاً مع كثير من الآيات الواردة في مدحه بوصفه بأكرم الأوصاف وأكملها، وتسميته بأحسن الأسماء وأشرفها، فلا يَبعُد إذاً أن تكون هذه الآية من هذا القبيل، ويكون هذا المدح من باب تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، حيث نفى الله ﷻ عن القرآن صفة ذمّ، وهي كونُه مفترى ومقدوراً عليه ثم أتى بـ: **(لَكِنْ)** الاستدراكية ليسبق إلى الذهن أنّ في القرآن ما يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، ثم لا يكاد يستقرّ هذا الوهم في الأذهان حتى يزول بذكر صفة مدحٍ أخرى، وهي أنه مصدِّقٌ لما قبله من الكتب مهيمنٌ عليها، مفصِّلٌ لكلّ شيء متضمِّنٌ للحقّ واليقين منزَّهٌ عن كل ريْبٍ ومَيْن، وهذا من أحسن المدح وأعجبه، ويشبه هذه الآية في المعنى واللفظ قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يوسف: 111]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا**﴾ [مريم: 62]ك.

في هذه الآية مدح للجنّة بما يشبه الذمّ، والأصل في الاستثناء في هذا الأسلوب أن يكون منقطعاً، لكنه في هذا الضرب الذي يُستثنى فيه من صفة ذمٍّ منفيّة عن الشيء صفة مدحٍ يُقدَّر متّصلاً، أو قد يكون الاستثناء من أصله متّصلاً، فعلى الأول يكون المعنى: إن كان السلام من قبيل اللغو فأثبت شيئاً من اللغو على تقدير أنّ السلام منه وذلك محال، ويكون تأكيد المدح فيه من

---

(1) – الشوكاني: أحمد بن علي، فتح القدير، مج2 ص383.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص904.

وجهين، **أحدهما:** أنه كدعوى الشيء ببيّنة، **والثاني:** أنّه إذا جيء بـ: **(إلاّ)** تَوهّم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أنّ ما يأتي بعدها مُخرَجٌ ممّا قبلها، فيكون شيء من صفة الذمّ ثابتاً وهذا ذمّ، فإذا أتت بعدها صفة مدح **(سَلاَماً)** تأكّد المدح لكونه مدحاً على مدح وإن كان فيه نوع من الإيهام والخداع[1]، قال الآلوسي: "وجوّزوا أن يكون متّصلاً، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، وهو يفيد نفي سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى، والاتّصالُ على هذا على طريق الفرض والتقدير، ولولا ذلك لم يقع موقعَه من الحسن والمبالغة"[2]، وعلى الثاني: وهو أن يكون الاستثناء من أصله متّصلاً فلا تكون الآية من هذا الباب وإن اشتملت على مدح الجنّة بنفي اللغو عنها؛ لأنّه على هذا يكون السلام من اللغو على اعتبار أنّ معنى السلام الدعاءُ بالسلامة من الآفات، وأهلُ الجنّة عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام وإظهار التحابُب، وهو اللائق بأهل الجنّة[3].

7 – قال تعالى: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا**﴾[الواقعة: 25- 26]ك.

لقد مدح الله الجنّة دار المتقين في آيات كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾، وفي هذه الآية يؤكّد الله هذا المدح بأسلوب مختلف، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذمّ، فمدحَ الله الجنة – أولاً – بأنها خاليةٌ من اللغو والتأثيم، فلا يُسمَع في جنات النعيم كلامٌ يُلغي أو لا يكون فيه فائدةٌ أو يُؤثِّم صاحبَه، ثم استثنى من صفة الذمّ المنفيّة صفةَ مدحٍ أخرى، وهي القيلُ سلاماً سلاماً، وهو الكلامُ الطيِّب المسرُّ للنفوس المفرحُ للقلوب، فتكون الجنة قد مُدحت مرّتين؛ مرّة بنفي الصفة المذمومة عنها وأخرى بإثبات الصفة الممدوحة لها.

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ**﴾ [البروج: 8]ك.

هل الإيمان بالعزيز الحميد مما يُنكَر أو يُنقَم؟ بل على العكس من ذلك، فقول الله ﷻ فيهم: **(وَمَا نَقَمُوا)** مدحٌ لهم بنفي العيب عنهم، والاستثناء بـ: **(إلاّ)** مُؤْذنٌ بأنّ ما يأتي بعدُ فيه ذمّ، فإذا به صفةُ مدح، والتقدير: ليس في أولئك المؤمنين ما يُنقَم أو يعاب إلا الإيمان بالعزيز الحميد، وهو ليس بذنب ولا عيب، فأكّد المدح الأول بمدح ثانٍ مبالغةً في مدح المؤمنين والثناء الحسَن عليهم.

---

(1) – ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: ج2 ص524

(2) – الآلوسي: روح المعاني، مج8 ج16 ص115.

(3) – ينظر المرجع نفسه: مج8 ج16 ص116، والإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: ج2 ص524.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

البند الثاني: تأكيد الذمّ بما يشبه المدح:

يوجد من هذا النوع – حسب التتبّع – موضعان في القرآن الكريم، هما:

1 – قال الله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ**﴾ [التوبة: 47]م.

لقد كره الله خروج المنافقين للقتال مع المؤمنين؛ لأنهم قومٌ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ لذا كان خروجهم لا خير فيه، قال تعالى: (**لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ**) وهذا ذمّ، أي: لا يزيدون المؤمنين قوةً ونصراً ثم أتى بالاستثناء الموهِم رجاءَ زيادةٍ ما قد تَحْصلُ منهم، فإذا هو النقص والخَبال والإِوضاع ابتغاء الفتنة، وكلّها صفات ذمّ جاءت لتأكيد الذم الأول بأسلوب فيه نوعٌ من الخداع والإيهام، وهو ما يُعرف عند البلاغيّين بتأكيد الذمّ بما يشبه المدح.

2 – قال الله تعالى: ﴿**لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**﴾ [النبأ: 24- 25]ك.

يصف الله ﷻ جهنّم التي أُعدت للكافرين بما يدلّ على ذمّها بأنّ داخليها لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، (**إلا**) هذا الاستثناء فيه تأميل لأَنْ يَعقُبه شيءٌ من جنس البرد والشراب أو الخروج من العذاب، لكنّهم – ويا لَخسارتهم – يفاجأون بما هو أشدّ عليهم وأنكى، إنه الحميم والغساق، فالحميم هو الماء الحارّ غاية الحرارة، والغساق هو ما يسيل من صديد أهل النار نتِنُ الرائحة كريه المنظر، ليت شعري أين ذاك الشراب الذي يُلتذُّ به من هذا الغساق الكريه؟ وأين تلك البرودة التي يؤمِّلونها من هذا الحميم الحار؟ فلا بردَ في النار ولا شراب، بل ليس لهم فيها إلا الشرُّ والعذاب، ولا ينتَقِلون عنها من شرّ إلا إلى ما هو أشرّ، نعوذ بالله من عذاب جهنّم وبئس المستقرّ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني

النعت للمدح أو الذمّ وما يلحق به

يعرِّف علماء النحو النعت بأنه التابع المكمِّل متبوعَه ببيان صفةٍ من صفاته(1)، وفائدتُه(2): الكشفُ والبيان أو التخصيص أو المدح والذمّ، والأصل أن يُطابق النعت منعوتَه في الإعراب إلاّ إذا قُطع عن منعوته فيُرفع على إضمار مبتدأ أو يُنصب على إضمار فعل، ويُقطع النعت – غالباً – لإرادة المدح أو الذمّ أو إذا كان المنعوت معلوماً بدون الصفة، مثاله في المدح قولُ القائل: أخذت العلم عن محيي الدين الفقيهَ – بالفتح والضمّ – أي: هو الفقيهُ أو أعني أو أمدح الفقيهَ، ومثاله في الذمّ: خُذ الحِذْر من فلانٍ المنافقُ بالرفع والنصب على الذمّ، قال ابن هشام: "إذا كان الموصوف معلوماً بدون الصفة جاز لك في الصفة الإتباعُ والقطعُ، ومثال ذلك في صفة المدح: الحمدُ لله الحميدِ َ ُ، أجاز فيه سيبويه الجرَّ على الإتباع، والنصبَ بتقدير: "أمدح"، والرفعَ بتقدير: "هو"، وقال سيبويه: سمعنا بعض العرب يقول: (**الحمدُ لله رَبَّ العالمين**) – بالنصب –، فسألتُ عنها يونس [ابن حبيب الضبّي (ت 182هـ)] فزعم أنها عربيّة. اهـ، ومثالُه في الذم: ﴿**وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ**﴾ قرأ الجمهور بالرفع على الإتْباع، وقرأ عاصم بالنصب على الذمّ"(3).

وفي القرآن الكريم جاء النعت لغرض المدح أو الذمّ في آيات كثيرة سواء بالإتباع أو القطع، وقد صنّفتُها إلى مجموعتين، الأولى منهما تتناول ما جاء منه على الإتباع، والأخرى ما جاء على القطع، أمّا الآياتُ التي وصف الله ﷻ فيها نفسه بصفات الجمال والجلال – وهي كلُّها صفاتٌ جاريةٌ على المدح والتمجيد(4)– فلكثرتها وتَكرُّرها لم أذكرها جميعاً ولكني اكتفيتُ بذكر بعضها بما يحقّق المقصود ويُوفي بالمطلوب.

---

(1) – ابن عقيل: شرح ألفيّة ابن مالك، مج2 ص178، وعرّفه ابن هشام بقوله: "**النعت**: هو التابع المشتقّ أو المؤوَّل به المبايِنُ للَفظِ مَتبوعِه". [شرح قطر الندى وبلّ الصدى: ص309].

(2) – المرجع نفسه: مج2 ص178.

(3) – ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص314.

(4) – قال ابن فارس: "والنعت يجري مجريين، **أحدهما**: تخليص اسم من اسم...، **والآخر** على معنى المدح والذمّ، نحو: العاقل والجاهل، وعلى هذا الوجه تجري أسماء الله– **جلّ وعزّ**– ؛ لأنّه المحمود المشكور المثْنَى عليه بكلّ لسان، ولا سَمِيَّ له – **جلّ شأنه** – فيُخلّص اسمُه من غيره". [الصاحبي في فقه اللغة: ص89]، وينظر دلائل الإعجاز للجرجاني: ص46.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الأوّل: ما جاء من النعت للمدح أو الذمّ على الإتباع.

أوّلاً: النعت للمدح:

1 – قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3]ك.

من المتقرّر أنّ صفات الله كلَّها تدلّ على الكمال والعظمة، وعليه فهي محمولة على المدح والتعظيم، و(**الرَّحمن الرَّحِيم**) اسمان مشتقّان من الرحمة على وجه المبالغة، و(**رحمن**) أشدُّ مبالغةً من (**رحيم**)[1]، وقيل: (**الرحمن**) أمدح و(**الرحيم**) ألطف[2]، وهما يدلاّن على رحمة الله تعالى الواسعةِ العظيمة التي وسعت كلّ شيء وعمَّت كلَّ حيّ، ولهذا من وصف الله بـ: (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**) فقد أثنى عليه بالثناء الحسن، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم (ت 261هـ) وغيرُه عن أبي هريرة ﷺ (ت 58هـ) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((**قال الله عزّ وجلّ: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وبَيْنَ عَبْدي نِصْفَين، ولِعَبْدي ما سَأل، فإذا قال: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالمينَ﴾ قال الله: حَمِدَنِي عَبْدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله: أَثْنى عَلَيَّ عَبْدِي**))[3].

وقد تكرّر ذكر هاتين الصفتين كثيراً في القرآن الكريم، ولا غرو في ذلك، فرحمة الله وسِعت كل شيء، ورحمةُ الله سَبقت غضبه، وبرحمة الله يدخل المؤمنون جنّته.

2 – قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143]م.

وصف الله تعالى في هذه الآية الكريمة أمّة محمّد ﷺ بأنها وسطٌ بين الأمم، عدولٌ خِيارٌ مشهودٌ لهم بالعدل والفضل، فلا هم أهلُ غُلوٍّ كالنصارى، ولا هم أهلُ تقصير كاليهود، ولكنهم كما قال الطبري: "**أهلُ توسُّط واعتدالٍ فيه، فوصفهم الله بذلك إذْ كان أحبُّ الأمور إلى الله أوسطُها**"[4]، وقال ابن كثير: "والوسَط ههنا: الخيار الأَجْود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرُها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً"[5].

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص27.

(2) – الكفوي: الكلّيات، ص467.

(3) – سبق تخريجه، ينظر الصفحة (76) من هذا البحث .

(4) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج2 ج2 ص5.

(5) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص179.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ كلمة (**وَسَطاً**) صفةُ مدح؛ لأنها تدلّ على الخيريّة والاعتدال والجودة والفضل ونحو ذلك من المعاني المحمودة، قال القرطبي: "والوسط العدل، وأصل هذا أنّ أحمد الأشياء أوسطُها، وأنشد زهير[1]:

هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ *** إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ"[2]

ويقول ابن عاشور موضّحاً السياق الذي وردت فيه هذه الآية وهو مدح أمّة محمّد ﷺ: "والآية ثناءٌ على المسلمين بأنّ الله قد ادّخر لهم الفضل، وجعلهم وسطاً بما هيّأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة، فجعل أذهان أتباعها سالمةً من أن تُروَّج عليهم الضلالات التي راجت على الأمم ...، والحقّ عندي أنّ الآية صريحةٌ في أنّ الوصف المذكور فيها مدحٌ للأمّة كلّها لا لخصوص علمائها"[3].

3 – قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ **وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: 58]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ **أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ**﴾ [آل عمران: 113– 114]م.

يمدح الله تعالى طائفة من أهل الكتاب بوصفها بهذه الخِلال الجميلة والأفعال الجليلة، بأنها أمّةٌ مستقيمةٌ على دين الله، يتلون آياته آناء الليل ساجدين متهجّدين، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فكمّلوا أنفسهم ثم كمّلوا غيرهم، وذلك لأنّ قلوبهم قد امتلأت باليقين المثمِر للرغبة في فعل الخير ومعرفة فوائده وحُسنِ عوائده، وهؤلاء هم المذكورون[4] في آخر السورة: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ**﴾ [آل عمران: 198]م.

---

(1) – لم أعثر عليه بهذا اللفظ ولكن بلفظ: لِحَيٍّ جَلَاَلٍ يَعْصِمُ النَّاسَ أَمْرُهُم *** إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَيَالِي بِمُعْظَمِ، وهو من بحر الطويل، ينظر ديوان زهير: ص86 .

(2) – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾، [البقرة: 143]، مج2 ص153.

(3) – ابن عاشور: محمّد الطاهر، التحرير والتنوير، مج2 ص (18– 19).

(4) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج1 ص360.

5 – قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: 44]م.

(الذِينَ أَسْلَمُوا) نعت لـ: (النَّبِيّينَ)، وهو صفة مدح، والمراد بـ: (النَّبِيّينَ): الذين جاؤوا من بعد موسى عليه السلام وأُمِروا بتحكيم التوراة بين اليهود في القضايا والفتاوى، وهؤلاء النبيّون أسلموا لله وانقادوا لأوامره، فهُم لا يخرجون عن حكم التوراة ولا يبدّلونها ولا يحرّفونها[1]، وإنما مُدحوا بالإسلام؛ لأنّ فيه أكملَ مظاهر العبوديّة، وهو دليل على كمال التوحيد وكمالِ الرضا والتسليم، والنبيُّون هم أول المسلمين؛ إذ هم الأسوة والقدوة، فيكون إسلامهم أفضل من إسلام غيرهم، قال الزمخشري: "(الذِينَ أَسْلَمُوا) صفةٌ أُجرِيَت على النبيّين على سبيل المدح، كالصفات الجارية على القديم – سبحانه – لا للتّفْصِلة والتوضيح"[2].

6 – قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 154- 155]ك.

في هاتين الآيتين ثناءٌ عَطِر لكتابين عظيمين هما: التوراة والقرآن، وكثيراً ما يقرن الله عز وجل بينهما في كتابه العزيز[3]، ومن خلال مدح الله للكتابين يظهر للمتأمِّل فضلُ القرآن على التوراة؛ لأنّ الله تعالى وصف التوراة على سبيل التفصيل، أمّا القرآن فمدحه على سبيل الإجمال، فوصفه بأنه كتابٌ مباركٌ، والبركة وصفٌ جامعٌ يدلّ على كثرة المنافع وغزارة الخير وتجدّد العطاء بما لا يمكن عدّه أو حدّه، وفي ضِمنه أنّه سالمٌ من التغيّر والتحريف، صالح مُصلِح لكل زمان ومكان، فكأنّه لكثرة نعوته وأوصافه

(1) – المصدر السابق: مج2 ص596، معترك الأقران للسيوطي: مج1 ص350.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص (636- 637).

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: مج2 ص710.

أجملَ – عزّ **ذِكره** – في وصفه، وفصّل في غيره مراعاةً لهذا الملحظ، ويعضّده التنكير في (**كِتَابٌ**) و(**مُبَارَكٌ**) الدالّ على التفخيم، ولا شكّ أنّ هذا أقوى في مدح القرآن وأبلغ في الثناء به عليه.

8 – قال الله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ** وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التّوبة: 108]م.

روى الإمام أحمد (ت 241هـ) عن عُويم بن ساعدة الأنصاري (ﷺ) (ت ق 23هـ) أنّ النبيّ ﷺ أتاهم في مسجد قُباء، فقال: ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَحسَنَ عَلَيْكُم الثَّنَاءَ في الطُّهُورِ في قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ، فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الذِي تَطَّهَّرُونَ بِهِ؟** فَقَالُوا: "وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَعْلَمُ شَيْئاً إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ اليَهُودِ فَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارَهُم مِنَ الغَائِطِ فَغَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا"[(1)].

9 – قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ **عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: 128]م.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ **ٱلۡكِتَٰبَ** تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ **وَهُدًى وَرَحۡمَةً وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ**﴾ [النحل: 89]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ **عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ** فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا﴾ [الإسراء: 5]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ **غُلَٰمًا زَكِيًّا**﴾ [مريم: 19]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا **ذِكۡرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ** أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 50]ك.

14 – قال الله تعالى: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ، ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ** خَٰشِعُونَ، **وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ**﴾ [المؤمنون: 1 – 11]م.

---

(1) – أخرجه أحمد في المسند، مج3 ص422، وخرّجه الهيثمي في مجمع الزوائد، مج1ص212، عن عويم بن ساعدة الأنصاري، وأخرجه الأربعة إلا النسائي عن أبي هريرة ﷺ، وقال الألباني: صحيح باعتبار شواهده. [إرواء الغليل، مج1 ص85].

15 – قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ، رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: 36- 37]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا، وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا، وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: 63 - 77]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: 195]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 29]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: 55]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ [الروم: 43]ك.

21 – قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافّات: 101]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: 1]ك.

23 – قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ [ص: 17]ك.

24 - قال الله تعالى: ﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [ص: 45]ك.

25 – قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ، ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمر: 17]ك.

26 – قال الله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزُّمر: 28]ك.

27 – قال الله تعالى: ﴿حمٓ، تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ، غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: 1- 3]ك.

28 – قال الله تعالى: ﴿حمٓ، تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: 1- 2]ك.

29 – قال الله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: 1]ك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

30 – قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 32- 33]ك.

31 – قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24]ك.

32 – قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: 28]ك.

33 – قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: 5- 6]ك.

34 – قال الله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [سورة الرحمن: 70]م.

35 – قال الله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [سورة الرحمن: 76]م.

36 – قال الله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: 12]م.

37 – قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]م.

38 – قال الله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ [التحريم: 10]م.

39 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40]ك.

40 – قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ، ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ، وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: 22- 35]ك.

41 – قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجنّ: 1]ك،

قال البغوي: "قال ابن عباس ﵁: بليغاً، أي: قرآناً ذا عَجَب يُعجَب منه لبلاغته"[1].

42 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: 20]م.

43 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: 19- 21]ك.

---

(1) – البغوي: أبو محمّد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، مج4 ص414.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

44 – قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: 3]ك.

45 – قال الله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ، فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ [البيّنة: 2- 3]م.

ثانياً: النعت للذمّ:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]م.

قال ابن كثير: "يَعنُون – قبّحهم الله – أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلةٍ واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟"(1)، نعتوهم بالسفه؛ لأنهم ظنّوهم ليسوا على شيء، وأنهم يضيّعون أموالهم بالإنفاق، ويُهلكون أنفسهم بالجهاد، ويُهملون مصالحهم بإيثارهم الآخرة على الدنيا، فزعموا أنّ سفههم أدّى بهم إلى كلّ هذا، وقد كذَبوا في زعمهم حيث رَمَوا غيرهم بما هو فيهم ومُنطبِقٌ عليهم.

2 – قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: 142]م.

وصف الله اليهود وأهلَ النفاق بالسفه والجهل على وجه الذمّ لهم، قال الطبري: "فتجاهلتْ أحبار اليهود وتعاظمت جُهّالهم وأهلُ الغباء منهم عن اتّباع محمّد ﷺ؛ إذ كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وتحيَّر المنافقون فتبلَّدوا، وبما قلنا في السفهاء أنهم هم اليهود وأهل النفاق قال أهل التأويل"(2).

3 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [التوبة: 98]م.

قال الزمخشري: "دعاءٌ مُعترَضٌ دُعي عليهم بنحو ما دَعوا به، كقوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص55.

(2) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج2 ج2 ص2.

يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقُرِئَ: (السُّوء) – بالضمّ –، وهو العذاب، كما قيل: سيِّئة، والسَّوْء – بالفتح – وهو ذمٌّ للدائرة، كقولك: رَجلُ سَوْءٍ، نقيضُ قولك: رجلُ صِدقٍ؛ لأنّ مَن درات عليه ذامٌّ لها"(1).

5 – قال الله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: 145]ك.

(الفاسقين): صفة ذمّ لموصوف محذوف، تقديره: القوم، قال السيوطي: "(دَارَ الفَاسِقِينَ): فرعون وأتباعه، وهي مصرُ لتعتبروا بهم"(2)، والمراد من قوله: (سَأُرِيكُمْ) التهديدُ والوعيد، قال ابن كثير: "كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حالُ من خالفَ أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره"(3).

6 – قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 44]ك، وهم قوم نوح ﷺ.

7 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: 58]ك، وهم قوم لوط ﷺ

8 – قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَٰخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النحل: 60]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 60]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: 10- 11]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ، ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: 152]ك، وهم الرؤساء والكُبراء والدعاة لهم إلى الشرك والكفرِ ومخالفةِ الحقّ(4).

13 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 21]ك، أي: فرعون وأتباعه.

14 – قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 25]ك.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص303، وهذا الشاهد يدخل في باب الإضافة، أي: إضافة الشيء إلى صفة الذمّ لأجل ذمّة، وقد ألحقته بباب النعت للمناسبة بينهما، وفي قوله: (دَائِرَةُ السَّوْءِ) ذمّ للدائرة، وقوله: (مَثَلُ السَّوْءِ) ذمّ للمَثَل.

(2) – السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، ص137.

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص758.

(4) – المصدر نفسه: مج3 ص1358.

15 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 30]ك.

16 – قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الروم: 32]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافّات: 36]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: 7- 8]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾[الذاريات: 32]ك، وهم قوم لوط عليه السلام.

20 – قال الله تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: 20]ك.

قال الزمخشري: "(الأُخْرى): ذمّ، وهي المتأخّرةُ الوضِيعَة المقدار، كقوله تعالى: (وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ)، أي: وضعفاؤهم لرؤسائهم وأشرافِهم، ويجوز أن تكون الأوّليّةُ المقدَّمَة عندهم للاّت والعُزّى"[1].

21 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 10- 13]ك.

قال المحلّي: "هو الوليد بن المغيرة ادّعاه أبوه بعد ثماني عشْرة سنة، قال ابن عبّاس رضي الله عنه: لا نعلم أنّ الله وصف أحداً بما وصفه به [أي: الوليد] من العيوب، فأَلحقَ به عاراً لا يفارقه أبداً"[2]. وقال الزمخشري: "...، فتَبْتذِلوه بكثرة الحَلِف به، ولذلك ذَمّ مَن أُنزل فيه: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾ بأشنع المذامّ، وجَعلَ الحلاَّف مقدِّمتَها"[3].

22 – قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ، ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطفّفين: 11]ك.

قال الزمخشري: "(الذِينَ يُكَذِّبُونَ): ممّا وَصف به للذمّ لا للبيان، كقولك: فَعلَ ذلك فلان الفاسقُ الخبيثُ"[4].

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص423.

(2) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص480.

(3) – المصدر السابق: مج1 ص268.

(4) – المصدر السابق: مج4 ص721.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

23 – قال الله تعالى: ﴿**نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**﴾ [العلق: 16]ك، أي: كاذبةٍ في قولها خاطئةٍ في فِعْلها، قال المحلّي: "وَصْفُها بذلك مجازٌ، والمرادُ صاحبها"(1).

الفرع الثاني: ما جاء من النعت للمدح أو الذمّ على القطع.

أوّلاً: قطع النعت للمدح:

1 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الفاتحة: 2]ك.

جمهور القرّاء(2) على جرّ (رَبِّ)، لكن قُرئت بالنصب في قراءة زيد بن علي (ت 121هـ)، قال الزمخشري: "وقرأ زيد بن عليّ: (**رَبَّ العَالمِينَ**) بالنصب على المدح، وقيل: بما دلّ عليه (**الحمدُ لله**) كأنه قيل: نحمدُ الله ربَّ العالمين...، وقرأ أبو هريرة ﷺ: (**مَالِكَ**) بالنصب، وقرأ غيره: (**مَلِكَ**)، وهو نصبٌ على المدح"(3).

2 – قال الله تعالى: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ، وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة: 2 - 4]م.

يُحتمَل أن تكون (**الذين**) في محلّ جرٍّ على الإتباع، أو في محلّ نصبٍ أو رفعٍ على المدح، قال الزمخشري: "﴿**الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ**﴾ إمّا موصولٌ بالمتقين على أنه صفة مجرورة، أو مدحٌ منصوبٌ أو مرفوع، أي: هم الذين يؤمنون"(4).

3 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً**﴾ [البقرة:21- 22]م.

قال الزمخشري: "والموصول مع صِلَته إمّا أن يكون في محلّ النصب وصْفاً، كـ: (**الذِي خَلَقَكُمْ**)، أو على المدح والتعظيم، وإمّا أن يكون رفْعاً على الابتداء، وفيه ما في النصب من المدح"(5).

4 – قال الله تعالى: ﴿**كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ، بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [البقرة:116- 117]م.

---

(1) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص515.

(2) – عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، مج1 ص6.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص10.

(4) – المصدر نفسه: مج1 ص37.

(5) – المصدر نفسه: مج1 ص93.

قُرئت: (**بَدِيعَ**) بالنصب على المدح[1].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ**﴾ [البقرة: 177]م.

قال أبو حيّان: "(**الموفُونَ**) صفة لـ: (**مَنْ**) [في قوله قبله: ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ **مَنْ** آمَنَ﴾]، ونُصب (**الصَّابِرِينَ**)؛ لأنها مِن صفة (مَنْ)، وإنما نُصبت لأنها من صفة اسمٍ واحدٍ، فكأنه ذُهب به إلى المدح؛ والعرب تَعترِض من صفات الواحد إذا تطاولت بالمدح أو الذمّ فيرفعون إذا كان الاسم رفعاً وينصِبون لغرض المدح، فكأنهم ينوون إخراج المنصوب بمدحٍ مجدّدٍ غيرِ مُتْبَعٍ لأول الكلام[2].

6 – قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ، **ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ، ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ**﴾ [آل عمران: 16- 17]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ** أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ **قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: 18]م.

(**قَائِماً**) يحتمَل أن يكون منصوباً على الحال، والعامل فيها معنى الجملة، أي: تَفرَّد قائماً بالقسط، ويحتمَل أن يكون منصوباً على المدح، قال الزمخشري: "وانتصابه على أنه حال مؤكِّدة منه، كقوله: (**وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً**)...، أو على المدح، فإن قلت: أليس من حقّ المنتصِب على المدح أن يكون معرفةً؟، كقولك: الحمد لله الحميدَ، إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نُورَث، وإنّا بني نهشلٍ لا نُدَّعى لأبٍ، قلتُ قد جاء نكرةً كما جاء معرفةً، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرةً قولَ الشاعر الهُذَليّ:

وَيَأْوِي إِلَى نِسْوَةٍ عُطَّلٍ *** وَشُعْثاً مَرَاضِيعَ مِثْلَ السَّعَالِي"[3]

8 – قال الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ **يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [آل عمران: 39]م.

---

(1) – عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، مج1 ص181

(2) – ينظر البحر المحيط: مج2 ص7، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمّد عبد الخالق عضيمة: مج3 ص562.

(3) – سيبويه: الكتاب، مج1 ص399، والبيت من المتقارب، وهو لأميّة بن أبي عائذ الهذلي. [خزانة الأدب: مج5 ص42].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال الطبري: "ونُصب قولُه: (**مُصَدِّقاً**) على القطع من: (**يحْيَى**)؛ لأنّ (**مُصَدِّقاً**) نعتٌ له وهو نكرة، و(**يحْيَى**) غيرُ نكرة...، ونُصب (**سَيِّداً**) عطفاً على قوله: (**مُصَدِّقاً**)"[1].

9 – قال الله تعالى: ﴿**يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ**﴾ [آل عمران: 171- 172]م.

10 – قال الله تعالى: ﴿**لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: 162]م.

قال ابن كثير: "وقوله: (**وَالمقِيمِينَ الصَّلاَةَ**) هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أُبيّ بن كعب (ت 20هـ)، وذكرَ ابنُ جريرٍ[2]أنها في مصحف ابن مسعود: (**وَالمقِيمُونَ الصَّلاَةَ**)، والصحيحُ قراءةُ الجميع ردّاً على من زعم أنّ ذلك من غلَط الكُتَّاب، ثم ذكرَ اختلاف الناس، فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿**وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ**﴾، قال: وهذا سائغٌ في كلام العرب[3].

كما قال الشاعر[4]:

لاَ يَبْعُدَنْ قَوْمِي الذِينَ هُمُ *** سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزُرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ *** والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ"[5]

(1) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج3 ج4 ص (171– 172).

(2) – المصدر نفسه: مج4 ج6 ص18.

(3) – حكى الطبري عن القول بأنّ (**وَالمقِيمِينَ**) في موضع نصبٍ على المدح أنّه محتمل من كلام العرب ولكن فيه بُعد؛ إذ العرب لا تعدل عن إعراب الاسم المنعوت بنعت في نعته إلا بعد تمام خبره، وكلام الله – **جلّ ثناؤه** – أفصحُ الكلام فغير جائز توجيهه إلا إلى الذي هو من الفصاحة. [ينظر جامع البيان للطبري: مج4 ج6 ص19]، وقد عقّب نظام الدين النيسابوري على قول الطبري السابق بأنّ النصب على المدح وقع بعد تمام الخبر على أنْ يكون: (**يُؤْمِنُونَ**) هو الخبر، وقال بأنّه لو سُلِّم أنّ الخبر هو قوله: (**أُولَئِكَ** ...) فما الدليل على أنّه لا يجوز الاعتراض بالمدح بين المبتدأ وخبره؟ [ينظر تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمّد النيسابوري، مطبوع مع تفسير الطبري، مج4 ج6 ص (23– 24)].

(4) – البيتان من الكامل، وهما للْخِرْنِق بنت بدر بن هفّان. [الكتاب: مج2 ص (57– 58)، خزانة الأدب:مج5 ص42].

(5) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص529.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقال أبو حيّان: "وانتصب (**وَالمقِيمِينَ**) على المدح، وارتفع (**والمُؤْتُونَ**) أيضاً على إضمار "هم" على سبيل القطع إلى الرفع، ولا يجوز أن يُعطف على المرفوع قبله؛ لأنّ النعت إذا انقطع في شيء منه لم يَعُد ما بعده إلى إعراب المنعوت"[1].

11 – قال الله تعالى: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾ [النساء: 165]م.

قال الزمخشري: "(**رُسُلاً**) الأوجَهُ أن يَنتصب على المدح، ويجوز انتصابُه على التكرير، ويجوز انتصابُه أيضاً على البدليّة من: (**رُسُلاً**) قبلها"[2].

12 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ**﴾ [المائدة: 55]م.

13 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى **ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ**﴾ [الأنعام: 62]ك.

قرأ الحسن (ت 110هـ) والأعمش (ت 148هـ) وقتادة: (**الحقَّ**) بالنصب على المدح[3].

14 – قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ** فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، **فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ**﴾ [الأنعام: 95- 96]ك.

قُرئ: (**فَالِقَ**) بالنصب على المدح[4].

15 – قال الله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ **عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ**﴾ [هود: 73]ك.

قال الزمخشري: "و(**أَهْلَ البَيْتِ**) نُصب على النّداء أو على الاختصاص؛ لأنّ (**أَهْلَ البَيْتِ**) مدحٌ لهم؛ إذ المراد: أهل بيت خليل الرحمن"[5].

16 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ** وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 42]ك.

قال الزمخشري: "على [تقدير] هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح"[6]

(1) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج3 ص365.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص591.

(3) – عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، مج2 ص449.

(4) – ينظر الدرّ المصون للسمين الحلبي مج3 ص13، روح المعاني: مج7 ص232، فتح القدير للشوكاني: مج2 ص181.

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص411، ينظر الدرّ المصون: مج4 ص115.

(6) – المصدر نفسه: مج2 ص607، ينظر الدرّ المصون: مج4 ص327

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

17 – قال الله تعالى: ﴿**وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾ [الإسراء: 2- 3]ك.

قال الزمخشري: "ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولادُ المحمولين مع نوح عليه السلام؛ فهم متّصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص"(1).

18 – قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾ [مريم: 34]ك.

قال الزمخشري: "وأمّا انتصابه فعلى المدح إن فُسِّر بـ: (كلمة الله)"(2).

19 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: 48- 49]ك.

قال الزمخشري: "محلّ (**الذِينَ**) جرٌّ على الوصفيّة، أو نصبٌ على المدح، أو رفعٌ عليه"(3).

20 – قال الله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا، ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [الفرقان: 1- 2]ك.

قال الزمخشري: "يجوز أن يكون (**الذي لَهُ**) مرفوعٌ على المدح، أو منصوبٌ عليه"(4).

21 – قال الله تعالى: ﴿**هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [النمل: 2- 3]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ**﴾ [الأحزاب: 33]م.

قال الزمخشري: "(**أَهْلَ البَيْتِ**) نُصب على النداء أو على المدح، وفي هذا دليلٌ بيِّنٌ على أنّ نساء النبيّ ﷺ من أهل بيته"(5).

(1) – المصدر نفسه: مج2 ص (648- 649).

(2) – المصدر نفسه: مج3 ص16.

(3) – المصدر نفسه: مج3 ص125.

(4) – المصدر نفسه: مج3 ص262.

(5) – المصدر السابق: مج3 ص538، ينظر الفريد للمنتجب الهمذاني: مج4 ص42، البيان للعُكبَري: مج2 ص269، الدر المصون للسمين الحلبي: مج5 ص416.

23 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ**﴾ [الأحزاب: 39]ك.

24 – قال الله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ **عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ**﴾ [سبأ: 3]ك.

قال الزمخشري: "وقُرِئ: (**عالِمِ الغَيْبِ**) و(**علاَّمِ الغَيْبِ**) بالجرّ صفةً لـ: (**رَبِّي**)، و(**عَالِمُ الغَيْبِ**) و(**عَالِمُ الغُيُوبِ**) بالرفع على المدح"[1].

25 – قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ**﴾ [سبأ: 15]ك.

قال الزمخشري: "(**جَنّتَانِ**) بدلٌ من: (**آيَةٌ**)، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، تقديره: الآيةُ جنّتان، وفي الرفع معنى المدح تدلّ عليه قراءة مَن قرأ: (**جَنَّتَيْنِ**) بالنصب على المدح"[2].

26 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ **وَرَبٌّ غَفُورٞ**﴾ [سبأ: 15]ك.

قال الزمخشري: "وقُرِئ: (بَلْدَةً طَيِّبَةً **وَرَبّاً غَفُوراً**) بالنصب على المدح"[3].

27 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ**﴾ [فاطر: 1]ك.

قال الزمخشري: "وقُرِئ: (**الذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ المَلاَئِكَةَ**)، وقُرِئ: (**جاعلُ الملائكة**) بالرفع على المدح"[4].

28 – قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ، **قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ**﴾ [الزُّمر: 27- 28]ك.

قال الزمخشري: "(**قُرْآناً عَرَبِيّاً**): حالٌ مؤكّدة، كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن يَنتصب على المدح"[5].

---

(1) – المصدر السابق: مج3 ص568، جامع البيان: مج8 ج22 ص43، البحر المحيط: مج7 ص258 .

(2) – المصدر السابق: مج3 ص575، ينظر الدر المصون: مج5 ص439، روح المعاني: ج22 ص125.

(3) – المصدر السابق: مج3 ص575، ينظر الفريد للمنتجب الهمذاني: مج4 ص63، معجم القراءات: مج7 ص353.

(4) – المصدر السابق: مج4 ص595، ينظر البحر المحيط: مج7 ص297، معجم القراءات: مج7 ص405.

(5) – المصدر السابق: مج4 ص125، الفريد للمنتجب الهمذاني: مج4 ص190.

29 – قال الله تعالى: ﴿**رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ**﴾ [غافر: 15]ك.

قُرِئ: (**رَفِيعَ**) بالنصب على المدح(1).

30 – قال الله تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ**﴾ [فصّلت: 3]ك.

31 – قال الله تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ**﴾ [الفتح: 29]م.

قال الزمخشري: "وعن ابن عامر [في رواية الأهوازي (ت 446هـ)] أنه قرأ: (**رَسُولَ اللهِ**) بالنصب على المدح، ووجهُ مَن قرأ: (**أَشِدَّاءَ**) و(**رُحَمَاءَ**) بالنصب أن ينصبهما على المدح"(2).

32 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا، رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا**﴾ [المزّمّل: 8- 9]ك.

قال الزمخشري: "(**رَبُّ المَشْرِقِ**) قُرِئ مرفوعاً على المدح ومجروراً على البدل من(**رَبِّكَ**)"(3).

33 – قال الله تعالى: ﴿**مِن تَسۡنِيمٍ، عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ**﴾ [المطفّفين: 27- 28]ك.

قال الزمخشري: "(**عَيْناً**) نُصب على المدح، وقال الزجّاج نصب على الحال"(4).

ثانياً: قطع النعت للذمّ:

ومن الآيات التي جاء النعت فيها مقطوعاً للذمّ:

1 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ**﴾ [النساء: 37]م.

قال أبو حيّان: "واختلفوا في إعراب (**الذِينَ يَبْخَلُونَ**) فقيل: هو في موضع نصبٍ بدلٌ من قوله: (**مَنْ كَانَ**)، وقيل من قوله: (**مُخْتَالاً فَخُوراً**)، أُفرِد اسمُ (**كَانَ**) والخبرُ على لفظ (**مَنْ**)، وجُمع (**الذِينَ**) حَملاً على المعنى، وقيل انتصب على الذمّ"(5)، وقال الزمخشري:

(1) – أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط: مج7 ص454، معجم القراءات لعبد اللطيف الخطيب: مج8 ص206.

(2) – الزمخشري: الكشاف، مج4 ص347، قرأ الشعبي والجحدري بالنصب فيهما على المدح. [معجم القراءات لعبد اللطيف الخطيب: مج9 ص66].

(3) – المصدر السابق: مج4 ص639، البحر المحيط: مج8 ص363، الدر المصون: مج6 ص6، روح المعاني: ج29 ص133.

(4) – المصدر السابق: مج4 ص723، الفريد في إعراب القرآن المجيد للمنتجب الهمذاني: مج4 ص644.

(5) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج3 ص509.

"ويجوز أن يكون رفعاً عليه [أي: الذمّ]"(1).

2 – قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 138- 139]م.

قال الزمخشري: "(الذِينَ) نُصب على الذمّ أو رُفع، بمعنى: أريدُ الذين، أو هم الذين، وكانوا يمايِلون الكفرة ويُوالونهم"(2).

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا، ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء: 140- 141]م.

قال الزمخشري: "إمّا بدلٌ من: (الذِينَ يَتَّخِذُونَ)، وإمّا صفةٌ للمنافقين، أو نُصب على الذمّ منهم"(3).

4 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ، ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [التوبة: 79]م.

(الذِينَ) محلُّه النصب أو الرفع على الذمّ.

5 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ، مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ [النحل: 105- 106]ك.

قال الزمخشري: "(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ) ...، ويجوز أن ينتصب على الذمّ"(4).

6 – قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا، ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103- 104]ك.

قال الزمخشري: "(الذِينَ)...، ويجوز أن يكون نَصباً على الذمّ"(5).

7 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: 18- 19]م.

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص509.

(2) – المصدر نفسه: مج1 ص577.

(3) – المصدر نفسه: مج1 ص578، ينظر الدر المصون: مج2 ص445.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص636، الفريد للمنتجب الهمذاني: مج3 ص284، الدر المصون: مج4 ص360.

(5) – المصدر نفسه: مج2 ص (749– 750)، الفريد: مج3 ص248، الدر المصون: مج4 ص485.

قال الزمخشري: "(**أَشِحَّةً عَلَيكُمْ**) على الحال أو على الذمّ، وقُرئ: (**أَشِحَّةٌ**) بالرفع"[1].

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ**﴾ [المسد: 4]ك.

قال الزمخشري: "بالنصب على الشتم، وأنا أستحِبُّ هذه القراءة"[2].

الفرع الثالث: خطاب المدح أو الذمّ:

ذكر الزركشي في البرهان أنّ الخطاب يأتي على أربعين وجهاً، فذكر منها خطابَ المدح والذمّ، فقال: "**الثامن**: خطابُ المدح، كقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ**﴾، **التاسع**: خطابُ الذمّ، كقوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾"[3]، وهذا لا يعني أنّ لفظ النداء قد احتمل معنىً غير النداء، كالمدح والذمّ مثلاً، وذلك بأن تقتصر على ألفاظ المدح للمدعو إذا كان القصد التعظيم والمدح، كقولك: يا سيّد الناس ويا فارس الهيجاء، والمعنى: أنت سيّد الناس وفارس الهيجاء، فيكون نداؤه بذلك داخلاً في الخبر، وبحسب ذلك يكون الذمّ زرياً على المنادى وتقصيراً به، كقولك: يا فاسقٌ ويا مستحلَّ الحرام[4]، فهذا إن وجد في القرآن فهو داخل في المدح والذمّ الضمني، لكنّ المراد هنا بخطاب المدح أو الذمّ هو أن يَعدل في الخطاب عن الاسم إلى الوصف، وهو من المدح والذمّ الصريح، وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة منه رتّبتها على النحو الآتي:

أوّلاً: خطاب المدح:

أ – النداء باسم الإيمان:

الإيمان صفةُ مدحٍ، وقد خاطب الله بها المؤمنين في تسعة وثمانين موضعاً في كتابه العزيز، وفي أغلبها خاطبهم ليبيِّن لهم الأحكام المنزَّلة عليهم، وذلك ما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر، وفي بعضها خاطبهم باسم الإيمان ليعاتبهم ويؤنِّبهم؛ حيث فعلوا خلاف ما يستوجبه الإيمان منهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**﴾ [الصف: 2]م، وقولُه تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا**

(1) – المصدر نفسه: مج3 ص530، وهي قراءة الجمهور. [معجم القراءات: مج7 ص264]، البحر: مج7 ص220.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص815، التبيان للعُكبَري: مج2 ص1308.

(3) – الزركشي: أبو عبد الله محمّد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، مج2 ص (228– 230).

(4) – ينظر فصول في البلاغة لمحمّد بركان حمدي أبو علي: ص (141– 142).

﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: 1]م، وعلى كلٍّ، فنداؤهم باسم الإيمان يُثبت لهم صفتَه ويكونون بذلك ممدوحين، يؤكّد ذلك تكرُّر خطابهم باسم الإيمان أكثرَ من ثمانين مرّة، سأذكر بعضاً منها تنبيهاً على الباقي:

1 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 153]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ [آل عمران: 100]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد: 7]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 31]م.

ب – النداء بـ: (يا أيّها النبيّ):

خاطب الله رسوله الكريم بالنبوّة ولم يخاطب نبيّاً غيره بها مدحاً له وتشريفاً، قال الزركشي: "ولم يقع في القرآن النداء بـ: (يامحمّد)، بل بـ: (ياأيّها النبيّ)، و(ياأيّها الرسول) تعظيماً له وتخصيصاً بذلك عن سواه"(1)، لقد خاطبه بالنبوّة في اثني عشر موضعاً من كتابه:

1 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 64]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ [الأنفال: 70]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: 73]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: 28]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: 50]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 59]م.

9 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ [الممتحنة: 12]م.

(1) – الزركشي: أبو عبد الله محمّد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، مج2 ص228.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ** إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ** لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: 1]م.

12 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ** جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: 9]م.

ج – النداء بـ: (يا أيّها الرسول):

خاطب الله نبيّه الكريم بالرسالة في موضعين، هما:

1 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ** لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: 41]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ** بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]م.

وخاطب بعض الرسل من الملائكة على لسان إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ **أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ**﴾ [الحِجر: 57]ك، [الذاريات: 31]ك.

وخاطب الرسل جميعاً فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ** كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون: 51]ك.

د – النداء بـ: (يا أيّها الصِّدّيق):

جاء رسول الملِك إلى يوسف عليه السلام يستفتيه عن رؤياه التي حيّرت الأحبار والرهبان، فقال مخاطباً له بأشرف الصفات: ﴿يُوسُفُ **أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ** أَفۡتِنَا﴾ [يوسف: 46]ك، ولم يقل: **(أيُّها الصِّدِّيقُ يُوسُفُ)** وذلك إشارةً إلى مدحه، قال الزمخشري: "**(أَيُّها الصِّدّيقُ)**: أيّها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرَّف صِدقَه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه، حيث جاء كما أوَّل"[1]، وقال في موضع آخر: "الصِّدّيق مِن أبنية المبالغة، ونظيره: الضِّحّيك والنِّطّيق، والمراد: فَرْطُ صِدقه وكثرةُ ما صَدَّق به مِن غيوب الله وآياته وكتبه"[2].

هـ – النداء بـ: (يا أيّها الذين هادوا):

(هادوا) أي: تابوا، والتوبة صفة مدح، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ** إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: 6]م.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص476.

(2) – المصدر نفسه: مج3 ص18.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ذكر الطبري بسنده عن [جابر] ابن زيد (ت 93هـ) في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾: "قُل يا أيُّها الذين تابوا لليهود، قال موسى ﷺ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: إنا تُبْنَا إليك"[1].

و – النداء بـ: (يا أيّها الملأ):

الملأ: هم أشراف القوم؛ لأنهم مِلاء بما يحتاج إليه[2]، فالنداء بـ: **(يا أيّها الملأ)** خطاب مدح؛ لأنه خطاب فيه نوعُ تبجيلٍ وتعظيم، وقد ورد في القرآن الكريم في خمسة مواضع، هي:

1 – قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾ [يوسف: 43]ك.

2 – قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 29]ك.

3 – قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل: 32]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38]ك.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ [القصص: 38]ك.

ز – النداء بـ: (يا أولي الألباب):

1 – قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 179]م.

قال السعدي: "ولما كان هذا الحُكم لا يَعرِف حقيقته إلا أهلُ العقول الكاملة خصّهم بالخطاب دون غيرهم...، وأنّ من كان بهذه المثابة فقد استحقّ المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وُجِّه إليهم الخطاب وناداهم ربُّ الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقومٍ يعقلون"[3].

2 – قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 197]م.

ثانياً: خطاب الذمّ.

أ – النداء باسم الكفر:

لم ينادِ الله الكفّار باسم الكفر إلاّ في موضعين من كتابه الكريم، وغالباً ما يناديهم بـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ من أجل دعوتهم إلى اتّباع الحقّ الذي أنزله على رُسُله وتركِ ما هم عليه من الضلال، وإنما

(1) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج10 ج2 ص64.

(2) – ابن منظور: لسان العرب، مج1 ص160، مادّة: ملأ.

(3) – السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص85.

خاطبهم في هذين الموضعين[1] باسم الكفر؛ لأنّ الموقف حينئذٍ موقفُ حسابٍ وجزاءٍ، وهو يستدعي الذمّ والتوبيخ.

1 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [التحريم: 7]م.

2– قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ، لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: 1- 2]ك.

في هذه السورة إعلانٌ للبراءة من الكفر وأهله، وبيانٌ للتميُّز الظاهر بين المؤمنين والكافرين؛ من أجل ذلك أمر الله نبيّه الكريم أن يخاطب الكافرين باسم الكفر ذمّاً لهم وتمهيداً لإعلان البراءة منهم، كما قال تعالى على لسان رسوله: ﴿أَنتُم بَرِيؤُونَ مِمّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41]ك، وكقوله أيضاً: ﴿قُل كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]ك.

ب – الخطاب بـ: (أيّها المجرمون):

في يوم الموقف للحساب ينادي الله الكافرين ذامّاً وآمراً لهم أن يتزيّلوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم فيقول ﷻ: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس: 59]ك، قال السعدي: "أي: تميّزوا عن المؤمنين وكونوا على حِدَة؛ ليوبَّخوا ويقرَّعوا على رؤوس الأشهاد"[2].

جـ – الخطاب بـ: (أيّها الجاهلون):

يأمر الله ﷻ رسولَه محمّداً ﷺ أن يخاطب الكفّار بقوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزُّمَر: 64]ك، وإنما خاطبهم بذلك؛ لأنّ جهلهم هو الذي أوجب لهم عبادةَ غير الله.

د – الخطاب بـ: (أيّها الضالّون المكذّبون):

يخاطب الله موبّخاً الكافرين المنكرين للبعث والقيام بين يدي رب العالمين: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ، لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ، فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ، فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ، فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ [الواقعة: 51 - 55]ك، وكيف يكذّبون بالبعث وهم يعلمون أنّ الله منزّهٌ عن العبث، وأنّ الذي خلقهم أول مرّة قادرٌ على أن يعيدهم بعد موتهم خلقاً جديداً؟! لا جرم أنهم ضالّون عن الحق غيرُ مهتدين إليه؛ فقد كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، ولَيْتهم

(1) – قال الزركشي: "ولتضمّنه الإهانة لم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين".[البرهان في علوم القرآن: مج2 ص230].

(2) – تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص698.

بعد الموت يبعثون ثم يتركون فلا يُنعَّمون ولا يُعذَّبون، ولكنّهم – ويا لخسارتهم – من شجرٍ من زقّومٍ هم آكلون، فمالئون منه البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شُربَ الهِيم، هذا نُزُلهم يوم الدين.

هـ – النداء بـ: (يا أيّها الساحر):

قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ**﴾ [الزخرف: 49]ك.

نادى فرعون ومَلَؤه نبيَّ الله موسى عليه السلام حين أخذهم الله بأنواعٍ من العذاب، كالجراد والقُمّلِ والضفادع والدمِ، نادَوه بـ: (**يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ**) من أجل أن يدعو الله لهم بما عهد عنده وخَصّه بالنبوّة وأنواعِ الفضائل أن يكشف عنهم العذاب، وفي هذا النداء احتمالان، **أحدهما:** أنه خطاب ذمّ وتهكّم، **والثاني:** أنه خطاب مدح؛ حيث تضرّعوا إليه بأن خاطبوه بما كانوا يخاطبون به مَنْ في زعمهم أنهم علماؤهم، وهم السحرة، قال الزمخشري: "فإن قلت كيف سمَّوه بالساحر مع قولهم: (**إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**)؟ قلت: قولهم: (**إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**) وَعْدٌ مَنويٌّ إخلافُه، وعهدٌ معزومٌ على نكثه مُعلَّق بشرطِ أن يدعو لهم ويكشف عنهم العذاب؛ ألا ترى تسميتَهم إيّاه بالساحر بمنافية لقولهم: (**إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**)، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر؛ لاستعظامهم عِلمَ السحر"[1].

و – النداء بـ: (يَا أَيُّها الذي نُزّل عليه الذِّكْرُ) على وجه التهكّم[2]:

قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ**﴾ [الحِجر: 6]ك.

هذا الخطاب من باب السخرية والاستهزاء، والمعنى: يا أيّها الذي نُزِّل عليه الذكر بزعمه، وفي ضمنه أنّ قول النبي ﷺ بأنه نُزِّل عليه القرآن – الذي هو الذِّكْرُ – مجرّدُ دعوى عاريةٍ عن البرهان، وهذا منهم عينُ البهتان، وإنما قالوا ما قالوا تهكّماً واستهزاءً بالنبيّ الكريم ﷺ، قال الزمخشري: "وكأنّ هذا النداءَ منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ**

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص257.

(2) – هذا ليس من الذمّ الصريح، وإنما أدرجته هنا تتمّةً لموضوع خطاب المدح والذمّ ثم من باب التغليب.

لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]ك، وكيف يُقِرُّون بنزول الذكر عليه ويَنسبونه إلى الجنون؟! والتعكيسُ في كلامهم للاستهزاء، والتهكّمُ مذهبٌ واسعٌ ...، والمعنى: إنك لتقول قولَ المجانين حين تدَّعي أنّ الله نزَّل عليك الذكر"[1]، ويجوز أن يكون المعنى: إنّك لمجنون؛ إذ تظنّ أنّا سنتّبعك ونتركُ ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك[2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) - الزمخشري: الكشّاف: مج2 ص571.

(2) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص1013.

الفصل الثاني

المدح والذمّ الضمني في القرآن الكريم

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب الاستفهام في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل والتعجّب في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه والتسوية والتمثيل في القرآن الكريم.

المبحث الرابع: المدح والذمّ بأسلوب الأمر والدعاء في القرآن الكريم.

المبحث الخامس: المدح والذمّ بأسلوب التعريض والإشارة في القرآن الكريم.

المبحث السادس: أساليب أخرى للمدح والذمّ في القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في هذا الفصل يقوم البحث بدراسة أساليب المدح والذمّ الضمني، التي تختلف عمّا سبق دراسته في الفصل السابق في كونها تدلّ على المدح والذمّ من غير استخدامٍ صريح لألفاظهما، بل يدلّ ظاهرها على خلاف ذلك، كالاستفهام أو التعجّب أو غيرهما، وإنما تدلّ على المدح والذمّ ضمناً بمعونة القرائن والسياق، وربما كان المدح أو الذمّ فيها خفيّا لا يُدرك إلا بالتأمّل والنظر من خلال إشارةٍ في اللفظ تومئ إلى مدح أو ذمّ، أو من خلال دلالةٍ غير مباشرة على مدحِ مُعيّنٍ أو ذمّه، وذلك بإبهامه وعدم التصريح به وهو ما يُعرف بأسلوب التعريض والكناية.

1- المبحث الأوّل

2- المدح والذمّ بأسلوب الاستفهام (الاستخبار) في القرآن الكريم

الاستفهام: طلب العلم بالشيء لم يكن معلوماً من قبلُ[1]، قال السكّاكي: "والاستفهام لطلب الحصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إمّا أن يكون حُكماً بشيء على شيء أو لا، **والأول**: هو التصديق، ويمتنع انفكاكُه من تصوّر الطرفين، **والثاني**: هو التصوّر، ولا يمتنِع انفكاكُه من التصديق، ثم المحكومُ به إمّا أن يكون نفسَ الثبوت أو الانتفاء"[2]، وللاستفهام كلمات موضوعة، هي: الهمزة، وأم، وهل ، وما، وماذا، ومَن، وأيّ، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان – بفتح الهمزة وكسرها –، ولكلّ أداة منها معنى تؤدّيه، وجميعُها يكون الجواب معها بتعيين المسؤول عنه، وهي ثلاثة أنواع، **أحدها**: يختصّ بطلب حصول التصوّر، و**ثانيها**: يختصّ بطلب حصول التصديق، و**ثالثها**: لا يختصّ[3].

---

(1) – هذا في حقّ الآدميّين؛ لأنّ الله – سبحانه – محالٌ عليه الاستفهام؛ لعلمه بكلّ شيء، وإنما يكون الاستفهام منه محمولاً على التقرير أو الإنكار أو المدح والذمّ أو غير ذلك من الأغراض التي يُساق لها، لكنّ السيوطي يرى أنه لا بِدعَ في صدور الاستفهام ممّن يعلم المستفهم عنه؛ لأنه طلبَ الفهم، إمّا طلبَ فهمَ المستفهَم أو وقوعَ فهمٍ لمن لم يفهم كائناً من كان، وبهذا تنحلّ إشكالات كثيرة في مواقع الاستفهام. [ينظر معترك الأقران: مج1 ص439]، ولعلّ الأوْلى أن يُعبّر عنه بـ: (الاستخبار) بدل (الاستفهام)، وهي عبارة ابن فارس في: «الصاحبي» حيث عقد باباً بعنوان: باب الاستخبار، ومثّل له ببعض الشواهد من كلام العرب ثم قال: "وذكر ناسٌ أنّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق [أي: فرق دقيق]، قالوا: وذلك أنّ أُولى الحالين الاستخبارُ؛ لأنك تَستخبر فتُجاب بما فهمته، فإذا سألت ثانيةً فأنت مُستفهِم، تقول: أفهِمْني ما قلتَه لي، قالوا: والدليل على ذلك أنّ الباري – جلّ ثناؤه – يُوصف بالخُبر ولا يوصف بالفهم". [الصاحبي لابن فارس: ص186].

(2) – السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص (303– 304).

(3) – المصدر نفسه: ص308.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لكن قد يخرج الاستفهام عن أصل معناه إلى معانٍ أخرى[1]كالمدح والذمّ أو ما يُعدّ شكلاً شكلاً من أشكالهما، وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة جاء فيها المدح والذمّ بأسلوب الاستفهام، حيث لم يكن الغرض منه الاستعلام وإنما قُصد به المدح والذمّ، وذلك بالنظر في السياق والقرائن المحتفّة وحال المخاطب؛ ممّا سيُبيّن ويُفصّل فيما يأتي من المباحث والمطالب.

3- المطلب الأوّل

4- استفهام المدح

5- أوّلاً: همزة الاستفهام:

تخرج الهمزة عن معناها الأصليّ إلى معنى المدح أو الفخر[2]، كما في بيت جرير في المديح: المديح:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطَايَا *** وَأَنْدَى العَالمِينَ بُطُونَ رَاحِ[3]

وفي القرآن مثالٌ واحد جاءت فيه الهمزة للافتخار، في قول طاغيةٍ متكبّرٍ جبّار، في قوله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ **أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الزخرف: 51]ك.

قال المحلّي (ت 864هـ): "ونادى فرعون افتخاراً في قومه"[4]، ومثّل السيوطي (ت 911هـ) في كتابَيْه المعترك[5] والإتقان[6] للاستفهامَ المراد به الافتخارُ بالآية المذكورة آنفاً، والمعنى: لقد لقد استفهم فرعونُ مصرَ على سبيل الافتخار والاستعلاء منادياً في قومه عن ملك مصر والأنهار التي تجري من تحت قصوره ودلائل قوته وعظمته التي لا تخفى عليهم، هي لمن؟.

---

(1) – قال السيوطي: "وألّف في ذلك [أي: الاستفهام] العلاّمة شمس الدين [محمّد بن عبد الرحمن] ابن الصائغ كتاباً سمّاه: «روض الأفهام في أقسام الاستفهام» قال فيه: قد توسّعت العرب فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ أو أَشربته تلك المعاني، ولا يختصّ التجوّز في ذلك بالهمزة خلافاً لابن الصفّار. اهـ". [معترك الأقران: مج1 ص (432- 433)].

(2) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تقديم: علي أبو زقية، ص124.

(3) – البيت من الوافر، وهو لجرير في ديوانه: ص119، وقيل: هو أمدح بيت قالته العرب. [جواهر الأدب للسيّد أحمد الهاشمي: ج2 ص138].

(4) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد تفسير الجلالين، ص414.

(5) – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن: مج1 ص435.

(6) – السيوطي: الإتقان في علوم القرآن: مج2 ص80.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنّ اقتران الاستفهام بالنفي في الآية السابقة يدلّ على التقرير، أي: تقرير المخاطَب بما يُظنّ أنه أنكره حتى يقرّه، وفرعون لم يُرِد هذا، بل أراد المدح والافتخار، ومن العجيب أنّه تمدّح بشيء هو خارج عن ذاته، وليس من خصاله وأفعاله، قال السعدي: "**(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ)** قال مستعلياً بباطله قد غرّه ملكُه وأطغاه مالُه وجنودُه **(يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ)** هذا الملكَ الطويل العريض، وهذا من جهله البليغ حيث افتخر بأمرٍ خارجٍ عن ذاته ولم يفتخر بأوصاف حميدة ولا أفعالٍ سديدةٍ"[1].

ثانياً: "مَن":

يُستفهَم بـ: "مَن" عن العاقل، لكن قد تخرج عن معناها الأصيل إلى المدح، يُعرف ذلك بالسياق وقرائن الحال أو المقال، وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم في مواضع، منها:

1 – قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138]م.

عن ابن عبّاس ﷺ أنه قال: "**(صِبْغَةَ اللهِ)** هي دينه"[2]، وقال السيوطي: "**(صِبْغَةَ اللهِ)** مصدرٌ مؤكِّد لـ: **(ءَامَنَّا)**، ونَصْبُه بفعلٍ مقدَّر، أي: صبَغَنا الله، والمراد بها دينُه الذي فُطر الناسُ عليه؛ لظهور أثره على صاحبه كالصَّبْغ في الثوب"[3]، فقوله تعالى: ﴿**وَمَن أَحْسَنُ**﴾، ظاهره الاستفهام، ومعناه: النفي والإنكار المتضمّن للمدح والافتخار، أي: لا أحدَ أحسنُ من الله صبغةً، ومِن هذا النفي تولّد المدح مُشرَباً معنى التحدّي المثبِتِ للعقول الزكيّة أنّ صبغة الله هي أحسن الصِّبَغ، المتمثّلةُ في التحلّي بكل وصف جميلٍ ونعت جليلٍ وعمل صالح نبيلٍ[4].

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا** مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: 125]م.

إنّ الغرض من الاستفهام في الآية الكريمة هو النفيُ المتضمِّنُ للمدح، والمعنى: لا أحدَ أحسنُ ديناً من دين من جَمَع بين الإخلاصِ للمعبود وهو إسلام الوجه لله تعالى، وبين الاتّباعِ لما جاء به

(1) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص767.
(2) – ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم: مج1 ص177.
(3) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص81.
(4) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي: ص69.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرسول ﷺ، وهذا معنى قوله: (**وَهُوَ مُحْسِنٌ**)، وإذا كان الله ﷻ يُبيِّن في هذا الخطاب صفةَ الدين المقبول عنده فهو في الوقت نفسِه يَمدَح صاحبَه المنصبغَ به؛ حيث يَنفي أن يكون ثمّة تَديُّنٌ أحسنَ مِن تَديُّنِ مَن جمع بين الإخلاص والمتابعة، وهذا يعني أنّه من كان كذلك فقد بلغ غاية الحُسن ونهاية الإحسان، بحيث لا يوجد مَن هو مثلُه فضلاً عمّن هو فوقه، فالدِّين الممدوح والتديّن المحمود هو ما كان للتوحيد محقِّقاً وللسنّة موافقاً.

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلاً** مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصّلت: 33]ك.

هذه الآية كسابقتَيْها، والاستفهام فيها بمعنى النفي المتقرّرِ في النفوس المتضمِّنِ للمدح المِشْرَبِ معنى التحدّي، أي: لا أحدَ أحسنُ قولاً، أي: كلاماً وطريقةً وحالةً ممّن دعا إلى الله، فعلّم الجاهلين ونبّه الغافلين وجادل المبطِلين، كلُّ ذلك برفقٍ وحكمةٍ ولِين وموعظةٍ حسنة ومجادلةٍ بالتي هي أحسن، وقال إنّني من المسلمين المنقادين ظاهراً وباطناً[1]، فمن اتّصف بهذا الوصف الجميل فإنّه لا يوجد أحدٌ أحسنُ حالاً منه، – وهذا مدح –، ولن يوجد أحد أحسنُ منه – وهذا تحدٍّ –.

(1) – ينظر المرجع السابق: ص749.

المطلب الثاني

استفهام التوبيخ

من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام: التوبيخ، وقد أكثر الله تعالى في كتابه العزيز مِن توبيخ الكفّار والمنافقين من اليهود والنصارى وغيرِهم من المشركين بهذا الأسلوب في مواضع كثيرة منه، وقد قمت بإحصائها وترتيبها فجاءت كما يلي:

أوّلاً: همزة الاستفهام:

قال السكّاكي: "الهمزة: طلب تعيين الثبوت أو الانتفاء في مقام التردّد"[1]، وقد تخرج إلى معنى التوبيخ؛ كما إذا سأل الجبّار عدوّه عن عمله وهو أعلم به ليوبّخه ويُقرّعه، قال عبد القاهر الجرجاني[2]: "واعلم أنّ الهمزة – فيما ذكرنا – تقريرٌ بفعلٍ قد كان وإنكارٌ له لِمَ كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه"[3]، ومن أمثلة خروجِ الهمزة عن معناها الحقيقي إلى التوبيخ في كلام العرب ما ذكره سيبويه مِن قولهم: أتميميّاً مرّةً وقَيْسيّاً أخرى؟ قال: "وهذا يقال لرجلٍ كان في حالٍ وتنقّل، فهذا ليس سؤالَ المسترشِد بل سؤالُ الموبّخ بذلك"[4]. أمّا في القرآن الكريم فقد جاء الاستفهام بالهمزة فيه مُراداً به التوبيخ في مواضعَ كثيرةٍ منه بلغت نيّفاً وثلاثين موضعاً، وهي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ** ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ **أَفَلَا** تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]م.

قال الزمخشري: "الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم"[5]، وجهُ التوبيخ هنا أنه ما كان ينبغي أن يصدر عنهم هذا التناقض من دَلالة غيرِهم على الخير وحثِّهم عليه، وهم في الوقت نفسه لا يعملون بما يأمرون به غيرهم، وربما عملوا بخلافه، بل هو المتحقّق، ووجهُ التعجيب من حالهم أنّ هذا الأمرَ مثيرٌ للعَجب والدهشة، حيث إنهم يتلون الكتاب ويعرفون الخير الذي يهدي إليه والشرّ

---

(1) – السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص308، وينظر شرح المفصّل لابن يعيش: مج8 ص98.

(2) – **الجُرجاني**: هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوي الإمام المشهور، أخذ النحو عن ابن أخت الفارسيّ، وكان من كبار أئمّة العربية والبيان، صنّف: «العوامل المائة في النحو» و«أسرار البلاغة » و«إعجاز القرآن الكبير والصغير» وغير ذلك، توفي سنة: (471هـ) وقيل: (474هـ) [بغية الوعاة للسيوطي: مج2 ص106].

(3) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص124.

(4) – سيبويه: الكتاب، مج1 ص343.

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص133.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي يحذّر منه، ومع ذلك هم يعكسون الأمر، فيعمدون إلى ما يضرّهم فيعملونه وإلى ما ينفعهم فيأمرون به غيرهم، فحالهم أشبهُ بحال رجل معه عسل وسمّ، فعرف الخير الذي في العسل والشرّ الذي في السمّ، فجعل يُعطي العسل لغيره ويُبقِي السمّ لنفسه، فيا لله العَجب!.

هذا ويجب التنبيه على أنّ الذمّ الواقع على أولئك المخالفين من أحبار اليهود مَناطُه التناقض الحاصل من تركِ أمرِ أنفسهِم بالبرّ حال كونهم آمرين غيرهم به[1]، وهم العلماء أرباب الحِجى، قال صِدّيق حسن خان (ت 1307هـ): "والهمزة للاستفهام مع التوبيخ للمخاطَبين، وليس المرادُ توبيخَهم على نفس الأمر بالبرّ فإنه فعلٌ حسنٌ مندوبٌ إليه، بل بسبب ترك فعل البرّ المستفادِ من قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُم﴾ فتتركونها فلا تأمرونها به مع تزكية النفس، والمقامُ في مقام دُعاة الخلق إلى الحقّ إيهاماً للناس وتلبيساً عليهم"[2].

ولم يكَد ينتهِ هذا التوبيخ حتى أعقبه توبيخٌ آخر وتقريع هو أشدُّ من الأول وأعظم، قال الزمخشري: "﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ توبيخٌ عظيمٌ بمعنى: أفلا تَفطِنون لقُبْح ما أَقْدمتم عليه حتى يصدَّكم استقباحُه عن ارتكابه، وكأنهم في ذلك مَسْلوبو العقل؛ لأنّ العقول تأباه وتدفعه، ونحوُه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾"[3]، وقال صِدّيق حسن خان: "﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ استفهامٌ للإنكار عليهم والتقريع لهم، وهو أشدّ من الأول...، ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ومن توبيخ إلى

(1) – استشكل السيوطي هذه الآية، فذكر أنه لا يجوز أن يكون المنكرُ أمرَ الناس بالبرّ فقط؛ لأنّ أمرهم بالبرّ ليس ممّا يُنكر، ولا نسيانَ أنفسهم فقط؛ لأنه يَصير ذِكرُ أمْرِ الناس بالبرّ لا مدخل له، ولا مجموعَ الأمرين؛ لأنه يلزم أنْ تكون العبادة جزءَ المنكر، ولا نسيانَ النفس بشرط الأمر؛ لأنّ النسيان منكرٌ مطلقاً، ولا يكون نسيان النفس حالَ الأمر أشدَّ منه حال عدم الأمر؛ لأنّ المعصية لا تزداد بشاعتها بانضمامها للطاعة؛ لأنّ جمهور العلماء على أنّ الأمر بالبرّ واجبٌ وإنْ كان الإنسان ناسياً لنفسه، وأمرُه لغيره بالبرّ كيف يُضاعِف معصيةَ نسيان النفس؛ ولا يأتي الخير بالشرّ. وبعد أن ذكر هذه الإشكالات أجاب عنها بما ذكره السبكي في: «عَروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح» بأنّ فعل المعصية مع النهي عنها أفحشُ؛ لأنها تجعل الإنسان كالمتناقض. وهو جواب جيّد في تحديد مناط التوبيخ، لكنّ السيوطي عقّب عليه بما يدُلّ على أنه غير كافٍ في حلّ الإشكال، وهو: كيف أنّ الطاعة الصِّرفة تُضاعِف المعصية المقارنة لها من جنسها؟ وقال: إنّ الجواب عنه فِقهٌ دقيق. [ينظر معترك الأقران: مج1 ص441]، ولعلّ الجواب – في نظري – الذي يَحُلّ الإشكال هو أنْ يُقال: إنّ هذه المعصية المضاعَفة التي كانت سبباً في إيهام الناس والتلبيس عليهم لم تكن كذلك إلا بعد أن اقترنت بطاعة من جنسها، فتكون عندئذٍ هذه الطاعة – إمّا بسبب الوهم أو بحسب الظاهر – سبباً لمضاعفة تلك المعصية بهذا الاعتبار. والحقُّ أنّ التناقض الحاصل من تعارض الفعل والقول – المقتضي للتلبيس والفتنة – هو السبب الحقيقي في مضاعفة المعصية، أمّا نسبة ذلك إلى الطاعة إنْ لم يكن خطأً فهو اتّساع في اللغة.

(2) – القِنّوجي: صِدِّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص155.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص133.

توبيخ، فقال: إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحَمَلةِ الحُجَّة وأهلِ الدراسة لِكُتب الله لكان مجردُ كونكم ممّن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك، ذائداً لكم عنه وزاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم ما يوجبه العلم؟"[1].

إنّ هذه الآيةَ قد اشتملت على أنواعٍ من الذمّ والتوبيخ بعضُها أشدُّ من بعض، والآية وإن نزلت في علماء بني إسرائيل فهي عامّةٌ في ذمّ كلٍّ من اتّصف بوصفهم.

2 – قال الله تعالى: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ** بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]م.

قال أبو حيّان: "هذا الاستفهام معناه التوبيخ والإنكار، ولم يذمَّهم على الفِداء بل على المناقَضة"[2]، وقال صِدّيق حسن خان: "فكان إيمانهم الفداءَ وكفرُهم قتلَ بعضهم بعضاً، فذمّهم على مناقضة أفعالهم؛ لأنهم أَتَوا ببعض ما يجب عليهم وتركوا البعض، وهذا هو مناط التوبيخ حسب ما يُفيده تركيبُ النظْم القرآني؛ لأنّ مِن قضيّة الإيمان ببعضه الإيمانُ بالباقي؛ لكونِ الكلِّ من عند الله داخلاً في الميثاق"[3].

3 – قال الله تعالى: ﴿**أَفَكُلَّمَا** جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]م.

قال السيوطي: "والمراد به – أي: الاستفهام – التوبيخ"[4]، وهذا بسبب تقديم الهوى على الهدى وبَطَرِهم الحقَّ وغَمْطِهم الرسلَ، فاستحقّوا هذا التوبيخ الشديد والذمّ اللاذع.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ **أَكَفَرْتُم** بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: 106]م.

قال السيوطي: "ويقال لهم توبيخاً: (**أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمانِكُمْ**)"[5]، والإيمانُ الذي كان قبل الكفر يحتمَل أن يكون إيمانهم يوم أخذ الله عليهم الميثاق[6]، أو أنهم المنافقون[7] عرفوا الحقَّ وتركوه وعدلوا عنه إلى الباطل، فوبخهم الله بذلك، والمعنى: كيف آثرتم الكفر على الإيمان؟! وكيف تركتم سبيل

(1) – القِنَّوجي: صِدِّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص156.

(2) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج1 ص293.

(3) – المرجع السابق: مج1 ص217.

(4) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص13، وينظر فتح البيان: مج1 ص219.

(5) – المرجع نفسه: ص53.

(6) – المرجع نفسه: ص ن.

(7) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص354، وعزاه إلى الحسن البصري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرشاد وسلكتم طريق الغيّ والفساد؟! وما الذي أوجب لكم ذلك؟ لا جرم أنّه الجهل والسفة والعِناد.

5 – قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 20]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: 97]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: 74]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]م.

الذي يتعيّن فهمُه من هذه الآية الكريمة هو أنّ الله تعالى يُهدِّد النصارى المؤلّهين لعيسى ابن مريم وأمِّه الصِدِّيقة، ويوبخهم بسوء صنيعهم ويقرّعهم على رؤوس الأشهاد، والخطاب وإن كان في ظاهره موجَّهاً إلى عيسى عليه السلام فإنّ المعنى هو توبيخُ قومِه المغالين فيه وذمُّهم، قال أبو سريع: "وهذا توبيخٌ لعيسى عليه السلام في اللفظ ولقومِه في المعنى؛ لأنّ الله تعالى عَلِم أنّ عيسى عليه السلام لم يقل ذلك، ولكن قال ذلك له بحضْرة قومِه ليوبخهم على ذلك ويكذّبهم فيما قالوه"[(1)]، أو يكون ذلك الخطاب الموجّه لعيسى عليه السلام على سبيل الفرض وتنزيل البريء منزلة المتّهم ردْعاً وتوبيخاً لمن فعل ذلك[(2)].

9 – قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 30]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنعام: 130]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 80]ك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – عبد العزيز أبو سريع: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، ص128.

(2) – ينظر المرجع نفسه: ص128.

قال الزمخشري: "ثم وبخهم عليها فقال: أنتم أوّلُ من فعلها، أو على أنه جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنهم قالوا لِمَ لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها من أحد من العالمين؛ فلا تفعلوا ما لم تُسبَقوا إليه"[1].

13 – قال الله تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ [الأعراف: 191]ك.

14 – قال الله تعالى: ﴿**ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ [يونس: 51]ك.

15 – قال الله تعالى: ﴿**قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾ [يونس: 59]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿**أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [يونس: 68]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ**﴾ [يونس: 77]ك.

قوله تعالى: (**أَسِحْرٌ هَذَا**) ليس من قولهم بل هو توبيخٌ من الله لهم، وإنّما قولهم الذي قالوه محذوفٌ تقديره: إنّه لسحر، أي: أتقولون للحقّ لما جاءكم إنّه لسحرٌ وأنتم تعلمون يقيناً أنّه ليس كذلك، والهمزة فيه للتوبيخ والإنكار، ولهذا أعاد الله عليهم التوبيخ والتقريع بقوله: (**أَسِحْرٌ هَذَا**)، أي: انظروا وصْفَه وما اشتمل عليه، فبمجرد ذلك يجزَم بأنه الحقُّ[2].

18 – قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾ [الرعد: 16]م.

19 – قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ**﴾ [إبراهيم: 44]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ**﴾ [النحل: 52]ك.

21 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى**﴾ [طه: 86]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿**أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً**﴾ [الأنبياء: 24]ك.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص125.

(2) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي: ص371.

23 – قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: 43]ك.

قال ابن كثير: "استفهام إنكارٍ وتقريع وتوبيخ"[1].

24 – قال الله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 50]ك.

قال جلال الدين المحلّي: "الاستفهام فيه للتوبيخ"[2].

25 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: 66]ك.

26 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: 105]ك.

27 – قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: 44]ك.

28 – قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 84]ك.

قال الزمخشري: "(أم) هذه منقطعة، معناه: بل أتحسب، كأنّ هذه المذمَّة أشدُّ من التي تقدّمتْها حتى حُقَّت بالإضراب عنها إليها"[3].

29 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: 40]ك.

30 – قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[4] [فاطر: 37]ك.

31 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60- 61]ك.

الهمزة للتوبيخ والتقرير، فإذا أقرّوا على أنفسهم بنقض العهد وخيانة الأمانة شعروا حينئذٍ بالأسى والحسرة على التفريط في جنب الله ﷻ، مع الإحساس بانقطاع الرجاء وعدم إجابة الدعاء بالتأخير والإرجاء، ودُنوّ العذاب وحلول سخط رب الأرباب.

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1215.

(2) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص272.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص282.

(4) – ينظر البحر المحيط لأبي حيّان: مج7 ص316، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: مج7 ص154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

32 – قال الله تعالى: ﴿**أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ**﴾ [الصافّات: 62]ك.

قال الزمخشري: "ومعلومٌ أنه لا خير في شجرة الزقّوم، ولكنّ المؤمنين لما اختاروا ما أدّى إلى الرزق المعلوم واختار الكافرون ما أدّى إلى شجرة الزقّوم، قيل لهم ذلك توبيخاً على سُوء اختيارهم"(1).

33 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ**﴾ [الصافّات: 96]ك.

34 – قال الله تعالى: ﴿**فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ**﴾ [الصافّات: 149]ك.

قال المحلّي: "(**فاستَفْتِهِمْ**) استخبِر كفّارَ مكّة توبيخاً لهم"(2)

35 – قال الله تعالى: ﴿**أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ**﴾ [ص: 75]ك.

(**أَسْتَكْبَرْتَ**) أصلها: أاستكبرت، دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فسقطت في درج الكلام، فصارت (**أَسْتَكْبَرْتَ**) رسماً ولفظاً، والاستفهام هنا للتوبيخ، يدلّ عليه السياق، قال المحَلِّي: "(**أَسْتَكْبَرْتَ**) الآن عن السجود؟ استفهام توبيخ"(3).

36 – قال الله تعالى: ﴿**أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ**﴾ [الزُّمَر: 71]ك.

37 – قال الله تعالى: ﴿**قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ**﴾ [غافر: 50]ك.

38 – قال الله تعالى: ﴿**أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا**﴾ [الأحقاف: 20]ك.

قال الفرّاء: "قرأها الأعمش وعاصم ونافع المدني بغير استفهام، وقرأها الحسن وأبو جعفر المدني بالاستفهام (**أَأَذْهَبْتُمْ**)، والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم، فيقولون: ذهبتَ ففعلتَ وفعلت؟ ويقولون: أذهبتَ ففعلتَ وفعلت؟ وكلٌّ صواب"(4).

39 – قال الله تعالى: ﴿**أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا**﴾ [الشورى: 24]ك.

قال الزمخشري: "(**أم**) منقطعة، ومعنى الهمزة فيه للتوبيخ، كأنه قيل: أَيَتَمالَكُون أن يَنسِبوا

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص46.

(2) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص379.

(3) – المرجع نفسه: ص384.

(4) – الفرّاء: أبو زكريّا يحيى بن زياد، معاني القرآن، مج3 ص54.

مثلَه [أي القرآن] إلى الافتراء، ثم الافتراء على الله هو أعظمُ الفِرى وأفحشُها"[1].

40 – قال الله تعالى: ﴿**أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ، وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ**﴾ [النجم: 59- 61]ك، الاستفهام للتعنيف والتوبيخ، ويجوز أن يكون للتوعّد والتهديد.

41 – قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ [الملك: 8]ك.

قال الزمخشري: "توبيخٌ يزدادون به عذاباً إلى عذابهم وحسرةً إلى حسرتهم"[2].

ثانياً: "ما" و"ماذا":

(ما) و(ماذا) للسؤال عن الجنس[3]، ويُطلب بهما الشرحُ والاستفسارُ عن حقيقة الشيء المستفهَم عنه، وقد تخرجان إلى معانٍ أخرى منها التوبيخ، يُعرف ذلك بالقرائن.

أ – "ما":

1 – قال الله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: 71]م.

هذا توبيخٌ من الله تعالى لعلماء أهل الكتاب بسُوءِ فِعالهم، وذلك لما خلطوا – عن علم – الحقّ بالباطل بالتحريف والتزوير وكتمانِ الحقّ الذي من ضِمنِه ذكرُ اسم النبيّ ﷺ ونعتِه الموجودِ في كتبهم[4]، وليس الاستفهام هنا لطلب جوابٍ ما؛ وإنما هو استفهامٌ لا جواب له سوى شعور المسؤول بالخزي والذلّ والتهديد والتأنيب؛ وهذا هو الغرض من استفهام الذمّ والتوبيخ.

2 – قال الله تعالى: ﴿**فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ [النساء: 78]م.

مَن علِم حال الكفّار والمنافقين مع الحسنةِ أو السيّئةِ تصيبهم تعجّبَ من جهلهم وحماقتهم، حيث كانوا إذا أصابتهم الحسنة قالوا هي من عند الله، وإذا أصابتهم السيّئة تطيّروا بنبيّهم ﷺ، وهم في هذا يحذُون حذْو أسلافهم، كما قال ﷻ حكايةً عنهم: (**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ**)، وقال: (**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ**)، فكانوا إذا أصابهم شرٌّ

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص221.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص578.

(3) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص310.

(4) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج1 ص339.

إنّما يُسندونه إلى اتّباعهم للنبيّ واقتدائهم بدينه[1]، وهذه حالة تدعو إلى التعجيب من جهل أولئك القوم الذين من فَرْط جهلهم لا يفقهون حديثاً بل لا يكادون[2]؛ لأنّ الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما بُعثوا لصلاح الدنيا والدين لا أنْ يكونوا سبباً للشرّ والفساد، وعلى كلٍّ فالآية لا تخلوا من ذمّ وخيم وتوبيخ أليم.

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ **فِيمَ كُنتُمْ** قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا**﴾ [النساء: 97]م.

في هذه الآية استفهامان توبيخيّان، **الأول:** **(فِيمَ كُنتُمْ)**، **والثاني:** **(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)**، والمعنى: في أيّ شيءٍ كنتم في أمر دينكم؟ وبأيّ شيء تميّزتم عن المشركين؟ أي: ما الذي حملكم على البقاء بين ظهراني المشركين ولم تهاجروا إلى النبي ﷺ مع قُدرتكم على ذلك؟[3]؛ بدليل: ﴿**أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾، وهو استفهامٌ تقريريّ توبيخيّ، ولقائلٍ أن يقول: كيف يتوجّه عليهم اللّوم وقد قالوا: ﴿**كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ**﴾، والجواب: إنهم كاذبون في ذلك؛ إذ لو علم الله فيهم ضعفاً ما وبّخهم، وهو القائل: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: 276]م، أمّا المستضعفون الصادقون فهم الذين قال الله ﷻ في شأنهم: ﴿**إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الذِينَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**﴾، استثناهم لأنهم كانوا مقهورين ليست لهم القدرة على الهجرة[4].

4 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾ [الأعراف: 12]ك.

لما أمر الله تعالى ملائكتَه الكرامَ بالسجود لآدم تكريماً له وإظهاراً لفضله عليهم امتثلوا أمر ربهم، فسجدوا كلُّهم أجمعون إلا إبليسَ اللّعين أبى واستكبر وكان من الكافرين، تكبُّراً وحسداً من عند نفسه، فسأله الله موبِّخاً: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾، وقد يُتوهَّم أوّلَ الأمر أنّ الاستفهام كان عن المانع له من السجود حتى تُسمع حُجّتُه – وربُّه أعلم به – فتُقْبَلَ أو تردّ، وحينئذ يكون الاستفهام جارياً على أصله لا للتوبيخ، وهذا قد يكون صحيحاً إذا جرّدنا الآية عن سياقها، لكن

(1) – المصدر السابق: مج1 ص487.

(2) – قال السيوطي: "ونفي مقاربة الفعل أشدُّ من نفيه". [تفسير الجلالين: ص75].

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص491، وينظر تفسير السعدي: ص195.

(4) – ينظر تفسير السعدي: ص196.

ومن خلال القرائن المحتفّة يتبيّن أنّ الله تعالى ما سأله إلا ليُوبِّخه، ومن القرائن الدالّة على إرادة التوبيخ قولُه تعالى: (**إِذْ أَمَرْتُكَ**)، ومعلومٌ أنّ إبليس كان عالماً بأنّ أمر الله ﷻ لا بدّ أن يطاع مهما خفيت حكمته، وأنّ مَن خالفه فهو المستحقّ للذمّ والعقوبة كائناً من كان، فلمّا وقع هذا اللّعين في مخالفة الأمر المبين عن علمٍ ويقين استحقّ بذلك الذمّ واللوم العظيم؛ لأنه لا ينبغي أبداً أن يُقابل أمر الله المطاع بالإباء والامتناع.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ **مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ** وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48]ك.

قال محمّد عبد الخالق عضيمة: "(مَا): استفهام توبيخٍ وتقريعٍ، وقيل: نافية"[1]، فإذا كانت "**ما**" نافيةً، فالمعنى أنّ أصحاب الأعراف أَخبَروا أهل النار بأنّ جمْعهم وأموالهم وغيرَ ذلك كلَّه قد اضمحلّ ولم يَعُد ينفع، وفي هذا من التيئيس والنِّكاية والتحزين ما فيه، وإذا كانت للاستفهام، فالمعنى أن أصحاب الأعراف وَبَّخوا أهلَ النار بأنّهم اليومَ في غايةٍ من الضعف والذّل، وهم أحوجُ ما يكون إلى تلك الأموالِ وذلك الجمعِ، فأين ذهب ذلك كلّه؟ ولماذا لا يغني عنهم اليوم كما كان يغني عنهم بالأمس؟ لا جرم أنّهم قد علموا ساعتها أنّ الحقّ لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، ليت شعري كم يقاسي هؤلاء ألَمَ مرارةِ هذا السؤال، وهُم الذين طالما كانوا يتبجّحون بشفاعة الشافعين وغِناية الأموال والبنين، واللهُ غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

6 – قال الله تعالى: ﴿**مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ**﴾ [الصافّات: 25]ك.

لقد كان المشركون من قبلُ يُدندِنون حول شفاعةِ آلهتهم المزعومةِ ونُصرتِها إيّاهم، وأنّهم لن يُبعثوا ولو بُعثوا فلن يُعذَّبوا اغتراراً منهم بآلهتهم وقوّتهم، فإذا جاء يومُ الحساب وحَقّ عليهم العذاب، وظهر أنّ ما كانوا يُعوّلون عليه مجرّدُ سراب، سألهم ربّ الأرباب سؤال توبيخ وعتاب: ﴿**مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ**﴾، أي: ما مَنعَكم أن ينصر بعضُكم بعضاً؟ لكنّ المراد التوبيخ، وفيه شَوبٌ من استهزاء وسخرية؛ إذ كيف الانتصار وقد علاهم الذلّ والصَّغار، وهم بين يديّ الملِكِ الجبّار.

7 – قال الله تعالى: ﴿**فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾ [الصافّات: 87]ك.

---

(1) – محمّد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج3 ص142.

بعد أن حذّر الله ﷻ الكفّار على لسان رُسُله من اتخاذِ آلهةٍ دون الله يَقصدونها بالعبادة والتعظيم؛ إذ لا تَصلح العبادة إلا للربّ المتفرّدِ بالخلق والملك والتدبير، قال لهم موبّخاً: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال أبو حيّان: "استفهامُ توبيخٍ وتحذير وتوعّد، أي: أيُّ شيءٍ ظنُّكم يَفعلُه معكم مِن عِقابكم إذ قد عبدتم غيرَه"[1]، ويجوز أن يكون الغرض منه إلزام الحجّة وتبكيت[2] الخصم، بمعنى: ما الذي ظننتم بربّ العالمين من النَّقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء؟.

8 – قال تعالى: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ، **مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ**﴾ [الصافّات: 153- 154]ك.

(مَالَكُمْ) استفهام توبيخ وذمّ، أي: ما الذي جرى لكم حتى حكَمتم لأنفسكم بأنّ لكم البنين ولله البناتِ – سبحانه –؟ فجعلتم له أردأَ القِسْمين وأخسَّهما عندكم، إنّ هذه القسمةَ الضيزى لا تصدر إلا عمّن لا عقل عنده، قال أبو حيّان: "**(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)** تقرير وتوبيخ واستفهام عن البرهان والحجّة"[3].

9 – قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ**﴾ [الصف: 2]م.

إذا كان المخاطبون في هذه الآية هم المنافقون – سواء كان نفاقهم عقيدياً أو عمليّاً – فإنّ هذه الآية في ذمّهم وتوبيخهم، وهي كقوله تعالى إذ يُوبّخ أحبار أهل الكتاب ورهبانهم: ﴿**أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ**﴾ [البقرة: 44]م، قال أبو حيّان: "إن كان الخطاب للمنافقين فالاستفهام يُراد به الإنكار والتوبيخ، وإن كان الخطاب للمؤمنين فالمراد التلطّف في العَتْب"[4]، ولا أذمَّ مِن حالة مَن حثَّ غيرَه على الخير بل ربما تمدّح به وهو متلوّن بضدّه متلبِّس به.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ **لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ**

---

(1) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج7 ص368.

(2) – لأنّ فيه تقريراً بالمحال، وهو ممتنع، وإنما المرادُ أن يتنبَّه السامع ويرجعَ إلى نفسه فيخجلَ ويرتدعَ ويَعْيَ بالجواب، ويكون الاستفهام جارياً على سبيل التمثيل، أي: على فرض أنّه يوجد نقص في ربّ العالمين فما هو هذا النقص؟ وهذا النقص – أصلاً – غيرُ كائن حتى يُطلَب تعيينُه، فإذا عجزوا عن الجواب فقد افتضحوا وصاروا بمثابة من يَدّعي المحال. [ينظر دلائل الإعجاز للجرجاني: ص128].

(3) – المرجع السابق: مج7 ص377.

(4) – المرجع السابق: مج8 ص261.

ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الصف: 5]م.

وبّخ نبيُّ الله موسى الطَّيْلاً قومَه على إذايتهم له حال علمهم أنّه رسولُ الله حقّاً ونبيّ الله صدقاً؛ وذلك أنه من حَقِّ الرسول الإكرامُ والإعظام، فمن تعرّض له بالإساءة والإذاية فقد قابل الإحسان بالجناية، وهذا من صفات اللّؤماء وسمات السفهاء.

11 – قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ **مَآ أَكۡفَرَهُۥ**﴾ [عبس: 17]ك.

(ما) قد تكون الاستفهاميةَ أو التعجّبية، فإن كانت الاستفهاميةَ فهي تفيد التوبيخ، قال جلال الدين المحلّي: "(**مَا أَكْفَرَهُ**) استفهامُ توبيخٍ، أي: ما حمله على الكفر"(1)، والحال أنّه مفطور على الإيمان ثم كيف يجحد خالقه ومولاه ويتخذ إلهه هواه؟، وإن كانت للتعجّب أو التعجيب من أمر هذا الإنسان، فإنّ قيام الأدلّة النقلية والعقلية، أضفْ إليها دليلَ الفطرة وما جاءت به الرسل من الخوارق والمعجزات، كلّ ذلك قاطع بصدق الرسل في ما أخبروا به من أمور الإيمان، ومع ذلك فإنّ هذا الإنسان لا يزداد إلاّ عناداً وبُعداً، فما أعظَمَ كفرَه**!** وما أشدَّ عِناده ومُعاندتَه للحقّ بعد ما تبيّن**!**.

ب – "ماذا":

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ** وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾ [النساء: 39]م.

هذا الخطاب موجّهٌ لليهود ومَن على شاكلتهم، من الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وينفقون أموالهم – إن أنفقوها – رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يوبّخهم الله ﷻ في هذا الخطاب بأسلوب ظاهره تلطّف في العتاب وباطنه ذمّ شديد الوقع على أهل الكتاب: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ ...**﴾، أي: لا ضررَ عليهم لو حصل منهم الإيمانُ والعمل الصالح، فما الداعي إذاً إلى الكفر والبخل؟ لا جرم أنه الظلم والجهل واتّباع الهوى، فالاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ؛ بدليل ختم الآية بما يشعر بالتهديد والوعيد، ومناط الذمّ فيها هو اعتقادهم الضررَ في الإيمان والمنفعةَ في الكفران، فاعتقدوا في الشيء بخلاف ما هو عليه وجهلوا مكان المنفعة، قال الزمخشري: "وأيُّ تَبِعة ووَبالٍ عليهم في الإيمان والإنفاق في سبيل الله، والمرادُ الذمُّ

(1) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص501.

والتوبيخ، وإلا فكلّ منفعة ومَفلحة في ذلك، وهذا كما يُقال للمنتقِم: ما ضرَّك لو عفوت؟ وللعاقّ: ما كان يَرْزَؤك لو كنت بارّاً؟، وقد عُلم أنه لا مَضرّةَ ولا مَرْزأةَ في العفو والبِرّ، ولكنّه ذمٌّ وتوبيخٌ وتجهيلٌ بمكان المنفعة"(1).

2 – قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ **مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ** قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]م.

ظاهر الآية استخبارُ الرسل عن أقوامهم كيف أجابوهم حين دعوهم إلى عبادة الله وتوحيدِه، وبعد التأمّل نجد أنّ ذلك غيرُ مراد، وإنما المرادُ توبيخُ أقوامهم على عدم إجابتهم دعوةَ المرسلين وتكذيبِهم لهم؛ لأن الرسل لم يجيبوا عن السؤال وفوّضوا العلم إلى عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال؛ ذلك أنّ المقام مقامُ ذمٍّ ووعيد وتوبيخٍ وتهديد، ولكن قد يقال: لم يجيبوا لشدّةِ هول يوم القيامة وفَزْعتِهم، وهذا وإن كان له وجه، فإنّ الأوْلى أن يقال بأنّ المراد هو التوبيخُ والتبكيت لأولئك المكذّبين، قال الزمخشري: "(مَاذَا) مُنتصِب بـ: (أُجِبْتُمْ) انتصابَ مصدرِه على معنى: أيَّ إجابة أُجبتم، ولو أُريد الجوابُ لقيل: بم أُجبتم؟ فإن قلتَ ما معنى سؤالهم؟ قلتُ: توبيخُ قومهم كما كان سؤالُ الموؤودة توبيخاً للوائِد"(2)، ويشهد لهذا المعنى أنه في آيةٍ أخرى يسأل اللهُ ﷻ هؤلاء الأقوام فيقول: ﴿**وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ**﴾ [القصص: 65]ك، فيكون جوابهم الحيرةُ والسكوت، قال الله تعالى: ﴿**فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ**﴾ [القصص: 66]ك، ومن المعلوم أنّه لا يُنجي في هذا الموضِع إلا التصريحُ بالجواب الصحيح، وهو أنّهم كانوا مكذِّبين، فلمّا علموا بذلك لم ينطقوا بشيء، فعُلم أنّ سؤال الله ﷻ لهم كان على وجه التوبيخ والتبكيت.

3 – قال الله تعالى: ﴿**إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ**﴾ [الصافّات: 85]ك.

أنكر إبراهيم الخليل عليه السلام على أبيه وقومه عبادتَهم الأصنام والأوثان وألزمهم الحجّة بالبيّنة والبرهان، فقد سألهم عن آلهتهم من حيث صفاتُها التي بها استحقت العبادة، من أجل أن يبكّتهم ويوبّخهم، لأنه قد تقرّر في العقول السويّة أنّ تلك المعبودات المنحوتة أقلُّ شأناً منهم، لقد أوقع سؤال الخليل عليه السلام الارتياب في قلوبهم والارتباك في نفوسهم؛ لأنه سؤالُ إنكارٍ وإلزام وتبكيت مصحوبٍ

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص511.

(2) – المصدر نفسه: مج2 ص12.

بتوبيخ شديد، والمعنى: إنّ ما تعبدون من دون الله لا يستحقّ أن يعبد؛ إنّهم لن يُغنوا عنكم شيئاً، فما الذي أنتم عليه عاكفون؟ وفي أيّ شيء تُتعِبون أبدانكم وتُهدِرون أموالكم وتُوجبون على أنفسكم – بجهلكم – الخسران المبين والعذاب المهين؟ إنّ كل هذا الذمّ والتوبيخ والتجهيل والتسفيه والتبكيت يجمعه قوله عليه السلام: ﴿**مَاذَا تَعْبُدُونَ**﴾.

ثالثاً: "أين":

(أين): أداة استفهام يطلب بها تعيين المكان[1]، وقد تخرج إلى معان أخرى منها: التوبيخ، وفي القرآن الكريم نماذج من ذلك:

1 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ **أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ [الأنعام: 22]ك.

في هذه الآية الكريمة يوبّخ الله تعالى المشركين الذين اتخذوا مع الله شركاء افتراءً عليه، وإنما كان سؤاله إيّاهم بقوله: (**أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ**) توبيخاً لسببين، **الأول**: إذا كان المراد الشركاءَ على الحقيقة فهؤلاء لا وجود لهم، فكيف يُطلب تعيينهم؟ إذاً هذا سؤال توبيخ، و**الثاني**: إذا كان المراد الشركاءَ المدّعَين فإنّ سؤاله عنهم وقت حاجة عبّادهم إليهم دليل على إرادة التوبيخ والتقريع، قال الزمخشري: "وإنّما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ"[2].

2 – قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ**﴾ [النحل: 27]ك.

الاستفهام في الآية للتوبيخ يدلّ عليه قوله في أوّلها: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ**﴾ وفي ختامها: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾، قال الزمخشري: "(**شُرَكَائِي**) على الإضافة لنفسه حكايةً لإضافتهم ليوبّخهم بها على طريق الاستهزاء بهم"[3]، فأيُّ خِزيٍ أعظم من أن يجتمع عليهم التوبيخ والاستهزاء مع التهديد بسوء الجزاء وشماتة العلماء، فما أشدَّ حسرتهم إذ ذاك.

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ [الشعراء: 92- 93]ك.

يوبّخ الله الغاوين وجنودَ إبليسَ أجمعين حين تُبرَّزُ لهم الجحيم، فيسألهم: ﴿**أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ مِن أصنام وأوثانٍ، أين هي الآن؟ لماذا لا تُغيثكم إذ تستغيثون ولا تشفع لكم إذ تستشفعون؟ فلم

(1) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص313.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص12.

(3) – المصدر نفسه: مج2 ص602.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يسألهم إلاّ ليوبخهم على ضلالهم وليقرّرهم بأنّ الحقّ لله وحده.

4 – قال الله تعالى: ﴿**فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ [القصص: 62- 74]ك.

هذه الآية كالتي قبلها، اشتملت على توبيخ المشركين بما كانوا يزعمون من أنّ مع الله آلهة أخرى، قال السكّاكي: "(**أَيْنَ شُرَكَائِي**) توبيخاً للمخاطبين وتقريعاً لكونه سؤالاً في وقت الحاجة إلى الإغاثة عمّن كان يُدّعى له أنّه يُغيث"[(1)].

5 – قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [غافر:73- 74]ك.

الاستفهام هنا للتوبيخ والتقرير والتبكيت، وفي هذه المرّة أجابوا ولم يَسكُتوا، لكنّ جوابهم كان إقراراً منهم على أنفسهم، فقد قالوا: ﴿**ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا**﴾، وليس هذا جَحداً وإنكاراً لما وقع من شِرْكهم، بل هو اعترافُ منهم بأنهم لم يكونوا يدعون من قبلُ شيئاً، أي: إنّ آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله ليس لها من الأمر شيء، ومثل هذا الاعتراف وذاك التوبيخ نجده في الآية الأخرى: ﴿**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ**﴾ [فصّلت: 47- 48]ك، قال ابن كثير: "(**ما مِنّا من شَهِيدٍ**)، أي: ليس أحدٌ منّا يشهد اليوم أنّ معك شريكاً"[(2)].

6 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ، فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾ [التكوير: 25- 26]ك.

الاستفهام في قوله: ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾ له معانٍ عِدّة، فقد يحمَل على إلزام الحجّة، بمعنى: أيَّ طريقٍ تسلكون في إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه[(3)] مع ظهوره ووضوحه؟ وقد يحمَل على الإنكار التوبيخي، أي: كيف يخطر هذا ببالكم وأين ذهبت عقولكم حتى سوّيتم بين الحقّ والباطل والصدق والكذب[(4)]؟ ويحتَمَل أن يكون الاستفهام للتنبيه على الضلال[(5)]، أي: فأين تذهبون عن كتاب الله وعن طاعته[(6)]. وكلّها معانٍ صحيحةٌ ومقبولة.

---

(1) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص315.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1660.

(3) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص503.

(4) – السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص913.

(5) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص315.

(6) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1999.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعاً: "هل":

(هل): أداة استفهام لا يُطلَب بها إلاّ التصديق، كقولك: هل حصل الانطلاق؟ وهل زيدٌ منطلِق؟[1]، والتصديق: إدراك النسبة المستفهم عنها، ويَمتنع معها المعادل، أي: لا تستفهم عن النسبة أهي موجودة أم لا؟ قال السكّاكي: "ولاختصاصه بالتصديق امتنع أن يقال: هل عندك عمرو أم بِشْر؟ باتّصال "أم" دون: أم عندك بِشْر؟ بانقطاعها[2].

وهذا الأسلوب موجود في القرآن الكريم، وإنما المقصود هو خروجه عن معناه الحقيقي إلى معنى الذمّ والتوبيخ، قال السكّاكي: "فنقول: متى امتنع إجراء هذه الأبواب [التمنّي والاستفهام والأمر والنهي والنداء] على الأصل تولّد منها ما ناسب المقام...، كما إذا قُلتَ لمن يهجو أباه مع حُكمك بأنّ هَجْو الأب ليس شيئاً غيرَ هَجْو النفس: هل تهجو إلا نفسَك؟ أو غيرَ نفسِك؟ امتنع منك إجراء الاستفهام على ظاهره؛ لاستدعائه أن يكون الهجْوُ احتمل عندك توجّهاً إلى غيره، وتولّد منه بمعونة القرينة الإنكارُ والتوبيخ"[3]، وفي القرآن الكريم مواضع منه نبّه عليها العلماء:

1 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة: 91]م.

قال الزمخشري: "بعدما ذكر [الله ﷻ] الصوارف عن الخمر والميسر، وفي هذا الاستفهام استقصارٌ [أي: عدّ المخاطَب قاصِراً] وتعييرٌ بالمعانَدة وقلّةِ الإنصاف؛ لأنّ المنصِف إذ تجلّت له الحجّةُ لم يتوقّف إذعانُه للحقّ، وللمعاندة بعد تجلّي الحجّةِ ما يَضرب أسواراً بينه وبين الإذعان، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخٌ بالبَلادة وكَلّةِ القَريحة، وفي: ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ توبيخٌ بالحرص الشديد على تعاطي المنهيِّ عنه"[4].

2 – قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ** ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، قُلْ **هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ**ۚ﴾ [يونس: 34- 35]ك.

---

(1) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص308.

(2) – المصدر نفسه: ص315.

(3) – المصدر نفسه: ص ن.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص347.

قد يخفى وجه كون الاستفهام في الآية للتوبيخ، لكن بالرجوع إلى السياق القرآني يتبيّن أنّ الاستفهام للتقرير والتوبيخ، فقد سيقت الآيات قبلها لتقرير التوحيد محتجّاً بها على الكافرين بما أقرّوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الألوهية، حتى إذا تقرّر في العقول بطلان الشريك مع الله ﷻ أتى بالاستفهام بشأن قدرة الشركاء على بدء الخلق وإعادته، وعلى الهداية والإضلال، وذلك من أجل توبيخ المشركين وتقريرهم بالحقيقة التي يُنكرونها؛ لأنّ سؤالهم عن ذلك بعد إلزامهم الحجّةَ دليلٌ على إرادة توبيخهم وتقريرهم، قال القرطبي: "قل لهم على جِهة التوبيخ والتقرير: ﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ**﴾"[1].

3 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ [يوسف : 89]ك.

خرج هذا الاستفهام مخرجَ التوبيخ والتقريع، حيث وبّخ يوسف عليه السلام إخوته الذين جاؤوا إليه وهم في حالة شديدةٍ من الجوع والضرر يريدون أن يوفِ لهم الكيل ويتصدّق عليهم، فوبخهم بما بَدر منهم وصدر، وعلّمهم أنّ الحياة دروسٌ وعِبَر، يدلّ على ذلك قوله بعده: ﴿**إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾، وفيه ذمٌّ صريح لهم بالجهل وتوبيخٌ لهم إذْ فعلوا فِعلَ الجاهلين[2]، قال أبو حيّان: "استفهام معناه التقريع والتوبيخ، ومرادُه تعظيم الواقعة، أي: ما أعظمَ ما ارتكبتم"[3].

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ**﴾ [إبراهيم: 21]ك.

يُفيد ظاهر الآية أنّ الضعفاء يطلبون من الرؤساء الذين كانوا يَتّبعونهم اتّباع العُميان أن يفعلوا شيئاً يخلِّصهم من العذاب أو بعضِه، لكن من خلال السياق يتّضح أنهم لما رَأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب عادوا بالنِّقمة على سادتهم وكبرائهم حيث لم يكونوا يجرُؤون على ذلك من قبل، فوبّخوهم وأنّبوهم بأنهم السببُ في غِوايتهم واستحقاقهم العذاب، قال أبو حيّان: "استفهامٌ معناه توبيخُهم وتقريعهم، وقد علموا أنهم لن يُغنوا"[4].

---

(1) – القرطبي: محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مج8 ص341.

(2) – قد يحمَل قوله: ﴿**إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ على أنه نوعُ اعتذارٍ لهم بجهلهم، فيوسفُ هو الأخ الشفيق والنبيّ الصدِّيقُ، فلا يَبعدُ أن يكون قد وقع في نفسه شيءٌ من الشفقة عليهم لِمَا رأى من شَحابة وجوهِهم ورَثَاثة لِباسهم وسوءِ حالتِهم، وهم أبناء أبيه جاؤوا يَشْكون حالهم بين يديه، فنبّههم على موطن خطئهم واعتَذر لهم ، فكان من المحسنين.

(3) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج5 ص341.

(4) – المرجع نفسه: مج5 ص16.

6 – قال الله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: 93]ك.

هذه الآلهة المزعومة والأصنام المذمومة لا تنصرهم ولا تدفع العذاب عنهم بل ولا عن نفسها، ومع هذا كانوا يعبدونها ويَدْعونها، ويخوّفون بها من لا يعترف بها، فلذلك وبخهم الله بهذا السؤال الدالّ على جهلهم وسفههم، فما سألهم إلا ليشعروا بضلالهم ويُقِرّوا بخطئهم ويعلموا خِفّة أحلامهم، قال القرطبي: "هذا كلُّه توبيخ"(1).

7 – قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: 40]ك.

يوبّخ الله المشركين بأنّهم سفهاءُ حيث اتّخذوا مع الله شركاءَ عاجزين عن الخلق والرزق والإماتة والإحياءِ، ويبدو القصد من التوبيخ في تكرار (مِنْ)؛ فهو يريد واحدًا على أقلِّ تقدير مِن الشركاء ليفعلَ شيئًا ممّا سبق عَدُّه، وهواستفهامٌ يفيد النفي وفيه معنى التوبيخِ والذمّ(2).

خامساً: "أيّ":

(أيّ): أداة استفهام للسؤال عمّا يُميّز أحدَ المتشاركين في أمر يعّمهما(3)، وقد يُستفهم بها عن الزمان والمكان والحال والعدد والعاقل وغير العاقل على حسب ما تضاف إليه، وهي كغيرها من أدوات الاستفهام قد تخرج إلى معانٍ أخرى منها: التوبيخ، ولم يأت من ذلك في القرآن الكريم إلا موضعٌ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: 81]ك.

جاء هذا الاستفهام بعد أنْ عدّد الله جملةً من نِعَمه على عباده التي من أكبرها إراءتهم الآيات في الأنفس والآفاق الدالّة على توحيده، حتى يبذلوا الجهد ويستفرغوا الوُسع للاجتهاد في شكره بطاعته وعبادته، فأيَّ آية من آيات الله لا يعترفون بها؟ وليس المراد الاستفهامَ؛ فقد تقرّر عندهم أنها حقّ، وإنما المراد التوبيخُ والذمّ على التولّي واتّباع الهوى وترك الهدى، قال المحلّي: "(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ

(1) – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج13 ص116.

(2) – ينظر روح المعاني للآلوسي: مج7 ج21 ص47.

(3) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص312، وقال ابن فارس: "أيُّ: وتكون للترجيح بين أمرين، تقول: أيّاً ما فعلتُ فلي كذا، أيْ: إنْ فعلتُ هذا وإنْ فعلتُ هذا، وتكون للتعجّب، نحو: أيُّ رجلٍ زيدٌ!". [الصاحبي في فقه اللغة: ص145].

آياتِ اللهِ) الدالّة على وَحدانيته **(تُنكِرُونَ)** استفهامُ توبيخ. وتذكيرُ **(أيّ)** أشهرُ من تأنيثه"[1]، ومما يدلّ على أنّ المراد التوبيخُ هو أنّ الله سألهم عن تعيين آية واحدة ينكروها؛ إذ كلُّها قد بلغت من الوضوح والظهور ما لا ينبغي معه الإنكار.

سادساً: "مَن" الاستفهاميّة:

(مَن): يُطلب بها حصول التصوّر[2] ويُستفهم بها لتعيين العقلاء، قال محمّد عبد الخالق عضيمة: "يجيء الاستفهام مع (مَنْ) مرادًا به الإنكار والتوبيخ، فلا يكون له جوابٌ وإنما بمعنى النفي، ولذلك وقعت بعده (إلاَّ) في بعض المواضع...، أضفْ إلى هذا ما كان مِن: (أفعل) التفضيل بعد: **(مَن)**، وما كان مِن: **(مَن ذا الذي)**"[3].

وبالرجوع إلى المواضع التي ذكرها الأستاذ محمّد عبد الخالق، وبإمعان النظر في سياقاتها التي وردت فيها، وبإنعام الفكر في معانيها التي تُؤديها، نجد الاستفهامَ فيها قد أُريد به الإنكار والتبكيت وإلزام الحجّة أكثرُ ممّا يُراد به التوبيخ؛ إذ جلّها سيق في معرض المحاجّة والمجادلة وإلزام الخصوم، وممّا ذكره قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا **فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا**﴾ [النساء: 109]م، وقولُه ﷻ: ﴿**قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ** فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس :31]ك، وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ، قَالَ **وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾ [الحجر: 55- 56]ك. فهذه المواضع وغيرُها من المواضع التي ذكرها الأستاذ لو كانت في سياق الذمّ لكان القول بأنّ الاستفهام فيها للتوبيخ له وجه، ولعلَّ أقربَ تلك المواضع إلى معنى التوبيخ ما كان مِن: (أفعل) التفضيل بعد: (مَن)، وقد جاء في تسعة مواضع من القرآن الكريم.

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ**﴾ [البقرة: 114]م.

---

(1) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص400.

(2) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص310.

(3) – محمّد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج3 ص281.

وجه الذمّ في هذه الآية وفي غيرها من الآيات الآتي ذكرها هو نفي وإنكار أن يوجد أحدٌ أظلمُ ممّن صدرت عنه تلك الأفعال الذميمة، والمقصودُ المبالغة في وصفه بالظلم العظيم؛ إذ قد يوجد من هو أظلم منه، فيكون الاستفهام قد خرج إلى معنى الإنكار التوبيخي، وفي ضمنه أنَّ تلك الأفعال المستنكَرة داخلةٌ في الظلم، بل هي من أعظم الظلم.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ**﴾ [البقرة: 140]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ**﴾ [الأنعام: 21]ك.

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ [الأنعام: 93]ك.

5 – قال تعالى: ﴿**فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ**﴾ [الأنعام: 144]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿**فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَا**﴾ [الأنعام: 157]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿**مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ**﴾ [فصّلت: 52]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾ [الأحقاف: 5]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الصف: 7]م.

سابعاً: "كيف":

(كيف): أداة استفهام يطلب بها تعيين الحال[1]، وفي القرآن الكريم قُصد بها معنى التوبيخ في موضعين هما:

1 – قال الله تعالى: ﴿**كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ**﴾ [البقرة : 28]م.

خرج هذا الاستفهام إلى معانٍ كثيرة، منها: التوبيخ، والمعنى: إذا كنتم في تصرُّفه وتدبيره وبرّه وإحسانه، وتحت أوامره الدينيّة ومن بعد ذلك تحت دِينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به؟ وهل هذا إلا جهلٌ عظيم وسفهٌ وحماقة؟، بل الذي يَليق بكم هو أن تُؤمنوا به وتتّقوه وتشكروه وتخافوا

(1) - السكّاكي: مفتاح العلوم، ص313.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عذابه وتَرجوا ثوابه[1]، ومنها: الإنكار، حيث أنكر عليهم حصول الكفر منهم بالذي خلقهم من العدم وأنعم عليهم بصنوف النِّعم، ومنها: التعجّب أو التعجيب من حالهم، وذلك أنه من العجب بمكانٍ أن يتّخذوا مع الذي كان السببَ الأوحدَ في إيجادهم ثم إماتتهم ثم إحيائهم مرّة أخرى للحساب آلهةً شركاءَ من حجارة وخشبٍ أشبهَ ما تكون بالدُّمى واللُّعب، تُرجى شفاعتها وهي لا تغني من اللهب، فيا لله العجب! وقد ذكر السكّاكي أنّ الاستفهام في الآية بمعنى التعجّب والإنكار والتوبيخ، ووجهُ تحقيق ذلك هو أنّ الكفّار حين صدورِ الكفر منهم لا بدّ من أن يكونوا على إحدى الحالين: إمّا عالمين بالله، وإمّا جاهلين به، فإذا قيل لهم: **(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ)** – وللكفر مَزيدُ اختصاصٍ بالعلم بالخالق وبالجهل به – أفاد: أفي حال العلم بالله تكفرون أم حال الجهل به؟ ثم قيّد (**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ**) بقوله: **(وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ)**، وصار المعنى: كيف تكفرون بالله والحالُ حالُ علمٍ بالقضية، فصار وجودُه منهم مظِنّةَ التعجّب؛ لأنّ الخالق يأبى أن يُكفَر، وصدورُ الفعل عن القادر مع الصارف القويّ مظِنّةُ تعجّبٍ وتعجيب وإنكار وتوبيخ، وكذلك يقال: أين مُغيثُك؟ للتوبيخ والتقريع والإنكارحالَ تذليل المخاطَب[2]، ويُضاف إلى ما سبق معنى التبكيتِ والتعنيف، فالكفّار لا ينكرون توحيد الله في ربوبيتّه ولكن في ألوهيّته، ومعلومٌ أنّ توحيد الربوبيّة يستلزم توحيد الألوهيّة، فمِن هذا الوجه يحصل التبكيت، وأمّا التعنيف فيدلّ عليه قوله: **(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**.

والحاصل أنه قد اجتمع في هذا الاستفهام من المعاني ما لم يجتمع في غيره، نبّه على هذا علماء اللغة والتفسير، وهذه بعض أقوالهم:

قال القزويني[3]في الإيضاح: "للتوبيخ والتعجيب جميعًا"[4]، وقال الزمخشري: "معنى الاستفهام: الإنكارُ والتعجّب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟! وكيف تطير بغير جناح؟!"[5]، وقال أيضًا: "قد ذكرنا أنَّ معنى الاستفهام في: (كيف) الإنكارُ، وأنّ إنكار الحال متضمِّنٌ لإنكار الذات على

---

(2) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي: ص48.

(1) – ينظر مفتاح العلوم للسكّاكي: ص315.

(2) – **القَزْوِيني**: هو جلال الدين محمّد بن عبد الرحمن الشافعي، وَلِيَ القضاءَ بدمشق، صنّف: «تلخيص المفتاح للسكّاكي» و«الإيضاح» وغير ذلك، كان غزير العلم، توفي سنة: (739هـ). [شذرات الذهب: مج3 ج6 ص120].

(3) – القزويني: الإيضاح، مج1 ص241، الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية لعبد العزيز أبو سريع: ص290.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص121، وينظر الكلّيات لأبي البقاء الكفوي: ص98.

سبيل الكناية، فكأنّه قيل: ما أعجب كفرَكم مع علمِكم بحالكم هذه!"[1]، وقال السيوطي: "والاستفهام للتعجّب مِن كفرهم مع قيام البرهانِ، أو التوبيخِ"[2]، وقال صدِّيق حسن خان: "وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم والتعجيبِ من حالهم، وهو تبكيتٌ وتعنيفٌ لهم"[3].

2 – قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾[آل عمران: 101]م.

قد يكون الاستفهام في الآية للذمّ والتوبيخ؛ حيث كفروا مع ظهور آيات الله وظهور أمر رسوله ﷺ[4]، قال السيوطي: "(**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ**): استفهامُ تعجيبٍ وتوبيخ"[5]. إنّ القول بأنّ الاستفهام هنا للتوبيخ قولٌ صحيح، وذلك إذا حملنا الآية على أنها في الكفّار والمنافقين، فإنه مع وجود الرسول ﷺ بين أظهُرهم يأتيه خبرُ السماء صباحاً ومساءً، ومعاينتهم لمعجزاته الباهرة ورؤيتهم لأخلاقه الطاهرة، قاطعٌ باستحقاقهم الذمّ والتوبيخ إذا هم كفروا بعد ذلك.

أمّا إذا كان الخطاب موجَّهاً إلى المؤمنين، ولعلّه الراجح؛ لدلالة السياق عليه، فلا توبيخ في الآية، ويكون الاستفهام فيها للاستبعاد؛ بمعنى أنّ الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإنّ آيات الله تتنزّل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويُبلِّغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ**﴾[6] [الحديد: 8]م.

ثامناً: "كم":

(كم): أداة استفهام يُطلب بها تعيين العدد[7]، لكن قد تخرج بالقرائن إلى معنى التوبيخ، وقد جاء من ذلك في القرآن الكريم مثالٌ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿**قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ**﴾ [المؤمنون: 112]ك.

هذا سؤالُ توبيخٍ وتنبيه وتبكيت، والمعنى: إنّ الله ﷻ يُوبِّخ الكافرين وينبِّهُهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله، ولو صبروا في مُدّة دنياهم القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه

---

(5) – المصدر نفسه: مج1 ص122.

(1) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص6، وقال الثعالبي: "هو تقرير وتوبيخ ". [الجواهر الحسان: مج1 ص59].

(2) – القِنَّوجي: صِدِّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص118.

(3) – ينظر الأساليب الإنشائية لعبد العزيز أبو سريع: ص238.

(4) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص53.

(5) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص351.

(6) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص312.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المتّقون، ولو تنبَّهوا لَما آثروا الفاني على الباقي[1]، وهذا ما يزيد في تحسرُّهم وتندُّمهم مع ما يَشعُرون به من التهديد والوعيد، ولذا أقرُّوا على أنفسهم بأنّ دنياهم التي كانت يومَها تبدوا طويلةً عريضةً هي اليومَ لا تعدوا أن تكون يوماً أو بعض يوم.

المطلب الثالث

استفهام التهكّم والسخرية

خرج الاستفهام عن دلالة وَضْعه إلى معنى التهكّم والسخرية في مواضعَ متعدّدة من القرآن الكريم، وهذه المواضع هي:

أوّلاً: همزة الاستفهام:

1 – قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: 87]ك.

ذكر أهل التفسير أنّ الهمزة هنا للتهكّم، والمعنى: لا مُوجِب لنَهْيك لنا إلاَّ أنّك تُصلّي لله وتتعبّد له، أفإن كنتَ كذلك أفيوجب لنا أن نَترك ما يَعبد آباؤنا من الأصنام والأوثان لقولٍ ليس عليه دليلٌ إلاّ أنّه مُوافق لك؟[2]، فاستبعَدوا أن يحصل مَطلوبُه منهم، وتهكّموا بنبيهم إغراقًا في الضلال وإمعانًا في الفساد، لكن قد يقال: ما وجه كونِ سؤالهم خارجًا مخرج التهكّم وقد عُلِم أنّ الصلاة – وهو كما ذكروا – تنهى عن المنكر؟، فقد ذكر ابن كثير عن الحسن أنه قال في هذه الآية: أيْ والله، إنَّ صلاته لتأمرُهم أن يتركوا ما كان يعبدُ آباؤهم[3]، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَلاَةَ الصَلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ**﴾، والجواب أنهم كانوا لا يعترفون بصلاة شعيب عليه السلام ولا بعبادته، فقالوا ما قالوا على سبيل السخرية والتهكّم، قال الزمخشري: "إلاّ أنهم ساقوا الكلام مَساق الطَّنْز[4]، وجعلوا الصلاة آمرةً على سبيل التهكّم بصلاته، وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك

---

(7) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج(1، 3) ص (351، 1284).

(1) – ينظر المصدر السابق: مج2 ص936، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص387.

(2) – المصدر السابق: مج2 ص ن.

(3) – قال الجوهري: "**الطَّنْز**: السُّخْرِيَةُ، وَطَنَزَ يَطْنِزُ وَيَطْنُزُ فَهُوَ طَنَّازٌ، وَأَظُنُّهُ مُوَلَّداً أَوْ مُعَرَّباً". [الجوهري: الصِّحاح، مج3 ص883، مادّة: طنز]، وينظر القاموس المحيط للفيروز آبادي: مج2 ص180، مادّة: طنز.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبادة الأوثان باطلٌ لا وجه لصحّته، وأنّ مثله لا يدعوك إليه داعي عقلٍ ولا يأمرك به آمرُ فِطنةٍ، فلم يَبق إلا أن يأمرَك به آمرُ هذيانٍ ووسوسةُ شيطان، وهو صلواتك التي تُداوِم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من أسباب الجنون وممّا يَتولَّع به المجانين والمَوَسْوسُون من بعض الأقوال والأفعال"(1).

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا**﴾ [الإسراء: 49]ك.

يكذّب الكفّار بيوم البعث ويَستبعدونه وقد قال قائلهم: من يُحيي العظام وهي رميم؟ لكن علاوةً على هذا التكذيب والإنكار فإنّا نجد في سؤالهم ذاك نوعُ تهكّمٍ وسخرية معها شيءٌ من التعجّب والحَيرة، والمعنى: من يقول إنّ الإنسان إذا مات ورَمَّ، ونَقصت منه الأرض أو ذَرّتْهُ الرّيح وصار شبيهاً بالعدم، أفيعود تارةً أخرى إلى الحياة جسداً من لحم ودم؟! إنّ هذا لمحض خيالٍ أو نوعُ خَبال، ومَن قال به صار مَسخرةً للرجال مَضحكةً للأطفال، وربما إذا صحّ ما يقول وآل الأمر إلى ما يؤول، فتلك إذًا كرّةٌ خاسرةٌ وتجارةٌ بائرة، كلُّ هذا وغيره دفعهم إلى تلك المقالة الجائرة: ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**﴾، وإنك لتَلْمحُ في استفهامهم هذا الحيرةَ والتعجّب والاستهزاء جميعاً(2).

3 – قال الله تعالى: ﴿**أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ**﴾ [الأنبياء: 21]ك.

وَجهُ التهكّم في هذه الآية هو أنّ تلك الآلهة المتّخَذة من دون الله لا تعدوا أن تكون جماداً؛ إذ ليس لها ما للحيوان فضلاً عن الإنسان بَلْهَ خالقَ الأكوان، فهل هؤلاء الكفارُ لما عبدوا تلك الحجارة الصمّاء عبدوها لِمَا رأوا فيها من صفات الربوبية وخصائص الألوهية؟ كلّ ذلك لم يكن، فليس الاستفهام إذاً عن كونها تقدر على البعث والنشور إلاّ لِغرض التهكّم والسخرية والاستخفاف والتجهيل والتوبيخ، قال الزمخشري: "وفيه بابٌ من التهكّم بهم والتوبيخ والتجهيل، وإشعارٌ بأنّ ما استبعدوه من الله لا يصحّ استبعادُه؛ لأنّ الإلهيّة لما صحّت صحّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة"(3).

4 – قال الله تعالى: ﴿**فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ**﴾ [الصافّات: 91]ك.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص419.

(2) – ينظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: مج15 ص128.

(3) – الزمخشري: الكشاف، مج3 ص (108– 109).

قال إبراهيم عليه السلام ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء بتلك الآلهة المدّعاة، والمعنى: كيف تكون هذه الحجارةُ آلهةً معبودةً وهي أنقصُ من الحيوانات التي تأكل أو تُكَلَّم؟!.

5 – قال الله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ**﴾ [الزُّمَر: 36]ك.

كان المشركون يخوّفُون رسول الله ﷺ بالأصنام أن تنالَه بسُوء، وهذا مِن ضَلالهم وزَيْغهم، فتهكّم الله بهم بقوله: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾، أي: أليس قد عَلمتم وتقرّر عندكم أنّ الله كافٍ مَنْ عَبده واتّقاه فضلاً عن أن يكون هذا العبدُ رسولَه ومُصطفاه؟، وتقرّر أيضاً لديكم أنّ تلك الآلهةَ المزعومةَ عاجزةٌ العجزَ كُلَّه عن أن تَضرَّه أو تمسَّه بسُوء لو كان وحده، فكيف والإلهُ الحقُّ كافيه ومُؤَيِّدُه وحاميه؟ ثم أنتم بعد ذلك تخوّفونه وتُهدّدونه، فالاستفهام إذاً للتهكّم بهم لا لمجرّد التقرير، قال الزمخشري: "وفي هذا تهكّمٌ بهم؛ لأنهم خوّفوه ما لا يقدر على نفعٍ ولا ضرّ"[1].

6 – قال الله تعالى: ﴿**أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ**﴾ [الزخرف: 19]ك.

زعم الكفّار أنّ الملائكة بناتُ الله – سبحانه –، فوبخهم الله ﷻ بسُوء ما قالوا؛ فليس لله ولد ولم يصطفِ البناتِ على البنينَ؛ ثم لِمَ ينسبون له ما يَكرهون؟ ومَن أخبرهم أنّ الملائكة إناث؟ لعلّهم حضروا خلقهم، لهذا قال الله ﷻ استهزاءً وتوبيخاً: ﴿**أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**﴾، وفي قراءة نافع (**أَأُشْهِدُوا**)، ومعلومٌ أنهم لم يَشهدوه، فخرج الاستفهام إذًا مخرج التوبيخ والتهكّم، قال الزمخشري: "وهذا تهكّم بهم، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يَستنِد قولهم إلى عِلْم، فإنّ الله لم يضطرّهم إلى علم ذلك، ولا تَطرّقوا إليه بالاستدلال، ولا أحاطوا به عن خَبرٍ يُوجب العلم، فلم يبقَ إلاّ أن يُشاهِدوا خَلْقهم، فأُخبِروا عن هذه المشاهدة"[2].

7 – قال الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ**﴾ [الأحقاف: 34]ك.

في قوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ**﴾ استهزاءٌ وتوبيخ، حيث كان الكفّار يُكذّبون بيوم الدين ويستبعدونه، فقيل لهم هذا حين حضروه وشاهدوه عيانًا، قال الزمخشري: "والمعنى: التهكّم بهم

---

(1) – المصدر السابق: مج4 ص129.

(2) – المصدر السابق: مج4 ص244.

والتوبيخ لهم على استهزائهم بوَعْد الله ووَعيده وقولهم: (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)"[1]، والجزاء من جنس العمل.

8 – قال الله تعالى: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الطور: 15]ك.

أي: أأنتم لا تُبصرون الحقّ الأبلج أم هو عدمُ بصيرة منكم حتى اشتبه الأمر عليكم؟، وهذا فيه من التهكّم مع التقريع ما يُحرِق أفئدتهم ويُقيم الحجّة عليهم، قال الزمخشري: "وهذا تقريع وتهكّم"[2].

9 – قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: 21]ك.

لا يدلّ الاستفهام في الآية على نفيٍ أن يكون لله أنثى فحسب، بل ﴿**وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً**﴾ [مريم: 92]ك، وهو للتهكّم التوبيخي، ذلك بأنّ الله لا يرضى أن يُنسب إليه الولد مطلقاً، فكيف يجعلون لأنفسهم البنين ولله البناتِ وهم يكرهونهنّ؟! وذلك أنهنّ في نظرهم الفاسدِ وفكرهم البارد شعارُ العار ومجلَبةُ الشَّنَار، فالله تعالى القادر على أن يَستبدل قوماً غيرَهم ثم لا يكونون أمثالهم يَسخرُ من جهلهم وغبائهم وظُلمهم، فمِن هنا كان الاستفهام مُراداً به التهكّم والتوبيخ لمن زعم أنّ لله البناتِ ولهم البنون، ولم يعلموا أنّ الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد.

ثانياً: "ما" الاستفهاميّة:

1 – قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ **مَا يَحۡبِسُهُۥٓ**﴾ [هود: 8]ك.

يقول ابن كثير: "ولئن أخّرنا العذاب والمؤاخذةَ عن هؤلاء المشركين إلى أجَل محدود وأَمَد محصور، وأَوْعدناهم إلى مُدّة مضروبة ليقولُنّ تكذيباً واستعجالاً: ما يحبسه أن يُؤخَّر هذا العذابُ عنّا؟"[3]. قد يقال إنّ استبطاءهم مجيء العذاب صار دليلاً لهم على أنّ العذاب غيرُ موجود، ومعلومٌ أنّ عدم الوِجدان لا يدلّ على عدم الوجود، فقالوا جهلاً وظلماً: ما يحبسه؟ وأغلب الظنّ أنهم ما قالوه إلا تهكّماً وسخرية، وفي ضِمْنه التكذيبُ والشكّ، وجهُ ذلك أنهم لما أنكروا وجود العقوبة العاجلة والآجلة ولم تقع بعدُ، ظنّوا – لجهلهم – أنهم صادقون في تكذيبهم، ثم تَظاهروا بأنهم مصدِّقين بوقوعه فزعموا أنهم يسألون عن السبب الذي حبسه عنهم، وفي هذا مِن الاستهزاء

(3) – المصدر السابق: مج4 ص313.

(1) – المصدر السابق: مج4 ص49.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص921.

والسخرية ما فيه[1]، قال السيوطي: "**(لَيَقُولُنَّ)** استهزاءً **(مَا يَحْبِسُهُ)** ما يمنعُه من النزول"[2]، وممّا يدلّ على أنهم ما قالوا ذلك إلا تهكّماً واستهزاءً هو أنّ الله ﷻ أجابهم بقوله: ﴿**أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾، أي: يستهزؤون به من سؤالهم عن العذاب[3].

2 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ **مَالِ هَٰذَا** ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 7]ك.

من جملة الحجج الواهية التي عثر عليها الكفّار لِرَدّ رسالة محمّد ﷺ تلك المقالةُ القبيحة الخارجة من أفواههم إذ يقولون: ما لهذا الرسول الذي ادّعى الرسالة يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؛ هلاّ كان مِلكاً أو ملَكاً، وهم بهذا لا يريدون اتّباع الحقّ بل كان ذلك منهم على سبيل التعنّت والتعسّف، كما هي عادة الأقوام المكذِّبين أنبياءَهم ورسلَهم، فسؤالهم ليس من ورائه إلا التهكّم والسخرية، بمعنى: هل الرسول يتخلّى عنه ربه فيأتيه بالوحي ولا يأتيه بالرزق حتى يكدحَ – كغيره من الناس – في طلبه فيمشي في الأسواق ليأكل الطعام؟، وربما كان من الأنسب أن يكون ملَكا لا بشرًا، فما لهذا الرسول يفعل أشياء ليست تنبغي للرسل – زعموا –؟ فقالوا ما قالوا تهكّما وسخرية، وبهذا المعنى قال بعض أهل التفسير، قال أبو حيّان: "وهذا الاستفهام يَصحبه استهزاء"[4].

ثالثاً: "متى":

(متى): أداة استفهام يُطلب بها تعيين الزمان[5] ماضياً كان أو مستقبَلاً، لكن بحسب السياق والقرائن قد تخرج إلى معانٍ أخرى منها التهكّم، وممّا وقع منه في القرآن الكريم:

1 – قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ **مَتَىٰ هُوَ**﴾ [الإسراء: 51]ك.

يقول منكروا البعث: من يعيدنا بعد الموت وقد بَلِيَت أجسادنا ورَمَّت عظامنا ولم يَبق من أجسادنا أثر؟ فيُجابون بأنّ الذي خلقهم أوّلَ مرّة قادرٌ على أن يخلقهم مرّة أخرى، فلمّا أجيبوا

(3) – ينظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم لمحمّد عبد الخالق عضيمة: ج3 ص96.

(4) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص182.

(1) – ينظر المرجع نفسه: ص ن.

(2) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج6 ص483.

(3) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص313.

بذلك الجواب الذي لا ينبغي مقابلتُه إلا بالتسليم والإذعان جعلوا يحرّكون رؤوسهم مُنكرين في تعجّب إعادةَ البعث، ثم قالوا متهكّمين: (مَتَى هُوَ)؛ لأنهم لا يسألون بصدق عن ميقات البعث، وإنما يسألون عنه إمّا سفهاً منهم أو تعجيزًا لنبيّهم أواستهزاءً به، قال السيوطي: "ويقولون استهزاءً (مَتَى هُوَ) أي: البعث"[1]، وقال ابن عاشور: "استفهام تهكّم"[2]، وممّا يدلّ على إرادتم التهكّم هو إنغاضُهم رؤوسَهم وهزُّها من أعلى إلى أسفل كما يفعل المستهزئ، فقد روى ابن كثير عن ابن عباس وقتادة ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ**﴾، أي: يحرّكونها استهزاء"[3]، فحَمْلُ الاستفهامِ على التهكّم هو الأنسبُ والأقرب والأصوب.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ** إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الملك: 25]ك.

هذه الآية كالتي قَبلها، وليس ببعيدٍ أن يكون مرادُ الكفّار من سؤالِهم نبيَّهم تعجيزَه وإظهارَ كذبه بزعمهم، لكنّ الأحسن منه أن يقال: إنّ سؤالهم هذا خارجٌ مخرجَ التهكّم والاستهزاء، وجهُ ذلك أنهم لا يُؤمنون بالبعث والحساب، وإذا كان الأمر كذلك فليس من داعٍ للسّؤال عن وقت مجيء العذاب طالما هم مُكذِّبون به، فعُلم أنهم يتهكّمون بنبيّهم ويريدون الإمعان في إذايته وإهانته.

رابعاً: "هل":

يوجد مثال واحد في القرآن الكريم لخروج (هل) إلى معنى التهكّم، وهو:

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ**﴾ [الأنعام: 148]ك.

لما زعم المشركون أنّ إشراكهم بالله وتحريمهم ما حرّموا إنما هو بمشيئة الله ﷻ، ردّ الله عليهم زعمَهم الباطل بأنه لو كان صحيحًا لما استحقّوا بأسَ الله وأليمَ عِقابه، ولما كان قولهم ذاك نابعاً من ظنّهم وخَرصهم أمَرَ الله ﷻ نبيَّه الكريم أن يطالبهم بدليلٍ أو أَثارة من عِلم إن كانوا صادقين، ووجهُ كون سؤاله لهم خرج مخرج التهكّم بهم والاستهزاء هو أنه لما سألهم عن العلم الذي عندهم مع علمه

(1) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص237.

(2) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج15 ص129.

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1097.

بأنّه ليس ثمّة إلا الوهم والظنّ الفاسد، عُلم أنه يتهكّم بهم ويَستخفّ بعقولهم، قال أبو حيّان: "استفهام على معنى التهكّم وهو إنكار، أي: ليس عندكم من علم تحتجّون به"(1).

خامساً: "أيّ":

قال الله تعالى: ﴿**سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ**﴾ [القلم: 40]ك.

من حكمة الله البالغة أنه لم يسوِّ بين المؤمنين والمجرمين، لكنّ الكفّار – لجهلهم – كانوا يظنّون أنّ الله تعالى سيسوِّيهم بالمؤمنين في الثواب، فذمّهم الله بسُوء الفهم وسوء الحكم، ثم بكّتهم بأنّ الجزاء أمرٌ غيبيّ؛ فمَن أخبرهم بأنّ الله سيعطيهم مثلَ ما يعطي المؤمنين؟ هل لهم في ذلك كتابٌ يدرسونه؟ أم هل لهم مواثيقُ وعهودٌ مع الله على ما يدّعونه؟ ثم تهكّم بهم – سبحانه – وسخر منهم فقال: ﴿**أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ**﴾، أي: كفيلٌ لهم بنفاذ حكمهم الباطل، وضامنٌ لهم العواقب(2)، وإنما أمر الله رسوله أن يسألهم تهكّماً بهم، وإلاّ فقد عُلم أنه لا زعيمَ من الكفّار وأنهم كلّهم في النار.

---

(4) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج4 ص247.

(1) – ينظر تفسير ابن كثير: مج4 ص1932.

المطلب الرابع
استفهام التحقير

من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام عن أصل دلالته: التحقير، وفي القرآن الكريم مواضع عدّة منه تتمثّل فيما يلي:

أوّلاً: همزة الاستفهام:

1 – قال الله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: 53]ك.

يعترض الأغنياء والأشراف من الكفّار وقد أخذ منهم الكِبْرُ والافتخار كلّ مأخذ على الله تعالى؛ أن هدى مَن هم دونهم في الغنى والشرف، ويقولون محتقرين لهم: ﴿أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أيهدي الله هؤلاء وهم عبيدنا وعُسَفاؤنا ويتركنا بلا هداية ونحن السادة؟[1] فهذا الاستفهام صدر منهم تحقيرًا لشأن أولئك المؤمنين؛ إذ في زعمهم أنه لا يُعقل أن يَمُنّ الله على المحقَّرين الفقراء دون الأسياد الأغنياء، ولو كانوا صادقين في طلب الهداية لما كانت مشاركة من هم دونهم في المال والجاه في الدين عقبةً تَرُدّهم عن اتّباع الحقّ الذي جاء به المرسلون.

2 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: 36]ك.

مثّل السيوطي لاستفهام التحقير بهذه الآية في كتابه: «الإتقان»، وقال: "أي: إذا رآه الكفّار قالوا تحقيرًا له وهزؤًا به: أهذا الذي يذكر آلهتكم ويعيبها"[2]. إنّ الاستفهام في هذه الآية يفيد التحقير والاستهزاء جميعاً، يُفسّر ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُؤاً﴾، أي: يستهزؤون بك وينتقصونك[3]، ومن هذه المقالة الخبيثة نتلمّح مدى تكبّرهم وغطرستهم، وربما كان ذلك طريقةً ماكرة منهم لتثبيطه عن سبّ آلهتهم وتسفيه أحلامهم؛ حيث يوهمونه أنهم غيرُ عابئين به وأنّه محتقر عندهم، ومهما فعل فلن يؤثّر فيهم شيئاً، ومن العجب أن يحتقِر الرجل غيرَه ويَذمَّه بما هو من مَادحه ومحامده.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص661.

(2) – السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مج2 ص80.

(3) – المصدر السابق، مج3 ص1214.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 – قال تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا**﴾[الفرقان: 41]ك.

قال ابن كثير: "أي: على سبيل التنقُّص والازدراء، فقبّحهم الله، كما قال: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾[الأنعام: 10]ك"(1)، وقال المحلّي: "أي: في دعواه محتَقِرين له عن الرسالة"(2). لقد قالوا مقالتهم تلك على وجه الاحتقار والاستهزاء أن يبعث الله محمّدًا ﷺ رسولاً، ﴿**وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[الزخرف: 31]ك، وفي ضِمنه أنّ محمدًا ﷺ – حاشاه – في غاية الخسّة والحقارة، فاحتقروه وهم الحقيرون على الحقيقة.

4 – قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [فاطر: 8]ك.

لا يختلف أهل التفسير في أنّ معنى الاستفهام في هذه الآية الإنكار، وإن كانوا قد اختلفوا في تقدير جواب الشرط فيها، وإذا كان الاستفهام في الآية للإنكار فإنه قد ينضاف إليه معنى التحقير، وذلك إذا قدّرنا الآية بالشكل الآتي: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً ذهبَتْ نفسُك حسرةً عليه؟ فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ، فإنّ الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء(3)، والمعنى: إنّ الذي تتأسّف عليه أشدَّ التأسّف وأنت مَن أنت لا يستأهل كلَّ هذا، بل هو أحقر من أن يتأسّف عليه أحدٌ فضلاً عن أن يكون أنت من يتأسّف عليه؛ لأنّه قد جمع بين الشرّين، بين قُبح الفعل وقبح الجهل.

ثانياً: "ما" الاستفهاميّة:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ**﴾ [يونس: 66]ك.

قال عبد الخالق عضيمة: "**(ما)** نافية و(**شُرَكَاءَ**) مفعول (**يَتَّبِعُ**)، ومفعول (**يَدْعُونَ**) محذوف، أي: آلهة أو شركاء، أو **(ما)** استفهاميّة في موضع نصبٍ بـ: (**يَتَّبِعُ**) على التحقير، كأنه قيل: من يدعوا شريكاً لا يَتّبع شيئاً، وأجاز الزمخشري أن تكون **(ما)** موصولةً عطفاً على (**مَنْ**)(4) والعائد

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1338.

(2) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص303.

(3) – فتحي أحمد عامر: بلاغة القرآن بين الفنّ والتاريخ دراسة تاريخية فنّية مقارنة، ص156.

(4) – في قوله تعالى قبلها: ﴿**أَلاَ إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ**﴾ [يونس: 66].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محذوف"[1]، فإذا حملنا **(ما)** في الآية على أنها الاستفهاميةُ - وهو الراجح[2]- فهي تدلّ على التحقير، والمعنى: إذا كان لله من في السموات ومن الأرض، وتقرّر أنّ الكلّ في قبضة الله وحكمه وتدبيره، فما يَتَّبعُ الذين يدعون من دون الله شركاء؟، إنّ ما سوى الله مَرْبوب مغلوب، فما يتّبع هؤلاء؟ فلم يبق إلاّ أنَّ هؤلاء الشركاء ليسوا بشيء وإنّ سُمّوا شركاء.

2 – قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ **مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ**﴾[الأنبياء: 52]ك.

يُحتمَل أن يجري الاستفهام في الآية على حقيقته، ويحتمَل أن يخرج عن دلالة وضعه إلى معنى الإنكار والتحقير، وكِلا الاحتمالين وارد، وإن كان الأول أقربَ إلى دلالة السياق، حيث افتتح الله ﷻ قصّة إبراهيم الخليل بمحاجّته لقومه بقوله: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء:51]ك، فكان سؤاله إيّاهم من باب إلزام الحجّة، أي: ما هذه الأصنام؟ ما حقيقتها؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟، أيُّ شيء فيها تستحقّ به لقب إلهٍ أو شريك مع الله؟ وأمّا الاحتمال الثاني فهو الإنكار والتحقير، أمّا الإنكار فظاهر، وأمّا التحقير فيدلّ عليه قوله: ﴿**التِي أَنْتُمْ لهَا عَاكِفُونَ**﴾، وعُكفوهم لها دليلٌ على تعظيمها، فاحتَقرها بالسؤال عنها؛ لأنّ الاستفهام عادةً يكون عن الشيء المجهول، فتجاهَلها ﷺ وجعلها في منزلة الأشياء المحقَّرة التي لا يُعبأ بها، قال أبو حيّان: "**(مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ)**: تحقيرٌ لها وتصغيرٌ لشأنها"[3].

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافّات: 96]ك.

قال محمّد عبد الخالق عضيمة: "**(ما)** اسمٌ موصول أو مصدريةٌ أو استفهامية على التحقير لعملهم"[4]، والمعنى: وما تعملون؟ تشركون بالله ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم شيئاً؟ إنّ الدنيا برمّتها من غير توحيدٍ لله ﷻ لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فأيُّ شيء كان عملُكم إذ تركتم عبادة ربّكم وخالقكم؟ ما أحقر هذا العمل! وما أقرب صاحبَه من الهبل!

---

(1) – محمّد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج3 ص1398.

(2) – وهو اختيار الطبري. [ينظر جامع البيان: مج5 ج11 ص97]، وقال ابن تيميّة: "ظنّ طائفة أنّ **(ما)** نافية، وقالوا: ما يدعون من دون الله شركاء في الحقيقة، بل هم غير شركاء، وهذا خطأ، ولكن **(ما)** هنا حرف استفهام، والمعنى: أيُّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ ما يتّبعون إلا الظنّ وإنْ هم إلا يخرصون، و(**شُرَكَاءَ**) مفعول (**يَدْعُونَ**) لا مفعول (**يَتَّبِعُ**)". [تفسير آيات أَشكلت: مج1 ص144].

(3) – أبو حيّان: البحر المحيط، مج6 ص320.

(4) – محمّد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، ج3 ص139.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

المدح والذمّ بأسلوب التفضيل والتعجّب في القرآن الكريم

المطلب الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل:

قال ابن هشام: "اسم التفضيل هو الصفة الدالّة على المشاركة والزيادة، نحو: أفضل وأعلم وأكثر"(1)، وقد تقرّر عند علماء النحو أنه يُشترَط فيما يُصاغ منه "أفعل" التفضيل ما يُشترط فيما يصاغ منه فِعل التعجّب(2)، قال ابن مالك:

صُغْ مِنْ مَصُوغٍ مِنْهُ للتَّعَجُّبِ *** (أَفْعَلَ) للتَّفْضِيلِ وَأْبَ اللَّذْ أُبِي

وتَصحب (مِنْ) أفعلَ التفضيل المجرّد [أي: غير المضاف أو المحلّى بـ (ال)] لفظاً أو تقديراً جارّةً للمفضَّل، نحو قوله ﷻ على لسان صاحب الجنّتين: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ [الكهف: 34]ك، أي: أَعزّ منك نفراً، ويكثر حذف (مِنْ) مع "أفعل" التفضيل المجرّد إذا وقع خبراً، وهو كثير في القرآن الكريم، كالآية السابق ذكرها(3).

هذا وقد ينضاف إلى معنى التفضيل معنى المدح أو الذمّ، يُعرف ذلك بالقرائن الحالية أو الكلامية، مثاله قول الأعرابي حين سُئل عن حاكِمَين فأجاب قائلاً: أمّا هذا فأحرصُ الناس على الموت في سبيل الله، وأمّا ذاك فأحرصُ الناس على حياةٍ في سبيل الشيطان(4).

وفي القرآن الكريم نماذجُ كثيرةٌ في استعمال "أفعل" التفضيل في المدح والذمّ، وقد حاولتُ استقصاءها فألفيتُها تربوا عن أربعين موضعاً، وكان أكثرها في المدح.

---

(1) – ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص306.

(2) – ينظر الهامش رقم (4) من الصفحة (52) من هذا البحث.

(3) – ينظر شرح ألفيّة ابن مالك لابن عَقيل: مج2 ص (165- 166).

(4) – ينظر النحو الوافي لعبّاس حسن: مج3 ص367.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الأوّل: المدح بأسلوب التفضيل:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: 165]م.

لما بيّن الله تعالى دلائل وَحدانيته مِن خلقه السماوات والأرضَ واختلافِ الليل والنهار، إلى غير ذلك من قواطع الأدلّة وسواطع البراهين ما يزول معه أدنى رَيب في أنّ الله هو الإله الأوحدُ الذي يستحقّ الحبّ المطلق، ذكر أنّ من الناس – مع هذا البيان التامّ – من يَتّخذ معه أو من دونه نُظَراء وأنداداً، وهذا من أظلم الظلم، ثم مدح المؤمنين الذين علموا حقّ الله عليهم فأدّوه كما يجب، فقال: ﴿**وَالذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ**﴾، أي: مِن أهل الأنداد لأندادهم، فأخلصوا حُبّهم له المقتضي توحيدَه[1]، وجملةُ (أَشَدُّ حُبّاً) تفضيلٌ قُصد به المدح؛ لأنه لا يقال: الموحِّد أفضل من المشرك؛ إذ لا فضلَ في المشرك أصلاً، فعُلم بهذا أنّه أُريد بالتفضيل المدح لا المفاضلة.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ [البقرة: 197]م.

قال السعدي: **"**وأمّا الزاد المستمرّ نفعُه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذي هو زادٌ إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذّة وأجلّ نعيمٍ دائمٍ أبداً، ومَن ترك هذا الزادَ فهو المنقَطِعُ به الذي هو عُرضةٌ لكل شرّ، وممنوعٌ من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدحٌ للتقوى**"**[2]، فإذا كان التزوّد للسفر ممدوحاً على كل حال؛ لأنه مأمورٌ به، فإنّ أمدح الزادِ هو التقوى، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ الآية، فكما أنّ لباس التقوى أفضلُ لباس فزاد التقوى أفضلُ زاد، وإذا كان حَملُ الآيتين على معنى التفضيل جيّداً فأجود منه أن يُحملا على المدح؛ لِما فيه من الترغيب والتشويق.

3 – قال الله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 110]م.

قال ابن كثير بعد أن ذكر الأحاديث وأقوال السلف الواردة في تفسير هذه الآية: **"**فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)**، فَمَن اتّصف مِن هذه الأمّة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، كما قال قتادة: بلغنا أنّ عمر بن الخطاب ﷺ (ت 23هـ) في

(1) – ينظر تفسير ابن كثير: مج1 ص189.

(2) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص92.

حجّةٍ حَجّها رأى من الناس دَعَةً، فقرأ هذه الآية: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ ثم قال: مَن سرّه أن يكون من هذه الأمّة فليؤدِّ شرط الله فيها. رواه ابن جرير، ومن لم يتّصف بذلك أشبهَ أهلَ الكتاب الذين ذمّهم الله بقوله تعالى: ﴿**كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمّة على هذه الصفات شرع في ذمّ أهل الكتاب وتأنيبهم"[1]، فـ (**خير**) أفعل تفضيل كان في الأصل: أخير، ونحوها (شر) أصلها: أشرّ، حُذفت الهمزة فيهما للتخفيف، والمعنى: قضى الله أن تكون أمّة محمّد ﷺ أكثر الأمم خيريّة من حيث الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول والوسطيّة في الشِّرعة والمنهاج، وفي ضمنه مدح وتزكية وثناء حسن لهذه الأمّة من بين الأمم.

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ**﴾ [آل عمران: 54]م، [الأنفال: 30]م.

إنّ المكر ممدوح في مقابلة المكر؛ لذا مدح الله تعالى نفسه بأنّ مكره خير من مكر أعدائه، قال الزمخشري: "أقواهم مكراً وأنفذُهم كيداً وأقدرُهم على العقاب من حيث لا يَشعر المعاقَب"[2]، فإذا كان المكر هو التدبير في الخفاء، فإنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾، فمَكْرُ أولئك مع الله – وهو يعلم ما يمكرون – ليس بمكر عند الله، وإن كان مكراً عند الناس، ومَن ذا الذي يمكر ولا يُفطَن لمكره إلا الله؟ فإنّه يمكر بأعدائه انتصاراً لأوليائه جزاءً لهم على مكر أولئك بهم، فمن هو إذاً خيرُ الماكرين؟ وهو بهذا يُثني على نفسه، والمكرُ مذمومٌ إلا في مقابَلة مكر مِثله فيكون ممدوحاً، كما أنّ الخداع مذمومٌ إلا في مقابلة خداع مثلِه، قال تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾، ويُستثنى من ذلك الخيانةُ فإنها بئست البِطانة؛ لأنها مذمومةٌ على كل حال[3].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ**﴾ [آل عمران: 150]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء: 59]م، [الإسراء: 35]ك.

إنّ الردّ عند التنازع إلى الله وإلى الرسول ﷺ هو الواجب وهو الحقّ، وغير ذلك لا خير فيه،

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص359.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص366.

(3) – ولهذا لم يقل في حقّ الذين خانوا الله بأنّه خانهم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ**﴾ [الأنفال: 71]، ولم يقل: (**فَخَانَهُمْ**)، والنبيّ ﷺ يقول: ((**لاَتَخُنْ مَنْ خَانَكَ**)). أخرجه أحمد في المسند: مج3 ص414، وخرّجه الهيثمي في مجمع الزوائد: مج4 ص (144– 145)، والألباني في الإرواء، مج5 ص381.

ومآله غير حسن، ومن هنا كان "أفعل" التفضيل في الآية مستعملاً في غير بابه، ونحوه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: 35]ك، حيث تُفيد الآية بأنّ إيفاءَ الكيل وإقامةَ الوزن بالقسطاس المستقيم هو العدل الذي ليس بعده إلا الظلم والهضم، فالغرض هو المدح، وهو يتضمّن بيانَ حكمةِ التشريع، وهكذا في أغلب الآيات الآتي ذكرُها، إمّا أن يكون "أفعل" التفضيل فيها مستعمَلاً في غير بابه مُراداً به المدح، وإمّا أن يُراد به التفضيل مضموماً إليه المدح؛ وذلك لأجل ورودها في معرض المدح والثناء.

7 – قال الله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: 114]م، [الحج: 58]ك، [المؤمنون: 72]ك، [سبأ: 39]ك، [الجمعة: 11]م.

8 – قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87]ك، [يونس: 109]ك، [هود: 45]ك، [يونس: 80]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 155]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 169]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]ك.

14 – قال الله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]ك. هو مِن قول يوسف عليه السلام، والمعنى: أنا خيرُ المضِيفِين الذين يُحسِنون قِرى الضيف.

15 – قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 64]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: 44]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 76]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 73]ك.

21 – قال الله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]ك.

23 – قال الله تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:14]ك، [الصافّات: 125]ك.

24 – قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: 109]ك.

25 – قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان: 24]ك.

26 – قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]ك.

27 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: 26]ك.

28 – قال الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52]ك.

29 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيّنة: 7]م.

30 – قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]ك.

31 – قال الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3]ك.

الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب التفضيل:

1 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: 60]م.

قال ابن كثير: "وكلّ هذه القراءات يَرجعُ معناها إلى أنّكم يا أهل الكتاب الطاعنين في دينِنا الذي هو توحيدُ الله وإفرادُه بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا؟ وأنتم قد وُجِد منكم جميعُ ما ذُكِر، ولهذا قال: ﴿**أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً**﴾، أي: ممّا تظنّون بنا ﴿**وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾، وهذا من باب استعمال "أفعل" التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة"(1)، فيخرج من معنى التفضيل إلى معنى الذمّ، والمعنى أنّ أهل الكتاب والمنافقين أشرارٌ ضُلاّلٌ، فهم يرجعون إلى أشدّ

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص608.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشَّرارة وأبعد الضلال، والمؤمنون أخيارٌ مُهتدون بُرَآء ممّا عَيَّرهم به أعداؤهم، فهم يرجعون إلى تمام الخيريّة وكمال الاهتداء.

2 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: 179]ك.

يخبر الله تعالى أنّه ذرأ لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس مِن أتباع إبليس – أعاذنا الله منه –، وذمّهم بأنّهم أضلُّ من الأنعام والبهائم، فهي أحسن حالاً منهم ؛ لأنّها – على الأقل – تَستجيب لراعيها إذا أَنِس بها وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء[1]، خُلقوا ليعبدوا الله وحده فعدلوا عنه – ظلماً وجهلاً – وعبدوا غيرَه من الأوثان والأحجار، فما أضلَّهم!.

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]م.

ذكر ابن كثير أنّ المذمومين في هذه الآية هم نفرٌ من بني عبد الدار من قريش؛ لِما رُوي عن ابن عبّاس ﷺ ومجاهد، وهو اختيارُ ابنِ جرير[2]، والآية وإن نزلت في أولئك النفر من بني عبد الدار فهي عامّة في كلّ من لم تُفِد فيه الآيات والنُّذُر، فلا يسمع الحق ولا ينطق به ولا يَعقل عن الله ورسوله ما يَنفعُه بل يُقدِّم ما يضرّه على ما يَنفعُه، فإذا صحّ تسميتُه من جهة اللغة دابّةً فهو شرُّ الدوابّ على الإطلاق، قال الزمخشري: "أي: إنّ شرَّ مَنْ يَدُبّ على وجه الأرض، أو إنّ شرّ البهائم الذين هم صمٌّ عن الحقّ لا يعقلونه، جعلَهم من جنسِ البهائم ثم جعلَهم شرَّها[3].

4 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 55]م.

قال الزمخشري: "هم بنو قريظة نَكثوا العهد...، جعلَهم شرَّ الدوابّ؛ لأنّ شرّ الناس الكفّارُ، وشرَّ الكفّار المصِرُّون، وشرَّ المصرِّين الناكثون للعهود"[4].

5 – قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: 97]م.

(1) – ينظر المصدر السابق: مج2 ص777.
(2) – المصدر السابق: مج2 ص803.
(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص209.
(4) – المصدر نفسه: مج2 ص230.

الأعراب هم أهل البدو والبراري، وهم كغيرهم منهم المؤمنون والفاسقون، ومنهم المنافقون والكفّار، إلا أنّ كفرهم ونفاقَهم أشدُّ من كفر ونفاقِ أهل الحاضرة؛ لأنّ فيهم جفاءً وغلظةً، وهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، وفي الآية الكريمة وصفٌ لحال كثير من الأعراب على وجه الذمّ لهم والقدح فيهم بما هم فيه من شدّة الكفر والنفاق وسوء الأخلاق وعدم فهم الأحكام، ولهذا قد يُعيَّر الرجل ويُذمّ بنسبته إلى الأعراب، أو حتى بتلاوة هذه الآية عليه(1).

6 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ أَنتُمۡ شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ [يوسف: 77]ك.

قال الزمخشري: "أنتم شرٌّ منزلةً في السرقة؛ لأنّكم سارقون بالصِّحة؛ لسَرِقتم أخاكم من أبيكم"(2). إنّ كلمة (شَرٌّ) اسم تفضيل، بمعنى: أشرّ، أي: إنّ إخوة يوسف أشرُّ ممّا رمَوْا به يوسفَ وأخيه، وإنما حُذفت (مِنْ) – جوازاً – لِما تقدَّم من أنّ "أفعل" التفضيل وقع خبراً، ومعلومٌ أنه ليس في يوسف عليه السلام ولا أخيه شرٌّ من سرقة أو غيرها، ولكنّ المراد الذمُّ والتوبيخ، وإن جاء على أسلوب التفضيل.

7 – قال الله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: 34]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿**بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: 44]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ**﴾ [لقمان: 19]ك.

ذمَّ الله في هذه الآية صوتَ الحمار ووَصفَه بالنّكارة، بل جعله من أنكر الأصوات؛ وذلك لِما في أولِه من الشهيق وفي آخره من الزفير، مع علوٍّ في صوته على وجهٍ يُشعر سامعَه بالانزعاج والاشمئزاز.

10 – قال الله تعالى: ﴿**وَقَوۡمَ نُوحٍ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ**﴾ [النجم: 52]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿**لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ [الحشر: 13]م.

---

(1) – ذكر ابن كثير عن الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابيٌّ إلى زيد بن صوحان ﷺ وهو يحدِّث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابيّ: والله إنّ حديثك ليُعجبني وإنّ يدك لَتُريبني، فقال زيد: ما يُريبك من يدي إنها الشِّمال؟ فقال الأعرابيّ: والله ما أدري، اليمينَ يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان ﷺ: صدق الله: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَنْ لاَ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾. [تفسير ابن كثير: مج2 ص875].

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص493.

12 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]م.

13 – قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: 5]ك.

المطلب الثاني

المدح والذمّ بأسلوب التعجّب

معنى التعجّب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنّ التعجّب لا يكون إلا عن شيء خارجٍ عن نَظائره وأشكاله[1]، وللتعجّب صيغتان قياسيّتان[2]هما: "**مَا أَفْعَلَ**"، نحو: ما أعظم قَدرَه، و"**أَفْعِلْ بِهِ**"، نحو: أَقبِحْ بالجهل، وله أساليبُ سماعيّةٌ متعدِّدة منها: يَا لَكَ مِنْ رَجُلٍ، أو كَفَى بحَمْزَةَ طالبَ علمٍ مجتهدًا، لله دَرُّكَ فَارِساً.

والتعجّب من الأساليب التي يحسُن استعمالها في المدح والذمّ، مثاله قول المتنبّي[3] (ت 354هـ):

مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي *** أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ

يُظهِر المتنبّي تعجُّبه من شِدّة بُعدِ العيبِ والنقصانِ منه، وهو لا يريد التعجّب بِقَدر ما يريد مدحَ نفسِه، وكذلك الأمر في الذمّ، حيث يقول[4] في ذمّ قائد الجيش الروميّ:

فَأَخْبِثْ بِهِ طَالِباً قَهْرَهُمْ *** وَأَخْبِثْ بِهِ تَارِكاً مَا طَلَب

يتعجّب المتنبّي من شدّة خُبْث القائد الروميّ في حال إغارته على عدوّه، ويتعجّب أيضاً من فَدَاحة خبثه إذا هو ترك ذلك، وغرضه من هذا التعجّبِ المبالغةُ في الذمّ والتعيير.

ومع أنّ هذا الأسلوب جيّدٌ في المدح والذمّ إلا أنّه لم يستعمله القرآن الكريم إلا في موضعين اثنين: **أحدهما** في المدح **والآخر** في الذمّ.

الفرع الأوّل: المدح بأسلوب التعجّب:

قال الله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ [الكهف: 26]ك.

---

(1) – ينظر الكشّاف للزمخشري: مج4 ص523.

(2) – ابن عقيل: شرح ألفيّة ابن مالك، مج2 ص139.

(3) – المتنبّي: أبو الطيّب أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي بشرح العُكبَري: مج3 ص371، والبيت من البسيط.

(4) – المرجع نفسه، مج1 ص102، والبيت من المتقارب.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: فِعْلاَ تعجّبٍ، بمعنى: ما أبصرَه! وما أسمعَه!، وهو تعجّبٌ مِن كمال سمعِ الله وبَصرِهِ وإحاطتهما بالمسموعات والمبصَرَات، أي: لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء وأنّه بكلّ شيء عليم، قال ابن كثير: "أي: وإنّه لبصيرٌ بهم سميعٌ لهم، أي: بأصحاب الكهف...، ورُوي عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: فلا أحدَ أبصرُ من الله ولا أسمع. اهـ"(1). هذا التعجّب أو التعجيب قُصد به المدح والتعظيم والتمجيد لله ﷻ والثناء الحسن عليه بما له من كمال الذات والأسماء والصفات، قال الطبري: "كأنّه قيل: ما أبصرَه وأسمعَه، وتأويل الكلام: ما أبصر اللهَ لكلّ موجود وأسمعه لكلّ مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء...، وذلك في معنى المبالغة في المدح"(2).

الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب التعجّب:

قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: 17]ك.

ما أكفرَ الإنسان بنعم الله ﷻ وما أشدَّ معاندته للحقّ بعدما تبيّن! لقد ذمّ الله الإنسان بالكفران بخالقه ومولاه، دلّ على ذلك قوله: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ﴾، وهو دعاء عليه بالقتل يجري مجرى الذمّ العامّ، ثم أعقبه بذمّ خاصٍ على أسلوب التعجّب، وذلك من أجل المبالغة في ذمّه، قال الزمخشري: "دعاء عليه، وهي من أشنع دعواتهم؛ لأنّ القتل قصارى شدائدِ الدنيا وفظائعها، **(مَا أَكْفَرَهُ)** تعجّبٌ أو تَعجيبٌ من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا تَرى أسلوباً أغلظَ منه ولا أخشنَ مسّاً، ولا أدلَّ على السخط ولا أبعدَ شوطًا في المذمّة مع تَقارُب طرفيه، ولا أجمعَ للائمة على قِصَر مَتْنه"(3). إنه ليَحار فِكر الأذهان في كُفر هذا الإنسان، كيف يجحد خالق الأكوان؟! بل كيف يشرك بعبادته الأصنام والأوثان، وهو المفطور على توحيد الملك الديّان؟! ولو تأمّل هذا الكون المديد، أو ألقى السمع وهو شهيد، لعلم العلم الأكيد بأنّ الكون يدعو إلى التوحيد والبراءةِ من الشرك والتنديد، ولله درّ شاعر التزهيد(4):

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1127.
(2) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج7 ج3 ص (153– 154).
(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص703.
(4) – ذكره ابن كثير في تفسيره: مج1 ص31 ونَسبه لابن المعتزّ، والبيتان من المتقارب وهما لأبي العتاهية في ديوانه: ص104.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ *** أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

المدح والذمّ بأساليب التشبيه والتسوية والتمثيل(1) في القرآن الكريم

المطلب الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه والتسوية.

الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه:

في التشبيه معنى الدلالة على مشاركة أمرٍ لآخرَ في صفة أو أكثر، وله أركان، ولا بدّ لأيّ تشبيهٍ من طرفين: المشبَّه والمشَبَّه به، وقد يكون المشبَّهُ محذوفاً للعلم به، وينقسم بحسب حذفِ أو إثباتِ أحدِ أركانه إلى تشبيهٍ مُرسلٍ أو مُفصَّل أو مجْمَل أو مؤكَّدٍ أو بليغ، وينقسم بحسب حالِ وجهِ الشَّبَه من حيثُ الإفرادُ والتركيبُ أو التصريحُ والتلميحُ إلى: تشبيهٍ وتمثيل، أو صريح وضِمنيّ(2)، وكثيراً ما يَستعمل الأدباء والشعراء هذا الأسلوبَ البيانيَّ الطريفَ في مدائحهم ومَهاجيهم؛ لأنّ فيه استحضاراً للصورة وتقريباً للمعنى في ذهن المخاطَب، ففي المدح جَرَت العرب على تشبيه الجوادِ الكريم بالبحر، والشجاعِ بالأسد، والوجهِ الحسَن بالشمس والقمرِ، وفي الذمّ يُشبِّهون الجبانَ بالنعامة، واللئيمَ بالثعلب، والبليدَ بالحمار.

وقد وقع المدح والذمّ بهذا الأسلوب في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعاً، هي:

أوّلاً: المدح بالتشبيه:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ [يوسف: 31]ك.

لَمّا رأى النِّسوة جمالَ يوسف عليه السلام أكبَرْنه وأَعظَمْن شأنَه وأجْلَلْن قَدره، ونَفَيْن أن يكون بشراً من جنس البشر، وقُلْنَ له مادحاتٍ وفي تعجُّبٍ مَدْهوشات: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾، فهو عندهنّ لا يُشبِه إلا الملكَ الكريم؛ لِما حَواه من الحُسْن والجمالِ، قال الزمخشري: "وأَثْبَتْنَ له المِلَكيّة وبَتَتْنَ بها الحكم، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ ركّز في الطِّباع أنْ لا أحسَنَ من المِلَك

---

(1) – قال الأصفهاني: "**الشَّبِيهُ** يُقال فيما يشارك في الكيفيّة فقط، و**المُساوِي** يقال فيما يشارك في الكمّية فقط..، و**المِثْلُ** عامّ في جميع ذلك، ولما أراد الله نفي الشبيه من كلّ وجه قال: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: 11]ك. [المفردات في غريب القرآن: ص462، مادّة: مثل].

(2) – ينظر مفتاح العلوم للسكّاكي: ص355.

كما رُكّز فيها أنْ لا أقبحَ من الشيطان، ولذلك شُبِّه كلُّ مُتَنَاهٍ في الحُسن والقُبح بهما"[(1)].

2 – قال الله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٌ مَّكۡنُونٌ**﴾ [الصافّات: 49]ك.

وصف الله تعالى – لغرض المدح – نساءَ أهلِ الجنّة بما يَدلّ على عِفَّتِهِنّ وكمال أخلاقهن وحُسن أجسامهنّ، حيث شبّههُنّ بالبَيْض المكْنون؛ بجامع الحُسْن والجمالِ والصفاء والبَهاءِ والسلامةِ من الآفة والكَدَر، وهذا من أحسن المدح؛ لتضمّنه المعنى الكثير في اللفظ اليسير.

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٌ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٌ مَّكۡنُونٌ**﴾ [الطور: 24]ك.

يصف الله ﷻ في هذه الآية شبابَ الجنّة وخَدمَ أهلِها بأنهم غلمانٌ يُشْبهون اللؤلؤ الرطب المكنون – وهو الحَبّ الثمين – المصونُ في الصَّدَف البالغُ الغاية في الحسن والبهاء، فلم يَلحقه غُبار ولم يُصَب بأيِّ أذى، فهؤلاء الغلمان قد بلغوا من الحسن والنظافة والجمال والصفاء والسلامة من العيوب ما بلغه اللؤلؤ المستور في الصَّدف المصُون.

4 – قال الله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ**﴾ [سورة الرحمن: 58]م.

قال المحلّي: "(**كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ**) صفاءً (**وَالمَرْجَانُ**)، أي: اللؤلؤ بياضاً"[(2)]، وهذا تشبيهٌ آخر للحُور العِين بأنهنّ كالياقوت والمرجان، وذلك لصفائهن وجمال مَنظَرهنّ وبهائهنّ، والغرضُ الوصفُ والمدح.

5 – قال الله تعالى: ﴿**كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ**﴾ [الواقعة: 23]ك.

يُشبِّه الله ﷻ الحُور العِين باللؤلؤ الأبيض الرطبِ الصافي البهيّ المستورِ عن الأعين والريح والشمس، الذي لا عيبَ فيه بوجه من الوجوه، وذلك لبياضهنّ وحُسنهنّ وجمالهنّ، فكما أنّ من رأى اللؤلؤ المكنون انبهر من بهائه وصفائه، فكذلك الحورُ العِين، فكلُّ ما تأمّلته منها وجدتَ فيه ما يَسُرُّ الخاطرَ ويَروق الناظِر[(3)]، وفي تشبيه الحور العِين باللؤلؤ المكنون من المدح لهنّ بالحُسن والجمال ما لا يخفى، وليس المدح – كما علمت[(4)] – مختصّاً بالصفات أو الأفعال الاختياريّة، بل هو عامّ في كلّ ما يُستحسَن.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص466.

(2) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص451.

(3) – ينظر تفسير ابن كثير: مج4 ص1824، وتفسير السعدي: ص833.

(4) – ينظر الصفحة (8) من هذا البحث، وينظر المختار من تفسير القرآن الكريم للشعراوي،: ج2 ص7.

6 – قال تعالى: ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا**﴾[الإنسان: 19]م.

في الآية تشبيه لحال الوِلْدان المخَلَّدين – وهم في حُسنهم وجمالهم يطوفون بأهل الجنّة مُنتشرين لخدمتهم والقيامِ على شؤونهم – باللؤلؤ الحَسن النقيِّ حالَ كونِه منثوراً، بجامع الحُسن والانتشار، وهو من أتمّ المدح وأكمله، وذلك أنّ اللؤلؤ حالَ نَثْره أحسنُ منه حال نَظْمه في عِقْده.

ثانياً: الذمّ بالتشبيه:

وممّا جاء في القرآن الكريم من الذمّ بأسلوب التشبيه:

1 – قال الله تعالى: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ**﴾ [الأعراف: 179]ك.

قال ابن كثير: "أي: هؤلاء الذين لا يَسمعون الحقّ ولا يَعُونه ولا يُبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تَنتفِع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُقِيتُها في ظاهر الحياة الدنيا"[(1)]. هؤلاء الكفّار المتّبعون لإبليس وحزبه قد نالوا من الله أشنعَ الذمّ وأقبحَه، حيث شبّههم بالبهائم في عدم الفقه، بل البهائمُ أحسنُ حالاً منهم؛ لأنها تَفعل ما خُلقت له إمّا بطبْعها وإمّا بتسخيرها، بخلاف هؤلاء فإنهم إنما خُلقوا ليعبدوا الله وحده، فما فعلوا ولكنْ أشركوا به غيره.

2 – قال الله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ**﴾ [التوبة: 28]م.

يُحتمَل في تفسير هذه الآية عِدّةُ احتمالات، **أحدها**: أنّ المشركين نَجسٌ، أي: قَذَرٌ خُبثاء[(2)] وأنجاس، وهذا ذمّ صريح، **والثاني**: أنّ الله شبّههم بالنجاسة على صورة التشبيه البليغ؛ من أجل المبالغة في ذمّهم وتقبيحهم، وهذا ذمّ ضِمنيّ، قال الزمخشري:"...، أو جُعِلوا كأنهم النجاسة بعَينها مبالغةً في وصفهم بها"[(3)]، **والثالث**: ما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عبّاس ﵄ في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ قال: (**النَّجَسُ**) الكلب والخنزير[(4)]، والمعنى أنّ الله ﷻ كنّى في وصف أولئك الكفّار بالنجس عن الكلب والخنزير، ولا شكّ أنّ الكلب والخنزير مَثَلان في الذمّ البليغ.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص777.

(2) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص156، تيسير الكريم الرحمن السعدي: ص333.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص261.

(4) – الرّازي: عبد الرحمن بن محمّد، تفسير القرآن العظيم مُسنَداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، مج6 ص1775.

3 – قال الله تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ**﴾ [الفرقان: 44]ك.

سبق – آنفاً – نظيرُ هذه الآية في تشبيه الكفّار بالأنعام ذمّاً لهم، وهنا يُبالغ الله ﷻ في ذمّهم باستخدام أسلوب الحصر الذي يُفيد بأنّ هؤلاء المعاندين ليس لهم مِن مَثَلٍ سوى مَثَل الأنعام؛ لأنّهم صمٌّ عن سماع الحقِّ بُكمٌ عن النطق به عُميٌ عن رؤيته فهم لا يعقلون، ومن رام تشبيههم بغير الأنعام فقد رام المحال من الطلب.

4 – قال الله تعالى: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ [الصافّات: 65]ك.

يَذمّ الله تعالى طَلعَ شجرة الزقّوم التي تخرُج في أصل الجحيم ووسَطِها – وهو ثَمَرٌ مذمومٌ من كلّ وجه – بأنّه يُشْبه رؤوس الشياطين، وما ذاك إلا لقبْحِ منظرِه وكُرهِ مَأكله وسُوءِ أثره، فلمّا بلغ طلعُها الغايةَ في القبحِ والشناعةِ والنهايةَ في البَشاعة والفَظاعة، شبَّهه برؤوس الشياطين؛ لأنها المثَلُ في القُبح والبشاعة، قال ابن كثير: "وإنّما شبّهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفةً عند المخاطبين؛ لأنّه قد استقرّ في النفوس أنّ الشياطين قبيحةُ المنظر"[(1)].

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ**﴾ [محمّد: 12]م.

ليس في الآية الكريمة تشبيهٌ للذين كفروا بالأنعام من حيث الاشتراك في الأكل، إلا من جهة كونهم ليس لهم همٌّ إلا الأكلَ ومَلءَ البطون والاشتغالَ بالشهوات الزائلة والمتَعِ الزائفة، فلمّا لم يَلتفتوا إلى ما خُلقوا له من توحيد العبادة لله وتجريد المتابعة لرسوله بالإيمان الصادق والعمل الصالح، استحقّوا هذا التشبيه الشنيع الدالَّ على الذمّ الفظيع.

6 – قال الله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ، فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾ [المدّثر: 50- 51]ك.

يشبّه الله تعالى حالة المشركين في إعراضهم عن الحقّ الذي جاءهم به الرسول الكريم ﷺ بالحمُر الوحشيّة، التي تنفُر أشدَّ النُّفور من صائدٍ يَروم صيْدَها أو أسدٍ يُريد افتراسها، وفي تشبيههم بالحمير ذمٌّ شديدٌ لهم[(2)]، قال الزمخشري: "وفي تَشبيههم بالحُمُر مَذَمّةٌ ظاهرةٌ وتهجينٌ لحالهم بَيّنٌ، كما في قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾، وشهادةٌ عليهم بالبَلَه وقِلَّة العقل، ولا تَرى مِثلَ

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1580.

(2) – قال ابن فارس: "وفي كتاب الله جلّ ثناؤه: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ يقولون للرجل المذموم: إنّما هو حمار، وقال الشاعر:
دُفِعْتُ إِلَى شَيْخٍ بِجَنْبِ فِنَائِهِ *** هُوَ العَيْرُ [أي: الحمار] إِلاَّ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ". [الصاحبي في فقه اللغة: ص210].

نِفَار حمير الوحش واطِّرادِها في العدْو إذا رابها رائبٌ، ولذلك كان أكثرُ تشبيهات العرب في وصف الإبل وشدّةِ سَيْرِها بالحمُر وعدْوِها إذا وَرَدَتْ ماءً فأحسَّت عليه بِقَانِص"[1].

7 – قال الله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ**﴾ [المنافقون: 4]م.

لقد ذمّ الله المنافقين في آيات كثيرة بأساليبَ متعدِّدةٍ ومتنوّعة، من ذلك هذه الآيةُ الواردةُ في ذمّهم والتهجينِ من حالهم، حيث شبّههم الله ﷻ بالأخشاب الغليظة القاسية المسنَدةِ إلى الجُدُر؛ لعدم الانتفاع بها أو لتوقُّعِ حصولِ الضرر بسببها، فكذلك حالةُ المنافقين في غِلَظ أجسامهم ورِقّة أحلامهم وسُوء طَوِيّتهم وتوقُّع الأذى منهم، فبئس الحالةُ حالتُهم.

الفرع الثاني: المدح والذمّ بالتسوية:

أعني بالتسوية جعْلَ الشيءِ مساوياً لشيء آخرَ أو ادّعاءَ ذلك من غير أن يُعقَد تشبيهٌ صريح بينهما، مثالُ ذلك قولُ القائل يريد مدح أحدهم: سواءٌ عليهم قاتَلوك أو قاتَلوا الأسد، وفي الذمّ كقول القائل يذمّ أحدهم: لا فرق عندي بينك وبين الحمار، وهو أسلوب خفيُّ المأخذ قويّ التأثير، وقد وقع المدح والذمّ به في القرآن الكريم في مواضع منه، هي:

أوّلاً: المدح بالتسوية:

قال الله تعالى: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء: 80]م.

سوّى الله ﷻ في هذه الآية بين طاعته وطاعة رسوله محمّد ﷺ، فأخبر أنّ مَن أطاعه فقد أطاع الله، ومفهومه أنّ من عصاه فقد عصى الله ﷻ، وما ذاك إلا لأنّه ما يَنطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى[2]، وقد تضمّنت مدحاً عظيماً للنبيّ ﷺ بأنّه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشَرْعه، ولا يصدر عنه إلا الحقُّ إنْ في الرضا أو الغضب، وأنه بشرٌ لا كالبشر، بشرٌ يوحى إليه من ربه تجب طاعتُه مطلقاً على كلّ مَن بلغته دعوتُه، وعند التأمّل يظهر أنّ مناط المدح في عَقد هذه التسوية بين طاعته وطاعة رسوله ﷺ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح: 10]م، وكان فضل الله عليه عظيماً.

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص656.

(2) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج1 ص479.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً: الذمّ بالتسوية:

1 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ**﴾ [البقرة: 6]م.

إنّ هؤلاء الذين كفروا لا يؤمنون بما جاء به النبيّ ﷺ من الهدى ودين الحقّ مهما أقام عليهم من الحُجج، فقد وصلوا إلى حالة أصبح فيها إنذارهم وعدمه سِيَّان، وهي أسوأ حالة قد يَصل إليها إنسان، وبهذا ذمّهم الله تعالى حيث سوّى حالهم قبل الإنذار بحالهم بعده؛ لأنّهم صاروا بمثابة الأجسادِ التي لا أرواح لها.

2 – قال الله تعالى: ﴿**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ**﴾ [التوبة: 87]م.

قال ابن كثير: "يقول الله تعالى مُنكِراً وذامّاً للمُتخلّفين عن الجهاد الناكِلين عنه مع القدرة عليه ووُجودِ السَّعة والطَّوْل، واستأذنوا الرسول ﷺ في القعود وقالوا: ﴿**ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ**﴾، ورَضُوا لأنفسهم بالعار والقعودِ في البلد مع النساء – وهنّ الخوالف – بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحربُ كانوا أجبنَ الناس ...، كما قال الشاعر[1]:

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَاراً جَفَاءً وَغِلْظَةً *** وَفِي الحَرْبِ أَشْبَاهَ النِّسَاءِ الفَوَارِكِ؟"[2]

(**الخَوَالِف**) جمع خالفة، وهنّ النساء اللاتي تخلَّفْن في البيوت، واستئذانُ هؤلاء المتخلّفين عن الجهاد من غير عذر دليلٌ ظاهر على أنهم رضوا بأن يكونوا مع النساء في البيوت، فذمّهم الله حيث سوّاهم بالنساء وأنهم راضون بذلك، والمعنى: لقد رضوا بأن يكونوا في حكم النساء اللاتي ليس عليهنّ جهاد، وهذا ذمّ مِن أشدِّ ما يكون وَقْعاً على الرجل أن تُسوّيه بالمرأة في أمر يختصّ بها؛ لأنّ في ذلك سَلباً لرُجْلَته وإزراءً برجوليّته، ويزداد الذمّ حِدّةً إذا نُسب إلى الرضا بذلك، وهذا عين ما وقع لهؤلاء المنافقين المتخلّفين.

---

(1) – البيت لهند بنت عتبة، وهو من الطويل، ورُوي: أَمْثَالَ النِّسَاءِ العَوَارِك. [الكتاب لسيبويه: مج1 ص344، والمقتضب للمبرِّد: مج3 ص265]، ومعنى **الفوارك**: اللاتي يُبغضن أزواجَهنّ ويَطمحْن إلى الرجال ولَسْنَ بقاصرات الطرف على الأزواج، أمّا النساء **العوارك** فهنّ الحُيَّض؛ من العِرَاك وهو الحَيْض، قالت الخنساء:

لاَ نَوْمَ أَوْ تَغْسِلُوا عَاراً أَظَلَّكُمُ *** غَسْلَ العَوَارِكِ حَيْضاً بَعْدَ إِطْهَارِ. [ينظر لسان العرب لابن منظور: مج6 ص76، مادّة: عرك، ومج6 ص83، مادّة: فرك].

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2، ص: 873.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3 – قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: 113]م.

لما افترقت اليهود والنصارى إلى فِرَقٍ وطوائف شتّى، صارت كلُّ فِرقة تَنسِب نفسها إلى الحقّ وتَرمي أُختها بالضلال، فذمّهم الله ﷻ جميعاً وجَعَلهم – وهم أهلُ كتابٍ – في درجة واحدةٍ مع الأمّيّين مِن مُشركي العرب الذين ليس عندهم كتابٌ، جعلهم كذلك توبيخاً لهم على افتراقهم وضلالهم؛ بسبب تخلّيهم عن الكتاب الذي فيه الهدى والنور، فلمّا نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولم يرفعوا به رأساً عاقبهم الله بأن أذلّهم بعد عزٍّ ووضعهم بعد رِفعة وسوّاهم بالأمّيّين الذين لا علم عندهم، قال الزمخشري: "وهذا توبيخٌ عظيم لهم [أي: أهل الكتاب] حيث نَظَموا أنفسهم – مع علمهم – في سِلْك مَن لا يعلم"[1].

المطلب الثاني
المدح والذمّ بأسلوب التمثيل

التمثيل: هو أن يُريد المتكلّم معنى فلا يدلّ عليه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظٍ قريب من لفظه، وإنّما يأتي بلفظ هو أبعدُ من لفظ الإرداف يَصلُح أن يكون مثالاً للّفظ المذكور، وألحقوا بهذا الباب ما يُخرجه المتكلّم مخرج المثَل السائر[2]، قال الزمخشري: "والمثَل في أصل كلامهم بمعنى المِثْل وهو النَّظير، يُقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومَثِيلٌ، كشَبَهٍ وشِبْهٍ وشَبِيهٍ، ثم قيل للقول السائر المِمثَّل مَضربِه بمَوْرده: مَثَلٌ، ولم يَضربوا مَثَلاً ولا رأوه أهلاً للتيسير ولا جديراً بالتداوُل والقَبول إلا قولاً فيه غَرابةٌ من بعض الوجوه، ومِن ثَمّ حُوفظ عليه وحُمِيَ من التغيير"[3].

ويُؤتى بالأمثال لاشتمالها على الحكمة وإيضاحِ الحقّ، وهي مِن أحسن الطرق المَوضِّحة للعلوم المقرّبةِ للفُهوم؛ بتمثيلِ الأمور المعقولة بالأشياء المحسوسة، فيتّضحُ المعنى المطلوبُ بالمثَل المضروب، ولا تُضرب الأمثال إلا للأمور الكِبار والمطالب العظام، والناظرُ في أمثال القرآن الكريم يجدها على غايةٍ

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص179.
(2) – ينظر خزانة الأدب لابن حِجّة الحموي: مج1 ص299.
(3) – المصدر السابق: مج1 ص72.

من الاشتِمال على الحقّ مع البيان والوضوح، خاصّةً ما جاء منها في مَعرِض المدح والذمّ، فإنّها تزيد الممدوحَ رفعةً وإجلالاً والمذمومَ خِسَّةً وإذلالاً، وممّا ورد منها في القرآن الكريم:

أوّلاً: المدح بالتمثيل:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا**﴾ [الرعد: 31]م أو ك.

القرآن كلام الله ﷻ وهو صفة من صفاته، فكلُّ وصفٍ له فمحمول على المدح والتعظيم، وفي هذه الآية الكريمة يمدح الله ﷻ القرآن بطريق التمثيل أنه لو كان كتابٌ من الكتب سُيِّرت به الجبال وأزيلت عن أماكنها، أو قُطِّعت به الأرض جنّاتٍ وأنهاراً أو شُقِّقت وصُدِّعت، أو كُلِّم به الموتى، لكان ذاك الكتابُ هو هذا القرآنَ العظيم، قال ابن كثير: "يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمّد ﷺ ومُفضِّلاً له على سائر الكتب المنزَلة قبله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى**﴾ لكان هذا القرآنُ هو المتّصفَ بذلك دون غيره، أو بطريق الأَولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجنّ عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثْله ولا بسورة من مِثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له"[1]، ونحوُ هذه الآية في مدح القرآن وبيان فضله ما جاء في قولِه تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾ [الحشر: 21]م.

2 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ**﴾ [القصص: 26]ك.

إنّ قول تلك المرأة الصالحة لأبيها: ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ قولٌ جارٍ مجرى المثَل، وهو مُنطَبِقٌ أشدَّ المطابقة على نبيِّ الله موسى عليه السلام، وهو مدحٌ له بطريق غير مباشر، وفيه نوعُ خفاءٍ سببُه الحياء، قال الزمخشري: "كلامٌ حكيم جامعٌ لا يُزاد عليه؛ لأنّه إذا اجتمعت القوة والأمانة في القائم بأمرك فقد فَرَغ بالُك وتمّ مُرادُك، وقد استَغْنتْ بإرسال هذا الكلام الذي ساقته سِياقَ المثَل والحكمة أن تقول: استأجِرْه لقوّته وأمانته"[2]، وقال ابن المنيِّر: "وهو أيضاً أجملُ في مدح النساء للرجال من المدح الخاصّ وأبقى للحِشمة، وخصوصاً إن كانت فَهِمتْ أنَّ غَرَض

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص986.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص403

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبيها عليه السلام أن يُزوّجها منه"[1].

3 – قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: 29]م.

سبق[2]ذكرُ مثلهم الذي في التوراة، أي: صفتهم[3]التي وصفهم الله بها، وأمّا في الإنجيل فقد مثّلهم الله تعالى بأمرٍ محسوس يَراه كلّ أحد، لقد جعلهم كزرعٍ أخرج شطْأهُ وفِراخَه، فآزره وقوّاه وأعانه، فاستغلظ ذلك الزرع وقَوِي، فاستقام على سوقه حتى صار يُعجِبُ زُرّاعه، فكذلك الصحابة رضي الله عنهم، فقد بَدؤوا في قِلّة وضعف ثم كبُروا وقَوُوا على أحسن الوجوه حتى صاروا كالزرع في كثرة نفعهم للخلق وشِدّةِ احتِياج الناس إليهم، وهم يُؤازِر بعضهم بعضاً، فإذا اشتكى واحدٌ منهم اشتَكَوا لذلك جميعُهم، فتعاونوا على إقامة دين الله والدعوة إليه، وصاروا أقوياءَ أعزّاءَ رُحماءَ فيما بينهم حتى إنهم من اجتماعهم وشِدّتهم في دينهم لَيَغيظون الكفّار ومَن على شاكِلتهم من الروافض الأشرار[4]. فهذه الآية قد تضمّنت أحسنَ المدح وأجمعَه لصحابة رسول الله ﷺ.

ثانياً: الذمّ بالتمثيل:

وممّا ورد في القرآن الكريم من الذمّ بأسلوب التمثيل:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]م.

هذا مَثَلُ سَوْءٍ ضربه الله تعالى للذين كفروا، حيث مثّلهم حين دُعاء الرسول لهم إلى الإيمان بالأنعام السارحة إذا دعاها راعيها ونَعِق بها إلى ما يُرشدها، وهي لا تفقه ما يقول ولا تفهم، وإنّما تسمع صوته فقط[5]، والأنعام أفضل حالاً منهم فهي تستجيب للناعق بها وإن لم تفقه كلامه

---

(1) – ابن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف، مج3 ص403.

(2) – ينظر الصفحة (78) من هذا البحث، ولم أذكره هنا لأنّه من المدح الصريح.

(3) – جاء في مختار الصِّحاح: ومَثَلُ الشيء أيضاً صفته. [الرازي: مختار الصِّحاح، ص614، مادّة: مثل].

(4) – ينظر تفسير ابن كثير: مج4 ص1749، وتفسير السعدي: ص795.

(5) – المصدر نفسه: مج1 ص191، وذكر بأنه أرجحُ الأقوال في تفسير هذه الآية، وأنه مأثور عن ابن عبّاس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس، وذكر أنّ ابن جرير رجّح غير هذا القول، وذكره.

بخلاف هؤلاء فهم لا يستجيبون لداعيهم إلى الخير وإن فهموا خطابه.

2 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ**﴾ [آل عمران: 175]م.

يُخوّف إبليسُ اللعين الصحابةَ الكرام ﷺ بأولياءه أو من أوليائه من كفّار قريش ويوهمهم أنّهم ذَوُو بأس وذوو شدّة[1]، لكن ذكر بعض المفسّرين[2]أنّه قيل في قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكُمْ الشَّيْطَانُ**﴾ إنّ المراد: هذا الذي يخوّفكم بجَمْع الكفّار شيطانٌ من شياطين الإنس، إمّا نُعَيم ابن مسعود أو غيره، وعلى هذا التفسير يكون تسمية هذا القائل شيطاناً من باب التمثيل؛ لأنّه مَثَلٌ في القبح والشرّ، كما أنّ الحمار مَثَل في الجهل والبلادة، والكلب مَثل في الخسّة والنجاسة، ويكون قد عدَل عن اللفظ الخاصّ، وهو: الشرّير أو القبيح إلى لفظ التمثيل وهو: الشيطان، ونحوُ هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ**﴾، أي: أحبار اليهود ورؤوس المشركين في الشرّ[3]والغرض هو الاختصارُ لبلاغة الإيجاز.

3 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ**﴾ [الأنفال: 22]م.

إذا فُسّر **(الدوابّ)** في هذه الآية بالبهائم لا كلِّ ما يدُبّ على الأرض[4]، فإنّ التعبير عن أولئك الكفّار بالدوابّ تمثيل، وهو ضربٌ من الاستعارة والتشبيه[5]، حيث جعلهم من جنس البهائم والدوابّ بل شرّها، فلم يقل: إنّ شرّ الناس أو شرّ الأشرار بل عدل إلى لفظ التمثيل، وذلك أبلغ في ذمّهم وإهانتهم؛ وذلك لاشْتِماله – على اختصاره – على كثير من معاني الذمّ والتعيير ما لا يوجد مع اللفظ الخاص، وإذا كان عدمُ فهمِ الخطاب وعدمُ النطقِ – اللذان هما طبعٌ في الدوابّ – قد يَنسِبها إلى الشرارة، فإنّ حصول تلك الصفتين ممّن جُبل على عكسهما يَنسِبه حتماً إلى أشرّ الشرارة.

---

(1) – ينظر تفسير ابن كثير: مج1 ص390.

(2) – ينظر تفسير القرطبي: مج4 ص (282– 283)، وتفسير الجلالين، ص61.

(3) – المصدر السابق: مج1 ص55.

(4) – قال الكفوي: "الدابّة تقع على كل ماشٍ في الأرض عامّة وعلى الخيل والبغال والحمير خاصّة ... ألا ترى أنّ هذا الاسم لا يطلق على الآدميّ مع أنه يدُبّ على وجه الأرض؟". [الكفوي: الكلّيات، ص448].

(5) – ينظر كتاب العمدة لابن رشيق: مج1 ص280، وخزانة الأدب لابن حجّة الحمويّ: مج1 ص300.

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ [الأعراف: 176]ك.

أكثر المفسّرين على أنّ هذه الآية نزلت في بَلْعَمِ بنِ بَاعُوراءَ، وهو عالمٌ من بني إسرائيل أخلد إلى الأرض واتّبع هواه، خلع لباس البرّ والتقوى ولبس لباس الإثم والهوى، جرى وراء الدنيا تاركاً مولاه لهفاً بتحصيل متاع دنياه، فذمّه الله ذمّاً شديداً بأنْ شبّهه بالكلب قد اندلع لسانُه، لاهثاً في جميع أحواله حَمَلْتَ عليه أو لم تحمل، وليس غيرُ الكلب من الحيوان يفعل ذلك؛ فذمّه الله بهذا الذمّ الوخيم جزاءً على تركه العمل بالعلم وإيثارِه الفاني على الباقي، حيث استوى معه الإنذار وعدمُه، تماماً كالكلب يلهث قد استوى معه الحمْلُ عليه وتركُه، قال الزمخشري: "فصِفتُه التي هي مثَلٌ في الخِسَّة والضَّعَة كصفة الكلب في أخسِّ أحواله وأذلِّها، وهي حالُ دوام اللهث به...، ولكنّه أخلد إلى الأرض فحطَطْناه ووَضعْنا منزلتَه، فوَضَعَ قولَه: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ**﴾ مَوضِعَ: حطَطْناهُ أَبْلَغَ حَطٍّ؛ لأنّ تمثيلَه بالكلب في أخسّ أحواله وأذلّها في معنى ذلك...، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائمَ الذِلَّة لاهثاً في الحالتين"(1)، وقال السيوطي: "وجُمْلتا الشرط حال، أي: لاهثاً ذليلاً، والقصد التشبيهُ في الوضع والخِسَّة؛ بقرينة الفاء المشعِرة بترتيب ما بعدها على ما قبلها من الميْل إلى الدنيا واتِّباع الهوى."(2).

5 – قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ**﴾ [الحج: 11]ك.

هذا مثَلٌ في ذمّ أهل الضلالة والشقاوة، حيث كان الواحد منهم إذا دخل في الإسلام وأصاب فيه خيراً قال: هذا دينٌ صالح واطمأن قلبُه، وإن لم يُصِب خيراً وربّما أصابه فيه شرّ قال: هذا دينُ سُوء وانقلب على عقبيه(3)، وهذه حالةُ مَن ليس في قلبه إيمانٌ، أو هو ضعيف الإيمان ولما تخالطْ بشاشتُه قلبَه، قال الزمخشري: "على طَرَفٍ من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثَلٌ لكونهم على قلقٍ واضطرابٍ في دينهم لا على سكون وطُمأْنينة، كالذي يكون على طرفٍ من العَسْكر،

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص178.

(2) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص142.

(3) – ينظر تفسير ابن كثير: مج3 ص1241.

فإن أحسَّ بظَفَر وغنيمة قَرَّ واطمأنَّ وإلا فرَّ وطار على وجهه"[1].

6 – قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ**﴾ [الحج: 73]ك.

ضرب الله هذا المثَل ليُنبِّه على حقارة الأصنام وقُبحِها وسخافةِ عقول عُبّادها وخِفّتِها، قال الزمخشري: "كأنّه قال: مستحيلٌ أن يخلُقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعُهم جميعاً لخلقه وتعاونُهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستِرْكاكِ عقولهم، والشهادةِ على أنّ الشيطان قد خَزَمَهم[2] بخزائمه، حيث وُصفوا بالإلهيّة التي تقتضي الاقتدارَ على المقْدُورات كلِّها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها"[3]، وأيُّ جهلٍ أعظمُ من جهل مَن سوَّى بين الخالق والمخلوق، وبين العاجزِ الضعيفِ والكاملِ القويّ ؟!.

7 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ**﴾ [لقمان: 19]ك.

أوصى لقمان الحكيم – وشدّد في الوصيّة – ابنه البارّ بأن يَغُضَّ من صوته، فلا يُبالغَ في الكلام ولا يرفع صوته فيما لا فائدة فيه حتى لا يتشبّه ببعض الحيوانات، قال ابن كثير: "(**إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ**) قال مجاهد وغيرُ واحد: إنّ أقبحَ الأصوات لصوتُ الحمير. اهـ، أي: غايةُ مَن رفعَ صوتَه أنّه يُشبَّه بالحمير في علوّه ورفعه"[4]، دلّت هذه الجملة المشتملة على الحكمة على ذمّ صوت الحمار، والمراد: ذمّ مَن أشْبَهَ الحمارَ حال نُهاقه حيث رفع صوته فيما لا فائدة فيه ولا حاجة، لقد خرجت هذه العبارة مخرج المثل السائر الذي يُضرب عند قيام مورده، قال الزمخشري: "الحمار مَثَلٌ في الذمّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقه، ومِن استفحاشهم لذِكْره مجرّداً وتَفاديهم من اسمه أنهم يَكُفُّون عنه ويَرغَبون عن التصريح به فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يُكْنى عن الأشياء المستقذَرة، وقد عُدّ في مَساوئ الآداب أن يجري ذكرُ الحمار في مجلس قومٍ مِن أُولي المروءة، ومِن العرب مَن لا يَركب الحمار استِنكافاً وإن بَلغتْ منه الرَّجْلَةُ[5]"[6]، وقال ابن كثير: "وهذا التشبيه في هذا [أي: رفع

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص149.

(2) – مِن **خَزَمَ** البعيرَ بالخِزامة، وهي حَلْقة من شَعْرٍ تُجعلُ في وَتْرَة أنفه يُشدُّ فيها الزّمام. [الرّازي: مختار الصِّحاح، ص174].

(3) – المصدر السابق: مج3 ص171.

(4) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1448.

(5) – ذكر ابن منظور أنّ **الرَّجْلَةَ** والرِّجْلَةَ شِدَّةُ المشْي، حكاها أبو زيد. [لسان العرب: مج6 ص365، مادّة: رجل].

(6) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص498.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأصوات فيما لا فائدة فيه] بالحمير يقتضي تحريمَه وذمَّه غايةَ الذمّ؛ لأنّ رسول الله ﷺ قال: ((**لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**)) الحديث[1]"[2].

8 – قال الله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الحشر: 16]م.

مثَّل الله حالَ المنافقين وقد طمَّعوا إخوانَهم من أهل الكتاب في نُصْرتهم وغرُّوهم بمُوالاتهم على المؤمنين، مثّلهم بحال الشيطان قد غرَّ الإنسان وزيَّن له الكفرَ والفسوق والعصيان، حتى إذا اغترّ وكفر وحصل له الشقاء والضرر، لم ينفعه ذاك الشيطان اللعين بل تبرّأ منه وقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين، فهذا التمثيل فيه أعظمُ الذمّ للمنافقين والتقبيحِ لأخلاقهم والتشنيعِ عليهم بسُوء أعمالهم؛ إذ قد تقرّر أنه لا أذمَّ حالاً ولا أقبحَ خُلُقاً ولا أسوأَ عملاً من الشيطان الرجيم.

9 – قال الله تعالى: ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا**﴾ [الجمعة: 5]م.

إنّ الذين حُمِّلوا التوراة وكلِّفوا العملَ بها ثم لم يَرعَوها حقَّ رِعايتها مثَلُهم كمثل الحمار يحمل الكُتُب العظيمة المشتمِلةَ على العلوم النافعة والمتنوِّعة، ثم لا ينتفع منها بشيء[3]، وقد تقدَّم أنَّ الحمار مثلٌ في الذمّ البليغ، فتمثيلهم به بجامع عدم الانتفاع بالعلم ذمٌّ عظيم وإذلالٌ وخيم وإهانةٌ ليس بعدها إهانة، فبئس المثَلُ مَثَلُهم.

(1) – أخرجه البخاري في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحلّ لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، مج2 ج3 ص142.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1448.

(3) – قال الراغب الأصفهاني: "أي: هم في جهلهم بمضمون حقائق التوراة كالحمار في جهله بما على ظهره من الأسفار" [المفردات في غريب القرآن: ص462، مادّة: مثل].

المبحث الرابع

الذمّ بأسلوب الأمر والدعاء في القرآن الكريم

الأمرُ: هو استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء، والأصل فيه الوجوب إن كان مجرّداً عن القرائن[1]، فإن كان على غير وجه الاستعلاء بأن كان من أدنى إلى أعلى فهو دعاء، وقد يخرج كلٌّ من الأمر والدعاء عن أصل دلالته إلى المدح والذمّ أو ما يُلحق بهما، وذلك بالقرائن ودلالة السياق، وهذا هو محلّ البحث والدراسة، وبالنظر في القرآن الكريم نجد أنّ الأمر والدعاء قد خرجا إلى معنى الذمّ دون المدح، ولعلّ السببَ في عدم وُرود المدح بأسلوب الأمر أنّه ليس مِن جملة الآداب الحسنة واللطائف المستحسنة أن يُخاطَب أهل المدائح بالأمر بكذا وكذا، وإنما يخرج الخطاب مخرجَ الاستفهام إعظاماً للممدوح وإجلالاً له عن أن يكون مأموراً[2]، ولعلّ هذا هو السرّ في كثرة حذف حرف النداء من: (رب)؛ وذلك من أجل تنزيه الرب – سبحانه – وتعظيمه؛ لأنّ في النداء طرفاً من الأمر[3].

---

(1) – ابن قدامة المقدسي: موفّق الدين عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجُنّة المناظر، ص189، وينظر شرح البدخشي، مج2 ص (18– 19)، ومفتاح العلوم للسكّاكي: ص (304، 318).

(2) – فتحي فريد: مدخل إلى دراسة البلاغة، ص (76– 77).

(3) – ينظر الكلّيات للكفوي: ص466.

المطلب الأوّل

الذمّ بأسلوب الأمر

1 – قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 23]م.

تحدّى الله ﷻ في هذه الآية فُصحاءَ العرب وبُلغاءَهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مِثْل القرآن، وأمعن في التحدّي فطلب منهم أن يستعينوا بمن شاؤوا ثم أخبر أنهم لن يَقدروا على ذلك مهما فعلوا، وبتفسير (**شُهَدَاءَكُمْ**) في الآية بالشركاء والآلهة[1]المنحوتة من الأحجار فإنّ أمْرَهم بدعوتها للمشاركة في التحدّي لا يُراد به حقيقةُ الأمر، وإنّما هو تهكّمٌ بهم وذمٌّ لهم، قال الزمخشري: **"وفي أمرهم أن يَستظهروا بالجماد الذي لا ينطق في معارضة القرآن بفصاحته غايةٌ في التهكّم بهم"**[2].

2 – قال الله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: 65]م، [الأعراف: 166]ك.

يُحتمَل أن يكون الأمر في هذه الآية للتسخير[3]، أي: صِيروا قِرَدةً خاسئين، فيصيرون كما أراد، وقد رجّح هذا المعنى ابن كثير في تفسيره واستشهد له بأقوال السلف، ونقل عن مجاهد – رحمه الله – أنه قال: مُسِخت قلوبهم ولم يُمسَخوا قردة. اهـ ثم قال: **"وإنما هو مَثَل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ الآية"**[4]، وعليه فالمسخ الواقع عليهم إمّا أن يكون صوريّا أو معنوياً، فعلى الثاني يكون الأمرُ (**كُونُوا**) للإهانة والإذلال، ويكون المعنى: قد بلغتْ بكم الخِسّة والذِلّة حتى لم يبقَ سوى أن تكونوا قردةً خاسئين، فكونوها إذاً.

3 – قال الله تعالى: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: 50]ك.

قال عبد العزيز أبو سريع: **"إنّ العلماء قد مثّلوا للإهانة أيضاً بما يُقصد به قِلّةُ المبالاة، كقوله**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – قال الفرّاء: "يريد آلهتكم". [الفرّاء: أبو زكريّاء يحيى بن زياد، معاني القرآن، مج1 ص19].

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص100.

(3) – ابن قدامة المقدسي: روضة الناظر وجُنّة المناظر، ص191، نهاية السُّول للإسنوي، مج2 ص248.

(4) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص104.

تعالى: ﴿**قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً**﴾، وهذا ليس من باب التسخير؛ لأنه لا يُقصد صيرورتهم كذلك"[1]، والذي يظهر أنّ الاستشهاد بهذه الآية على أنّ الأمر فيها للإهانة وقلّة المبالاة فيه بُعد؛ لأنه لم يُراعَ السياق، وبالرجوع إلى الآية في سياقها الذي وردت فيه نجد المعنى أنّ الكفّار قد أنكروا وتعجّبوا واستهزؤوا من إخبار الرسول ﷺ لهم أنهم إذا ماتوا وصاروا عظاماً ورُفاتاً أنهم سيبعثون خلقاً جديداً، وفي ذلك استعظامٌ على الله ﷻ أن يَقدِر على إعادتهم مرّةً أخرى، فأجابهم الله ﷻ بأنّ الإعادة أمرٌ هيّنٌ، بل هو أهون عليه من خلقهم أوّل مَرّة لو كانوا يعقلون، وليس عند الله هيّنٌ وأهون وإنما هو تنزُّلٌ في المحاجَّة، وليُبيِّن لهم أنّ الأمر كذلك قال لهم لو قدَرتم أن تكونوا حجارة أو حديداً – وهما مَضرِب المثل في القوّة والصلابة – أو خلقاً ممّا يكبر في صدوركم – وفي هذا منتهى الإفحام والتبكيت مع بيان القدرة والاستغناء – فلن يُعجِز اللهَ ذلك أن يعيدكم مرّةً أخرى[2]، أهم أشدُّ خلْقاً أم السماء؟ ولكنّهم قومٌ يجهلون.

4 – قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ**﴾ [الأنبياء: 12- 13]ك.

قال ابن كثير: "هذا تهكّمٌ بهم نَزْراً، أي: قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النِّعمة والسرور والمعيشةِ والمساكن الطيّبة، قال قتادة: استهزاءٌ بهم، ﴿**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾ أي: عمّا كنتم فيه من أداء شكر النِّعَم"[3]. لقد أمَرَ الله الفارّين من العذاب من أهل القرى الظالمة أن يرجعوا إلى مساكنهم المزخرفة، لكن ليس الأمر على حقيقته إنما هو أمر تهكّم وتوبيخ، والمعنى: ارجعوا إلى مساكنكم فقد كنتم تُؤثرونها وتطمئنّون إليها، لماذا أنتم هاربون منها؟ ما بالكم اليوم تزهدون فيها وقد كنتم قبلُ من أشدّ الناس تشبُّثاً بها وحرصاً عليها؟ هل آمنتم حقّاً بالعذاب ولم يَعُد لكم فيه ارتياب؟ تالله إنها لسخرية لاذعة ووَبْخة موجعة.

إنّ الأمر في هذه الآية لا يراد به أصل معناه، وإنما يراد به التهكّم والتوبيخ، قال الزمخشري: "تهكّمٌ بهم وتوبيخ، أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم، لعلّكم تُسألون غداً عمّا جرى عليكم ونزل بأحوالكم ومساكنكم فتُجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم

(1) – عبد العزيز أبو سريع: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، ص52، ينظر شرح البدخشي: مج2 ص18.

(2) – ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: مج15 ص274 .

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص (1210– 1211).

وترتَّبوا في مراتبكم حتى يسألكم عبيدُكم وحَشَمكم...، ويقولون لكم بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟...، أو يسأُلكم الوافدون عليكم والطماع[1]ويستمطرون سحائب أَكُفِّكم، ويَمْتَرون أخلاف معروفكم وأياديكم، إمّا لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلبَ الثناء، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكّماً إلى تهكّم وتوبيخاً إلى توبيخ"[2].

5 – قال الله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ**﴾ [الحجّ: 15]ك.

كان الكفّار يظنّون أنّ الله ﷻ ليس ناصراً عبدَه محمّداً ﷺ، فرَدَّ الله عليهم ظَنَّهم وأبطل كذبهم وتهكّم بهم؛ ليؤكِّد لهم أنّ نَصْره لنبيه كائنٌ لا محالة، فإذا كان نصرُه لنبيّه يَغيظهم فليَمْدُد أحدُهم حبلاً إلى سقْف بيته ثم ليختنقْ به لعلّه يجد الشفاء التامَّ من غيظه، فكلٌّ من هذه الأوامر (**لِيَمْدُدْ**) و(**لِيَقْطَعْ**) و(**لِيَنْظُرْ**) لا يُراد بها حقيقتها ولكن يراد بها الاستهزاء والسخرية، وبهذا التأويل قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره، فقد قال ابن كثير: "وقول ابن عباس رضي الله عنه وأصحابِه أَوْلى[3]وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكّم، فإنّ المعنى: من كان يظنّ أنّ الله ليس بناصر محمّداً ﷺ وكتابه ودينَه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظَه، فإنّ الله ناصرُه لا محالة، قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ الآية"[4].

6 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون: 108]ك.

هذا الأمر من الله ﷻ من أعظم ما يسمعه المجرمون في الذمّ والإبعاد والتوبيخ والتخييب والتأييس والإهانة والتبكيت، والمعنى: امكُثوا فيها صاغرين مهانين أذلاّء[5].

7 – قال الله تعالى: ﴿**وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ**﴾ [القصص: 64]ك.

---

(1) – لم أعثر على هذا الجمع لـ: (**طامِع**) فيما وقفت عليه من مصادر اللغة، وإنّما يُقال: رجلٌ طامِعٌ وطَمُعٌ وطَمِعٌ مِن قومٍ طمِعِين وطَمَاعَى وأَطْماعٍ وطُمَعاء. [لسان العرب: مج5 ص207، مادّة: طمع]، ولعلّه خطأ مطبعيّ.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص106.

(3) – والمعنى الآخر: من كان يظنّ أنّ الله لا ينصر رسوله وأنّ دينه سيضمحلّ فإنّ النصر من الله ينزل من السماء، فليمدد ذلك الظانّ بحبل إلى السماء وليرْقَ إليها ثم ليقطع النصر النازل على النبي ﷺ من السماء. [تفسير السعدي: ص535].

(4) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1242.

(5) – المصدر نفسه: مج3 ص1283، وينظر تفسير السعدي: ص560.

أمر الله ﷻ الكفّار على سبيل الذمّ والتوبيخ أن يدعوا شركاءهم وهو يعلم أنهم لن يستجيبوا لهم بشيء، أمرهم بذلك ليوبّخهم على ظلمهم لأنفسهم وجهلهم بعظمة ربّهم؛ إذ سوَّوا تلك الأحجار والأخشاب برب الأرباب، فأمرهم أن يدعوهم كما كانوا يدعونهم من قبل، وهم اليوم أحوج ما يكون إليهم، لقد أمرهم لتظهر لهم الحقيقة التي طالما كانوا يتكلّفون إنكارها ويتجشّمون إبطالها، أمرهم ليعلو وجوههم السواد حين لا تستجيب لهم الأنداد، ويتقطّع الفؤاد بالحسرة على التفريط زمن الإمكان في جنب الملك الديّان، قال الزمخشري: **"**حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء**"**[1].

لكن قد يقال: لو كان الأمر هنا للتوبيخ لما دعوا شركاءكم تنفيذاً للأمر؟؛ لأنهم لو فَهِموا التوبيخَ لَما دعوهم، والجواب أن يقال: لما تعلَّقت قلوب هؤلاء المشركين بآلهتهم وظنّوا أنها ربّما تنفع وتضر، وهم في ذلك الوقت الحرِج يبحثون عن شيء يتشبَّثون به، كما يتشبَّث الغريق بالقشّة ونحوها، فلمّا أُمِروا بدعائهم لم يتردَّدوا في ذلك، لكن سرعان ما أصيبوا بخيبة الأمل، حيث خذلتهم معبوداتهم، فعلموا أنّ الحقّ لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون.

8 – قال الله تعالى: ﴿**فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ**﴾ [ص: 10]ك

تهكّم الله ﷻ بالكفّار حين أمرهم بأن يرتقوا في الأسباب الموصلة إلى السماء، فيأتوا بالوحي فيخصّوا به مَن شاؤوا ما داموا يرفضون أن يكون الموحى إليه محمّداً ﷺ، قال الزمخشري: **"**ثم تهكّم بهم غاية التهكّم فقال: وإن كانوا يَصلحون لتدبير الخلائق، والتصرّف في قسمة الرحمة...، ﴿**فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأَسْبَابِ**﴾ فليصعدوا في المعارج والطُرق...، ويُنزلوا الوحي إلى من يختارون ويَستصْوِبون**"**[2].

9 – قال الله تعالى: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ**﴾ [الدُّخان: 49]ك.

إنّ الأمر بذوق العذاب في هذه الآية وفي غيرها لِمَن يَذوقه فعلاً ويعالج غُصَصَه ويُكابِد آلامه غيرُ مراد؛ إذ هو تحصيل حاصل، ولكنّ المراد هو الإهانة والإذلال.

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص427.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص (74– 75).

المطلب الثاني

إجراء الدعاء مجرى الذمّ والتوبيخ

أوّلاً: الدعاء بـ: (غير مُسمَع):

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا **وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ**﴾ [النساء: 46]م.

خاطب اليهودُ – قبّحهم الله – رسول الله ﷺ بأقبح خطاب وأبعدِه عن الأدب، فقالوا: ﴿**وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ**﴾، ومعناه: لا سمعت، وهو دعاءٌ عليه بأنْ لا تُسمَع ولا تُقبَل دعوتُه، غير أنهم بدعائهم القبيح هذا يُريدون ذمّه وتعييره؛ لأنهم يعلمون – في أنفسهم – أنّ دعاءهم عليه غير مستجاب بل دعاؤه هو المستجاب، وما حديث المباهلة عنهم ببعيد، وذكر الزمخشري بأنّ تلك الدعوة تحتمِل معنيين، أحدهما الذمّ والآخر المدح، أمّا الذمّ فيُفهم بتقدير عدمِ إجابة دعوته، أو لا سمعتَ فصرتَ أصمَّ لا تسمع، أو غير مُسمَع جواباً يوافقك، وأمّا المدح – وهو غير مُراد بدلالة السياق – فبتقدير: اسمع غير مُسمَعٍ مكروهاً، من قولك: أَسْمَعَ فلانٌ فلاناً إذا سَبَّهُ[1]، وقال ابن كثير: "وهذا استهزاءٌ منهم واستهتار عليهم لعنة الله"[2].

ثانياً: الدعاء باللّعن:

معنى اللَّعْن الإبعادُ والطرد من الخير[3]، والتلاعُن التشاتم والتماجن[4]، وقال الأصفهاني: "اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السَّخَط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاعٌ مِن قَبول رحمته وتوفيقه، ومِن الإنسان دعاءٌ على غيره"[5]، لكن ما معنى الدعاء من الله؟ إنّ معناه الذمّ والتحقير والتهديد؛ لظهور أنّ حقيقة الدعاء لا تُناسب الإلهيّة؛ لأنّ الله هو الذي يتوجّه إليه الناس بالدعاء[6]، واللعن في القرآن كثير لكنّ المقصود الدعاءُ به، وقد تتبّعته في القرآن الكريم فوجدته في بضعةَ عشر موضعاً منه، وهي:

1 – قال الله تعالى: ﴿**بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: 88]م.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص517.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص460.

(3) – الرّازي: مختار الصِّحاح، ص599، مادّة: لعن.

(4) – الفيروز آبادي: مجد الدين محمّد، القاموس المحيط، مج4 ص267، مادّة: لعن.

(5) – الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، ص451، مادّة: لعن.

(6) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج30 ص120.

2 – قال الله تعالى: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 89]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161- 162]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا، لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 117- 118]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: 64]م.

6 – قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: 18]ك.

8 – قال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: 25]م أو ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 34- 35]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: 57]م.

11 – قال الله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: 61]م.

12 – قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: 78]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: 52]ك.

ثالثاً: الدعاء بالقتل:

الدعاء بالقتل كالدعاء باللعن، وهو على الذمّ[1] والتحقير والتهديد، كما في قوله تعالى: ﴿**قُتِلَ الخَرَّاصُونَ**﴾[2]، وممّا وقع منه في القرآن الكريم:

1 – قال الله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30]م.

---

(1) – وقد يُقال ذلك عند المدح، فقد ذكر ابن فارس أنّ مِن سنن العرب التي لا توجد في غير لغتهم مخالفةُ ظاهر اللفظ معناه، كقولهم عند المدح: قاتله الله ما أشعره! فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه. [الصاحبي في فقه اللغة: ص205، والمزهر للسيوطي: مج1 ص331].

(2) – ينظر الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية للدكتور: عبد العزيز أبو سريع: ص109.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هم اليهود والنصارى، نسبوا لله الولد – سبحانه – فعيّرهم الله بسبب ذلك، روى ابن كثير عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿**قَاتَلَهُمْ اللهُ**﴾ أنّه قال: لعنهم الله[1].

2 – قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ**﴾ [الذاريات: 10]ك.

قال الزمخشري: "﴿**قُتِلَ الخَرَّاصُونَ**﴾: دعاءٌ عليهم، كقوله تعالى ﴿**قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾، وأصله الدعاءُ بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعنٍ وتقبيح"[2].

3 – قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ**﴾ [البروج: 4]ك، أي: لُعن[3].

4 – قال الله تعالى: ﴿**فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ [المدّثر: 19- 20]ك.

هذا الدعاء بالقتل هو في حقّ الوليد بن المغيرة المعاندِ للحقّ المبارزِ لله تعالى، الذي فكّر في نفسه وقدّر ما فكّر فيه من القول في القرآن بما يقدح فيه، فانتهى إلى قولٍ منكر، فقال: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ**﴾، فدُعي عليه بسبب ذلك بالقتل، والمرادُ ذمُّه وتوبيخه؛ لأنّ سياق الآيات في ذمّه وتعييره، قال السعدي: "فذمّه الله ذمّاً لم يذمّه غيره، وهذا جزاءُ كلِّ من عاند الحقَّ ونابذه"[4].

5 – قال الله تعالى: ﴿**قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ**﴾ [عبس: 17]ك.

قال الزمخشري: "دعاءٌ عليهم، وهي من أشنع دعواتهم؛ لأنّ القتل قصارى شدائدِ الدنيا وفظائعها...، ولا ترى أسلوباً أغلظَ منه ولا أخشن مسّاً ولا أدلَّ على سَخَطٍ ولا أبعدَ شَوْطاً في المذَمّة مع تقارب طرفيه ولا أجمعَ للأئمة على قِصر مَتْنه"[5].

رابعاً: الدعاء بالتّباب:

قال الله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد: 1]ك.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص846.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص397.

(3) – جلال الدين المحلّي: تفسير الجلالين، ص507.

(4) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص896.

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص703.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(تَبَّ) الأولى دُعاء والثانيةُ خبرٌ عنه، والمعنى: خَسرتْ وخابت وضلّ عمله وسعيه وتحقّقت خسارتُه وهلاكُه[1]، وإنما وقع التباب على اليدين؛ لأنهما بهما تُزاول أكثر الأعمال، وجملةُ ﴿**تَبَّتْ يَدَا**﴾ دعاءٌ جارٍ مجرى الذمّ – رغم تحقُّقِ وُقوعه –، وذلك أنّ أبا لهب كان قد دعا على النبيّ ﷺ بالهلاك والخسار على وجه السبّ والشتم والتعيير له، فقال الهالك الخاسر: تبّاً لك[2] سائرَ اليوم ألهذا جمعتنا؟[3]، فردّ الله عليه سِبابه انتصاراً لنبيّه الكريم ﷺ، كأنه قال: بل أنت فتربت يداك، والسورة كلها في الذمّ والتوبيخ والوعيد لأبي لهب وامرأته، قال ابن عاشور: "افتتاح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت لتوبيخٍ ووعيد، فذلك براعةُ استهلالٍ مثل ما تُفتتح أشعار الهجاء بما يُؤذِن بالذمّ والشتم"[4]، وقال السعدي: " ...، فلا فيه دينٌ ولا حميّةٌ للقرابة – قبحه الله – فذمّه الله بهذا الذمّ العظيم الذي هو خِزيٌ عليه إلى يوم القيامة"[5].

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص2088.

(2) – قال ابن منظور: "**وتبّاً** له على الدعاء، نُصب لأنّه مصدرٌ محمول على فِعله، كما تقول: سُقياً لفلان، أي: سُقِيَ فلانٌ سَقْياً". [لسان العرب: مج1 ص218، مادّة: تبب].

(3) – أخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما، مج1 ص281.

(4) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج30 ص600.

(5) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص937.

المبحث الخامس

المدح والذمّ بالتعريض والإشارة في القرآن الكريم

التعريض ضدُّ التصريح، يقال: عَرَّضَ لفلانٍ وبفلان إذا قال قولاً وهو يَعْنيه[1]، وقال الأصمعي (ت 216هـ): "عرّض لي فلانٌ تَعْريضاً إذا رَحْرَحَ[2]بالشيء ولم يُبيِّن"[3]، وذكر ابن عاشور بأنّ (عرّض) مشتقّ من العُرض، وهو الجانب، فكأنّ المتكلِّم يحيد بكلامه من جادّة المعنى إلى جانب، فهو: أن يريد المتكلّم من كلامه شيئاً غير المدلول عليه بالتركيب وضعاً لمناسبة بين مدلول الكلام وبين الشيء المقصود، مع قرينة على إرادة المعنى التعريضيّ[4]، وأمّا الإشارة فهي قريبة من التعريض، وهي ما يُقتبَس من اللفظ أو التركيب من المعنى من دون أن تدلّ عليه صيغة معيَّنة[5].

وقد أكثر القرآن الكريم من استخدام هذا الأسلوب في المدح والذمّ؛ لما فيه من الحسن وقوّة التأثير مع الخفاء الدالّ على التفخيم والمبالغة.

المطلب الأوّل

المدح والذمّ بالتعريض

أوّلاً: المدح بالتعريض:

1 - قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ**﴾ [البقرة :201]م.

في هذه الآية تعريضٌ بمدح الصحابة ﷺ الذين خالفوا أولئك الأعراب الذين خسّت همّتهم فاقتصروا في دعائهم على الدنيا، لكنّ المؤمنين حقّاً عَلَت همّتهم فكانوا يسألون الله من خَيري الدنيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – الرازي: مختار الصِّحاح، ص425، مادّة: عرض.

(2) – يُقال: إناءٌ **رَحْرَاحٌ**، أي: قريبُ القَعْر مع سَعةٍ فيه، وقال الأصمعي: "**رَحْرَحَ** الرجُلُ إذا لم يُبالِغ قَعرَ ما يُريد". [ابن منظور: لسان العرب، مج2 ص227، مادّة: رحح]، أي: توسّع في الكلام تحاشياً من التصريح، ولم يتّجه إلى المراد مباشرة.

(3) – المصدر نفسه: مج ص228، مادّة: رحح.

(4) – ابن عاشور: محمّد الطاهر، التحرير والتنوير، ج2 ص (450- 451).

(5) – ابن قدامة المقدسي: موفّق الدين عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجُنَّةُ المناظِر، ص262.

والآخرة، قال ابن كثير: "ولهذا مدح من يسألُه الدنيا والآخرة، فقال : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير"[1].

2 – قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]م.

المراد بقوله: (وَمِنَ النَّاسِ) صُهَيب بن سِنان الرُّومي ﷺ، عرّض بمدحه وذلك لما آذاه المشركون هاجر إلى الله ورسوله وترك لهم ماله[2].

3 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران : 7]م.

جاءت هذه الجملة القرآنية عقب قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ففُهم المرادُ بأولي الألباب أنّهم الراسخون في العلم، وفي هذا مدح لهم بطريق التعريض، قال الزمخشري: "﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ مدحٌ للراسخين بإلقاء الذهن وحُسن التأمّل"[3].

4 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]م.

في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ تعريضٌ بمدح الذين ثَبتوا مع الرسول ﷺ قبل موته وبعده، فآمنوا واستقاموا، فهؤلاء هم الشاكرون وعلى رأسهم[4] أبو بكر الصدّيق ﷺ، وهو الذي قال حين موته ﷺ مقولته الشهيرة: "من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت"[5]، ومعنى الشكر في هذه الآية هو الصبر والاحتساب والرضا بالمقدور والثبات على الدين والعبوديّة الحقّة لله ﷻ في جميع الأحوال.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص227.

(2) – المصدر نفسه: مج1 ص230.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص338.

(4) – قال الذهبي: "وروى هاشم بن البُريد عن زيد بن علي، قال: كان أبو بكر الصدِّيق ﷺ إمامَ الشاكرين ثم تلا: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ثم قال: البراءة من أبي بكر ﷺ هي البراءة من علي ﷺ". [سير أعلام النبلاء، مج5 ص390].

(5) – أخرجه البخاري في صحيحه، باب مرض النبيّ ﷺ ووفاته، عن عائشة ﷺ، مج3 ج5 ص143.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5 – قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ **وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة : 44]م.

في الآية الكريمة تعريض بمدح الصحابة الذين مِن صفتهم أنّهم لا يستأذنون الرسول ﷺ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم بأنهم داخلون في زُمرة المتّقين، وبالوعد لهم بأجزل الثواب وهو جنّات النعيم[1].

6 – قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: 22]ك.

في الآية تعريض بيوسف عليه السلام بأنّه موصوفٌ بالإحسان وأنه من أهله، وقد شهد له بذلك بعد شهادة الله ذٰلِك الفَتَيان بقولهما: ﴿**إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف : 36]ك، وبنحو هذا المدح مُدح موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [القصص : 14]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ **ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ** لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 23]م.

يُعَرِّض الله عز وجل في هذه الآية بمدح أزواج النبيّ ﷺ، وبالأخصّ عائشةُ رضي الله عنها، فزوجاتُ النبيّ ﷺ هنّ المحصنات الغافلات المؤمنات المتّصفات بكل خلق حسن، وحقُّهن عند الله عظيم، ومن تعرّض لهنّ بسوء فهو ملعون في الدنيا والآخرة[2].

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ**﴾ [الزُّمر: 33]ك.

في الآية الكريمة تعريضٌ بمدح النبيّ ﷺ، فهو الذي جاء بالصدق والخبرِ اليقين من ربّ العالمين، وفيها تعريضٌ آخر بمدح الصحابة رضي الله عنهم؛ فهم أوّل من صدّق به من دون الناس[3].

---

(1) – وفي ضمنه تعريض بذمّ المنافقين الذين لا يتحرّجون من الاستئذان في ترك القتال ويَتعذّرون بأعذار هي أقبح مما وقعوا فيه.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1300.

(3) – المصدر نفسه: مج4 ص1617.

9 – قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى، ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ، وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ، إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ، وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل: 17-21]ك.

في هذه الآيات يُعرّض الله ﷻ بمدح أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وهو أبو بكر الصدّيق، قال ابن كثير: "وقد ذكر غير واحد من المفسِّرين أنّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصدّيق ﷺ، حتى أنّ بعضهم حكى الإجماع من المفسِّرين على ذلك، ولا شكّ أنه داخل فيها وأولى الأمّة بعمومها"(1).

ثانياً: الذمّ بالتعريض:

ومن الآيات الواردة في الذمّ بأسلوب التعريض:

1 – قال الله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: 200]م.

عرّض الله ﷻ في هذه الآية بذمّ الأعراب الذين كانوا يجيئون إلى الموقف بعرفات فيقولون: اللهمّ اجعله عامَ غيث وعامَ خِصب وعامَ وِلادٍ حَسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً(2)، قال ابن كثير: "ثم إنّه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مَظِنّة الإجابة، وذمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو مُعرِض عن أُخْراه فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾، أي: من نصيب ولاحَظٍّ، وتضمّن هذا الذمّ التنفيرَ عن التشبُّه بمن هو كذلك"(3).

2 – قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]م.

في هذه الآية تعريض بذمّ الأخنس بن شريق الثقفي، حيث جاء إلى الرسول ﷺ وأظهر له الإسلامَ وباطنُه بخلاف ذلك(4)، ولا يمنع أن تكون هذه الآية عامّةً في ذمّ كلّ من خرج من ضِئْضِئ هذا المنافق وكان من طِرَازه وعلى شاكلته.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص2041.

(2) – المصدر نفسه: مج1 ص227، ولم يذكر الواحدي سبب نزول هذه الآية.

(3) – المصدر نفسه: مج1 ص ن.

(4) – الواحدي النيسابوري: أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، ص34، وابن كثير: مج1 ص228 .

3 – قال الله تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 95]م.

قال الزمخشري: "تعريضٌ بكَذِبهم، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أي: ثَبت أنّ الله صادقٌ فيما أنزل وأنتم كاذبون"(1)، وفي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ آخر بذمّ أهل الكتاب وغيرهم بأنّهم مشركون؛ لأنهم كانوا يَدَّعون أنّ إبراهيم عليه السلام كان يهوديّاً أو نصرانيّاً، فردّ الله عز وجل عليهم ادّعاءهم تبكيتاً لهم وتعريضاً بذمّهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: وهم من المشركين.

4 – قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]م.

هذا الكلام في مَعرِض تقوية عزائم الصحابة رضي الله عنهم وتَسليتهم على ما أصابهم يوم أحد من القَرْح، وبعد أن بيّن الله الحكمة العظيمة المترتّبة على ذلك الابتلاء، قال: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وهذا وإن كان عامّاً فبالنظر إلى السياق ندرك أنها جاءت للتعريض بذمّ المنافقين الذين تخلّفوا عن تلك الغَزوة العظيمة، وعلى رأسهم عبد الله ابن أبيّ بن سلول(2)، قال السعدي: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكأنّ في هذا تعريضاً بذمّ المنافقين وأنهم مُبغَضون لله عز وجل، ولهذا ثبّطهم عن القتال في سبيله(3).

5 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: 10]م.

قال أبو حيّان: "والتعريضُ في: (فِي بُطُونِهِمْ)، عرّض بذكر البطون بخِسَّتهم وسقوط هِمَمِهم، والعرب تذمّ بذلك، قال(4):

دَعِ المكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا *** وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي"(5)

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص386.

(2) – قصةُ تخلُّفِ المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ذَكَرَهَا البخاريّ في صحيحه، باب غزوة أحد، مج3 ج5 ص31، وهي معروفة مشهورة مذكورة في كتب السيرة والحديث والتفسير.

(3) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص150.

(4) – البيت من البسيط، وهو للحُطيئة، في ديوانه، ص108.

(5) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج3 ص179.

الشاهد من هذا البيت قولُه: (فَإِنَّكَ أَنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي)، أي: المطعَم المكسِيّ، من باب استعمال اسم الفاعل في معنى اسم المفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [الأسراء: 45]ك، قال السيوطي: "أي: ساتراً لك عنهم فلا يرونك"(1)، فالحطيئة يريد أن يهجوا من بخل عليه بالعطاء من غير تصريحٍ بالهجاء، فاستخدم لذلك التعريض والإيماء، فأظهر له المدح وأبطن القدح، ففي قوله: (الطَّاعِمُ الكَاسِي) تعريض بالخسّة ودنوّ الهمّة وأنّ همّه لا يتجاوز تحصيل المطعم والملبس، أمّا الكرم ومحاسنُ الشيَم فذلك بعيد منه، فليدَع المكارم لأهلها ولا يُتعب نفسه في طلبها، وليقعد في بيته وليشتغل بملء بطنه وتجميل هيئته فهذا أليق به لدُنوّ همّته.

6 – قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: 75]م.

في الآية تعريض بذمّ أحد المنافقين بنكثه لعهده مع ربّه، حيث ألحّ على النبيّ ﷺ أن يدعو له بأن يرزقه الله مالاً كثيراً ويؤدّي منه كلّ ذي حقّ حقّه، فدعا له فوسّع عليه فانقطع عن الجمعة والجماعة، ومنع الزكاة المفروضة(2).

7 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: 15]م.

دلّت الآية بمنطوقها على مدح المؤمنين الصادقين الذين ظهر صدق إيمانهم في إيقانهم وجهادهم وإنفاقهم في سبيل الله، مدحهم الله ﷻ بأنهم وحدهم دون غيرهم الصادقون، ودلّت بمفهومها على التعريض بذمّ الشاكّين في الإيمان المتخلّفين عن الجهاد بأنهم كاذبون منافقون، قال

---

(1) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص237.

(2) – ذكر الواحدي وابن كثيرٍ وكثيرٌ من أهل التفسير أنّ هذا المنافق هو: ثعلبة بن حاطب. [أسباب النزول: ص145، تفسير ابن كثير، مج2 ص868]، وقد أخرج قصّةَ ثعلبة الطبرانيُّ في المعجم الكبير برقم: 7873، مج8 ص260، وابن أبي حاتم في التفسير، برقم: 10406، مج6 ص1847. قال الهيثمي: "رواه الطبراني وفيه عليّ بن زيد الألهاني، وهو متروك". [مجمع الزوائد للهيثمي: مج7 ص32]، وقال السيوطي في الدرّ المنثور: "أخرجها الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن أبي أُمامة ﷺ" [الدرّ المنثور للسيوطي: مج3 ص261]، وذكر ابن أبي حاتم أنّها في رجلين خرجا على ملإٍ قُعود، قالا: والله لئن رَزقنا الله من فضله لنصّدّقنّ، فلمّا رزقهم الله بخلوا به. [تفسير ابن أبي حاتم، رقم: 10407، مج6 ص1847]. فالقصّة ضعيفة جدّاً وإن اشتهر ذكرها في كتب التفسير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الزمخشري: "في قوله في صفة المخلِصين تعريضٌ بأنّ هؤلاء [أي: المنافقين من الأعراب] هم الكاذبون، ورُبَّ تعريض لا يقاومه التصريح، رُوعي في هذا النوع من التكذيب أدبٌ حَسَن حين لم يُصرَّح بلفظه"(1)

المطلب الثاني

المدح والذمّ بالإشارة

المدح والذمّ بالإشارة هو ما يُفهم من خلال إشارةٍ موضوعةٍ في النصّ تومئ إلى مدحٍ أو ذمّ أو تعظيمٍ أو تحقير أو إهانة أو نحو ذلك، وبالتتبّع فإنّ هذه الإشارة للمدح أو الذمّ قد لا تخرج عن خمس علامات، هي:

1 – وضع الظاهر موضع المضمر.

2 – أسماء الإشارة.

3 – الإضافة إلى مُعظَّم أو محقَّر.

4 – إيحاء اللفظ أو التركيب.

5 – التخصيص بالذكر.

الفرع الأوّل: المدح والذمّ من خلال وضع الظاهر موضع المضمر.

أوّلاً: المدح:

1 – قال تعالى: ﴿**وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ**﴾[آل عمران: 115].

الأصل أن يقال: (**وَاللهُ عَلِيمٌ بِهِمْ**)، لكن هنا وُضِعَ الظاهرِ موضعَ المضمَر إشارةً – مع أنّ اللفظ عامّ – إلى مدحِ المتّصِفين من أهل الكتاب خاصّة، بتلك الصفات المذكورة من الإيمان بالله واليوم الآخر، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والمسارعة في الخيرات بأنّهم من المتّقين، وكلّ من اتّصف بصفاتهم فهو بلا ريب داخلٌ في هذا المدح الجميل، وفي ذكر عِلم الله بهم إشارةٌ إلى تبشيرهم ووعدِهم بأحسن الجزاء، ونظيرُ هذه الآية في القرآن كثير.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص376.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**﴾ [الكهف: 30]ك.

قال المحلّي: "(**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً**) الجملةُ خبرُ (**إنّ الذين**) وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر، والمعنى: أجرَهم، أي: نُثِيبهم بما تضمّنه: (**أُوْلَئِكَ لهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ**)"[1]. إنّ في إقامة الظاهر مقام المضمر تنبيهٌ على أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد أحسنوا العمل وأنّهم بهذا ممدوحون، وإحسانُ العمل أداؤه على الوجه الذي يرضاه الله تعالى.

ثانياً: الذمّ:

ومن إقامة الظاهر مقام المضمر في الذمّ:

1 – قال الله تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**﴾ [البقرة: 59]م.

قال الزمخشري: "وفي تكرير (**الذينَ ظَلَمُوا**) زيادةٌ في تقبيح أمرهم وإيذانٌ بأنّ إنزال الرّجز عليهم لظُلمهم، وقد جاء في سورة الأعراف (**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ**) على الإضمار"[2]، وعلّق ابن المنيّر على كلام الزمخشري فقال: "وفيه تهويلٌ لظلمهم من حيث وضعُ الظاهر موضع المضمر، وهو مفيدٌ لذلك؛ إذ هو من قبيل الإشهار لهذا المعيَّن مع إمكان الاختصار بالإضمار"[3].

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [البقرة: 95]م.

لا شكّ أنّ الذين يستحبّون الحياة على الموت ويدَّعون خُلوص الدار الآخرة لهم من دون الناس هم ظالمون؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، ولذا وَسَمَهم الله بالظلم بقوله: ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾، حيث عبّر بالاسم الظاهر (**الظالمين**) بدل الضمير (**هم**)، فلم يقل: (**والله عليم بهم**)، وذلك إشارةً إلى ذمّهم بالظلم، وفي ذكر العلم بهم تهديد لهم وتَوعُّد.

3 – قال الله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [آل عمران: 63]م.

---

(1) – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص246.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص143.

(3) – ابن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف، مطبوع بهامش تفسير الكشاف: مج1 ص143.

5 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 25- 26]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84]ك.

5 – قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 39]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 33]ك.

قال الزمخشري: "(**فِي أَعْنَاقِ الذِينَ كَفَرُوا**)، أي: في أعناقهم، فجاء بالصَّريح للتنويه بذمّهم وللدلالة على ما استحقّوا به الأغلال"(1).

الفرع الثاني: المدح والذمّ باستعمال اسم الإشارة.

أوّلاً: المدح باستعمال اسم الإشارة:

1 – قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]م.

ذكر ابن كثير أنّ (**ذلك**) بمعنى (**هذا**)، وأنّ العرب تُعارض بين اسمَي الإشارة، فيستعملون كُلاًّ منهما مكان الآخر(2)، ولكن ثمّة فائدةٌ في استعمال (**ذلك**) بدلَ (**هذا**)، وهي: الإشارة إلى عَظَمة القرآن الكريم وبُعْدِ مَنزِلته وأنه لا يُداني ولا يُجارى، وفي هذا إشارة إلى مدح القرآن الكريم وتمجيدِه(3)، قال الخطيب القزويني: "وربّما جُعلَ البُعْد ذريعةً إلى التعظيم، كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة: 1]م ذهاباً إلى بُعد درجته، ونحوُه: ﴿**وَتِلْكَ الجَنَّةُ التِي أُورِثْتُمُوهَا**﴾ [الزخرف: 72]ك، ولذا

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص585.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص45.

(3) – ولهذا افتُتِحت كثيرٌ من سُوَر القرآن الكريم باسم الإشارة: (**تلك**)، كسورة: يونس ويوسف والرعد والحِجْر والشعراء والنمل والقَصص ولقمان إشارةً إلى عِظم قَدْر آيات القرآن الكريم، وأنها مشتملةٌ على الحقّ والحكمة، منزّهةٌ عن أيّ نقص أو ريب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قالت: ﴿**فَذَٰلِكُنَّ الذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾ [يوسف: 32]ك،لم تقل: **(فهذا)** وهو حاضرٌ رَفْعاً لمنزلته في الحُسن وتمهيداً للعُذر في الافْتِتان به"[1]

2 – قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: 83]ك.

المقصود بالدار الآخرة الجنّةُ، وأشير إليها بـ: **(تلك)** إمّا لبُعْد مكانها؛ إذ هي عند سدرة المنتهى، أو لبُعد مكانتها وعِظَم منزلتها وكونها مُنى العاملين، كما قيل[2]:

نِعْمَتْ جَزَاءُ المتَّقِينَ الجَنَّه *** دَارُ الأَمَانِي وَالمنَى والمِنَّه

قال الزمخشري : "**(تلك)** تعظيمٌ لها وتفخيم لشأنها"[3]، فهو مدح بطريق الإشارة بأخصر عبارة؛ وسنّة الله في كتابه تشويقُ عباده وترغيبهم في جنّته حتى كأنهم يرونها رأي العين، ومِن هنا يَبعُد أن يخاطبهم بما يُشعرهم بِبُعدها رحمةً منه بعباده، وإنما القصدُ المدحُ والتعظيم.

3 – قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ**﴾[العنكبوت: 43]ك.

في الإشارة إلى أمثال القرآن بـ: **(تلك)** الدالّة على البُعد إشارةٌ إلى مدحها بما يدلّ على رِفعة شأنها وقوّة معانيها وغزارة فوائدها، قال السعدي: "وهذا مدح للأمثال التي يضربها وحثٌّ على تدبُّرِها وتَعقُّلها ومدحٌ لمن يَعقِلُها"[4].

ثانياً: الذمّ باستعمال اسم الإشارة:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ**﴾ [العنكبوت: 64]ك.

إنّ الدنيا جميعَها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وقلّما يذكر الله ﷻ الدنيا في كتابه من غير أن يذمّها أو يحقِّر من شأنها، بأنها مجرّدُ لهوٍ ولَعبٍ وتفاخر بالأنساب والأولاد وأنها متاع الغرور، وفي هذه الآية يشير الله ﷻ إلى الدنيا باسم الإشارة **(هذه)** – الدالّ على القرب – ليُشعر بحقارتها وأنه لا ينبغي التهالك عليها أو التعلّق بها، قال القزويني: "وربّما جُعل القرب ذريعةً إلى التحقير، كقوله

---

(1) – الخطيب القزويني: محمّد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ص26.

(2) – الرَّجْز بلا نسبة، وقد سبق تخريجه، ينظر الصفحة (48) من هذا البحث.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص435.

(4) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص631.

تعالى: ﴿أَهَذَا الذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: 36]ك، ﴿أَهَذَا الذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان: 41]ك، ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: 64]ك، ﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [البقرة: 26]م، [المدّثر: 31]ك. اهـ"(1)، وقال الزمخشري: "(هذه) فيها ازدراءٌ للدنيا وتصغيرٌ لأمْرِها"(2).

الفرع الثالث: المدح بالإضافة إلى معظّم:

1 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ**﴾ [البقرة: 101]م.

أضاف الرسولَ إليه كما أضاف الكتابَ في قوله: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ [البقرة: 89]م مبالغةً في التعظيم والتفخيم من شأن الرسول والرسالة، وفي ضِمنه غايةُ الذمّ لمن قابلهما بالقتل والنَّبذ(3).

2 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ**﴾ [الإسراء: 65]ك.

في إضافة العباد إلى الله نوعُ تكريم، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى مدحهم والتنويه بهم، حتى إنهم استحقّوا الحفظَ التامّ من كيد الشيطان ووساوسه، والدخولَ في كَنَف الرحمن وحمايته، والآيات على هذا النحو كثيرة، من ذلك قوله تعالى في حقّ كلٍّ من الأنبياء: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ – عليهم الصلاة والسلام –: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**﴾ [ص: 45]ك، وقال في حقّ عبده داود عليه السلام: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ**﴾ [ص: 17]ك.

3 – قال الله تعالى: ﴿**طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [النمل: 1]ك.

في إضافة الآيات إلى القرآن الكريم إشارة إلى تعظيمها وتفخيمها، قال الزمخشري: "وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم؛ لأنّ المضاف إلى العظيم يَعظُم بالإضافة إليه"(4) فآيات القرآن هي أعلى الآيات وأقوى البيّنات على المطالب العاليات والأخلاق الزاكيات.

(1) – الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص26.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص463.

(3) – ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيّان: مج1 ص325.

(4) – المصدر السابق: مج3 ص346.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الرابع: المدح والذمّ من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب

أوّلاً: المدح من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]ك.

في هذه الآية إشارةٌ إلى مدح المؤمنين مُستَفادةٌ من كلمة: **(حَقّاً)**، فقد أوجب الله على نفسه نصرَهم، وما ذاك إلاّ لمنزلتهم الرفيعة عند مولاهم وناصرِهم، قال الزمخشري: "تعظيمٌ للمؤمنين ورفعٌ من شأنهم وتأهيلٌ لكرامةٍ سَنِيّة وإظهارٌ لفضلٍ سابقةٍ ومَزِيّة؛ حيث جعلهم مستحقّين على الله أن ينصرهم مستوجبين عليه أن يُظهرهم ويُظفِرهم"[1].

2 – قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 32- 33]ك.

إنّ كُلاًّ من كلمتي **(الرحمن)** و**(الغَيْب)** – مع مراعاة التركيب – لهما أثر كبير في تقوية المدح والمبالغة فيه، وأعني به هنا القدرَ الزائد على أصل الخشية، وهو مدحُ من خشي الله حالَ كونِه يعلم واسعَ رحمتِه؛ إذ غالباً ما تكون الخشية عند استحضار الخاشي قهر الجبّار وعظمتَه، أمّا الأوّاب الحفيظ فقد خشي الله حال استحضاره سعة رحمة الله وفضله، وهذه خشيةُ الأوّابين الذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون، فُهِمت من إضافة **(خَشِيَ)** إلى **(الرحمن)**؛ إذ مراعاته من دون سائر الأسماء توحي بذلك، وفيه تنبيهٌ على أنّ رحمة الله سبقت غضبه، وفي هذا من التطمين والترغيب وقطع اليأس ما يفتح باب الرجاء على العباد، قال الزمخشري: "فَلَئِنْ قلت: كيف قرن بالخشية اسمَه الدالَّ على سعة الرحمة؟ قلتُ: للثناء البليغ على الخاشي، كما أثنى عليه بأنه خاشٍ مع أنّ المخشِيَّ منه غائب"[2].

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: 19- 21]ك.

هذه الآيات في مدح جبريل عليه السلام، ومدحِ القرآن أيضاً باعتباره مُنزّلاً من مكان رفيع، والذي

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص484.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص390، وقال ابن المنيّر: "ومِن هذا الوادي بالغَ رسولُ الله ﷺ في الثناء على صهيب رضي الله عنه بقوله: ((**نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللهَ لَمْ يَعْصِهِ**))". [الانتصاف من الكشّاف: مج4 ص390]، والحديث ذكره جُلُّ مَن ألّف في الموضوعات، كالملاّ علي القاري في: الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة ص (172- 173).

تولّى إنزاله مَلَكٌ من أعظم الملائكة وأشرفِهم على الإطلاق، فهو رسولٌ كريم وقويّ ومُمَكَّن له ومطاعٌ وأمين، وكلّها صفاتُ مدحٍ، لكن ليس هذا هو المقصود فقد ذُكر في بابه، وإنما المقصود تلك الإشارات الخفيّة الموجودة في ثنايا هذه الآيات، التي تُنبِّه على مدحٍ زائدٍ على المدح المذكور، ومن ذلك لفظ (**عند**) المشعِر بشدّة القرب من الله ونيل الحظوة والمكانة السامية والمنزلة الرفيعة، وإضافتُه إلى: (**ذِي الْعَرْشِ**) الدالّ على كمال المُلْك والقهر والسلطان، ولم يقل مثلاً: (**عِنْدَ اللهِ**)؛ ليُعلَم أنّ جبريل عليه السلام مُمكَّنٌ له ومطاعٌ عند ذي العرش الذي خضعت له رقاب الجبابرة، وعندها يمكن إدراك عِظم المنزلة التي نالها هذا الرسول الكريم والمدح الذي حظِيَ به.

وثمّة إشارةٌ أخرى دلّت عليها قراءة أخرى[1]، وهي قوله (**ثُمّ**) – بالضمّ – بدلَ (**ثَمّ**) –بالفتح – في قوله تعالى: (**مُطَاعٍ ثَمّ أَمِينٍ**)، فعلى قراءة الفتح يكون معنى الآية أنّ جبريل عليه السلام مطاعٌ هناك في السماء من قِبَل الملائكة، وعلى قراءة الضمّ يكون فيه إشارةٌ إلى مدحِ صفة الأمانةِ التي اتّصف بها جبريل عليه السلام، حيث دلّ معنى التراخي في: (**ثُمّ**) – وهو هنا التراخي الذكري – على الاهتمام والعناية بها، قال الزمخشري: "وقُرِئ بدلَ (**ثَمّ**): (**ثُمّ**)؛ تعظيماً للأمانة بياناً؛ لأنها أفضلُ صفاته المعدودة"[2].

ثانياً: الذمّ من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب:

وممّا جاء من الذمّ من خلال إشارةٍ في اللّفظ أو التركيب:

1 – قال الله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 22]م.

سمّى الله عز وجل أحجار المشركين وأخشابهم المؤلّهة كذباً وزوراً أنداداً مع أنّ الندّ لا يُطلَق إلا على النظير المساوي[3]، وذلك إمّا مجاراةً لهم على تسميتهم لها كذلك، أو إشارةً إلى التهكّم بها والسخرية بمن عبدها، قال الزمخشري: "كما تهكّم بهم بلفظ (**الندّ**) فشنّع عليهم واستفظع شأنهم؛ بأن جَعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصحّ أن يكون له ندّ قط"[4].

---

(1) – عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، مج10 ص328.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص712.

(3) – قال الراغب الأصفهاني: "النِّدّ يُقال فيما يُشارك في الجوهر فقط." [المفردات في غريب القرآن: ص225، مادّة: مثل].

(4) – المصدر السابق: مج1 ص95.

2 – قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِ﴾ [آل عمران: 14]م.

سمّى الله تلك المذكورات من متاع الدنيا شهوات إشارةً إلى تحقيرها وأنها ليست بشيء، بل هي مجرّد شهوات سرعان ما تزول وتنقضي، قال الزمخشري: "وقال: ﴿زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، ثم جاء بالتفسير ليقرّر أولاً في النفوس أنّ المزيَّن ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسِّره بهذه الأجناس فيكون أقوى لتخسيسها وأدلَّ على ذمّ من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجِّح طلبها على طلبِ ما عند الله"(1).

3 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 194]ك.

في قوله تعالى: (أَمْثَالُكُمْ) احتمالان، **أحدهما**: أنّهم وما يدعون من دون الله عبادٌ بمعنى عبيد، هم سواء في العبودية؛ فكلّهم مملوك مقهور مخلوق لله تعالى(2)، **والثاني**: هو الإشعار بالتهكّم بهم والسخرية من رقّة حُلومهم وخِفّة عقولهم، وذلك أنّ هذه الأصنام قُصارى أمرِها أن تكون حيّةً مثلَهم، فكيف يعبدون شيئاً هذا قصارى أمره؟ ثم بيّن غاية عجزها وفضل عابديها عليها فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ﴾ إلى آخر ما ذكر(3).

4 – قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ [الشعراء: 43]ك.

توحي لفظة **(ما)** في هذه الآية إلى معنى التحقير والازدراء، أي: إنّ ما في أيدي السحرة من السحر والخداع ليس بشيء، ومع أنّ الله وصف سحرهم بالعظيم في قوله: ﴿وَجَاؤُواْ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ إلا أنّ موسى عليه السلام لقوة توكّله ويقينه بربّه احتقر ما جاؤوا به، وقال: إنّ ما جئتم به من السحر حقير.

5 – قال تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ، وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ [الشعراء: 94 - 95]ك.

إنّ كلمة **(كُبْكِبُوا)** توحي بالذمّ والتحقير والإهانة للعابدين وما كانوا يعبدون من دون الله؛

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص342.

(2) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج2 ص784.

(3) – ينظر المصدر السابق: مج2 ص189، وتفسير الجلالين: ص143.

لأنّ كَبْكَبَ من: (كَبَّ)[1]، وتكرير الحرف يدلّ على تكرير الفعل، أي أنّ هؤلاء الكفّار يُكَبُّون في النار بعضُهم فوق بعض، كما تكبّ وتُرمى الأشياء الممتهنة المستقذرة فوق بعضها، قال ابن كثير: "قال مجاهد: هَوَوْا فيها، وقال غيره كُبُّوا فيها، والكاف مكرّرة، كما يُقال: صَرْصَرَ، والمراد: أُلقي بعضهم على بعض من الكفّار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك"[2].

6 – قال تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ**﴾ [محمّد: 27]م.

تَضرِب الملائكة المُوكّلة بقبض أرواح المنافقين حين يتوفّاهم ملك الموت بالمقامع الشديدة في وجوههم وأدبارهم، وفي ذكر الضرب للوجوه والأدبار[3]دون سائر المواضع الأخرى إشارةٌ إلى إهانةٍ ومذلّة لهم فاضحة، وتهكّمٍ وسخرية بهم واضحة، ولذا قال: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ**﴾، أي: فكيف حالهم المهينة؟ وكيف رؤيتهم الفظيعة؟ ويشبه هذه الآية في اللّفظ والمعنى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوفَّى الذِينَ كَفَرُواْ المَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ [الأنفال: 50]م.

7 – قال الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم**﴾ [المجادلة: 2]م.

في: (**مِنْكُمْ**) إشارة خفيّة نبّه[4]عليها الزمخشري بقوله: "في: (**مِنْكُمْ**) توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعادتهم في الظِّهار؛ لأنه كان مِن أَيْمان أهلِ جاهليّتهم خاصّةً دون سائر الأمم"[5]، حيث اختصّوا بفعل شيء قبيحٍ لم يُسبَقوا إليه، فجمعوا بين إتيانه وسَنّه، فصاروا أسوةً سيّئةً لمن بعدهم.

الفرع الخامس: المدح[6]من خلال التخصيص بالذكر:

إنّ تخصيص الشيء بالذكر فيه دليلٌ على مزيد العناية به، وغالباً ما يَرِد للمبالغة في المدح، ومن أمثلته في القرآن الكريم:

---

(1) – جاء في مختار الصِّحاح: **كَبْكَبَهُ**، أي: كَبَّهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فيها**﴾، والمصدر: التَّكْبِيب. [الرازي: مختار الصِّحاح، ص560، مادّة: كبب]، وجاء في لسان العرب: "كَبَّ الشَّيْءَ يَكُبُّهُ وَكَبْكَبَهُ: قَلَبَهُ...، وقال الزجّاج: **كُبْكِبُوا**: طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ". [ابن منظور: لسان العرب، مج1 ص638، مادّة: كبب].

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1355.

(3) – قال القرطبي: "(**أَدْبَارَهُمْ**)، أي: أَسْتاهِهم، كنّى عنها بالأدبار" . [الجامع لأحكام القرآن: مج8 ص28].

(4) – لم أر – حسب اطّلاعي – من نبّه على هذا المعنى المستوحى من لفظ: (**منكم**) غير الزمخشري، وهذا يدلّ على ذكاءٍ وتمكّن ورسوخ في التفسير واللغة، ودرايةٍ بأسرار البيان والبلاغة.

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص485.

(6) – لم أعثر على أمثلة للذمّ بهذا الأسلوب في القرآن الكريم، والأمر يحتاج إلى مراجعة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – قال الله تعالى: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة: 118]م.

قال تعالى: (**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**) ولم يقل: (**للناس**)، فخصّ الموقنين بالخطاب مع أنّ الآيات جاءت مبيَّنةً لجميع الناس، وفي هذا إشارةٌ إلى مدح الموقنين وبيان فضلهم، بيان ذلك أنّ كلّ مُوقِنٍ لا شكَّ أنه قد فرّغ قلبه من الكِبْر والهوى وحرّر نفسه من رقّ التقليد الأعمى، فعرف من آيات ربه الظاهرة وبراهينِه الباهرة ما به حصل له اليقين واستحقّ مدح ربّ العالمين، أمّا غيرُ الموقن فلِتَعَنُّتِه وتكبُّره وتعصُّبه وسُوءِ طَوِيّته عَمي عن رؤية الآيات رغم ظهورها، وضلّ عن فهم البراهين رغم سطوعها، فكان بذلك مستحقّاً للذمّ العظيم والعذاب الأليم.

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: 179]م.

إنّ حكم القصاص لا يَعرِف حقيقته إلا أصحابُ العقول الرزينة والألباب الكاملة، وإنّما خصّهم الله بالخطاب ووجّهه إليهم دون غيرهم ليشير إلى مدحهم؛ بكونهم يُعمِلون أفكارهم وعقولهم في تدبّر ما في أحكامه من الحِكَم والمصالح، الدالّة على كماله وكمالِ حكمته وحمده وعدله ورحمته(1).

3 – قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: 197]م.

قال القِنَّوجي: "فيه تخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حثِّ جميع العباد على التقوى؛ لأنّ أرباب الألبابِ والعقولِ هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها، ولُبُّ كلِّ شيء خالصُه"(2)، ومن كان بهذه الحال فقد استحقّ المدح بأنّه مِن ذوي الألباب الذين وُجّه إليهم الخطاب دون مَن سواهم.

4 – قال الله تعالى: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾ [آل عمران: 4]م.

ذكر الله ابتداءً القرآن والتوراة والإنجيل وأخبر أنها هدى للناس، ثم خصّ القرآن بالذكر مُفرَداً للإشارة إلى أنه أفضلُها وأحسنُها، قال الزمخشري: "أو كرّر ذكرَ القرآن بما هو نعتٌ له ومدحٌ مِن

(1) – ينظر تفسير السعدي، ص85.

(2) – القنّوجي: صِدِّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص405.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كونه فارقاً بين الحقّ والباطل بعدما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله"[1]، فيكون قد مَدح القرآن مرّتين، مرّةً تصريحاً ومرّةً تلميحاً، أمّا تصريحاً فبتسميته فرقاناً، وأمّا تلميحاً فبإفراده بالذكر بعد ذِكْره مع التوراة والإنجيل تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله، لكن كيف فُسِّر **(الفرقان)** – هنا – بالقرآن خاصّةً مع أنّه عَبَّر عنه بـ: **(أنزل)**، ولو كان الأمر كذلك لعَبَّر عنه بـ: **(نزّل)**؟ كما في قوله تعالى: ﴿**تبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ**﴾[الفرقان: 1]ك، والجواب ما ذكره ابن المنيِّر بقوله: **"**وقد جعل الزمخشري سرّ التعبير عن نزول القرآن بالتعبيرِ عنه بـ: "أفعل" كغيره، فإن يكن هذا – والله أعلم – فالوجهُ أنه لما عبّر أولاً عن نزوله الخاصّ به أتى بعبارةٍ مُطابقة لقصْدِ الخصوصيّة، فلمّا جرى ذكرُه ثانياً ليُنعتَ بصفة زائدة على اسم الجنس عبّر عن نزوله من حيثُ الإطلاقُ اكتفاءً بتميّزِه أولاً، وإجمالاً لذلك في غير مقصوده، ومن العبارة السائرة عن هذا المعنى: الكلام يُجمَل في غير مقصوده ويُفصَّل في مقصوده"[2].

5 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: 68]م.

قال الزمخشري: **"**يعني محمّداً ﷺ، أفردَه بالذكر تعظيماً له وتشريفاً، وأولويّتُه بإبراهيم عليه السلام من جهة كونه من ذرّيته، ومن جهة موافقته لدينه في كثيرٍ من الشريعة المحمّدية"[3]، فما أفرده بالذكر إلا لتفرُّده في المنزلة، فقد جاء عن النبيّ ﷺ حين فسّر الوسيلة بأنها درجةٌ رفيعة في الجنّة لا تنبغي إلا لأحدٍ من الناس أنه قال: ((**وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو**))[4]، أي: في تلك المنزلة الرفيعة التي لا يشاركه فيها أحد، وذلك لتفرّده بخصائصَ وصفاتٍ مَنّ الله بها عليه وفضّله على غيره، فإفراده في الآية بالذكر فيه إشارة إلى هذا المعنى.

6 – قال الله تعالى: ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: 97]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام: 98]ك.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص336.

(2) – ابن المنيِّر: الانتصاف من الكشّاف: مج1 ص336.

(3) – المصدر السابق: مج2 ص263.

(4) – أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الأذان، باب استحباب القول بمثل قول المؤذّن لمن سمعه، مج2 ج4 ص85، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأصله في البخاري، كتاب الأذان، باب ما يقول إذا سمع المنادي، مج1 ج1 ص152.

8 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99]ك.

9 – قال الله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 126]ك.

10 – قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]ك.

11 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6]ك.

12 – قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]ك.

13 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67]ك.

14 – قال الله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]ك.

15 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]ك.

16 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحِجْر: 75]ك.

17 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجْر: 77]ك.

18 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: 54]ك.

19 – قال الله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 84]ك.

20 – قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]ك.

21 – قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: 59]ك.

22 – قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: 13]ك.

23 – قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾(1) [الفجر: 5]ك.

(1) – قال جلال الدين المحلّي: "للناظرين المعتبِرين". [تفسير الجلالين، ص219].

المبحث السادس

أساليب أخرى للمدح والذمّ

المطلب الأوّل

الخبر الدالّ على المدح أو الذمّ بالقرائن

تناولتُ في مبحثٍ سابق المدحَ والذمّ بأسلوب الإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه، واعتبرته من قبيل المدح أو الذمّ الصريح، وذلك لصراحة ألفاظه في المدح أو الذمّ، مثاله قوله تعالى في ذمّ اليهود: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41]م، لكنّ المراد دراسته في هذا المطلب هو الخبر الخارج مخرج الإنشاء الذي لا تدلّ ألفاظه صراحةً على مدحٍ أو ذمّ، وإنما يُفهم ذلك بالقرائن والسياق، مثاله في الذمّ قولك لمن رأيته متهاوناً بشأن الصلاة أو تاركاً لها بالكلّية: الصلاة ركن من أركان الإسلام، فهذا خبر مفاده بيان منزلة الصلاة في الإسلام، ولكن بوضع هذه العبارة في سياقها الذي قيلت فيه نجد أنها خرجت مخرج التوبيخ أو العتاب، والمعنى: ما كان ينبغي لك أن تتهاون بأمر هو أحد أركان الإسلام، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهذا الأسلوب، سأكتفي بذكر نماذج منها مع الدراسة والتحليل.

الفرع الأوّل: الخبر للمدح:

1 – قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[آل عمران: 121]م.

هذه الآية وإنْ كانت في ظاهرها تحكي أحداث تلك الغزوة العظيمة التي هي غزوةُ أحد، فإنه ليس ببعيد أن يقال بأنها سيقت في مدح نبيّنا محمّد ﷺ؛ بدليل استهلال هذه الغزوة بخطاب النبيّ ﷺ بما قام به من الأعمال قبيل الغزوة، ممّا يدلّ على إرادة مدحه ﷺ بأنّه الرسول الإمام والقائد الهمام، الذي يتولّى بنفسه تدبير أمر الصحابة وإقامتهم في مقاعد القتال وإنزالهم منازلَه، وما ذاك إلا لكمال علمه وسَداد رأيه وبُعد نظره وعلوّ همته، فهو الشجاع إذا حارب والموفَّق إذا دَبّر والقويُّ إذا انتقم لدين الله(1).

(1) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج1 ص362، وتفسير السعدي، ص145.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 – قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ**﴾ [يوسف: 32]ك.

ظاهرُ قول امرأة العزيز الاعتراف بمراودتها ليوسف عليه السلام عن نفسه فاستعصم وامتنع، لكن في ضمنه شهادةٌ وتزكية لهذا النبيّ الكريم بن الكريم بن الكريم بن الخليل عليه السلام بأنه المتعفِّف الحيِيّ التقيّ، وممّا يدلّ على هذا أنها قالت قبلُ: ﴿**فَذَلِكُنَّ الذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾، فعبّرت عنه باسم الإشارة للبعيد إشارةً إلى تعظيمه وتشريفه[1]، ويدلّ على مدحها له أيضاً أنها لّما أمرت بخروجه عليهنّ كانت تريد أن تُري النسوة جماله الظاهر، فلمّا حصل لها ذلك قالت: (**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**) فأرادت بذلك أن تريهنّ جماله الباطن المتمثّل في العفّة التامّة؛ فجمعت له بين الجمالين[2]، وفي هذا غاية المدح والتزكية لهذا النبيّ الكريم.

3 – قال الله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: 88]ك.

هذه آية واحدة من بين كثير من آيات التحدّي التي تحدّى الله بها مشركي العرب أربابِ الفصاحة والبيان، بل تحدّى بها الإنس والجانّ فعجزوا، وفي هذا أكبر دليل على صحّة ربّانية القرآن، والآية ليست من آيات التحدّي فقط بل هي أيضاً من بين الآيات الكثيرة التي جاءت في مدح القرآن وبيان منزلته وفضله، ففيها مدحَ الله عز وجل – ضِمناً – القرآنَ بأنّه قد بلغ الغاية في البلاغة والكمال في فنّ الكلام بحيث لا يمكن أن يَرقى رُقيَّه أيُّ كتاب آخر، فهو الأحسن على الإطلاق، كما قال الله تعالى: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [الزُّمَر: 23]ك، وبناءً عليه يمكن القول بأنّ هذه الآية جاءت لتحقيق مقاصد عظيمة أهمّها تحقيق ربّانية القرآن بتحدّي الإنس والجانّ، ومدحُ وتمجيد القرآن وبيانُ أنه عليٌّ رفيعُ الشان في كلّ زمان ومكان.

الفرع الثاني: الخبر للذمّ والتهكّم:

1 – قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم**﴾ [آل عمران: 110]م.

---

(1) – قال القزويني: "لم تقل: (فَهَذَا) وهو حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن وتمهيداً للعذر في الافتتان به". [الإيضاح في علوم البلاغة: مج1 ص120].

(2) – ينظر تيسير الكريم الرحمن للسعدي، ص397.

خاطب الله تعالى أهل الكتاب بخطابٍ فيه نوعُ تلطُّف ولكنّه يَحمِل في طيَّاته اللوم والذمّ، والآية وإن خلت من ألفاظ الذمّ الصريح إلا أنه بالنظر في السياق يتّضح جليّاً أنّ المراد الذمُّ والتوبيخ، قال ابن كثير: "ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمّة على هذه الصفات شرع في ذمّ أهل الكتاب وتأنيبهم فقال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾، أي: بما أُنزل على محمّد"(1)، بيان ذلك أنهم لما رَدُّوا الحقّ الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وحرَموا أنفسهم الخيرَ الأبديّ والنعيم السرمديّ بسبب تكبّرهم وتعصُّبهم وبّخهم الله وأنّبهم؛ لأنه لا يفعل هذا إلا سفيه يجهل مصالح نفسه ويسعى في ما يضرها، لقد روعي في هذا النوع من التوبيخ أدب حسن حين لم يُصرّح بألفاظ الذمّ، لكن فيه من قوة التأثير على نفس المخاطب ما يجعله يشعر بالتفريط والندم على فِعل ما لا ينبغي.

2 – قال الله تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 119]م.

في هذه الآية تهييج للمؤمنين على الحذر من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم لشدّة عداوتهم وبغضهم لهم، ومع ذلك فهي متضمِّنة لتوبيخ شديد لمن والاهم وأحبّهم ومالَ إليهم من ضِعاف الإيمان من المؤمنين أو مَن هم دونهم من المنافقين، قال الزمخشري: "فما بالكم تحبّونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم"(2).

3 – قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 110]م.

ظاهر الآية امتِنانٌ من الله تعالى على رسوله عيسى عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، حتى يزداد يقينه فيصبر على أذى قومه، ولكن قد يكون المراد من ذلك ذمّ وتوبيخ قومه الذين كذّبوه وعاندوا الحقّ الذي جاء به رغم ظهوره، قال الزمخشري: "والمعنى أنه يوبّخ الكافرين يومئذٍ بسؤالِ الرُّسل عن إجابتهم وبتعديد ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام، فكذّبوهم وسمّوهم سحرة، أو جاوزوا حدّ التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة"(3).

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج1 ص359.

(2) – الزمخشري: الكشاف، مج1 ص407.

(3) – المصدر نفسه: مج1 ص (690- 691).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 – قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [الأعراف: 82]ك.

﴿**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ جملةٌ ظاهرُها مدحٌ وباطنها قدحٌ، فكلمة (**يَتَطَهَّرُونَ**) معناها أنّهم يتنزّهون عن الفواحش، فهم حقّاً – كما قالوا – أناسٌ يتطهَّرون، لكنّهم قلبوا الأمر رأساً حيث جعلوا المثالبَ مناقبَ والفضائلَ رذائلَ، فعيَّروهم استهزاءً وتهكّماً بالطهارة كأنها القذارةُ، أو أنّها عادةٌ قبيحة يستحقّ فاعلُها الذمَّ والفضيحة، فلمّا قلبوا الحقائق المسلَّمة، قلَب الله عليهم ديارهم ورجمهم بالحجارة المسَوَّمة، والجزاءُ من جنس العمل، قال ابن كثير: **"**وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب**"**[(1)]، وقال الزمخشري: **"**سخريةً بهم وبتطهّرهم من الفواحش وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُطَّار[(2)] من الفَسَقَة لبعض الصُلَحَاء إذا وعظهم: أبعِدُوا عنّا هذا المتَقَشِّفَ[(3)] وأريحونا من هذا المتَزَهِّدِ**"**[(4)].

5 – قال الله تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ**﴾ [الأعراف: 123]ك.

قوله: (**آمَنتُم بِهِ**) على الإخبار وهو بمعنى الاستفهام، قال الفرّاء: **"**والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم، فيقولون: ذهبتَ ففعلت وفعلت؟ ويقولون: أذهبت ففعلتَ وفعلت؟ وكلٌّ صواب**"**[(5)]، لقد استخفّ فرعون قومه فأطاعوه، كان يرى أنّ أمره مطاع وليس لأحد المخالفةُ والامتناع، فلمّا آمن السحرة بربّهم وبخّهم فرعون – قبحه الله – قائلاً: ﴿**آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾، والمعنى: إنّ هذا سوءُ أدبٍ منكم وتجرؤٌ عليّ؛ إذ قد تقرّر أنّي الربُّ الأعلى والإله الأوحد فكيف آمنتم به؟ ثم إنكم آمنتم من غير إذنٍ منّي**!** قال الزمخشري: **"**على الإخبار، أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخاً وتقريعاً، وقُرِئَ: (**ءَآمَنْتُمْ**) بحرف الاستفهام، ومعناه: الإنكار والاستبعاد**"**[(6)].

6 – قال الله تعالى: ﴿**هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ**﴾ [التوبة: 35]م.

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص744.

(2) – **الشُطَّارُ**: جمعُ شَاطِر، وَهُوَ الذِي أَعْيَا أَهْلَهُ وَمُؤَدِّبَهُ خُبْثاً. [ابن منظور: لسان العرب، مج3 ص381، مادّة: شطر].

(3) – **المُتَقَشِّفُ**: هو الذي يَتَبَلَّغُ بِالقُوتِ وبالمرَقّع، من القَشَفِ وهو التغيّر مِن الشمس أو الفقر. [مختار الصِّحاح: ص536].

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص126.

(5) – الفرّاء: يحيى بن زياد، معاني القرآن، مج3 ص54.

(6) – المصدر السابق: مج2 ص131.

يقال هذا لكانزي الأموال ومانعي الزكاة على سبيل التوبيخ واللّوم[1]، والمعنى: هذا ما كنزتم لأنفسكم لتضرّوا به أنفسكم وتعذّبوها أليس كذلك؟ وإنما فُهم التوبيخ بقرينة الحال، ولا يخلو الخطاب من تهكّم وتبكيت وتقريع[2]

7 – قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾[التوبة: 61]م

لقد آذى المنافقون رسول الله ﷺ كثيراً، ومن ذلك قولهم فيه: هو أذن، قال ابن كثير: "أي: مَن قال شيئاً صدَّقه فينا ومن حدَّثه صدّقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدّقنا، ورُويَ معناه عن ابن عبّاس (ت 68هـ) ﷺ ومجاهد (ت 101هـ) وقتادة (ت 118هـ)"[3].

إنّ قولهم ذاك فيه قدحٌ في عقل النبيّ ﷺ بأنّه لا يميّز بين الصادق والكاذب، كانوا يعيّرونه بذلك فردّ الله عليهم كذبهم بما يخزيهم ويفضح غباءهم وجهلهم بأنه أُذن خير لهم لو كانوا يفقهون، فلا يؤاخذهم بل يقبل معاذيرهم، قال الزمخشري: "يعني: إنْ كان كما تقولون فهو خيرٌ لكم؛ لأنه يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سُوء دَخْلَتكم[4]، وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهرَ الإيمان أيّها المنافقون، حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين؛ مراعاةً لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أُذنٌ كما قلتم إلا أنه أُذنُ خيرٍ لكم لا أُذنُ سُوء، فسلّم لهم قولهم فيه لا أنه فُسّر بما هو مدح له وثناء عليه"[5].

8 – قال الله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [الحِجر: 6]ك.

قد سبق الكلام على هذه الآية في خطاب التهكّم[6]، والمقصود هنا بيان أنّ النداء فيها بمعنى الخبر، أي: أنت الذي نُزّل عليك الذكر، وهذا الخطاب وإن كان في ظاهره مدح للرسول والرسالة إلا أنه أُريد به الذمّ والتهكّم، والمعنى: يا من يدّعي نزول الذكر عليه من بيننا نحن لا نعبأ بك ولست فينا ذا شأن، إنك مجنون، حاشاه بأبي هو وأمّي بل هم المجانينُ ولكن لا يشعرون.

---

(1) – الزمخشريّ: الكشّاف، مج2 ص269.

(2) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج2 ص849.

(3) – المصدر السابق: مج2 ص861.

(4) – **الدَّخْلُ**: العَيب والرِّيبة، والدَّخَلُ: – بفتحتين – المكر والخديعة. [الرازي: مختار الصِّحاح، ص (200- 201)].

(5) – المصدر السابق: مج2 ص284.

(6) – ينظر الصفحة (132) من هذا البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا وقد يحمل قولهم: (**يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**) على التهكّم بالمعنى الأخصّ، أي: في الاصطلاح، وهو أن يوضع لفظ المدح موضع الذمّ، والمعنى: يا أيّها الذي لم ينزّل عليه شيء، أو يا أيّها الذي وقع عليه الجنون والوسواس فحسبه الذكرَ، فسمَّوا ذلك ذكراً تهكّماً؛ بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ [الحِجر: 11]ك، وإنما خاطبوه بذلك الخطاب تهكّماً وسخريةً وإظهاراً للحسد، فلعلّهم كان يَبلُغُهم قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾ أي: شرفٌ ورِفْعة، فاغتاظوا لذلك واستنكفوا أن يكون محمّدٌ ﷺ هو صاحبَ جَدِّهم ومجدِهم، لقد استكثروا عليه النبوّة وهو – صلوات ربي وسلامه عليه – أحقُّ بها وأهلُها، فتهكّموا به – قبّحهم الله – ولكن سيسخر الله منهم كما كانوا يسخرون، ويومَها سيعلمون أنهم كانوا ظالمين، يوم يَعَضّ الظالم على يديه يقول: (**يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**)، ولكن لا (لَوْ) ولا (لَيْتَ) تُجديان بعد قضاء الأمر، وصدق من قال[1]:

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مِنِّي **لَيْتٌ** *** إِنَّ **لَيْتاً** وَإِنَّ **لَوّاً** عَنَاءُ

9 – قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾ [النحل: 24]ك.

على قراءة (**أَسَاطِيرُ**) – بالضمّ – يكون المعنى: إذا سُئل الكفّار عن القرآن الذي أنزله الله على رسوله ما قولكم فيه؟ قالوا: هو أساطير الأوّلين وكَذبٌ واختِلاق، وهذا ذمّ صريح منهم للقرآن الكريم، أمّا على قراءة النصب فالمعنى: إذا سُئلوا عن قولهم في القرآن قالوا: أنزلَ أساطيرَ الأوّلين، وهذا ذمّ ضمنيٌّ للرسول والمرسِل والرّسالة؛ لأنّهم أثبتوا الإنزال الذي لا يكون إلا للوحي للأساطير، ولا يكون ذلك إلا على سبيل التهكّم والاستهزاء، قال أبو حيّان: "**وقُرِئَ** شاذّاً[2](**أَسَاطِيرَ**) بالنصب على معنى: ذَكَرتم أساطيرَ أو أَنزَل أساطيرَ على سبيل التهكّم والسخرية؛ لأنّ التصديق بالإنزال يُنافي (**أساطير**)، وهم يعتقدون أنه ما نَزَل شيءٌ ولا أنّ ثَمّ مُنزَل"[3].

10 – قال الله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً**﴾ [الإسراء: 37]ك.

(1) – البيت من الخفيف، وهو لأبي زبيد الطائي، وهو في المخصّص لابن سيده (ت 450هـ): مج5 ج10 ص50.

(2) – عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، مج5 ص612.

(3) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج5 ص484.

جاءت هذه الآية على طريق الإخبار ومعناها ذمّ كلّ متكبّر جبّار، قال الزمخشري: "إنّك لن تجعل فيها خَرْقاً بدَوْسك لها وشدّةِ وطْأتِك، وقُرِئ: **(لَنْ تَخْرُقَ)** – بضمّ الراء – **(وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً)** بتطاوُلك، وهو تهكّم بالمختال"[1].

11 – قال الله تعالى: ﴿**خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ [الأنبياء: 37]ك.

كلامٌ ظاهره الإخبار عمّا فُطر عليه الإنسان من العجلة والتسرّع، لكنّ المقصود به الذمّ والتوبيخ، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿**سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾، فالنهي عن الاستعجال بعد قوله: ﴿**خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾ دليل على أنه سِيق لأجل الذمّ، قال الزمخشري: "فأراد نهيهم عن الاستعجال وزجْرهم فقدّم أوّلاً ذمّ الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها ثم نهاهم وزجرهم"[2].

12 – قال الله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ**﴾ [غافر: 20]ك.

ذمّ الله الأصنام التي اتخذها المشركون آلهةً بأنها لا تَقضي بشيء لا بالحقّ ولا بالباطل، وليس القضاء صفةَ مدح أو ذمّ ولكنّ السياق في الذمّ، والمعنى: إنّ هذه الآلهة المدّعاة عاجزةٌ كلّ العجز، ثم إنّ نفي القضاء عنها تهكّم بها وبعبدتها؛ لأنها عبارة عن جماد والجماد لا يوصف بأنه يقضي أو لا يقضي، وإنما يكون ذلك للعاقل[3]، وقد نبّه على هذا المعنى الزمخشري في تفسيره[4]، وجَوَّز أن لا يكون في الآية تهكّم، وذلك إذا أخذنا بعموم قوله: ﴿**يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾، فليست كلُّ

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص668.

(2) – المصدر نفسه: مج3 ص117.

(3) – هذا القول فيه نظر وهو مبنيّ على مسألة عقيدية مهمّة، وهو أنّه من المتّفق عليه عند المسلمين أنّ الجماد يسبّح، لكن اختلفوا في حقيقة هذا التسبيح، فظنّت طائفة أنه تسبيح دلالة، أي أنه يدعوا مَن تأمّل فيه إلى تسبيح خالقه وباريه، وقالت طائفة أخرى – والحقّ معها إن شاء الله – إنه تسبيحٌ على الحقيقة لا يعلمه إلا الله بل وله صلاة أيضاً، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: 44]ك وغيرها من الآيات؛ لأنه من قال بأنه تسبيح دلالة فقد فقِه تسبيحه، والله يقول: ﴿**وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾، فإذا تبيّن هذا عُلم أنه يجوز أن يُعامل الجماد في الكلام معاملة العاقل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ فلَم يقل: يسبح، وقولِه: ﴿**وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ فلَم يقل: مُسخّرة بأمره، وهكذا في جميع القرآن ممّا يدلّ دلالة بيّنة على أنّ الجماد في حكم العاقل وإن خالف جنس العاقلين في كثير من الأمور، وعلى هذا لا يكون في الآية – أعلاه – ولا في نظائرها تهكّم ، والله أعلم.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص159.

المعبودات من دون الله جماداً، بل قد ثَبَت عبادةُ الحيوان والإنسان والملائكة والجانّ، ولكنّ المعنى الأوّل أَوْلى إذا رُوعي خصوصُ السبب.

13 – قال الله تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ [الزخرف: 29]ك.

ملحظ الذمّ والتوبيخ في هذه الآية خفيّ المأخذ لا يدرك إلا بعد التأمّل والنظر، وقد نبّه عليه الزمخشري في كشّافه حيث يقول: "فقال [الله ﷻ]: بل متّعتهم بما متّعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم...، فمثاله أن يشكو الرجل إساءةَ مَن أحسن إليه، ثم يُقْبِل على نفسه فيقول: أنت السببُ في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضُه بهذا الكلام توبيخُ المسيء لا تقبيحُ فِعله" [(1)].

14 – قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ [الأحقاف: 5]ك.

ذمّ الله تعالى تلك المعبودات بالعجز وعدم القدرة، فعبّر عن ذلك بقوله: (**مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ**)، وليست الاستجابة صفةَ مدح أو ذمّ ولكنّ السياق يدلّ على الذمّ بل وعلى التهكّم أيضا، ذلك أنّ الأحجار والأصنام التي عَبَدها كفّار قريش لا يُتصوَّر منها الاستجابة، وعليه فإنّ الإخبار عنها بأنها لا تستجيب هو على سبيل التهكّم والاستهزاء، قال الزمخشري: "ووصْفُهم بترْك الاستجابةِ والغفلة طريقهُ طريقُ التهكّم بها وبِعَبَدَتِها، ونحوُه: ﴿**إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ الآية"[(2)].

15 – قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [الصفّ: 8]م.

في الآية تهكّمٌ بالكفّار واحتقارٌ لمحاولاتهم لكَيْد الإسلام وأهلِه الأخيار، واستركاكٌ لعقولهم وتصغيرٌ لشأنهم وتيئيسٌ لهم عن المحاولة، بيان ذلك أنهم لما كذّبوا بالقرآن أرادوا إبطاله فرموه بالبهتان فقالوا هذا سحر أو هذيان، ومتى كان التعبير باللسان دليلاً على البطلان؟ لهذا تهكّم الله بهم بقوله: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾، قال الزمخشري: "وإطفاء نور الله بأفواههم تهكّم بهم في إرادتهم

(1) – الزمخشري: الكشّاف: مج4 ص247.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص296.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إبطالَ الإسلام بقولهم في القرآن هذا سحر، مُثِّلَتْ حالهم بحال مَن يَنفُخ في نور الشمس بفِيهِ ليُطفِئه ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهُ﴾، أي: متمُّ الحقِّ ومُبَلِّغُه غايتَه، وقُرئ بالإضافة"[1].

16 – قال الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: 30- 31]ك.

أخبر الله ﷻ عن ظلّ الكافرين الذين أُمروا بالانطلاق إليه بقوله: (**لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**)، لكن كيف يُسمّيه ظلاًّ وهو بهذا الوصف؟! لم يسمّه سواداً أو أيّ شيء آخر وإنما سمّاه ظلاًّ إشارةً إلى إرادة التهكّم بهم والاستهزاء حيث أمرهم بالانطلاق إلى ظِل ليس بظلّ، ثم سخر – سبحانه – منهم فقال: (**لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**)، قال الزمخشري: "(**لاَ ظَلِيلٍ**) تهكُّمٌ بهم وتعريضٌ بأنَّ ظلّهم غيرُ ظِلِّ المؤمنين"[2]، وأنّ الظل على الحقيقة هو ظل المؤمنين، أمّا الكافرون فليس لهم فيه حظّ إلا الاسم، وفي هذا زيادةُ عذاب عليهم؛ لأنّ فيه تأييساً بعد طمعٍ وتيئيساً بعد رجاء، وهو أشدُّ عليهم مِن كونِه حاصلاً لهم من أوّل الأمر، فالعطشان اليائس من طلب الماء أفضل حالاً ممّن أمّله في سراب فلمّا جاءه لم يجده شيئاً، أو كما قال الشاعر:

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ *** فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ

17 – قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ، وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: 15- 16]ك.

هذا الإخبار من الله ﷻ عن موقف الإنسان من ربّه حال بسطه عليه رزقه وقبضِه عنه، قُصد به الذمّ والتوبيخ لهذا الإنسان الذي لا يُحسن فهم الاختبار والابتلاء، قال الزمخشري: "فإن قلتَ: قد قال: (**فَأَكْرَمَهُ**) فصحّح إكرامه وأثبته، ثم أنكر قوله: (**رَبِّي أَكْرَمَنِي**) وذمّه عليه، كما أنكر قوله: (**أَهَانَنِي**) وذمّه عليه؟ فقلت فيه جوابان: **أحدهما** أنه إنما أنكر قوله: (**رَبِّي أَكْرَمَنِي**) وذمّه عليه؛ لأنه قاله على قصد خلافِ ما صحّحه الله عليه وأثبته، وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحِقّاً مستوجِباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم ...، **والثاني** أن يَنْساق الإنكار والذمّ إلى قوله: (**رَبِّي أَهَانَنِي**)، يعني أنه إذا تفضّل عليه بالخير وأكرمه به اعترف بفضل الله وإكرامه، وإذا لم

---

(1) – المصدر السابق: مج4 ص525.

(2) – المصدر السابق: مج4 ص680.

يتفضّل عليه سمّى ترك التفضل هواناً وليس بهوان، ويُعضِّد هذا الوجه ذِكْرُ الإكرام في قوله: (فَأَكْرَمَهُ)، وقُرِئ: (فَقَدَّرَ) بالتخفيف والتشديد"[1].

18 – قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ، حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: 1- 2]ك.

ظاهر الآية إخبارٌ بواقع الناس، ولكن حقيقتُها توبيخٌ وتقريع بالاشتغال بالدنيا عن الآخرة، قال السعدي: "يقول تعالى موبِّخاً عباده على اشتغالهم عمّا خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبّته على كل شيء: (أَلْهَاكُمْ)"[2].

المطلب الثاني

الذمّ بأسلوب التهكّم

قال ابن حِجّة الحموي: "والتهكُّمُ في الأصل التهدّمُ، يُقال: تهكّمت البئر إذا تهدّمت، وتهكّمَ عليه إذا اشتدَّ غضبُه، والمتهكِّم المختقِر. قال أبو زيد: تهكّمتُ: غضبتُ، وتهكّمتُ: تحقَّرتُ. اهـ، وعلى هذا يكون المتهكِّم لشدَّة الغضب قد أَوْعد بالبِشارة، أو لشدّة الكِبْر أو لتهاوُنه بالمخاطَب قد فعل ذلك، فهذا أصلُه في الاستعمال، وفي المصطَلَح هو عبارةٌ عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعْدِ في مكان الوعيد، والمدحِ في مَعرِض الاستهزاء"[3].

وقد تقدّم في المبحث التمهيدي – بتفصيل – بيانُ معنى التهكم، وأنه في الاصطلاح أخصُّ منه في اللغة؛ لأنه في اللغة بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح بمعنى تعكيس الكلام بحيث يوضع لفظُ الإجلال موضعَ التحقير والبشارةُ موضع التنذير، ونحو ذلك[4].

وقد توسّع القرآن الكريم في التهكّم بالكفّار والمنافقين والسخرية بهم والاستخفاف بعقولهم، وهو أسلوب شديدُ الوَقْع على النفس عظيمُ الأثر عليها؛ لِما فيه من الاحتقار والازدراء بالمتهَكَّم به، وكما قال الزمخشري: "والتهكّم مذهبٌ واسع، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها: ﴿فَبَشِّرْهُمْ

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص750.

(2) – السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص933.

(3) – ابن حِجّة الحمويّ: تقيّ الدين أبو بكر عليّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، مج1 ص215.

(4) – ينظر الصفحة (11) من هذا البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، و﴿**إِنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾، وقد يوجد كثيراً في كلام العجم"(1)، وإنّما خوطِبوا بهذا الأسلوب جزاءً لهم على تهكُّمهم واستهزائهم برُسُل الله وأوليائه، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾، قال الزمخشري: "وقد كثُر التهكّم في كلام الله تعالى بالكَفَرة، والمرادُ به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم والدلالةُ على أنّ مذاهبهم حقيقةٌ بأنْ يَسخرَ منها الساخرون ويَضحكَ الضاحكون"(2)، وممّا جاء منه في القرآن الكريم:

أوّلاً: (البِشارة) في موضع الإنذار:

البِشارة(3) إذا أُطلقت فإنّه يُراد بها الخبر السارّ، نحو قوله تعالى: ﴿**يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلاَمٌ**﴾ [يوسف: 19]ك، وتُستعمل في الشرّ بقَيد(4)، كما في قوله تعالى: ﴿**بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾ [النساء: 138]م، وذلك على وجه التهكّم(5)، وقال الزمخشري: "البِشارة: الإخبار بما يُظهر سرور المخبَر به...، ومنه البَشَرَةُ لظاهر الجلد، وتَباشير الصُّبح ما ظهر مِن أوائلِ ضوئه"(6)، وربّما أُطلِقت في الخير والشرّ من غير تفريق، فقد نَقل ابن منظور (ت 711هـ) عن ابن سِيده أنّ التبشير يكون بالخير والشرّ(7).

1 – قال الله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [آل عمران: 21]م.

قال السيوطي: "وذِكْرُ البشارة تهكّمٌ بهم"(8)، وكان الأصل أن يقال: (**فَأَنْذِرْهُمْ**)؛ لأنّ البشارة عادةً ما تكون في زفِّ الخبر السارّ، فاستعمالُها في غير هذا تهكّمٌ وسخرية وهزلٌ في مَعرِض جِدّ، وهو أشدّ في التعبير وأبعد شوطاً في التأثير، وإذا كانت البشارة تُستعمل في الأصل في الخير والشرّ، فعلى

---

(1) – الزمخشري: محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مج2 ص571.

(2) – المصدر نفسه: مج1 ص (66- 67).

(3) – جاء في لسان العرب: والبشارة – بالكسر والضمّ –، يُقال: بَشَّرْتُهُ بِمَوْلُودٍ فَأَبْشَرَ إِبْشَاراً، أي: سُرَّ. [ابن منظور: لسان العرب، مج3 ص57، مادّة: بشر].

(4) – ينظر مختار الصِّحاح للرّازي: ص53، مادّة: بشر.

(5) – قال ابن منظور: "كقوله تعالى: ﴿**فبشِّرهم بعذاب أليم**﴾، وقد يكون هذا على قولهم: تَحِيَّتُكَ الضَّرْبُ وعِتَابُكَ السَّيْفُ" [لسان العرب: مج3 ص57، مادّة: بشر].

(6) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص104.

(7) – المصدر السابق: مج3 ص ن. ولعلّه مأخوذ من تغيّر لون بَشَرة المبَشَّر إذا أُخبِر بالخبر المفرِح أو المحزِن.

(8) – السيوطي: تفسير الجلالين، ص44، ينظر الصور البيانية في القرآن لعبد القادر حسين: ص189.

هذا ودُونَ اعتبارٍ لشهرة استعمالها في الخير فإنه – عندئذٍ – لا يكون الكلام من باب التهكّم؛ لأنّه ليس فيه استخدامٌ للّفظ في ضِدّ معناه، لكنَّ حَمْله على التهكّم أنسبُ؛ مراعاةً لمقتضى الحال، حيث كان الكفّار في الدنيا يتهكّمون بالمؤمنين وإذا مرّوا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين، فأمر الله نبيّه أن يُبشّرهم إذا هم انقلبوا إلى ربّهم بما يحزنهم ويُخزيهم ويُؤْلمهم تهكّماً بهم وجزاءً لهم بالمِثْل على سُوء أعمالهم.

2 – قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 138]م.

3 – قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 3]م.

4 – قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]م.

5 – قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 7]ك.

6 – قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: 8]ك.

7 – قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: 24]ك.

فالبشارة في جميع هذه المواضع مُستخدَمة في معنى الإنذار والإخبارِ بالخبر الضارّ على سبيل التهكّم والاحتقار.

ثانياً: (الهداية) في معرض الإضلال:

معنى الهداية الإرشادُ والدلالة بلُطْف[1] إلى ما يُوصِل إلى المطلوب المرغوب السالِمِ من المحذور المرهوب، كما في قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: 4]ك، لكن قد تأتي على عكس المعنى السابق لغرض التهكّم، وقد جاء هذا في القرآن الكريم في موضعين:

1 – قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحجّ: 4]ك.

والشيطان يُضِلّ ولا يهدي، ولكنّ المعنى: التهكّم مع الزيادة في حَنَقِهم وغَيْظهم.

2 – قال الله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافّات: 23]ك.

هذا في حقّ المشركين حين تَدفعهم الملائكة بقوّة وتَسوقُهم بقسوة إلى النار وبئس القرار، فقد أتاهم الرسول البشريّ ليهديهم إلى صراط جنّة النعيم، فضلّوا واختاروا صراطَ الجحيم، فجاءهم الرسول الملائكيّ ليهديهم إلى ما اختاروه، وهذا تهكّمٌ بهم ظاهر، قال الراغب الأصفهاني:

(1) – الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص538، وينظر مختار الصِّحاح الرّازي: ص692، مادّة: هدى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

"إنْ قيل: كيف جُعلت الهداية دلالةً بلطفٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؟ قيل: ذلك استُعمل فيه استعمالَ اللفظ على التهكّم مبالغةً في المعنى، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"[1].

ثالثاً: (الثواب) في معنى العقاب:

يَغلُب استعمال كلٍّ من (الثّواب) و(المَثُوبَة) و(الإِثابة) و(التَّثْويب) في معنى الجزاء على الطاعة[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195]م، وقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 103]م، وقولِه: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [المائدة: 85]م، وقد تُستعمل في الشرّ، كما في قول الله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ مَا كَانَوْاْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطفّفين: 36]ك، بمعنى: جُوزُوا؛ لأنّ ثَوَّبَه بمعنى أَثَابَه، فالثواب والمثوبة تعني مطلق الجزاء لكنّ استعمالَها في الشرّ تهكّم، وذلك بالنظر إلى الاستعمال الأكثر في الخير، فتكون كاستعمال البشارة في الشرّ، قال الراغب الأصفهاني: "والثواب يُقال في الخير والشرّ، لكنّ الأكثر المتعارف في الخير...، وكذلك المَثُوبة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 60]م، فإنّ ذلك استعارةٌ في الشرّ كاستِعارة البشارة فيه"[3].

وفي القرآن الكريم استُعمِل الثواب في الشرّ – على الحقيقة أو على التهكّم – في موضعين:

1 – قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 60]م.

الأصل حمل **(مَثُوبَة)** في الآية الكريمة على مطلق الجزاء، وهذا المعنى هو الأظهر، لكن بالنظر في سياق الآية وأنّها في ذمّ الكافرين الذين قدحوا في المؤمنين بما يقتضي– على زعمهم – أنّهم على شرّ يمكن حملُها على التهكّم؛ على اعتبار غَلَبة استعمالها في ما هو خير، ولا يدخل في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: 153]م، مع أنّ الإثابة هنا في معنى العقوبة؛ لأنّ الخطاب مُوَجّهٌ إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وعليه يجب أنْ يُحمَل الكلام على معنىً مناسبٍ للمقام، ولعلّ أحسن ما قيل[4]فيه ما ذكره السعدي من أنّ الله

(1) – الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص538، مادّة: هدى.

(2) – ينظر مختار الصِّحاح للرّازي، ص89، مادّة: ثوب، ولسان العرب لابن منظور، مج1 ص (234– 235)، مادّة: ثوب.

(3) – المصدر السابق: ص83.

(4) – تنظر بقيّة الأقوال في تفسير القرطبي: مج4 ص240.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جَعلَ المِنْحةَ في المِحْنة، والمعنى: إنما قدّر ذلك الغمَّ والمصيبةَ عليكم لكي تتوطّنَ نُفوسُكم وتتمرَّنَ على الصبر على المصِيبات ويخفَّ عليكم تحمُّلُ المشقّات[1]، فالغمّ الذي نزل بهم ﷺ كان خيراً لهم في عاجل أمرهم وآجله، وإن ظهر بادئ الأمر أنّه شرٌّ لهم، وبناءً عليه يكون قوله: ﴿لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ: (أَثَابَكُمْ) لا بـ: (عَفَا)، ويكون استعمال لفظ الإثابة في هذا الموضع جارياً على أصل معناه، وفيه إشارة إلى حكمة الله تعالى في ما قضى وقدّر.

2 – قال الله تعالى: ﴿**هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ**﴾ [المطفّفين: 36]ك.

في قوله: (**ثُوِّبَ**) معنيان، **أحدهما** من التثويب، أي: الرجوع ومطلق الجزاء[2]، ويكون المعنى: هل رجعنا إليهم فجازيناهم على أفعالهم[3]؟ **والثاني** من الإثابة، أي: الجزاء بالحسنى[4]، وهذا على حسب غلبة الاستعمال في الخير، وعليه فإنّ استعمالها هنا في الشرّ والعقاب نوعُ تهكّم، وتكون كقوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ونحوه.

رابعاً: (الحليم الرشيد) في معنى: السفيه الغويّ:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ**﴾ [هود: 87]ك.

أنكر الكفّار دعوة شُعيب عليه السلام لهم إلى توحيد الله عز وجل وإيفاءِ الكيل والميزان وأجابوه بتهكّم[5]: ﴿**يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾، أي: إنّ هذا القول منك لا يَصْدع به إلا سفيهٌ غويّ، لكنّهم عكسوا الكلام تهكّماً وزيادةً في النِّكاية به؛ إذ لو كان عندهم الحليمَ الرشيدَ لما أنكروا عليه دعوته، وإلا كانوا تكلّموا بما هو حجّةٌ عليهم، ولكنْ قصدُهم – قبّحهم الله – أنّه موصوفٌ – حاشاه – بضِدّ ذَيْنِك الوصفين، أي: بالسَّفَه والغِواية، وفي ضِمْنه أنّهم وآباؤهم هم الحُلَماء الراشدون، فهذا التهكّم

(1) – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص153.

(2) – جاء في لسان العرب: **ثَابَ** الرَّجُلُ يَثُوب ثَوْباً وثَوَبَاناً: رَجَعَ بَعْدَ ذَهَابِهِ. [ابن منظور: لسان العرب، مج1 ص233، مادّة: ثوب]، وقال الراغب الأصفهاني: "**والثواب**: ما يَرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمّى الجزاء ثواباً تصوّراً أنّه هو هو". [الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص83، مادّة: ثوب].

(3) – الشعراوي: محمّد متولّي، المختار من تفسير القرآن الكريم، ج2 ص143، وينظر تفسير ابن كثير: مج4 ص2006.

(4) – قال الراغب الأصفهاني: "والإثابة تُستَعمل في المحبوب". [المفردات في غريب القرآن، ص84، مادّة: ثوب].

(5) – ينظر تفسير ابن كثير: مج2 ص936، تفسير القرطبي: مج9 ص87، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس: ص251.

مَبنيٌّ على ظَنِّهم الفاسد وفِكرهم البارد، أمّا على الحقيقة فالأمر كما قالوا، فهو الحليم الرشيد حقّاً وصِدْقاً، والعَجب منهم كيف يَذُمّونه بما هو مِن مَمادِحه ومَناقِبه؟!

خامساً: (العزيز الكريم) في معنى: الذليل المُهان:

قال الله تعالى: ﴿**ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ**﴾ [الدخان: 49]ك.

قال الزمخشري: "يُقال على سبيل الهزْء والتهكّم بمن كان يَتعزَّز ويتكرّم على قومه، ورُوي أنّ أبا جهل قال للرسول ﷺ: ما بين جَبليْها أعزُّ ولا أكرمُ مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئاً، وقُرئ: (**أَنَّكَ**) بمعنى: لأنّك [أي: ذق لأنّك أنت العزيز الكريم]"[1].

هذه الآية في ذمّ أبي جهل والتهكّم به، وهي على معنيين، **الأول**: ذق إنّك أنت الذليل المهان، قال ابن كثير: "أي: قولوا له ذلك على وجه التهكّم والتوبيخ، وقال الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنه، أي: لستَ بعزيز ولا كريم"[2]، وقال القرطبي: "وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي: قال له: إنّك أنت الذليل المهان، وهو كما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿**إِنَّكَ لأَنْتَ الحلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾، يَعنون: السفيه الجاهل"[3]، **والثاني**: ذق إنّك أنت العزيز الكريم في نفسك بزعمك[4]، فقد قلتَ: ما بين جبَليْها أعزُّ ولا أكرمُ مني، فأين ذهبت العِزّة وأين غادرت الكرامة وأنت اليوم أحوج إليهما من أيِّ وقت مضى؟ ويَشهد لهذا المعنى القراءة الأخرى[5]، وهي: (**أَنَّكَ**) بدلاً من: (**إِنَّكَ**)، والفرق بين القراءتين هو أنّ الأولى فيها استعمالٌ للّفظ في ضدّ معناه، والثانية على سبيل الحكاية لما كان يتمدّح به في الدنيا، والغرض في الحالين واحد وهو التهكّم به والسخرية من حاله.

سادساً: (قادرين) في معنى عاجزين:

قال الله تعالى: ﴿**وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ**﴾ [القلم: 25]ك.

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص282.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1697.

(3) – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج9 ص87.

(4) – المرجع السابق: مج9 ص87.

(5) – قال العبّاس بن مجاهد: "قرأ بها الكِسائي وحده: (**ذُقْ أَنَّكَ**) – بفتح الألف –، وقرأ الباقون: (**ذُقْ إِنَّكَ**) كَسراً" [ابن مجاهد: كتاب السبعة في القراءات، ص593].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معنى (**قَادِرِينَ**) مستطيعون، والمعنى: وغدوا على منعٍ لِحَقّ الله جازمين – في ظنّهم – أنهم قادرون عليه[1]، لكنْ يُحتمَل أن يكون الكلام قد سيق مَساق التهكّم والسخرية، فتكون (**قَادِرِينَ**) بمعنى: عاجزين غيرَ قادرين، قال الزمخشري: "(**قَادِرِينَ**) في عكس الكلام للتهكّم"[2]؛ إذ كيف يَغفُلون عن ربوبيّة الله الكاملة ومشيئتِه النافذة، وهو الذي إذا شاء شيئاً كان وإن لمْ يشأْهُ لم يكن؟ وأين قدرتهم من قدرة الله العظيم؟ فالله هو القادر الفعّال لما يريد على الحقيقة، وما سواه فقيرٌ عاجزٌ من كلّ وجه، وبهذا يُعلَم أنّ الله ﷻ لما وَصف أولئك بأنّهم قادرون على فِعْل ما همّوا به من صِرام جنّتهم، ومنع حقّ الفقراء والمساكين منها ظانّين أنه لن يَحول بينهم وبين ذلك حائل أراد أن يستهزئ بهم.

سابعاً: (الإغاثة) في مقام الإهلاك:

قال الله تعالى: ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ**﴾ [الكهف: 29]ك.

الاستغاثةُ طلب الغَوْث، وتكون في النُّصْرة، يقول الواقع في بَلِيّة: أَغِثني، أي: فَرِّجْ عنّي[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**﴾ [الأنفال: 9]، ويوم القيامة يستغيث الكفّار وقد أحاطت بهم النار بالملك الجبّار، فيُغيثهم بما لا نصرة فيه سوى أنّه يزيد في معاناتهم وعذابهم، وهذا إهلاكٌ لا إغاثةَ فيه، وسُمّي إغاثة على سبيل التهكّم[4].

ثامناً: التيسير مكان التعسير:

قال الله تعالى: ﴿**فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ**﴾ [الليل: 10]ك.

قال الفرّاء: "ويقول القائل: فكيف قال: (**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**) فهل في العسرى تيسير؟ فيقال في هذا: في إجازته بمنزلة قول الله تبارك تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [التوبة: 3]ك، والبشارة في الأصل على المفرح والسارّ، فإذا اجتمعت في كلامين هذا خير وهذا شرّ جاء التبشير فيهما جميعاً"[5].

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج4 ص1931.

(2) – الزمخشري: الكشاف: مج4 ص591.

(3) – ينظر لسان العرب، مج1 ص899، المفردات في غريب القرآن: ص367، مختار الصِّحاح للرازي: ص483.

(4) – قال ابن فارس: "ومن الباب [أي: **التهكّم**]: أتاني فَقَرَيْتُهُ جَفَاءً وَأَعْطَيْتُهُ حِرْمَاناً". [الصاحبي في فقه اللغة: ص250].

(5) – الفرّاء: أبو زكريّا يحيى بن زياد، معاني القرآن، مج3 ص271.

المطلب الثالث

المدح والذمّ بأسلوب النفي والترجّي والتحضيض والقَسَم

الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب النفي:

يقع المدح والذمّ بأسلوب النفي بنفيِ صفةٍ ليست للمدح أو الذمّ أصالةً، فينشأ بنفيها المدح والذمّ مفهوماً من السياق والقرائن المحتفّة، لا من نفي تلك الصفة بعينها، وقد وجدتُّ في القرآن الكريم مثالا واحداً – ولعلّه الوحيد – للمدح والذمّ بهذا الأسلوب، وقد ورد في سياق المدح، وهو قول أولئك النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام فانبهرن من جماله وقطّعن أيدهنّ وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31]ك، وإنّما قلن ذلك؛ لأنهنّ لم يَرَيْن في النسمة البشرية شبيهاً بيوسف عليه السلام؛ لِما أُعطي من الحسن الفائق والخلق السامق ما كان به آية للناظرين وعِبرةً للمتأمّلين، ووجهُ المدح في نفي البشريّة عنه هو ما يلزم منه من إثبات المَلَكيّة له؛ لأنّها في طِباع البشر تمثِّل الغاية القصوى في الحسن والطهر والجمال، قال الزمخشري: "نَفَيْن عنه البشريّة لغرابة جماله ومُباعدة حُسنه لما عليه محاسنُ الصُّوَر"[1].

الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب الترجّي:

يوجد حسب التتبّع مثال واحد – وهو في الذمّ – لهذا الأسلوب في القرآن الكريم، وهو:

قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 58]ك.

إنّ الضمير في: **(إِلَيْهِ)** إمّا عائدٌ على كبير الأصنام أو على إبراهيم عليه السلام، فإن عاد على إبراهيم عليه السلام فيكون المعنى: كَسرَ إبراهيم الأصنام وترك كبيرها لعلّ قومه إذا رأوا ذلك رجعوا إليه فسمعوا حجّته، فيكون ذلك أدعى لقبولها، وإن كان الضمير عائداً على كبير الأصنام، فالمعنى عندئذ ما ذكره ابن كثير من أنه وضع عليه السلام القَدوم في يد كبيرهم لعلّهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأَنِفَ أن تُعبَد معه هذه الأصنام الصِّغار فكسرها[2]، وبناءً على القول الأخير فإنّه في: **(لَعَلَّ)** احتمالان – وكلاهما مقصود –، **الأوّل:** **(لَعَلَّ)** على بابها، وأنّ إبراهيم عليه السلام كان يرجو أن يرجع قومُه إلى كبير الأصنام باللوم والاحتقار ليكتشفوا حقيقة ما هم عليه من الضلال، **والثاني:** **(لَعَلَّ)** أفادت معنىً

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص466.

(2) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1217.

آخر غير معناها الأصيل الذي هو الترجّي أو التمنّي وهذا المعنى هو الاستهزاء والتهكّم، يوضّحه أنّ إبراهيم عليه السلام كان يعلمُ أنّ كبير الأصنام كصغيرها، حجارةٌ لا تنفع ولاتضرّ، فرجاءُ رجوعِهم إلى كبير الأصنام فيه إلزامٌ للحجّة وتنبيهٌ على الضلال لعلّهم يُفيقون من غفلتهم، وهو مع هذا لا يخلو من سخرية وتهكّم بهم واستخفافٍ واستركاك لعقولهم.

الفرع الثالث: الذمّ بأسلوب التحضيض:

(**لَوْلاَ**) بمعنى (**هَلاَّ**)، وكلاهما للتحضيض، وهو الحثّ على فعل الشيء[1]، قال ابن مالك:

وَبِهِمَا التَّحْضِيضُ مِزْ وَهَلاَّ *** أَلاَّ أَلاَ وَأَوْلِيَنْهَا الفِعْلا

قوله: (**بهما**) يعني: لَوْلاَ ولَوْمَا، ولهما استعمالان، **أحدهما**: أن يكونا دالّين على امتناع الشيء لوجود غيره، **والثاني**: الدلالة على التحضيض، ويختصّان عندئذ بالفعل، نحو: لولا ضربتَ زيداً، ولوما علّمت عمراً، وقد تخرجان إلى معنى التوبيخ، وذلك إذا وَليهما فعل ماض، قال ابن عقيل: "فإن قَصدتَ بهما التوبيخَ كان الفعل ماضياً، وإن قَصدتَ بهما الحثَّ على الفعل كان مستقبَلاً بمنزلة فعل الأمر"[2]، وفي القرآن الكريم جاءت (**لَوْلاَ**) دالّةً على التوبيخ في موضعين، هما:

1 – قال الله تعالى: ﴿**لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة: 63]م.

وقع الفعل بعد (**لَوْلاَ**) مضارعاً، وعليه فهي تدلّ على التحضيض، لكن بالنظر إلى السياق والقرائن نجد أنّ الفعل وإن كان مضارعاً فإنّ معناه ماض، ويكون المعنى: هلاّ كان ينهاهم الرَّبّانيّون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك[3] فـ (**لَوْلاَ يَنْهَاهُمْ**) بمعنى: لولا نهاهم، فهي إذاً للتوبيخ، ولو أُجريت على التحضيض لكان المعنى: الإرشادُ إلى ضرورة الحثِّ على الخير والنهي عن الشرّ والقيامِ بمسؤوليّة الدعوة إلى الله، وكِلاَ المعنيين صحيح، والأوّل أَوْلى؛ لأنه يتضمّن القول الثاني، وقد روى الطبري عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: "ما في القرآن آيةٌ أشدُّ توبيخاً من هذه الآية"[4].

---

(1) – ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم، لسان العرب، مج4 ص573، مادّة: حضض.

(2) – ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله العقيلي، شرح ألفيّة ابن مالك، مج2 ص361.

(3) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص609.

(4) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 مج2 ص93، وتفسير ابن كثير: مج2 ص609.

2 – قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [يونس: 98]ك.

قال ابن كثير: "فهلاّ كانت قريةٌ آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثْنا إليهم الرسل"[(1)]، أي: على سبيل التوبيخ كما تقدّم في: (**لَوْلاَ**) التوبيخيّة، فقد وليها فعل ماض، ولهذا قال أبو حيّان: "و(**لَوْلاَ**) هنا هي التحضيضية التي صحبها توبيخ، وكثيراً ما جاءت في القرآن للتحضيض، فهي بمعنى: (هَلاَّ)، وقرأ أُبيّ [ابن كعب (ت 20هـ)] وعبد الله [ابن مسعود (32 هـ)]: (**فهلاّ**)، وكذا هو في مصحفيهما، والتحضيض: أن يريد الإنسان فعلَ الشيء الذي يَحُضّ عليه، وإذا كانت للتوبيخ فلا يُريد المتكلِّم الحضّ على ذلك الشيء، كقول الشاعر[(2)]:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ *** بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلاَ الكَمِيَّ المقَنَّعَا

لم يقصد حضّهم على عَقْر الكَميّ المقنّع[(3)]، وهنا وبّخهم على ترك الإيمان النافع، والمعنى: فهلاّ آمن أهل القرية وهم على مَهَل لم يتلبّس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحال"[(4)]، وقال الفرّاء إنّ (**لَوْلاَ**) للجَحد[(5)]، أي: النفي، والتقدير: لم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، وبنحوه قال الزمخشري[(6)].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج2 ص917.

(2) – البيت من الطويل، وهو لجرير في ديوانه، ص415، قاله يخاطب الفرزدق حين افتخر بأبيه غَالِبٍ في مُعاقرة سُحَيم ابن وُثَيل الرِّياحي، في مائة ناقة بموضع يُقال له صَوْأَر على مسيرة يوم من الكوفة. [لسان العرب: مج3 ص457] **والنِّيب** جمع ناب، وهي الناقة المسنّة. [لسان العرب: مج1 ص713، مادّة: نيب]، **والضَّوطرى**: الحمقى، ويقال للقوم إذا كانوا لا يُغنُون غَناءً: بنو ضوطرى. [لسان العرب: مج3 ص457، مادّة: ضطر]، **والكَمِيُّ**: الشجاع المتكمّي في سلاحه، أي: المتغطّي المتستِّر بالدِّرع والبيضة، والجمع: الكُماة. [مختار الصِّحاح: ص579، مادّة: كمي]، **والمقنَّع**: المغطّى رأسُه الداخلُ في سلاحه الذي على رأسه البيضة والمِغْفَر. [ينظر لسان العرب: مج5 ص274، مادّة: قنع].

(3) – إنّما قَصد توبيخهم، والمعنى: هلاّ تَعُدّون قتل الفرسان الشجعان أفضلَ مجدكم بدلَ عقر النوق المسنّة التي لا يُنتفع بها.

(4) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج5 ص192.

(5) – الفرّاء: أبو زكريّا يحيى بن زياد، معاني القرآن، مج1 ص479.

(6) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص203.

الفرع الرابع: **المدح بأسلوب القَسَم**.

في القرآن الكريم مثال واحد لهذا الأسلوب، وهو في المدح في قوله تعالى: ﴿**فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات: 23]ك، لقد تمدَّح الله ﷻ بأعظم قدرة وأكمل عِظة حاصلة من ربوبية السماء والأرض، وتحقيقِ الوعد بالرزق المستفاد من القَسَم، حيث أخبر أنّ الرزق في السماء وأنه هو ربّ السماء، فيلزم من هذا بيان قدرته على الرزق الموعود به فأقسم على ذلك، وإنما أراد الفخر والمدح والتعظيم، وهذا الأسلوب تعرفه العرب، فقد كان الشاعر منهم يقصد الحَلِف على شيء فيحلف بما يكون له مدحاً ويُكسبه فخراً أو بما يكون هجاءً للغير، لكن ما جاء في كتاب الله هو المقدّم في هذا الباب وهو الذي انتهت إليه نهاية البلاغة[1].

(1) – ينظر خزانة الأدب لابن حجّة الحمويّ: مج1 ص (322– 323).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم

وفيه ستة مبحثان:

المبحث الأول: الأساليب الدالة على المبالغة في المدح والذم في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الأساليب البديعية للمدح والذم في القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Article I. بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم

إنّ إدراك الكلامِ البليغ لا يتأتّى إلاّ عن طريق البحث والدراسة والتأمّل؛ من أجل ذلك جاء علم البلاغة ليكشف للدارسين عن العناصر البلاغيّة المميّزة للكلام البليغ من غيره، وليس في الوجود كلامٌ أبلغ من كلام ربّ العالمين؛ إذ لا نظم يدانيه على الإطلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصّلت: 41- 42]ك، وقال أيضاً: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]م.

إنّ علم البلاغة هو السبيل إلى إثبات هذا التفوّق للنظم القرآني على سائر ما جادت به قرائح الفطاحل، ومن هذا وإتماماً لفائدة البحث كان لابدّ من دراسة بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم المتمثّلة في قوة نظمه العجيب، والنظمُ البليغ - كما بيّنه الجرجاني (ت 471 هـ) - هو أن يوضع الكلام وضعَه الذي يقتضيه علم النحو والعملُ وِفقَ قوانينه وأصوله، ومعرفةُ مناهجه فلا يُزاغ عنها، ولا يُخَلُّ برسومه التي رُسِمت في وجوه كلّ باب وفروقِه، والنظرُ في الجُمل التي تُسرَد فيُعرَف موضعُ الفصل فيها من موضع الوصل، ويعرف فيما حقُّه الوصل، وموضعُ (الواو) من موضع (الفاء)، وموضعُ الفاء من موضع (ثم)، وموضع (لكن) من موضع (بل)، ومعرفةُ كيفيّة التصرّف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام، وفي الحذف والتكرار والإخبار، فيوضع كلاًّ من ذلك مكانَه، وتُستعمَل على الصِّحة وعلى ما ينبغي[1]، فإذا عُلم هذا وجب دراسة بلاغة المدح والذمّ في ضوء تلك الرسوم المرسومة والمناهج المعلومة.

إنّ أساليب المدح والذمّ كثيرة ومتعدّدة في القرآن الكريم، منها ما هو صريح ومنها ما هو ضمنيّ، ولكلّ أسلوب بلاغته وقيمته الفنيّة، قال عبد القاهر الجرجاني: "...، ووجدتُّ المعوَّل على أنّ ههنا نظماً وترتيباً وتأليفاً وتركيباً وصياغة وتصويراً ونسجاً وتحبيراً، وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه سبيلُها في الأشياء التي هي حقيقة فيها"[2]، والمعتبر في هذا هو مدى إثبات معاني الكَلِم لما تُثبَت له ويُخبَر بها عنه، وفي هذا يقول الجرجاني: "وأنْ يُعلَم أنْ ليس لنا إذا نحن تكلّمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شُغْلٌ ولا هي منّا بسبيل، وإنما نَعمَد إلى

(1) - ينظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ص (94- 95) .

(2) - المصدر نفسه: ص49.

الأحكام التي تحدُث بالتأليف والتركيب، وإذْ قد عرفتَ مكان هذه المزيّة والمبالغةِ التي لا تزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبَت، فإنّ لها في كل واحد من هذه الأجناس سبباً وعلّة"[1].

وتتمثّل بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم في مجموعة عناصر بلاغية، يتبيّن من خلالها مدى تأثير المدح والذمّ على نفس المخاطب وقلبه، وبالتتبُّع للنصوص القرآنية المتعلّقة بالمدح والذمّ، وبالنظر في أقوال العلماء والمفسِّرين فيها، وبالتأمّل في تراكيب جملها ومفرداتها، فإنه يمكن القول بأنّ مناط الحسن فيها يرجع إلى مجموعةِ عناصرَ تتمثّل في ما يلي:

المبحث الأول

الأساليب الدالة على المبالغة في المدح والذم في القرآن الكريم

المطلب الأول: استخدام صِيَغ المدح والذمّ الدالّة على المبالغة

يذكر علماء النحو أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" هما الأصل في المدح والذمّ، وأنه لا بدّ لهما من مرفوع هو الفاعل، ومن مخصوصٍ هو المقصود بالمدح أو الذمّ، وتتمثّل بلاغة هذا الأسلوب في كون "نِعْمَ وبِئْسَ" تدلاّن على المبالغة في المدح والذمّ[2] يدلّ على ذلك أنهما تحتاجان إلى فاعل ومخصوص، أمّا الفاعل فيكون محلّى بالألف واللام الدالّة على الجنس حقيقةً أو مجازاً، كما في قوله تعالى: ﴿**فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الأنفال: 40]م، فيقع المدح – أوّلاً – على جنس المولى والنصير، ويدخل فيه الله ﷻ دخولاً أوّليّاً ثم يُخصُّ بالمدح بعد المدح العام فيكون قد مُدح مرّتين، وهذه هي المبالغة في المدح، وكذا الأمر إذا كانت اللام للجنس مجازاً؛ لأنّك ستجعل المقصود بالمدح أو الذمّ كأنه الجنسُ مبالغةً، مثاله قوله تعالى في مدح أيّوب ؑ: ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ**﴾ [ص: 44]ك، فجُعل كأنه جنسُ العباد كلِّهم، أي: المتعبِّدين لله تعالى على جهة المبالغة[3]، وقد تكون اللام للعهد، فإن كانت للعهد الذهني فإنّ مَدخُول "نِعْمَ وبِئْسَ" فَردٌ مبهم يحتاج إلى تفسير، كقوله تعالى: ﴿**نِعْمَ الثَّوَابُ**﴾ [الكهف: 31]ك، فمعنى الثواب معروف، لكن أيُّ ثواب موعودٍ به؟ فيُؤتى بالمخصوص

---

(1) – المصدر السابق: ص84 .

(2) – ينظر شرح تسهيل الفوائد لابن مالك: مج3 ص8.

(3) – ينظر المقرّب لابن عصفور: مج1 ص68.

للتعيين والتفخيم، وإن كانت للعهد الخارجيّ فهي من باب وضعِ الظاهر – وهو المخصوص – موضعَ المضمر، وفيه من الاهتمام والتفخيم ما فيه(1).

والحاصل أنّ اللام في فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" سواء كانت للجنس أو للعهد فهي تؤدّي معنىً بلاغيّاً يزيد المدح أو الذمّ قوّةً ومُبالغة، قال عبّاس حسن: "(أل) الجنسيّة أقوى وأبلغ في تأدية الغرض، والعهديّةُ أوضح وأظهر"(2).

ولم يكتف القرآن الكريم باستخدام أسلوب المدح والذمّ بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" حتى ألحق بهما أساليب أخرى تتمثّل في الفعل الثلاثي الذي على وزن "فَعُل" مُراداً به المدح أو الذمّ، أمّا "نِعْمَ وبِئْسَ" فتدلاّن على المدح أو الذمّ العامّ وقد يصحبه تعجّب، وأمّا ما يلحق بهما فيدلّ على المدح أو الذمّ الخاصّ مع إفادة معنى التعجّب، ولاشكّ أنّ معنى التعجّب ذو صلة شديدة بالمدح أو الذمّ، قال ابن السرّاج: "وماكان مثلَ: كَرُم رجلاً زيد، وشَرُف رجلاً زيد إذا تعجّبتَ فهو مثلُ: نِعْمَ رجلاً زيد؛ لأنّك إنما تمدح وتذمّ وأنت متعجِّب، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿**سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**﴾ وقولُه: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾"(3)، وخالف في هذا عبّاس حسن فقال: "المراد بالعموم هنا [أي: "نِعْمَ وبِئْسَ"] في المدح وفي الذمّ أنه ليس مقصوراً على شيء معيّن، ولا على صفة خاصّة، ولا يتّجه إلى أمر دون آخر، ولا يتضمّن معنى التعجّب كما نصّ على هذا الخضري في آخر الباب، بل يتّجه بغير تعجّبٍ إلى كلّ أمور الممدوح أو المذموم"(4) لكن ليس مطلقاً فقد يدخلهما معنى التعجّب، وقد أشار الزمخشري إلى هذا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾ فقال: "للتعجّب من سوء فعلهم مُؤَكّداً لذلك بالقسم، فيا حسرةً على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المنكر"(5).

ومن هنا نَخْلُص إلى أنه إذا أراد المتكلّم المدح أو الذمّ العامّ فإنه يستخدم "نِعْمَ أو بِئْسَ"، فإن كان المدح أو الذمّ خاصّاً فإنّه يستعمل ما أُلحق بهما، وإن كان المقام يقتضي تعجّباً، ففي هذه الحالة يَستخدِم الأسلوبين، وبِقدْرِ موافقةِ الكلامِ لمقتضى الحال تكون البلاغة والبراعة، وفي القرآن الكريم

(1) – ينظر شرح ابن عقيل: مج2 ص151، وكلام المحقّق محمّد محيي الدين عبد الحميد في هذه المسألة.

(2) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص374.

(3) – ابن السرّاج: الأصول في النحو، ج1 ص116.

(4) – عبّاس حسن: النحو الوافي، مج3 ص369. [ذكره في الهامش رقم (3) من الصفحة المذكورة].

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص665.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حينما يمدح الله نفسه أو أنبياءه فإنه يستخدم "نِعْمَ" الدالّة على المدح العامّ، وإذا أراد مدح الجنّة أو ذمّ النار فإنه يُنوّع الأسلوب، فتارة يستخدم "نِعْمَ أو بِئْسَ" وتارة يستخدم ما يلحق بهما؛ لأنّ الجنّة تُمدح ويُتعجّب منها في آنٍ واحد، بينما لا يظهر هذا المعنى – وإن كان موجوداً – في مدح الله تعالى أو أنبيائه، وهكذا يرى المتتبّع لأساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم ذلك التناسب الكلّي بينها وبين الحالة النفسيّة والشعورية للمخاطَب؛ ممّا يدلّ على كمال بلاغة القرآن الكريم.

لكن قد يقال: إنّ القول في: "نِعْمَ وبِئْسَ" وما يلحق بهما قد يقال أيضاً في: "حَبّذا" و"لا حَبّذا"، فلماذا هجر القرآن الكريم استخدامهما مع أنهما مستعملتين في كلام العرب؟ ثم إنّ "حَبّذا" و"لا حَبّذا" إضافةً إلى دلالتهما على المبالغة في المدح أو الذمّ فإنهما تتضمّنان تقريب أو إبعاد الممدوح أو المذموم من القلب، قال السيوطي: "إلاّ أنّ بينهما [أي: بين "نِعْمَ" و"حَبَّذا"] فرقاً، وهو أنّ "حَبّذا" مع كونها للمبالغة في المدح فتتضمّن تقريب الممدوح من القلب"[1].

والجواب هو أنّ القرآن الكريم كلام الله فريدٌ في نظمه عجيب في تأليفه، فقد أعجز العرب البلغاء والجهابذة الفصحاء، فإذا بدّل لفظاً مكان لفظٍ أو أغرب فيه أو كرّره أو قدّمه أو أخّره، فلا يمكن أن نعلّل ذلك، ولكن في الإمكان استنباطُ وجهِ الحكمة، ولعلّ الحكمة في ذلك هي أنّ "نِعْمَ وبِئْسَ" أوسعُ استعمالاً من: "حَبّذا" و"لا حَبّذا"، ففاعل "نِعْمَ" يَرِد مذكّراً ومؤنّثاً، مجموعاً ومثنّى ومفرداً، محلًّى بالألف واللام وغير محلًّى بهما، وله صوَر كثيرة ذُكرت في بابها، وأمّا "حَبّذا" ففاعلها لا يكون إلا اسم الإشارة "ذا" وبالتالي سيكون على حالة واحدة من الإفراد والتذكير في جميع الاستعمالات، وأمرٌ آخر هو أنّ المخصوص في: "نِعْمَ" يجوز أن يتقدّم عليها في قولنا: زيدٌ نِعْمَ الرجلُ، أمّا في "حَبّذا" فلا يجوز أن يتقدّم عليها في قولنا: زيدٌ حَبّذا، ثم إنه يجوز دخول نواسخ الابتداء على مخصوص "نِعْمَ"، ولا يجوز دخولها على مخصوص "حبّذا"، فكلّ هذه الفوارق وغيرها تعتبر مرجّحات لـ: "نِعْمَ" على "حَبّذا" في أصل الاستعمال، وليس ذاك بقاعدة مطّردة ولكنّه جارٍ على الأغلب.

ولقائلٍ أن يقول: إنّ الأنبياء هم أصفياء الله وأحبّاؤه، فكان الأَوْلى أن يُمدحوا بـ: "حَبّذا" بدلَ "نِعْمَ" لما فيها من معنى القُرْب والحبّ إضافةً إلى معنى المدح، أمّا "نِعْمَ" فليس فيها إلا المدح؟ ويجاب عن هذا بأنّ المدح من الله دليلُ المحبّة، فإن لم تَثبت باللّفظ الصريح فقد ثبتت بالدليل الصحيح مع

---

(1) – السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر، تحقيق: غازي مختار طليمات، مج2 ص470.

الاستعمال الفصيح، ذلك بأنّ "حبّذاً أصلُها ثلاثيٌّ مضاعف مضموم العين، وهو وزنٌ ينذُر في المضاعف، قال ابن مالك: "وأصل حبّ حَبُبَ، وهو وزن يَندُر في المضاعف لاستثقال ضمّةٍ لعينٍ تماثِلُها اللام، لكنْ سهَّله هنا عدمُ ظهور الضمّة للزوم الإدغام وعدمِ التصرُّف، بخلاف: لَبَّ الرجلُ، فإنه يقال فيه: لَبُبْتَ ولم تَلْبُبْ، فثقُل وقَلَّتْ نظائرُه"[1]، فيقال: ما يَرِد على: "حبّ" في أصلها من الثقل ونُدرة الوزن لا يَرِد على: "نِعْمَ"، وهذا ممّا يرجِّح استعمال "نِعْمَ" على: "حَبّذا".

المطلب الثاني

استخدام صيغة المبالغة في المدح والذمّ

من صيغ المبالغة التي استخدمها القرآن الكريم في المدح أو الذمّ (فَعُول) و(فَعِيل) و(فَعَّال)، وأكثرها جاء في المدح، وأكثر ما ورد منها في المدح جاء في الأسماء الحسنى المتضمّنة لصفات الله الدالة على الكمال المستوجبةِ لكمال الحمد والمدح، فممّا جاء منها على (فعول): ودود، غفور، شكور، رؤوف، وهي أسماء تدلّ على المبالغة في الحبّ والغفران والشكر والرأفة، ومما جاء على (فعيل): رحيم، عليم، قدير، وهي تدل على سعة الرحمة والعلم والقدرة، ومما جاء على: (فعّال): الوهّاب، الغفّار، التوّاب، الرزّاق، الجبّار، القهّار، الفتّاح، الفعّال لما يريد، وهي تدل على المبالغة في كثرة مواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته وسعة مغفرته، وكونِه لم يزل يتوب على التائبين مهما كثرت ذنوبهم، وسعةِ خزائنه وكثرة فضله ورزقه، وقوةِ جبروته وقهره وكمال حكمته، وكثرة فتحه لعباده أبواب رحمته، وأنه من كمال قوته ونفوذِ مشيئته وقدرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد بلا ممانع ولا منازع، فتبارك الله رب العالمين.

ومن استخدام صيغة المبالغة في المدح ما جاء في مدح يوسف عليه السلام بالصِّدِّيقيّة على لسان رسول الملِك حين ناداه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: 46]ك، قال الزمخشريّ: "أيّها البليغ في الصدق"[2]، أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله[3]، ونحوه قوله ﷻ في مدح مريمَ ابنةِ عمران: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]م، والصدِّيقيّة: هي العلم النافع المثمر لليقين والعمل الصالح[4].

---

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص23.

(2) – الزمخشريّ: الكشّاف، مج2 ص476.

(3) – ينظر تفسير السعدي: ص399، والتحرير والتنوير لابن عاشور: مج12 ص284.

(4) – ينظر المرجع نفسه: ص240، وقال الكفويّ: "والصِّدِّيقيّة: درجة أعلى من درجات الولاية وأدنى من درجات النبوّة، ولا واسطة بينها وبين النبوّة، فمن جاوزها وقع في النبوّة بفضل الله في الزمان الأول". [الكفوي: الكلّيات، ص557].

ومن استخدام صيغة المبالغة في الذمّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]ك، وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72]م، فقد ورد كلٌّ من: (كفَّار) و(ظَلُوم) و(جَهُولاً) بصيغٍ تدلّ على المبالغة في الوصف، وتتأكّد المبالغة باستخدام الأسلوب الخبري الإنكاري المؤكَّد بـ: (إنّ) و(اللام)، والفائدة التربوية التعليمية في هذه المبالغات في ذمّ الإنسان هي وعظ وتنبيه هذا المخلوق وتحذيره من مغبّة سلوك سبيل الغيّ وترك سبيل الرشاد؛ إذ كان لا بدّ للإنسان أن يسلك أحد هذين الطريقين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2]م، فالله ﷻ هو الذي خلق الإنسان، وأنعم عليه بالنعم الكثيرة التي يُستبعد التفكير في عدّها فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ولم يقل: (وإذا تَعُدّوا)، وعلى فرض وجودها فمستحيل إحصاؤها: ﴿لاَ تُحْصُوهَا﴾، ومِن هنا كان مَن يقرأ صدر هذه الآية يستبعد أن يحصل من هذا الإنسان المسبَغ عليه بالنِّعم الظاهرة والباطنة ظلمٌ أو كفر؛ لأجل هذا ذمّه الله بهذا الذمّ البليغ المؤكَّد بمؤكِّدين مع مجيء الوصفين بصيغة المبالغة، وأمّا قوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ فلأجل عِظم شأن الأمانة التي ائتمنه عليها، التي هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، حيث عُرضت على أعظم المخلوقات عرضَ تخيير لا تحتيم فأبين أن يحملْنها خوفاً أن لا يقمن بما حُمّلن – لا عصياناً لربها أو زهداً في ثوابه – وحملها الإنسان مع ما فيه من الظلم والجهل؛ فلذلك حُقّ أن يؤكِّد ويبالغ في ذمّ جنس الإنسان تنبيهاً وتنشيطاً للمؤمن، وتوبيخاً وتقريعاً للكافر، قال السكّاكي: "توبيخٌ للإنسان على ما هو عليه من الظلم والجهل في الغالب"[1].

ومن ذلك ما جاء في ذمّ اليهود في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: 41]م، وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]م، فجاء كلٌّ من: (سمّاعُونَ) و(أَكّٰلُونَ) على صيغة المبالغة، والمعنى: إنّ اليهود قوم ديدنهم سماع رؤسائهم في الشرّ سماع قَبول، يُطيعونهم دون تردّد ويستجيبون لهم بلا انقطاع، ويقلّدونهم في كلّ أمر هو كذب وضلال وفيه محادّة لله ورسوله، وزادوا على ذلك استمراؤهم أكل الحرام كالرشا والربا[2] وأحبارهم يمدّونهم في الغيّ ثم لا يُقصرون، كانوا يفعلون ذلك بل ويسارعون فيه كما حكى الله

---

(1) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص279.

(2) – ينظر تفسير الجلالين: ص94، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص231.

تعالى عنهم: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ، لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62- 63]م، فهذه بعض أخلاق اليهود تدلّ على مدى خساستهم وسفاهتهم وعداوتهم لله وأنبيائه والمؤمنين.

المطلب الثالث

تكرير[1] اللفظ من أجل المبالغة في المدح والذمّ

إنّ تكرير اللّفظ بلفظه أو بمعناه يدلّ على إرادة تأكيد الكلام، فإن كان في المدح أو الذمّ فإنه يدلّ على المبالغة فيهما[2]، ومن أمثلته في المدح: تكرار "نِعْمَ"، كما في قوله تعالى: ﴿**نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾، ولم يقل: **نِعْمَ الْمَوْلى والنَّصير**، وذلك من أجل المبالغة والإطناب في المدح، ومن التكرير للمدح والتعظيم قوله تعالى:﴿**طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[النمل: 1]ك، فالكتاب المبين هو القرآن الكريم، وإنما كرّر ذكره بما هو مدح له ليزيد في تفخيمه وإعلاء منزلته، قال الزمخشري: "فإن قلتَ ما وجهُ عطفِه على القرآن إذا أريد به القرآن؟ قلتُ: كما يُعطَف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك: هذا فِعلُ السخِيّ والجواد والكريم؛ لأنّ القرآن هو المنزَّلُ المبارك المصدِّق لما بين يديه، فكان حكمه حكمُ الصفات المستقِلّة بالمدح، فكأنه قيل: تلك الآيات آياتُ المنزّل المبارك آيُ كتابٍ مُبين...، فإن قلتَ: ما الفرق بين هذا وبين قوله: ﴿**ألر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ**﴾؟ قلتُ: لا فرق بينهما إلاّ ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدُّم والتأخّر، وذلك على ضربين: ضربٌ جارٍ مجرى التثنية لا يترجّح فيه جانب على جانب وضرب فيه ترجُّح، **فالأول** نحو قوله: ﴿**وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً**﴾، ومنه ما نحن بصدده، **والثاني** نحو قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ العِلْمِ**﴾"[3].

---

(1) – قال السيوطي: "**التكرير**، وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافاً لمن غلط، وله فوائد، منها: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرّر...، ومنها: التأكيد، ومنها: زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تَلَقّي الكلام بالقَبول، ومنها: أنه إذا طال الكلام وخُشِي تناسي الأول أُعيد ثانياً تَطْرِيةً له وتجديداً لعهده، ومنها: **التعظيم**". [السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مج2 ص (66- 67)].

(2) – ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حِجّة الحموي: مج1 ص361.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص347.

ومن ذلك ما جاء في مدح نساء الجنّة في قوله تعالى: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ ، كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ**﴾ [الواقعة: 22- 23]ك، فكرّر حرف التشبيه بما يدلّ على معناه مبالغة في التشبيه[1] المقتضي مدحَهنّ بما تقرّر أنّ أصفى الأشياء وأبهاها وأنقاها هو اللؤلؤ المكنون المحفوظ في الصَّدف عن أن يُداخله غبار أو شيء، فكذلك الحور العِين في جمالهنّ وبهائهنّ وابيِضاض أبشارهنّ وطهارتهنّ من كلّ ما يُستقذر، ومَلاحتهنّ وسلامتهنّ من الآفات ومن كلّ كدر، فلم يبق إذاً فرق بينهنّ وبين اللؤلؤ المكنون؛ لذا أكّد هذا التشبيه بالكاف وكان الأصل أن يقال: وحورٌ عِينٌ أمثالُ اللؤلؤ المكنون، وهذا من أجل المبالغة في إظهار تمام المطابقة في الصفات بين المشبّه والمشبّه به، على أنه يحسن التنبيه هنا على أنّ نساء الجنّة (المشبّه) أعلى[2] قدراً من اللؤلؤ المكنون (المشبّه به)، وإنما المراد تقريب الصورة واستحضارها في الأذهان كأنّها تُرى رأي العين، وبنحو هذا مدح الله نفسه بالأَحَديّة وأنه لا نِدَّ له ولا نظيرَ، وفي ضمنه تمدّحٌ بالكمال المطلق، فقال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾ [الشورى: 11]ك، ولا يقال في مثل هذا: "الكاف زائدة؛ لأنه تعالى لا مثل له"[3] بل يقال الكاف للمبالغة في نفي المثيل، وهذ المعنى مناسب لمقام مدح الله ذي الجلال المتفرّد بالكمال المنزّه عن الندّ والمثال.

ومن تكرير اللفظ للمبالغة في الذمّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الذينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الذينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، فكرّر لفظ (**يَقْتُلُونَ**) مبالغةً في تشنيع الجُرْم الذي ارتكبوه واستفظاع الفعل الذي اكتسبوه، وإشعاراً للمخاطَب بأنّ اليهود قومٌ همَج مستكبرون على الحقّ لا يحبّون العدل والقسط، ونحوه قوله تعالى: ﴿**كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ [الأنفال: 52]م، كُرِّرت هذه الجملة مرّتين زيادةً في توبيخ آل فرعون ومَن على شاكلتهم، ونَلْحظ هذا التكرار أيضاً في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: 78]م، فكرّر كلاًّ من (**الكِتَاب**) و(**مِنْ عِنْدِ اللهِ**)، والسرّ في ذلك هو المبالغة في استهجان ما فعله أحبار أهل الكتاب من تحريف

(1) – ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للسيّد محمود شكري الآلوسي: مج14 ج27 ص139.

(2) – سيُفصَّل هذا لاحقاً في الصفحة (283) من هذا البحث.

(3) – المحلّي: محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، ص406.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلام الله وأنّهم أتوا منكراً عظيماً، ونلمح هذه المبالغة أيضاً في تكرار السؤال الإنكاري التوبيخيّ في قوله تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾ [النمل: 60]ك، حيث تكرّرت هذه الجملة أربع مرّات متتاليات على طريقة اللفّ في تكرير التوبيخ[1] حتى يَقرع سمع المكذِّبين بالحقيقة التي لا ينبغي إنكارها، وذلك من أجل المبالغة في توبيخهم وتقريعهم.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ، كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2- 3]م، فقد ذمّ الذين يخالف قولُهم فعلَهم وفعلُهم قولَهم، وحتى يزيد في توبيخهم وتقبيح فعلهم المستوجبِ غضَب الله ومقتَه كرّر جملة: **(مَالاَ تَفْعَلُونَ)**، قال ابن المنيّر: "...، وزائدٌ على هذه الوجوه الأربعة وجهٌ خامس، وهو تكراره لقوله: **(مَالاَ تَفْعَلُونَ)**، وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام، وإلاّ فقد كان الكلام مستقِيماً لو قيل: كبُر مقتاً عند الله ذلك، فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية، والله أعلم"[2].

المطلب الرابع

استخدام أسلوب التوكيد للمبالغة في المدح والذمّ

إنّ فائدة التوكيد هي تمكين الشيء في النفس وتقويتُه بإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عنه، ويُستخدم – غالباً – حينما يكون المخاطَب مُنكِراً أو منزّلاً منزلة المنكِر، لكن إن كان في المدح والذمّ فإنه يزيده قوةً ومبالغة؛ لأنه إنما يحسن المدح أو الذمّ إذا زال الشكّ من السامع فيما يُمدح به أو يُذمّ، قال عبد القاهر الجرجاني: "وذلك أنّ من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشكّ فيما يَمدح به ويُباعدهم من الشبهة، وكذلك المفتخِر"[3].

وممّا جاء من المدح بهذا الأسلوب في القرآن الكريم قوله تعالى يمدح رسله الكرام محمّداً وإلياس ولوطاً ويونس عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: 4]ك، ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[الصافّات: 123]ك، ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[الصافّات: 133]ك، ﴿وَإِنَّ

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص429.

(2) – أحمد بن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف، مج4 ص523.

(3) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص138.

﴿يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافّات: 139]ك، ليزيل الشكوك عنهم والشبهات التي رُموا بها ممّن شاقّوهم وكذّبوهم؛ ليتحقّق مدحهم وتظهر براءتهم، وتطمئنّ قلوب المؤمنين وتستقرّ نفوس المتردّدين، وتقوم الحجّة على الكافرين وتتثبّت أفئدة الأنبياء والمرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

ومن هذا القبيل ما جاء في القرآن المجيد من التوكيد في ذمّ الوليد المكذّب العنيد: ﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ [المدّثّر: 16]ك، فإنّ الغرض منه تهويلُ الأمر الذي فعله وتشنيعُ الجُرم الذي اكتسبه.

المطلب الخامس

تعكيس الكلام وحُسن انتقاء اللفظ المناسب لمقام المدح أو الذمّ

وممّا يحقّق المبالغة في المدح والذمّ ما يسمّى بتعكيس الكلام، كقولهم للشمس جَوْنَة[1] لشدّة ضوئها، وللغراب أعورَ لحدّة بصره، وكثيراً ما يَرِد هذا الأسلوب للتهكّم والسخرية، كما تقول للرجل تستجهله: يا عاقل[2]، وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة من ذلك، والغرض من تعكيس الكلام في الذمّ هو الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزَأ به وتألّمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوّه: أبشرْ بقتلِ ذرّيتك ونهبِ مالك[3]، ومن أمثلته في القرآن الكريم – وهي كثيرة – قولُه تعالى في ذمّ أبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدُّخَان: 49]ك، فهو أشدّ عليه من قوله: ذق إنك أنت الذليل المهان.

قال عبد القاهر الجرجاني: "فقد اتّضح إذن اتّضاحاً لا يدع للشكّ مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجرّدة ولا من حيث هي كَلِم مفردة، وأنّ الألفاظ تثبُتُ لها الفضيلة وخلافُها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك ممّا لا تعلُّق له بصريح اللفظ، وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة تَروقك وتُؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تَثقل عليك وتُوحشك في موضع آخر"[4] وانطلاقاً من هذا الكلام يمكن القول بأنّ للّفظة القرآنية مزيّتَها وجماليّتها في التعبير بحسب السياق؛ مما يدّل على حسن اختيارها ودقة تناسقها وتناسبها وشدّة ملاءمتها لما قبلها وما بعدها، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً، منها اختيار لفظ التسبيح بدل لفظ التنزيه في الثناء على الله

---

(1) – ينظر لسان العرب: مج7 ص695، مادّة: جون.

(2) – أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص250.

(3) – ينظر تفسير الكشاف: مج1 ص (104- 105).

(4) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص60.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى وهذا في جميع القرآن، والسرّ في ذلك أنّ هذه اللفظة فيها معنى التعظيم والتقديس مع الإشعار بالعلو والرفعة، وهذا لا يستحقّه على الوجه الأكمل إلا الله ﷻ، وقد بيّن الشعراوي (ت 1420هـ) هذا المعنى حيث قال بأنّ التسبيح من الفعل سَبَحَ، أي: طَفَا على الماء، بمعنى أنّ ثِقله لم يخْلِده إلى هُوّة القاع، فهو لونٌ من تعالي الحركة على القانون القَسْري في جذب الأشياء للقاع؛ إذ التسبيح معناه التنزيه، فقول القائل: سبحان[1]الله، معناه: أنا أستعلي بربي على كل شيء، فكلُّ شيء أعلمه عن الحوادث والعوالم فالله فوق ذلك، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك[2]، باستصحاب هذا المعنى في استخدام القرآن لهذا اللفظ نجد أنه مناسب جدّاً وبهذا يظهر حسن انتقاء هذا اللفظ دون سواه.

ومن براعة انتقاء اللفظ في المدح التعبيرُ بـ: (**أَحَدٌ**) بدل: (واحد) في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: 1]ك، فإنّ فيه نكتةً بلاغية عجيبة، وهي أنه لو قال: (واحد) لأفاد معنى أنه متفرّد بما يختصّ به من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات من غير تعرُّضٍ لذاته من حيث كونُها مركّبةً أو غير مركّبة؛ إذ قد يكون الشيء واحداً وهو في ذاته مركّب، أمّا لفظ (**أَحَدٌ**) فهو – علاوةً على إثباته لتفرّد الله ﷻ بما يختصّ به – ينفي أن تكون ذاته مركبة[3]، إذاً في: (**أَحَدٌ**) من المعنى ما ليس في: (واحد)، مع ما فيها من أبلغ الردّ على طائفة النصارى وغيرهم في قولهم إنّ الله ثالث ثلاثة، الأب والابن والروح القدس ﷺ، فالله – سبحانه – عندهم واحد غيرُ أحد، وهو عندنا واحد أحد، يؤيّده قوله ﷻ بعده: ﴿**ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ**﴾ الدالّ على كمال غناه وافتقار كلّ ما عداه، وكمالُ الغنى يُثبت الوَحدانية والأَحَديّة، وينفي التَّعْضية والبنُوّة والأبوّة، ولذا قال بعدها: ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾؛ إذ أنّ طلب الولد يكون لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد وتدارك عجزه[4]، وثمّة نكتة أخرى في اختيار لفظ (**أحد**) في مقام التنزيه تتمثّل في أنّ (**أحد**) اسم بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد، أمّا (واحد) فهو اسم لمِفتَتَح العدد[5]، وهذا يعني أنّ (**أحد**) أرجح في هذا المقام من

(1) – قال الكفوي: "دلّ [**سبحان**] على التسبيح البليغ من جميع ما لا يليق بجنابه الأقدس". [الكلّيات: ص516].

(2) – الشعراوي: محمّد متولّي، المنتخَب من تفسير القرآن الكريم، ج3 ص24.

(3) – أعني بالتركيب أن تكون ذاته – تعالى الله علوّا كبيراً – مركّبةً من أجزاء وأبعاض، كما في الحوادث، أمّا كونه متّصفاً بصفات مختلفة كالسمع والبصر واليدين وغير ذلك من الصفات الخبرية فليس ذلك بتركيب.

(4) – ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور: مج3 ص618، والمنتخب من تفسير القرآن الكريم للشعراوي: ج3 ص184.

(5) – ينظر الكلّيات للكفوي: ص53.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(واحد)؛ لأنّ الأخير لا يمنع المشاركة، وهذا لا يحسن في مقام البراءة من الند والشريك، وهو باب خطير لا ينبغي التسامح فيه أو التساهل، ومن هنا تظهر دقّة التعبير القرآني.

ثم يستمرّ السياق في بيان هذه الحقيقة فيقول الله ﷻ: ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾، ومن كان بهذا الوصف، لا يُتصوّر أن يكون له مثيل أو نظير، وبهذا نجد أنّ هذه السورةَ على وجازتها قد حوت من المعاني العظيمة في قوة البيان وجمال التعبير مع ما فيها من بلاغة الفصل والإطناب والسجع، مع الفصاحة وسلاسة الألفاظ وبراعة الاستهلال وحسن الختام ومراعاة المقام، في تناسب عجيب وتكرار مفيد، مع الجمع بين النفي والإثبات والعرض والبرهان ما به اكتمل البيان في مدح الرحيم الرحمن في سورة استحقّت أن تكون ثلث القرآن.

ومن حسن انتقاء اللفظ في مقام المدح ما جاء في قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: 2]م، حيث لم يقل: هادٍ للمتقين، وفرقٌ بين التعبير بالمصدر والتعبير باسم الفاعل، والنكتة في ذلك حصول كمال المعنى وكمال المدح، قال ابن عاشور: "حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعاني ما لا يحصل لو وُصف باسم الفاعل فقيل: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن وتنويه به وتخلُّصٌ للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه"(1).

ومن ذلك أيضا ما جاء في مدح القرآن في آيتين منفصلتين، إحداهما استخدم فيها لفظ (**الكتاب**) بعد اسم الإشارة للبعيد (**ذلك**)، والأخرى استعمل فيها لفظ (**القرآن**) عقب اسم الإشارة للقريب (**هذا**)، فالآية الأولى هي قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة: 2]م، والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: 9]ك، أمّا ورود لفظ (**القرآن**) بعد اسم الإشارة (**هذا**) فلأجل أنه مقروء، ولا يكون كذلك إلا إذا كان حاضراً حضور حفظ أو حضور كتاب، قال ابن عاشور: "وقوله: (**هَذَا الْقُرْآن**) إشارةٌ إلى الحاضر في أذهان الناس من المقدار المنزّل من القرآن"(2)، وأمّا ذكر لفظ (**الكتاب**) بعد اسم الإشارة (**ذلك**) فللإشارة إلى أنه مكتوب في اللوح المحفوظ وهو بعيد مكاناً ومكانة، يعضِّده قوله تعالى: ﴿**فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ**﴾[عبس: 13- 14]ك، والمرفوع لا يكون إلا بعيداً، وأمّا

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج1 ص227.

(2) – المرجع نفسه: مج15 ص40.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استعمال اسم الإشارة للبعيد فلإظهار رفعة شأن القرآن بجعلِه بعيداً في المنزلة[1].

ومن حسن انتقاء اللفظ ما جاء في مدح عباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]ك، في التعبير بـ: (يَمْشُونَ) عدّة نُكت بلاغية خَفيّة غير ما يظهر باديء الأمر من مدح مِشية عباد الرحمن، فإنّ مدح المِشية إنما هو مدحٌ لما تعكسه من اتّزانِ شخصيةِ صاحبها وسكينتِها ووقارِها، وقوة نفسه واطمئنانها وتواضعها[2]، وبُعدِها عن الضعف والذلة والمسكنة والطيش والاضطراب، وثمّة نكتة أخرى تتمثل في أنّ عباد الرحمن ليسوا منعزلين عن المجتمع مُختَفين في صوامعهم قد طلّقوا الدنيا وأهلَها، بل يخالطون الناس ويصبرون على أذاهم ويعاشرونهم فيأمرونهم وينهونهم ويدعونهم إلى الهدى والخير، قال الآلوسي: "وذِكرُ المشي لِما أنه انتقال في الأرض، وهو يستدعي معاشرة الناس ومخالطتهم، واللّينُ مطلوب فيها غاية الطلب"[3].

ومن الدِقّة في استعمال اللفظ في المدح في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى على لسان عفريت من الجنّ: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: 39]ك، فعبّر بلفظ (قَوِيّ) بدل (قادر)، والنكتة في ذلك تكمن في الفرق الدقيق بين اللفظتين؛ إذ "أنّ القوة صفة تصدر عنها الأفعال الشاقّة ويُطيق بها من قامت به لتَحمُّل الأجرام العظيمة"[4]، بينما القدرة صفةٌ تصدر عنها جميع الأفعال سواء أكانت شاقّةً أم غير شاقّة، وبناءً عليه فإنّ معنى (قَوِيّ) أخصّ من معنى (قادر) واستعماله في سياق المدح أدقّ على ما هو مقتضى الحال، وهنا العفريت يتمدّح بقوته وأفضليّته على غيره في مهمّة إحضار عرش ملكة سبأ في أسرع ما يمكن، فحسُن استعمال هذا اللفظ في هذا المقام.

ومن حسن انتقاء اللفظ ما جاء في مدح الحور العِين في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [سورة الرحمن: 56]م، إذ الأصل: عفيفات، وإنما عدل عنه للدلالة على أنهن مع اتّصافهنّ بالعِفّة فإنهن لا تطمح أعينهنّ إلى غير أزواجهن ولا يشتهين غيرهم، ولا يؤخذ هذا المعنى بكماله من لفظ العفّة[5].

---

(1) – المرجع نفسه: مج1 ص220.

(2) – ينظر تفسير السعدي، ص586.

(3) – الآلوسي: محمود شكري بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مج10 ج20 ص59.

(4) – المرجع نفسه: مج10 ج20 ص265.

(5) – ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: مج2 ص48.

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من نداء النبيّ ﷺ خاصّة بـ: (ياأيّها النبيّ) و(يا أيّها الرسول)، وهو نداء تكريم وتشريف، قال الزركشي: "ولم يقع في القرآن النداء بـ: (يا محمّد) بل بـ: (يا أيّها النبيّ) و(يا أيّها الرسول) تعظيماً له وتبجيلاً وتخصيصاً بذلك عن سواه"(1)، وذكر الزركشيّ نكتة بلاغيّة تتمثّل في وجود المناسبة بين ذكر لفظ (النبيّ) ولفظ (الرسول) في خطاب الله لرسوله بحسب السياقات المختلفة، وحاصله أنّ الخطاب بـ: (يا أيّها الرسول) يكون في مقام التشريع العامّ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]م، ولفظ النبيّ يكون في المقام الخاصّ به ﷺ دون أمّته، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 1]م، وقد جمع الله اللفظين كما جمع المقامين في بلاغة بديعة ونظم عجيب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرات: 1]م، وهذا في مقام الاقتداء بالكتاب والسنة، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحُجرات: 2]م، فكأنه جمع له المقامين النبوة والرسالة تعديداً للنِّعم في الحالين، وقد يعبّر بالنبيّ في مقام التشريع العامّ لكن مع قرينة إرادة التعميم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1]م، ولم يقل: طلّقتَ(2).

هذا وقد استُخدِمت في القرآن الكريم ألفاظ في مقام الذمّ أضفَت عليه قوةً في المعنى وزيادةً في التأثير، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: 63]م، فلم يقل: (يعملون) كما في الآية التي قبلها(3)، وذلك لاختلاف المقام، فالآية المتقدّمة هي في حقّ المواقعين للمعاصي المسارعين في الإثم والعدوان وأكل السحت، وأمّا هذه الآية ففي حق العلماء المقصّرين في النهي عن المنكر، فعبّر هنا عن تركهم تغيير المنكر بلفظ (**يَصۡنَعُونَ**) وعبّر هناك عن المواقعين للمنكر بلفظ (**يَعۡمَلُونَ**)، وكِلا اللفظين معناه ملائم لسياقه الذي قيل فيه، قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "لأنّ كلّ عامل لا يسمّى صانعاً، ولا كلّ عمل يُسمّى صناعة حتى يتمكّن فيه ويتدرّب ويُنسَب إليه، وكأنّ المعنى في ذلك أنّ مُواقع المعصية مع الشهوة يكون مع الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله

---

(1) – الزركشي: محمّد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، مج2 ص228.

(2) – المرجع نفسه: مج2 ص (228– 230) بعض التصرّف.

(3) – الآية التي قبلها هي قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 62]م.

على ارتكابها، وأمّا الذي ينهاه فلا شهوة معه في فِعلِ غيره، فإذا فرّط في الإنكار كان أشدَّ حالاً من المواقِع، ولَعَمري أنّ هذه الآية مما يَقُذُّ السمع ويَنعى على العلماء توانيهم"[1]، فهذه الآية تذمّ العلماء الذين لا ينكرون المنكر أبلغ من ذمّ المواقِعين له أنفسِهم، حيث قال عن المواقِعين: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 62]م، وعن العلماء المقَصِّرين: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 63]م، فجعل ترك الإنكار صناعةً لهم، وكأنهم بذلك تمكَّنوا من ترك المنكر وتدرّبوا عليه حتى صار حرفةً لهم، ولهذا السبب كانتْ هذه الآية من أشدّ الآيات ذمّاً للعلماء المفرّطين، قال الطبري: "وكان العلماء يقولون ما في القرآن آيةٌ أشدُّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوفُ عليهم منها"[2].

ومما جاء من حسن انتقاء اللفظ في الذم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14]م فلم يقل: (ومن النصارى) وإنما عبّر عنهم بقوله: ﴿وَمِنَ الذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى﴾ إيذاناً بذمّهم وإشعاراً بتوبيخهم وتقريعهم إذ كانوا كاذبين في دعواهم أنهم نصارى[3]، مناصرين المسيحَ عيسى بن مريم عليه السلام وهم ليسوا كذلك.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: 5]ك، حيث وصَف الكلمة بالخروج مبالغةً في ذمّها؛ إذ جُعلت كأنها شيء له جِرم، وفي هذا استعظامٌ لقبْحِها، فكأنها من عِظمها وهَوْلها فارقت جنسَ الكلام وصارت من جنس الأجسام، وفي استعمال لفظة (**تخرج**) إشارة إلى شدّة جرأة القوم على النطق بتلك المقالة الكفريّة، وأنّهم بلغ بهم التكذيب والمعاندة للحق مبلغاً عظيماً حيث لم يستطيعوا كظمها في صدورهم، قال الزمخشري: "(**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**) صفةٌ للكلمة تفيدُ استعظاماً لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإنّ كثيراً ممّا يُوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويُحدِّثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويُطلقوا به ألسنتهم، بل يَكظِمون عليه تَشوُّراً[4] من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟"[5].

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص654.

(2) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج4 ج2 ص93. ونسب ابن كثير هذا القول إلى ابن عبّاس رضي الله عنه [ينظر تفسير ابن كثير: مج2 ص609].

(3) – ينظر فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريّا الأنصاري: ص97.

(4) – **تشوُّراً**: أي: تباعداً من إظهاره كأنه عورة، وفي الصِّحاح: (**الشُّوَار**): الفَرْج. [مختار الصِّحاح: ص350، مادّة: شور].

(5) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص703.

ومن أمثلته كذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]م، فلم يقل: كبُر غضباً، واختيار لفظ المقت لم يكن عبثاً؛ لأنّ المقت هو شدّة الغضب مع بُغض، وهذا أدلّ على شدّة الإنكار والتوبيخ، ولو قال: كبُر غضباً لما ظهرت تلك الفائدة، قال الزمخشري: "واختير لفظ المقت لأنه أشدُّ البغض وأبلغُه، ومنه قيل: نكاح المقت للعقد على الزانية، ولم يَقتصر على أن جَعل البُغض كبيراً حتى جعل أشَدَّه وأفحشَه، و(عِندَ اللهِ) أبلغُ من ذلك؛ لأنه إذا ثبت كِبر مقتِه عند الله، فقد تمَّ كِبَره وشدّته وانزاحت عنه الشكوك"[1]، ونقل أبو حيّان عن المبرِّد أنه قال: رجلٌ ممقوتٌ ومَقِيت إذا كان يُبغِضه كلُّ أحد[2].

ومن بديع اختيار اللفظ ما جاء في القرآن في حقّ الوليد بن المغيرة حيث ذمّه الله تعالى بأشنع المذامّ وأشدّها ما يدلّ على كثرة شرّه وخُبثه، ثم أَوْعدَه بالعقوبة فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: 16]ك، والخرطوم هو للفيل ونحوه كالأنف للإنسان، وإطلاقه على أنف الوليد في موضع ذمّه دليل على الإهانة والإذلال، وهو من قبيل الاستعارة التصريحيّة إذا قُصد تشبيهه بالفيل أو الخنزير، فيكون بمنزلة أن يقال: كأنّ أنفه في الضخامة والطول خُرطومُ فيل[3].

ولو جاز أن يقال بأنّ الخرطوم هو الأنف حقيقةً لا مجازاً فإنّ الآية السابقة لا تخلو أيضا من ذمّ وتعيير، ذلك أنّ الأنف أكرمُ موضع في الوجه – ومنه اشتقّوا الأَنَفة – فذِكرُ الخرطوم الذي هو الأنف دون سائر المواضع إهانةٌ له وإذلال[4]، وعلى كلٍّ فالوليد في الحالين مذموم، وليس الغرض ذمّ خِلقته ولكن لما ألغى عقله وأعمل هواه صار شبيهاً بالحيوان فعومل كأنه هو.

من خلال ما تقدّم يتبين أنّ حسن انتقاء اللفظ ودقّة استخدامه أمر ظاهر جليّ في لغة القرآن الكريم، وهو يدلّ على رصانة البناء اللغوي القرآني وقوة بلاغته وكمال فصاحته، من حيث تدقيقُ المعنى وتعميقه وتحديده، بحيث لا يطغى المبنى على المعنى ولا المعنى على المبنى، وهذا من

(1) – المصدر نفسه: مج4 ص523.

(2) – أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، مج8 ص261.

(3) – قال القزويني: "... الشفة والأنف موضوعان للعضوين المخصوصين من الإنسان، فإنْ قُصد التشبيه صار اللفظ استعارةً، كقولهم في مواضع الذمّ: غليظَ المشفَر، فإنه بمنزلة أن يقال: كأنّ شفته في الغلظ مشفرُ البعير، وعليه قول الفرزدق:

فَلَوْ كُنتَ ضَبّيّاً عَرَفْتَ مَكَانَتِي *** وَلَكِنَّ زِنجِيٌّ غَلِيظُ المَشَافِرِ

أي: ولكنّك زنجيٌّ، كأنه جملٌ لا يهتدي لشرفي". [الإيضاح في علوم البلاغة: ص158]، ولم أجده في ديوانه!.

(4) – ينظر الكشاف: مج4 ص443.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهمّ ما يميّز الكلام البليغ من غيره، وإنّ المتتبّع لمواضع المدح والذمّ في القرآن الكريم لَيجد أنّ كلّ لفظ استعمله القرآن لا يمكن أن يُستبدل بغيره إلا أن يختلف السياق، فهو يُراعي اللفظ المناسب في المكان المناسب عند المقام المناسب، فلا مزية في اللفظ لذاته إلا من جهة موقعه في الكلام ومناسبته لمقتضى الحال، وهذا ما يؤيّد ما قرّره الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريّته في النظم من أنّ البلاغة صفةٌ راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب[1].

المطلب السادس

استخدام الألفاظ المحتملة للمدح والذمّ بحسب متعلّقها

لقد استخدم القرآن الكريم ألفاظاً تحتمل المدح والذمّ، ولا يمكن تحديد معناها إلا من خلال السياق، وهذا ما قصدتُّ بقولي: بحسب متعلّقها، ومما وقع من ذلك في القرآن ما جاء في مدح النبيّ ﷺ بلفظ (**الأُمّيّ**) في قوله ﷻ: ﴿**ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ**﴾ [الأعراف: 157]ك، وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ **ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ** ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]ك، والسياق في بيان أحوال بني إسرائيل، وأنّ الإيمان بالنبيّ ﷺ شرطٌ في دخولهم في الإسلام. إنّ وصف النبيّ ﷺ بالأمّيّ فيه احتمالان، **أحدهما**: احترازٌ بذلك عن سائر الأنبياء، فإنّ المقصود بهذا هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، ويكون معنى (**الأمّيّ**): النبيّ العربيّ الذي ينتمي إلى الأمّة الأمّية التي لا تقرأ ولا تكتب وليس عندها قبل القرآن كتاب[2]، **والثاني**: وُصفَ بالأمّيّ مدحاً؛ لأنّ الأمّية في حقّه صفةُ كمالٍ وإن كانت صفةَ نقصٍ في مَن دونه[3]، وهي وصفُ كمالٍ يختصّ به وحده؛ لتعلّقها بالرسالة من حيث كونها حجةً في إثباتها ودفعِ شبه الطاعنين فيها؛ إذ كيف يتأتّى للأمّيّ الإتيانُ بمثل هذا القرآن في صِدق أخبارِه وإحكامِ أحكامه لولا أنه يتلقّاه من عليم حكيم؟.

ومن ذلك ما جاء في القرآن على لسان الجنّ من نفي الولد والوالد والصاحبة عن الله تعالى، في قوله ﷻ: ﴿**وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا**﴾ [الجنّ: 3]ك، فعلمت الجنّ أنه من

(1) – القزويني: الإيضاح لعلوم البلاغة، مج1 ص14.

(2) – ينظر تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص305.

(3) – ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور: مج9 ص133.

تعالى جَدّ ربهم وعظمته ما يدلّ على بُطلان قول من يزعم أنّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنّ له العظمة والكمال والغنى، واتخاذُ الصاحبة والولد ينافي ذلك[1]، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: 3]ك، والله محمود بذلك، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: 111]ك، قال الزمخشري: "كيف لاق وصفُه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد؟ قلت: لأنّ مَن هذا وصفُه هو الذي يقدر على إيلاء كلّ نعمة، فهو الذي يستحقّ حُسن الحمد"[2].

إنّ نفي أو إثبات الولد والوالد والصاحبة قد يكون مدحاً أو ذمّاً بحسب متعلّقه، وفي الآيات المذكورة آنفاً نجد أنّ نفي ذلك كان في حقّ الخالق المتّصف بكمال الغنى والقيّومية مدحاً ولغيره قدحاً، ومثله ما جاء من الوصف بـ: (المُتَكَبِّر)، فهو مدح في حقّه ﷻ؛ إذ لعظمته وكماله وكبريائه تكبّر عن السوء والنقص والعيب[3]، وهو للمخلوق ذمّ وقدح؛ لأنّ الضعيف الفقير العاجز يقبح منه التكبّر والخيلاء.

المطلب السابع

استخدام ضمير الجمع بدل ضمير الإفراد للتعظيم

ومن المبالغة في المدح استخدام الجمع بدل الإفراد في ضمير المتكلّم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ [الصافّات: 75]ك، فلم يقل: ولقد ناداني نوح فلنِعْمَ المجيب، فعبّر بالجمع بدل الإفراد لبيان عظمة المتكلم؛ إذ الجمع دليل العظمة والكبرياء[4]، وأكّده بأسلوب القسم مع حذف المقسَم به وأداةِ القَسَم وفعلِه اكتفاءً باللام الدالة عليه في: (**وَلَقَدْ**)، وأكّد مدح نفسه باللام في: (**فَلَنِعْمَ**)، فكلّ هذه العناصر تؤيّد إرادة المبالغة في المدح. لقد جاءت هذه الآية على وجازتها متضمّنةً لكثير من العناصر البلاغية المؤدّية للمقصود من الكلام، وهو المدح والتعظيم، فالحمد لله المستغرقِ حمدُه جميع المحامد لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

---

(1) – ينظر تيسير الكريم الرحمن للسعدي: ص890.

(2) – الزمخشري: الكشاف، مج3 ص47.

(3) – ينظر المرجع السابق: ص946.

(4) – ينظر المصدر السابق: مج4 ص48.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى على لسان سليمان ﷺ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: 16]ك. إنّ قوله: (أُوتِينَا) جارٍ على سبيل المتكلِّم يعظِّم نفسه، وعادةً ما يكون ذلك في مقام التمدّح والفخر، وهو من سليمان ﷺ محمول على الشكر، تماماً كما قال النبيّ ﷺ: ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرٌ))[1]، وذكر الزمخشري أنّ النون في: (أُوتِينَا) هي نون الواحد المطاع، فسليمان ﷺ قد كلّم أهلَ طاعته على صفته وحاله التي كان عليها، وليس التكبّر من لوازم ذلك، وثمّة وجهٌ آخر وهو أنّ الأمر قد يتعلّق بتجمُّل الملك وتفخُّمه وإظهارِ أُبّهته فيصير تكلُّف ذلك واجباً[2]، وهناك مبالغةٌ أخرى في قوله: (مِنْ كُلِّ شَيءٍ)، وهذه الكليّة ليست عامّة، ولكنها دالةٌ على المبالغة في الكثرة، قال الزمخشري: "وأراد بقوله: (مِنْ كُلِّ شَيءٍ) كثرةَ ما أوتي، كما تقول: فلان يقصده كلُّ أحد، ويعلمُ كلّ شيء، وتُريد كثرةَ قُصَّاده ورجوعَه إلى غزارةٍ في العلم واستكثارٍ منه، ومثلُه قوله تعالى واصفاً حالة مِلكة سبأ على لسان الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: 23]ك، أي: من كلّ شيء ممّا يُؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون والقِلاع ونحو ذلك[3].

المطلب الثامن

من بلاغة أسلوب الحصر والقصر في المدح والذمّ

إنّ لأسلوب الحصر والقصر بلاغته في تخليص الشيء مما ليس منه، فيظهر الأمر جليّاً ويزول الغموض كلّيّاً، وذلك بقصر الصفة على موصوفها أو العكس، ومن أحسن ما وقع منه في المدح قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2]م، والمعنى: لا معبود بحق إلا الله، وما ذاك إلا لكمال صفاته وعظيم نعمائه، وأنّ ما سواه ناقص في ذاته مفتقر إلى غيره، فمن لم يوحّد الله في ألوهيّته لم يحمده ولو ملأ الدنيا بالثناء عليه، ولا يتحقّق هذا الحمد إلا بأسلوب الحصر والقصر الجامع بين النفي والإثبات، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

(1) – أخرجه مسلم في كتاب الفضائل عن أبي هريرة، وليس فيه: (وَلاَ فَخْرَ)، مج8 ج15 ص37، لكن أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند عن ابن عبّاس ﷺ، مج1 ص281، وأيضاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، مج3 ص2.

(2) – ينظر الكشّاف للزمخشري: مج3 ص354.

(3) – ينظر تفسير السعدي: ص604.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج: 62]م، ولأهميّته جاء الأمر بالعلم به لا بمجرّد ذكره وترديده، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]م، وذلك من أجل ترسيخ الإيمان في قلوب العباد، بحيث يكون كالجبال الراسيات لا تزلزله الشبه والخيالات[1]، فربما توهّم أحدهم أنّ الجاه أو المكانة أو القُرب من الله مسوّغ للتشريك في ألوهيته، فاستخدم هذا الأسلوب لهذا المعنى.

ومن الحصر الذي يفيد المبالغة في الذمّ ما جاء في قوله تعالى على لسان النسوة اللاتي بَهرهُنّ يوسفَ عليه السلام بجماله: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فلم يقلن: هذا ملك كريم، على سبيل التشبيه البليغ، بل ما قالته النسوة كان أبلغ؛ لأنهنّ أَوهَمْن السامع أنّ يوسف عليه السلام ملكٌ على الحقيقة لا على التشبيه، وهذه هي فائدة الحصر هنا، فلا يكون يوسف عليه السلام إلا ملَكاً كريماً ولا يكون شيئاً آخر، وهذه مبالغة عظيمة في مدح يوسف عليه السلام بالجمال والحسن.

والأمر نفسه في مدح الملائكة المكْرمين في قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 26- 27]ك، محلّ الشاهد في هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، حيث قدّم (بِأَمْرِهِ) على: (يَعْمَلُونَ) ولم يقل: وهم يعملون بأمره، وفائدته التنبيه على أنّ الملائكة لا يعملون بأمرٍ يَصدر عنهم أو عن غيرهم إلا بأمر الله وحده؛ لكمال عبوديّتهم له وأدبهم معه، فهم وقّافون عند أمر الله لا يتجاوزونه، وفي هذا أكبر دليل على مدح الاتّباع وذمّ الابتداع، وممّا يعضِّده قوله تعالى قبله: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، فهم لا يقولون قولاً أو يشفعون شفاعة أو يدبّرون أمراً إلا من بعد أن يأذن الله فيه[2]، وهذا لكمال أدبهم معه وتعظيمهم له؛ بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

ومن ذلك ما جاء في مدح العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]ك، فكل من كان بالله أعلمَ كان له أخشى، ولو قال: إنما يخشى العلماءُ من عباده اللهَ، - بتقديم المرفوع على المنصوب - لاقتضى انحصار خشية العلماء على الله، أي: يخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، أمّا الآية فتقتضي انحصار خشية الله على العلماء، أي: لا أحدَ من عباد الله

(1) - ينظر المرجع السابق: ص787.

(2) - محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج17 ص51.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أخشى له منهم، وهو مدح للعلماء بأهمّ شيء يقتضيه العلم وهو الخشية، والمعنى: إنّ أكثر الناس خشيةً لله هم العلماء، وعبّر بـ: (إنما) لبيان أنّ هذا الأمر ظاهرٌ جليّ لا يحتاج إلى دليل، أو أنه خرج مخرج التنبيه للعلماء على وجوب الخشية، وأنّ من لم يخشه منهم فليس عند الله بعالم وإن عَدّه الناس من أعلم أهل الدنيا، قال السكّاكي: "وطريق (إنما) يُسلك مع مخاطَب لا يُصرّ على خطئه، أو يجب عليه أن لا يصرّ على خطئه...، وكذا لا تقول: إنما الله إله واحد إلا ويجب على السامع أن يتلقّاه بالقَبول، والأصل في: (إنما) أن تُستعمل في حكمٍ لا يُعوِزك تحقيقه، إمّا لأنه في نفس الأمر جليّ، أو لأنك تدّعيه جليّا"[(1)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: 9]ك، أي: لا ينتفع بالذكرى إلا أولوا الألباب الذين وُجّه إليهم الخطاب وناداهم ربُّ الأرباب[(2)]، لقد قصر التذكّر على أولي الألباب، لأنّ أهلَ العقول وأرباب الألباب الذين جعلوا أهواءهم وراء عقولهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، وهذا مدح عظيم لهم وكفى به فضلاً وشرفاً لقوم يعقلون، ودلّ مفهوم القصر على التعريض بذمّ الكفّار الذين من فَرْط العناد وغلبة الهوى صاروا في حكم من ليس بذي عقل ولا لُبّ، وفيه تنبيه للمؤمنين أنهم في طمعهم فيهم أن يعتبروا ويتذكّروا كمن طمِع في ذلك من غير أُولي الألباب[(3)].

ومن ذلك ما جاء في مدح خمر الجنة في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافّات: 47]ك، في هذا الكلام تقديم وتأخير، إذ الأصل أن يقال: لا غول فيها ولا هم يُنزَفون عنها، والنكتة في ذلك إرادة الحصر الزائد في المدح، أي أنّ خمر الآخرة هي وحدها التي بهذا الوصف، بخلاف خمور الدنيا فإنّها تغتال العقول وتُنزِف أصحابها، فهو مدح لها بالتفرّد بوصف السلامة من الآفة مع التعريض بذمّ غيرها من خمور الدنيا لا مجرد المدح بالسلامة من الآفة فقط، بخلاف ما لو قال: لا غولٌ فيها، فهذا لا يمنع مشاركة الغير في هذه الصفة، وإنما يزداد المدح قوةً إذا وقع بشيء يختصّ به الممدوح دون غيره، لكن لِمَ لَمْ يُستعمل هذا الأسلوب في مدح القرآن في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]م، حيث لم يُقدّم المعمول على العامل – كما فعل هنا –؟ ويُجاب على هذا بأنه لو قال: لا فيه ريبٌ لأفاد ثبوت الريب في كتب الله

(1) – السكّاكي، مفتاح العلوم، ص (296– 300).

(2) – ينظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان للسعدي: ص (75، 720).

(3) – ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: مج1 ص (221– 222).

الأخرى[1] وهذا محال؛ لأنه يلزم منه إثبات التناقض والاختلاف في كلام الله – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً –، وصدق الله إذ يقول: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾ [النساء: 82]م.

1. ومن ذلك ما جاء في ذمّ المنافقين في قوله تعالى: ﴿**أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: 12]م، وذلك أنه لما ادّعى المنافقون حصر الصلاح فيهم بقولهم: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ قلَب الله عليهم دعواهم وحصر الإفساد فيهم، أي: هم المفسدون لا غيرهم، وهذا ذمّ عظيم لهم ثم ازداد هذا الذمّ حدّة باستخدام مجموعة من العناصر تمثّلت فيما يلي:

1 – الاستئناف والتأكيد بـ (أَلاَ) و (إِنَّ).

2 – تعريف الخبر (**المُفْسِدُونَ**).

3 – توسيط ضمير الفصل (**هم**).

4 – ختم الآية بقوله: (**لاَ يَشْعُرُونَ**) المشْعِرِ بتقبيح ما كانوا عليه؛ لبعدِه من الصواب وقربه من الفساد، والمؤْذِنِ بأنّ سفههم هو الذي جرّهم إلى الإفساد[2].

ومن بلاغة الحصر ما جاء في ذمّ حُكم الجاهليّة في قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: 50]م، لم يقل: أفيبغون حكم الجاهلية؛ لأنّ في الأول زيادة في المعنى من جهة قوة الإنكار والتعجيب والتوبيخ الذي يفيده أسلوب الحصر، قال الآلوسي: "وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجّب؛ لأنّ التولّي عن حكم رسول الله ﷺ وطلبَ حكم آخر منكرٌ عجيب، وطلبَ حكم الجاهلية أقبح وأعجب"[3].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [الأعراف: 92]ك، قال الزمخشري: "وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بأنْ أُهلكوا واستُؤصِلوا، كأن لم يُقيموا في دارهم؛ لأنّ الذين اتّبعوا شعيباً قد نجّاهم الله، الذين كذّبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فإنهم

(1) – ينظر المرجع السابق: مج1 ص101، والمطوّل للتفتازاني: ص37.

(2) – ينظر تفسير الكشّاف للزمخشري: مج1 ص (63- 64)، ومفتاح العلوم للسكّاكي: ص296.

(3) – الآلوسي: روح المعاني، مج2 ج4 ص156.

الرابحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير مبالغةٌ في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم وتسفيه لرأيهم، واستهزاءٌ بنصحهم لقومهم واستعظامٌ لما جرى عليهم"[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56]ك، لما نهاهم لوط عليه السلام عن الفاحشة لم يجدوا جواباً لِما أنكره عليهم سوى جواباً هو من أقبح ما يجاب به، ومهما نهاهم نبيّ الله عليه السلام أجابوه بذاك الجواب القبيح وهو قولهم: (أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)، ولم يكتفوا بهذا بل عدّوا مَن خالفهم أجنبيّاً عنهم لا حقّ له في الإقامة بين ظهرانيهم؛ يدلّ عليه قولهم: (قَرْيَتِنَا) – كأنها ليست قريته! – وهذا يدلّ على شدة بغضهم لنبيّهم وتبرّئهم منه وممّا جاء به، وأنّ ذلك خلُقٌ قد ترسّخ في نفوسهم إلى حدّ أنهم جعلوا الطهارة خَلّةً ذميمة يستحقّ المتّصف بها بَلْهَ الداعي إليها الطردَ والإبعاد، لقد انقلبت عندهم الحقائق بسبب انغماسهم في الشهوات حتى صارت الطهارة عندهم قذارة والفضيلة رذيلة؛ لذا فهم لا يعرفون – بحسب فهمهم المنكوس – جواباً إلا ذاك الجواب المعكوس الذي لا يخلو من تهكّم وسخرية، وهؤلاء لا حيلة فيهم، وأفاد أسلوب الحصر أنهم قوم متعصّبون لآرائهم متّبعون لأهوائهم متكبّرون على الحقّ وأهله.

ومن بلاغة الحصر في الذمّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: 44]ك، قال أحمد بن المنيّر: "وفيه نُكتة حسنة، وهي إفادة الحصر، فإنّ الكلام قبل دخول (أَفَرَأَيْتَ) مبتدأ وخبر، المبتدأ: (هَوَاهُ)، والخبر: (إِلَهَهُ)، وتقديم الخبر – كما علمت – يفيد الحصر، فكأنه قال: أرأيت من لم يتّخِذ مَعبوده إلا هواه، وهو أبلغ في ذمّه وتوبيخه، والله أعلم"[2].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: 15]ك، إنّ الرسل عند هؤلاء المكذّبين لا يختلفون عن سائر البشر في شيء، وما يَدْعون إليه من الوحي فهو في اعتقادهم أساطيرُ الأوّلين، والرحمن لم يُنزل شيئاً، والنتيجة هي أنّ هؤلاء الرسل كاذبون – حاشاهم – بلا شكّ ولا مرية، فلم يكتفوا بجعل الكذب محتملاً منهم حتى

(1) – الزمخشري: الكشاف، مج2 ص131.

(2) – أحمد بن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف، مج3 ص282.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حصروه فيهم، بمعنى: لستم في دعواكم الرسالة عندنا بين الصدق والكذب، كما يكون ظاهر حال المدّعي إذا ادّعى، بل أنتم عندنا قطعاً كاذبون فيها[1]، وهذه مبالغة في ذمّ الرسل بالكذب على الله ﷻ، رمَوهم بالكذب بعدما جاؤوهم بالبيّنات المفيدة للعلم اليقينيّ أنّهم رُسل الله صدقاً، وأنّ ما جاؤوا به حقٌّ من عند الله، فما أجرأ هؤلاء الكفرةَ الفجرة على رمي أولئك السفَرةِ البررة بالكذب المبين، الذي هم أولى الناس اتّصافاً به بلا مَين، وممّا يُلاحظ في جوابهم هذا الذي ظاهره شدّة التثبّت فيما ينسب إلى الله أنهم كانوا مقرّين بالله ربّاً مسمّى بأحسن الأسماء موصوفاً بأكمل النعوت، ومع هذا فقد كذّبوا الرسل وقد علموا أنهم صادقون، لكن لِمَ لَمْ يجرُؤوا على التصريح بالكفر بما أنزل الله كما صرّحوا بالتكذيب لرُسل الله؟ لعلّ بقيّة الفطرة السليمة فيهم منعتهم من ذلك، أو أنهم أرادوا التعمية على أتباعهم خوفاً من أن يؤمنوا فتدور الدائرة عليهم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ مُنقَلَب ينقلبون.

المطلب التاسع

من بلاغة التشبيه والتمثيل[2] في المدح والذمّ

جاء في خزانة الأدب: "التشبيه: هو العَقد على أنّ أحد الشيئين يَسُدّ مَسدَّ الآخر في المحلّ، وهذا هو التشبيه العامّ الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره، والتشبيه البليغ هو إخراج الأغمض إلى الأوضح مع حُسن التأليف"[3]، وأمّا التمثيل فهو: "أن يريد المتكلّم معنىً فلا يدلّ عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنّما يأتي بلفظٍ هو أبعد من لفظ الإرداف يصلح أن يكون مثالاً للَفظِ المعنى المذكور، كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: 210]م، وهذا التمثيل العظيم في غاية الإيجاز والحقيقة، أي: هلك من قُضِي هلاكه ونجا من قُدِّرت نجاته"[4].

وتكمن بلاغة التشبيه أو التمثيل في أنه يَنتقِل بك من شيء إلى آخر يشبهه أو صورةٍ بارعة تمثِّله، خاصةً إذا كان هذا الانتقالُ قليلَ الخطورة بالبال ممتزِجاً بالخيال، بحيث تظهر معه طُرافة الأديب وبُعد مرمى الأريب، والغرض منه حسنُ التوصّل إلى المعنى من أقرب طريق مع مراعاة

---

(1) – ينظر الإيضاح للقزويني: مج1 ص215.

(2) – قال السيوطي: "وتأتي **أمثال القرآن** مشتملةً على بيان تفاوت الأجر وعلى **المدح والذمّ** وعلى الثواب والعقاب وعلى **تفخيم الأمر وتحقيره** وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45]ك، فامتنّ علينا بذلك لِما تضمّنت من الفوائد". [معترك الأقران: مج1 ص465].

(3) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، مج1 ص383.

(4) – المرجع نفسه: مج1 ص299.

الإيضاح والبيان، وكذا الشأن في ضرب الأمثال، قال الزمخشري: "ولِضرْب العربِ للأمثال واستحضار العلماء المثلَ والنظائر شأنٌ ليس بالخفيّ في إبراز خفيّات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيَّل في صورة المحقَّق، والمتوهَّم في مَعرِض المتيقَّن، والغائبَ كأنه شاهِد...، ولأمرٍ ما أكثر الله ﷻ في كتابه المبين وفي سائر كُتبه أمثالَه، وفشَتْ في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: 43]ك، ومن سُوَر الإنجيل سُورة الأمثال"[1].

1) ومن التمثيل في المدح قوله تعالى: ﴿**خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ**﴾ [المطفّفين: 26]ك، فلم يقل: ختامه طيّب بل عدل عنه إلى لفظ هو أبعد من لفظ الإرداف يصلح أن يكون مثالاً له، وهو: (**مِسْكٌ**)، وهذا شيء تستعمله العرب في كلامها، قال الجرجاني: "... فوصفوا بغاية الطِّيب قالوا: هو مسك"[2]، وفائدته إذا فُسّر قوله: (**خِتَامُهُ**) بأنه حثالة الرحيق وبقيّته هي تقوية المدح وتقريب المعنى وتصويره في الأذهان مع مراعاة الإيجاز، أمّا إذا فسّر بأنّه الخاتَم الذي يُختم به عن أن يُداخله شيء يُنقص لذّته أو يُفسد طَعمه فهو المسك على الحقيقة، فلا يدخل في هذا الباب.

2) ومن التشبيه المقصود به المدح قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾ [الصافّات: 48- 49]ك، إنّ كلّ مسلم يعتقد أنّ نساء الجنّة أحسنُ جمالاً من البَيْض المكنون، بل إنّ خمارها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها[3]، ومعلوم أنه من الشروط اللازمة في التشبيه الجيّد أن يُشبَّه الأدْوَن بالأعلى في المدح والأعلى بالأدون في الذمّ[4]، فكيف يشبّه الله الحور العِين البالغات الغاية في الحسن والجمال بما هو دونهن في ذلك من المكوَّنات كالبيض المكنون ونحوه، والجواب: إنّ نساء الجنة غيبٌ عنا؛ فتشبيههنّ بالبيض المكنون ممّا هو مشاهَد محسوس فيه تقريب للمعنى واستحضار للصورة في الأذهان، وإلاّ ففي الجنّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنما مدحهن بالبيض أو اللؤلؤ المكنون لأنّه من أجمل وأحسن ما رأت عين إنسان مع سلامته من العيب والنقصان، ووجهُ البلاغة في هذا المدح يكمن في نقل الغائب غير المحسوس

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص72، وينظر فتح البيان عن مقاصد القرآن للقِنَّوجي: مج1 ص94.

(2) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص389.

(3) – أخرجه البخاري في كتاب الرقاق بلفظ: **وَلَنَصِيفُهَا**، أي: خمارها، مج4 ج7 ص204.

(4) – ينظر خزانة الأدب لابن حِجّة الحموي: مج1 ص383.

إلى المشاهد المحسوس حتى كأنهما شيء واحد مع خفاء الرابط بينهما، ممّا يجعل الخيال يعمل عمله، فلا يرجع إلا بتلك المطابقة الصحيحة، بل لن يستطيع الخيال مهما اتّسع أن يجد شيئاً يصلح أن يكون مشبَّهاً به للحور العِين غيرَ ما ذكره القرآن الكريم، ولو حاول مراراً لرجع خياله خاسئاً وهو حسير، كما أنّ في هذا التشبيه إخراجٌ للغائب إلى الحاضر والغامضِ إلى الواضح، مع قوة التأليف وحُسن البيان، قال ابن حجّة الحموي: "وقوع حسن البيان والمبالغة في التشبيه على وجوه منها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، وقال قدامة: أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما حتى يُدلى بها على الاتحاد. اهـ"(1).

3) هذا وقد وقع في القرآن تشبيهٌ على عكس الصورة السابقة، وهو تشبيه المحسوس بغير المحسوس في المدح، وتشبيهُ غيرِ المحسوس بغير المحسوس في الذمّ، أمّا الذي في المدح فجاء في قوله تعالى على لسان أولئك النسوة: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]ك، فشبَّهْنه بالملك الكريم؛ لأنّ حُسنه لا نظير له في النَّسَمة البشرية، فلم يبقَ إلا ما تخيّلنه في عقولهنّ من الصورة الملائكيّة؛ لأنها تمثل الصورة الحسنة في أكمل حالاتها، وهذا النوع من التشبيه يسمّيه الزمخشري التشبيه التخْييلي، وذلك لأنهن تخيّلن المَلَك أنه خيرٌ محض لا شرّ فيه؛ فشبهْن به الصورة الحسنة التي تمثّلت بين أيديهنّ في شخص يوسف عليه السلام(2)، وليس في هذا التشبيه انتقالٌ من الإيضاح إلى الإبهام على الرغم من أنه تشبيه لشيء محسوس بشيء غير محسوس؛ لأنّ صورة الملك قائمةٌ في النفوس كأنما فُطرت عليها، قال الجرجاني: "وإذا وصفوه [أي: الرجل] بالتناهي في الخير والخصال الشريفة أو بالحسن يَبهرُ قالوا: هو مَلَك"(3).

4) وأمّا الذي في الذمّ فهو قوله تعالى يصف طلعَ شجرة الزقوم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ، إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافّات: 62- 65]ك، فشجرةُ الزقوم هي شجرةٌ تَنبت في وسط النار، وهي غيب وطلعها غيب أيضاً، وقد شبّهه الله برؤوس الشياطين، والشياطينُ غيب كذلك، فإذا كان الغرض من التشبيه الإيضاح والبيان فكيف يشبِّه القرآن – الذي هو من عند الله بلا ريب – المجهولَ بالمجهول والغيبَ

(1) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، مج1 ص384.

(2) – ينظر تفسير الكشّاف: مج4 ص (46- 47).

(3) – الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص (388- 389).

بالغيب، وهو في قانون البلاغة نقص وعيب؟ ولكنّ الجواب عنه يكشف عن سرّ من أسرار البلاغة القرآنية عجيب، ولا يدع مجالاً لارتياب مريب، نَعم لقد شبّه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين وهو تشبيهُ مبهمٍ بمبهم، والذي يظهر ابتداءً هو أنّ هذا التشبيه لم يعطِ فائدةً قطّ؛ لأنّ الإبهام يحتاج إلى البيان، فأين البيان؟ وهل يفسِّر الإبهام الإبهام؟ لكن في ذلك الإبهام عينُ البيان، قال الشعراوي:"...، لأنّ الله لو شبّه طلع شجرة الزقّوم بشيء بَشِع مُفزِع مخيف قبيح نعرفه فقد حدّد القُبح والبشاعة في شيء واحد نعرفه ...، والقبحُ والبشاعة مما تختلف فيه الأنظار، فقد يكون الشيء بشعاً عند واحد وغير بشع عند الآخر...، ولكنّه حين قال: (**رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**) يتوهّمها الناس على اختلاف مذاهبهم، كلٌّ يتوهّمها بالبشاعة التي تُفزعه، إذن ستتعدد ألوان البشاعة، وما دامت تعدّدتْ ألوان البشاعة يبقى ذلك بيان أم إبهام؟ إنّه عين البيان"[(1)]، ويدخل هذا في التشبيه التخييلي؛ لأنّ الشياطين مكروهة مستقبحة في طباع الناس وعقولهم، وذلك لاعتقادهم أنها شرٌّ محض لا يخالطه خير، قال الزمخشري: "فيقولون في القبيح الصورة: كأنه وجهُ شيطان، كأنه رأسُ شيطان، وإذا صوّره المصوِّرون جاؤوا بصورته على أقبح ما يُقدَر وأهولِه"[(2)].

ومن أمثال القرآن العجيبة في الذمّ قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: 176]ك، نزلت هذه الآية في ذمّ بلعم بن باعوراء الذي كان عالماً من علماء بني إسرائيل، ثم انتكس بعد أن عرف الحقّ إخلاداً إلى الأرض واتّباعاً لهواه، فمثّل الله حاله بالكلب في أخسّ أحواله وهي حال دوام اللهَث به[(3)]، وهذا التمثيل أبلغ من قوله: فحطَطْناه أبلغَ حطّ من حيث الإيجاز وتقريب المعنى بالتصوير في الخيال الذي يزيد في وضوح المعنى ورسوخه وتمكّنه في القلب، مع شدّ الانتباه وإثارة العقل ممّا يجعل الانفعال به أسرع والذمّ به أوجع وألذع؛ لأنّ فيه تشبيهاً للأعلى بالأدنى وهو أحسن في الذمّ، قال ابن حجّة الحمويّ: "ومن الشروط اللازمة في التشبيه أن يُشبِّه البليغ

---

(1) – الشعراوي: محمّد متولّي، المختار من تفسير القرآن الكريم، ص94.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص (46– 47).

(3) – المصدر نفسه: مج2 ص178.

الأَدْوَن بالأعلى إذا أراد المدح، اللهمّ إلاّ إذا أراد الهجْوَ فالبلاغةُ أن يُشبِّه الأعلى بالأدنى"[1]، ونقل مصطفى المراغي عن الجرجاني أنه قال: "وإن جاء [التمثيل] في باب الذمّ كان وقعه أشدّ وحدُّه أَحَدّ"[2].

ومن التمثيل ما جاء في ذمّ امرأة أبي لهب في قوله تعالى: ﴿**وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ**﴾ [المسد: 4- 5]ك، في هاتين الآيتين أبلغُ الذمّ لأمّ جميل زوجِ أبي لهب، حيث جاء الأسلوب فيهما خبريّاً ابتدائيّاً، ظاهره توصيف وحقيقته ذمّ وتحقير، فقد كانت امرأة أبي لهب شديدةَ العداوة والأذيّة لرسول الله ﷺ، تتعاون مع زوجها على الإثم والعدوان، وتُلقي بالشرّ وتسعى غايةَ ما تقدر بالنميمة وبغيرها في أذيّة الرسول ﷺ والصدِّ عن دعوته، فمثّل الله حالها بحال امرأة مُمتهَنة قد حملت على ظهرها حزمة كبيرة من الحطب قد أعدّت لها حبلاً تقلّدته في عنقها، ذلك أنّ الحطب إنما يُجمع لإشعال النار، وهي تحمل مادّة إشعال الفتنة وتطوف بها بين الرؤساء في الكفر وبين المسلمين؛ لتشعل نار الحرب ضدّ الفئة القليلة المؤمنة ابتغاء القضاء عليها، ووجه الذمّ في ضرب هذا المثل يكمن في أمرين، **أحدهما:** في تشبيهها بامرأة مُبتذَلة – وعادةً ما تكون من الإماء أو الرعاء – حالَ كونها في مشقّة ومعاناة، **والثاني:** في تقلّدها حبلاً مفتولاً من ليف في عنقها، وهي السيّدةُ في قومها زوجُ أبي لهب أحدِ سادات العرب، التي كانت تتقلّد الجواهر والذهب، قال الزمخشري: "والمعنى: في جيدها حبل من مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها، كما يفعل الحطّابون تخسيساً لحالها وتحقيراً لها وتصويراً لها بصورة بعض الحطّابات من المواهن؛ لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها؛ وهما في بيت العزّ والشرف وفي منصب الثروة والجِدَة"[3].

5) والخلاصة أنّ أسلوب التمثيل والتشبيه أسلوب رفيع يُستخدَم للسمُوِّ بالكلام إلى أقصى غايات البيان، فيحتاج إليه العاميّ البسيط كما يحتاجه المثقّف العليم، ومن أهمّ أغراضه:

6) 1 – توضيح الفكرة بتصويرها وتمثيلها بما هو مركوز في العقول وراسخ في النفوس، فهو يزيد الكلام وضوحاً وتأكيداً.

---

(1) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، مج1 ص383، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: مج2 ص118.

(2) – مصطفى المراغي: كتاب علوم البلاغة، ص208.

(3) – الزمخشري: الكشاف، مج4 ص816.

7) 2 – التأثير في النفس، فإنْ كان مدحاً كان أبهى وأنبلَ وأفخم في النفوس، وأعظمَ وأهزّ للجانب وأجلب للفرح، وإن كان ذمّاً كان مسُّه أوجع ومَيسَمه ألذع، ووقعُه أشدّ وحدُّه أَحَدّ، وإن كان توبيخاً كان ألذعَ وأحرق للأفئدة.

المطلب العاشر

المجاز والكناية[1] في المدح والذمّ

8) اختلف العلماء قديماً وحديثاً في قضية وجود المجاز في اللغة أو القرآن بين مثبت وناف، وعلى كلٍّ فمن أثبته فقد قسّمه إلى قسمين: مجاز لغوي ومجاز عقلي، أمّا الكناية فهي – كما قيل – أخت المجاز، قال عبد القاهر الجرجاني: "اعلم أنّ لهذا الضرب اتّساعاً وتفنُّناً لا إلى غاية إلا أنه على اتّساعه يدور في الأمر الأعمّ على شيئين: الكناية والمجاز، والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلِّم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: طويل النجاد، يريدون: طويل القامة"[2]، وقال في المفاضلة بين الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية: "قد أجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريضَ أوقعُ من التصريح، وأنّ للاستعارة مزيّة وفضلاً، وأنّ المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"[3]، ثم قرّر أنّ بلاغة المجاز والكناية ليست في المعاني نفسها التي يقصد المتكلّم إليها بخبره، ولكنّها تكمن في طريقة إثباته لها وتقريره إيّاها، ودليل ذلك هو أنك إذا قلت: رأيت أسداً فهو أبلغ من قولك: رأيت رجلاً لا يتميّز عن الأسد في شجاعته وجرأته؛ ذلك بأنّ القول الثاني أفاد ذات المعنى وحقيقتَه وهي مساواة الرجل للأسد، أمّا الأول فقد أفاد تأكيداً وتشديداً ومبالغةً وقوةً في إثبات هذه المساواة وتقريرها، فليس تأثير الاستعارة إذاً في ذات المعنى وحقيقته بل في إيجابه والحكم به[4].

---

(1) – نقل السيوطي عن ابن مالك أنه قال: "إنما يُعدل عن الصرائح إلى الكناية لنكتة كالإيضاح أو بيان حال الموصوف أو القصد إلى **المدح أو الذمّ** أو الاختصار أو الستر أو الصيانة أو التعمية والإلغاز، والتعبيرِ بالصعب عن السهل وعن المعنى القبيح باللفظ الحسن". [السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مج2 ص47].

(2) – الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص79.

(3) – المصدر نفسه: ص82.

(4) – ينظر المصدر نفسه: ص83.

9) والاستعارة من المجاز، وسرّ بلاغتها في دعوى تناسي التشبيه؛ لأنّ ذلك يجعل المخاطَب يتخيّل صورة جديدة تَكسب جمالها وروعتها من ذلك التشبيه الخفيّ، ففي قوله تعالى في ذمّ أهل الكتاب وتوبيخهم بتحريفهم للتوراة المنزلة على موسى عليه السلام: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ استعارة مكنيّة تبعيّة حيث شُبِّه عدول الأحبار عن تلاوة النص المنزَل إلى تلاوة النصّ المحرَّف بالشيء يُلوى أو يعطف، فحُذف المشبَّه به وأُبقي على بعض لوازمه، وفائدته هي رسم صورة التحريف في المخيِّلة حتى كأنك ترى ألسنتهم تتأبّى عن تلاوة التوراة الحقّ فتلتوي لِتقرأ شيئاً آخر، وإذا كان لَيُّ اللسان كنايةً عن العيب والنقص فإنّه يلزم منه أنهم عدلوا عن الحقّ إلى الباطل، وعن سبيل الفصاحة والبلاغة إلى الركاكة والعَيّ، وفي هذا دليل على انتكاس فِطَرهم وفساد عقولهم وزيغ قلوبهم.

10) ومن الاستعارة أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19]ك، تضمّنت هذه الجملة[1] تشبيهاً للرافعين أصواتهم بلا حاجة أو فائدة بالحمير حال نهاقها، لكن على سبيل الاستعارة التصريحيّة من أجل المبالغة في ذمّهم وتهجين فعلهم، قال الزمخشري: "فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيلُ أصواتهم بالنّهاق، ثم إخلاءُ الكلام من لفظ التشبيه وإخراجُه من مخرج الاستعارة – وإن جُعِلوا حميراً وصوتهم نهاقاً – مبالغةٌ شديدة في الذمّ والتهجين، وإفراطٌ في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه، وتنبيهٌ على أنه من كراهة الله بمكان"[2].

11) ومن الاستعارة في المدح ما جاء في قوله تعالى: ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]م، وفي الذمّ قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3]ك، فاستخدم مع الهدى الحرف **(على)** الدالّ على الاستعلاء، ومع الضلال الحرف **(في)** الدالّ على الظرفية، وفي هذا تشبيهٌ خفيّ للهدى بشيء يُركب والضلال بشيء يُنغمس فيه، ثم أخلى الكلام من حرف التشبيه وأخرجه مخرج الاستعارة

---

(1) – هذه الجملة كالتذييل وليست كذلك؛ لتضمّنها معنى التشبيه، قال ابن حجّة الحموي: "وقد تقدّم أنّ التمثيل ضربٌ من الاستعارة والتشبيه، وهو قريبٌ من التذييل، ولكن بينهما فرق دقيق، وهو خلوُّ التذييل من التشبيه". [خزانة الأدب: مج1 ص300].

(2) – الزمخشري: الكشّاف: مج3 ص498.

المكنيّة[1]، والمعنى: إنّ صاحب الهدى مُستعلٍ بهُداهُ مرتفعٌ به، وصاحب الضلال منغمِسٌ فيه محتقَر، قال الزمخشري: "(عَلَى هُدًى) مَثَلٌ لتمكُّنهم من الهدى واستقرارِهم عليه وتمسّكِهم به، شُبِّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوُه: هو على الحقّ وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قولهم: جعل الغواية مركباً، وامتطى الجهل، واقْتَعد غارِب الهوى"[2]، لكن ثمّة أمر يُلفِت النظر ويَستثير الفكر وهو: لِمَ لَم يستعمل القرآن (على) بدل (في) في قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ وذلك في جميع القرآن؟ ولعلّ الجواب هو أن يقال: قد لوحظ في الآية في الوصف بالضلال الجانبين العلمي والعملي، بمعنى أنّ المذموم بقوله: (في ضلال بعيد) يكون قد اتّصف بالضلال في العلم والضلال في العمل حتى تطبّعه وصار له خُلقاً وسجيّة، لكن لو قيل: (على ضلال بعيد) فإنه يكون قد لوحظ فيه الجانب العلمي فقط، ويكون معناه أقرب إلى التنبيه على الضلال والتحذير منه أكثر من الذمّ به، ومن هنا يكون استعمال الحرف (في) في سياق الذمّ والتعيير أبلغ من استعمال الحرف (على)، فذمّهم الله ﷻ بالضلال لأنّهم جاءتهم آياته مبصرةً ومعجزاتُه على أيدي رسله ظاهرة، فلمّا كفروا واستكبروا بعد قيام الحجّة، وكذّبوا وأصرّوا بعد وضوح المحجّة، وتحيّروا وتاهوا في حنادس الظلمة وغياهب الدُّجة، استحقّوا الذمّ بالضلال الموصوف بالبعيد؛ لأنّ من أبصر الحقّ ثم عمي عنه فبعيد أن يرجع إليه مرّة أخرى.

12) ومن الاستعارة أيضا ما يُسمّى بالاستعارة التهكّمية التمليحية، وهي من استعمال اللفظ في ضدّ معناه، نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]م، أي: أنذرهم، استُعِيرت البشارة التي هي الإخبار بما يظهر سُرور المخبَر به للإنذار الذي هو ضدّها على سبيل التمليح والاستهزاء، فهي تهكّمية لأنّ فيها استهزاءً وتمليحيّةٌ لأنّه قُصد بها التمليح والظرافة، فاستعمال البشارة هنا مجازيّ قُصد به التهكّم[3].

---

(3) - قال أبو السعود: "وإيرادُ لكلمةِ الاستعلاءِ على استعارتِها لتمسُّكِهم بالهدى استعارةٌ تبعيّة متفرّعة على تشبيهٍ باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه، أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب؛ للإيذان بقوة تمكُّنهم منه وكمالِ رسوخهم فيه". [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: مج1 ص33].

(1) - المصدر السابق: مج1 ص44.

(2) - ينظر المفتاح للسكّاكي: ص (375، 381)، والإيضاح للقزويني: مج2 ص430.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومن المجاز المرسل في الذمّ ما جاء في قوله تعالى حكايةً عن المنافقين الذين كانوا يُسيؤون إلى رسول الله ﷺ: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞ﴾ [التوبة:61]م، أي: يسمع كلّ شيء ويُصدّق كلّ ما يقال له، يريدون – قبّحهم الله – ذمّه وتعييره بالبلادة والغباء، وإطلاق الأذن على الذات هو من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، كما إذا قلت: فلان فم، تُريد أنه شَرِه يلتقم كلّ شيء، أو فلانٌ أَنْف، تريد أنه عظيم الأنف لا يُدرى أهو في أنفه أم أنفه فيه، فإذاية المشركين للنبيّﷺ بقولهم: أذن، يقصدون أنّه – حاشاه – قليلُ الفِطنة والشهامة حيثُ يُصدِّق كلَّ ما يسمع ويقبل قول كلّ أحد، قال الزمخشري: "سُمّي بالجارحة التي هي آلة السماع، كأنّ جُمْلته أذنٌ سامعة، ونظيرُه قولهم للربيئة عين"(1)، وبالأسلوب نفسِه أمر الله نبيّه الكريم أن يَرُدّ عليهم مقالتهم الشنعاء بقوله: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، قال الزمخشري: "فكأنه قيل: نَعَمْ، هو أذن، ولكن نِعْمَ الأذنُ هو، أو هو أذن في الخير والحقّ وفيما يجب سماعه وقَبُولُه، وليس بأذن في غير ذلك"(2)، ومن هنا ندرك قوّة العلاقة بين المعنى الحقيقي وهو الأذن الجارحة والمعنى المجازي وهو تصديق كلّ ما يقال، والغرض من ذلك تمكين المعنى في قلب السامع، وفيه نوعُ مبالغةٍ بديعة تجعل من الكلام ذا أثر كبير في نفسيّة المخاطب.

ومن المجاز في الذمّ والتهكّم ما جاء في قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]ك، فأسندوا الأمر إلى الصلاة، والصلاةُ حقيقةً لا تأمر ولا يُتصوَّر منها ذلك؛ لأنّ الأمر والنهي ممّا يختصّ بالعقلاء، لكن لكونها سبباً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عُوملت معاملةَ العاقل الآمر والناهي، ففي إسناد الأمر إلى الصلاة مجاز عقليّ لعلاقة السببيّة(3).

وأمّا الاستفهام فقد خرج عن أصل معناه، وهو طلب العلم بالشيء لم يكن معلوماً إلى معنى التهكّم والسخرية، يدلّ على ذلك أنّهم لم يسألوه عن سبب نهيه إيّاهم عن عبادة غير الله والتصرّف

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص284.

(2) – المصدر السابق: مج2 ص ن.

(3) – عبد العزيز أبو سريع: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، ص273.

في الأموال دون مراعاة للحقوق الواجبة فيها، فلم يقولوا: لِمَ تأمرنا أن نترك ما كان يعبد آباؤنا؟ ولكن سألوه عن شيء يعلمون أنه هو الداعي له إلى أمرهم ونهيهم، قال ابن كثير: "قال الحسن: أي والله، إنّ صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم"[1]، فهو سؤال تهكّم واستهزاء؛ لأنّ الاستفهام عن الشيء المعلوم يقتضي ادّعاءَ الجهل به، ومن هنا ينشأ الاستخفاف والهزء، فهو إذاً مجازٌ مرسل علاقته اللزوم وفيه نظر[2] أو كناية وهذا أقرب؛ لأنه أُريد به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه[3]، وقد أومأ إلى المعنى الأخير عبد القاهر الجرجاني في كلامه عن استفهام التقرير: "واعلم أنّ هذا الذي ذكرت لك في الهمزة – وهي للاستفهام – قائمٌ فيها إذا هي كانت للتقرير، فإذا قلت: أأنت فعلتَ ذاك؟ كان غرضك أن تقرّره بأنه الفاعل"[4]، وقال عن استفهام الإنكار: "واعلم أنّا وإن كنّا نفسّر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى أنه لِيتنبَّه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويَعْيَ بالجواب"[5]، فالذي يظهر أنّ كلام الجرجاني يشير إلى أنّ الاستفهام الذي يراد به غير أصل معناه كالتقرير أو الإنكار أو المدح أو الذمّ أو غير ذلك هو مرتبط بالكناية أكثر من ارتباطه بالمجاز، وعلى كلٍّ فالمدح والذمّ بأسلوب الاستفهام أو غيره من الأساليب الإنشائيّة الأخرى، كالأمر والنهي والتمنّي وغيرها التي لا يراد بها أصل معانيها سواء كانت كناية أو مجازاً فإنه يكون أقوى وأكثرَ مبالغةً وتأثيراً في النفس مع كمال البيان.

ومن الكناية في المدح قوله تعالى في مدح القرآن: ﴿**كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ، فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ**﴾ [عبس: 11- 14]ك، قال ابن عاشور: "فإنّ تلك المدائحَ عائدةٌ إلى القرآن بطريق الكناية"[6]، فكنّى بالصحف المكرّمة المرفوعة المطهّرة عن القرآن لأجل المدح؛ لأنه

---

(4) – ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج3 ص1284.

(1) – وهذا يعني امتناع إرادة المعنى الحقيقي، قال القزويني: "المجاز ملزوم قرينة مُعاندة لإرادة الحقيقة". [الإيضاح في علوم البلاغة: ص183]، لكن هل هو من المجاز؟ أم الكناية؟ قال السيوطي: "قال في عروس الأفراح: محلّ نظر، والذي يظهر الأوّلُ [وهو: وجود معنى الاستفهام مُنضمّا إليه معنى آخر]، قال [السبكي]: ويساعده قول التَّنُوخي في: «الأقصى القريب» إنّ (لعلّ) تكون للاستفهام مع بقاء الترجّي". [معترك الأقران: مج1 ص439]، فعلى هذا يكون من باب الكناية لا المجاز، وفيه بحث.

(2) – ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: ص183.

(3) – الجرجاني: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص123.

(4) – الصدر نفسه: ص128.

(5) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج30 ص119.

قد عُلم أنه محلّ الذكرى الموصوف بالكرم ورفعة القَدر والتطهّر من أيدي الشياطين، ويجوز أن لا يكون في الكلام كناية وإنما هو على تقدير محذوف وهو القرآن، أي: في القرآن المكتوب في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة، وفائدته تنبيه العقل للتفكّر في ما هو موجود في تلك الصحف الممدوحة والمحفوظة بأيدي ملائكة أقوياءَ كرامٍ بررة سفراءَ بين الله وعباده[1]، فهذه العناية الربّانية تستدعي سؤالاً هو: أيُّ كلامٍ هذا الذي استحقّ كلّ هذه العنايةِ والتقدير؟ والجواب: إنه القرآن العظيم.

ومن الكناية في الذمّ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ [المائدة: 60]م، قال الزمخشري: "جُعلت الشَّرَارة للمكان وهي لأهله، وفيه مبالغةٌ ليست في قولك: أولئك شرٌّ وأضلّ؛ لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز، نزلت في ناس من اليهود"[2].

ومن التعريض في الذمّ قوله تعالى على لسان مؤمن يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 23- 24]ك، فقد عرّض بتوبيخ قومه الذين كذّبوا المرسلين حيث تحدّث عن نفسه وهو يعني قومه، وكأنه قال: أتتخذون من دونه آلهة؟ إن يُرِدكم الرحمن بضرّ لا تغنِ عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوكم، إنكم إذاً لفي ضلال مبين، دلّ على ذلك قوله بعده: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولم يقل: بربي، ثم أعقبه بقوله: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ وهذا من ألطف التعريض وأحسنه، قال السكّاكي: "لا تعرفُ حُسن موقعِ هذا التعريضِ إلا إذا نظرت إلى مقامه، وهو تطلُّبُ إسماع الحقّ على وجهٍ لا يورث طالبي ذمّ المستمع مزيدَ غضبٍ، وهو ترك المواجهة بالتضليل والتصريح لهم بالنسبة إلى ارتكاب الباطل، ومن هذا الأسلوب قولُه تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سبأ: 25]ك، وإلا فحَقُّ النَّسَق من حيث الظاهر: قل لا تُسألون عمّا عَمِلنا ولا نُسأل عمّا تجرِمون"[3]، وهذا يدلّ على أنّ الكلام يسمو ويحسن بقدر موافقته لمقتضى الحال حسب الغرض الذي يُساق له.

ومن دقيق التعريض وخفيّه ما جاء في ذمّ الأصنام وتوبيخ أصحابها في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن

---

(1) – ينظر تفسير السعدي: ص911.

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص653.

(3) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص245.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿تَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17]، فقد رأى السكّاكي أنّ الذي تقتضيه البلاغة القرآنية هو أن يكون المرادبـ: (مَنْ لاَ يَخْلُقُ): الحيَّ العالمَ القادر مِن الخَلْق لا الأصنام، وأنْ يكون الإنكار موجَّهاً إلى توهُّم تشبيه الحيّ القادر مِن الخلق به – تعالى وتقدّس عن ذلك علوّاً كبيراً – تعريضاً به عن أبلغ الإنكار لتشبيه ما ليس بحيّ عالم قادر به، ويكون قوله: (أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) تنبيهُ توبيخٍ على مكان التعريض[1].

ويقرب من معنى التعريض الإشارة وهي فنّ لطيف دقيقُ المأخذ كثير الفوائد قويّ التأثير، يدرِك ذلك أهل النفوس الذكيّة والفِطَر السوية والأذواق السليمة، وتكمن بلاغته في خفائه، وقديماً قيل: رُب تلميح أبلغ من تصريح، وقد وقع منه في القرآن شيء كثير[2]، وممّا جاء منه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: 18]، فالإشارة هنا في قولها: (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)، وهذا وإن كان اعتذاراً منها عن سليمانَ عليه السلام وجنودِه أنهم إنْ حطّموهم وداسوهم بأقدامهم فليس عن قصد منهم[3]، فهو مدحٌ ضمنيّ لسليمان عليه السلام وجنوده بالعظمة والسلطان مع العلم والعدل والتواضع والشكر، ولولا أنها تريد – وسبحان مَن ألْهمها ذلك – هذا المعنى ما قالت: (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)، وإلا فما الفائدة من مجرّد الاعتذار عن سليمان وجنوده لولا أنها تريد المدح والتزكية؟

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: 20]، ففي قوله: (يَسْعَى) بيانُ صفةِ مجيء الرجل المؤمن إلى المكذّبين من أهل قريته المستكبرين عن قَبول الحقّ، وفيه إشارة إلى شِدّة حرصه وقوة اهتمامه، حيث لم يجئ ماشياً ولكن قدم ساعياً، وسرعة الحركة دليل الاهتمام وانشغال البال بأمر ذي بال. إنّ هذا الرجلَ الصادقَ في إيمانه القويَّ في عزيمته مهتمٌّ لقومه محبٌّ لهم الخير، يودّ مخلصاً لو أنّهم يسمعون الحقّ سماع تنفيذ لا سماع حاسّة، لقد أثنى الله على هذا الرجل المؤمن بأنواعٍ من الثناء الحسن إشارةً من غير تصريح تنبيهاً للعقول على ضرورة تدبّر قصّة هذا الرجل وحالِه مع قومه وموقفه من المرسلين، ففي قوله: (وَجَاءَ) مدحٌ بالبحث عن الحقّ، وأنه لم تزَلْ نفسه توّاقةً متلهّفةً لسماع صوت الحقّ مِن أيّ جهة جاء، وفي

(1) – المصدر نفسه: ص344، ببعض التصرّف.

(2) – ينظر الصفحات (202 – 219) من هذا البحث.

(3) – ينظر تفسير السعدي: ص603.

قوله: (مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ) ما يشير إلى أنّ بُعد المسافة لم يُفتِّر من عزيمته ولم يُضعف من همّته، ولعلّه تَقَصّد السكنى بأقصى المدينة رغبةً عن مخالطة قومه الذين لم يكن راضياً يومها عن حالهم الشِّرْكيّة، والحاصل أنّ الآية تشير إلى مدح هذا الرجل المؤمن بما يجعله أسوةً حسنة لكل أحد في المسارعة إلى الحقّ ونصرته وترك التقليد للآباء والكُبَراء، قال ابن عاشور: "هذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممّن يُقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر"[1].

ومن ذلك قوله تعالى آمراً نبيّه ﷺ بتذكير قومه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[الأعلى: 7]ك، (إِنْ) شرطيّة، والمعنى: ذكّرْ ما دامت الذكرى مقبولةً والمصلحةُ متحقِّقة، فإن عدِمت المصلحة لم تكن الذكرى مأموراً بها. هذا هو المعنى الظاهر، لكن بتنزيل الآية على واقعها الذي نزلت فيه، وباعتبار حال المخاطب آنذاك – وهم كفّار قريش – ندرك معنى خفيّاً، وهو الذمّ والتوبيخ والاستبعاد من أن ينفع فيهم التذكير؛ بسبب تكبّرهم وعِنادهم[2]، فاستعمال (إِنْ) بدلاً من: (إِذَا) مُشعِر بالذمّ بالتكبّر والعِناد.

وخلاصة ما تقدّم من المجاز والكناية التي منها التعريض والإشارة أنّهما يُعتبران مَظهرين من مظاهر البلاغة القرآنية، لا يتذوّقها إلا من لَطُف طبعه وصَفَت قريحته وسلِم ذوقه، حيث توضع المعاني في صورة المحَسَّات ويُعبّر عنها بأقلّ العبارات، مع ما تحمله من صحّة الدعوى بالدليل والبرهان في إيصال المعنى إلى المخاطب في خفاءٌ ولُطف، وهذا من أعظم أسرار البيان، فإن كان في المدح كان أبهى وأنبل، وإن كان في الذمّ كان ألذع وأقوى؛ لأنّه يزيد في حنق المذموم وغيظه، مع ما فيه من مراعاة الأدب في الكلام حتى أنه ليُكْنى عن المذامّ بما تستسيغه الآذان، فهذه بعض خصائص المجاز والكناية ترجع إلى أصل واحد هو تأكيد إثبات المعنى في قلب المخاطب لا مجرّد زيادة المعنى في نفسه[3].

(2) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج22 ص213.

(3) – ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: مج1 ص156.

(1) – ينظر دلائل الإعجاز للجرجاني: ص82.

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

الأساليب البديعية للمدح والذم في القرآن الكريم

المطلب الأول: الإيهام والإبهام في المدح والذمّ

يُعدُّ الإيهام سرّاً من أسرار البلاغة، حيث يسلك المتكلِّم طريقةً في الكلام غيرَ الطريقة المألوفة الواضحة، بحيث يُوقِع المخاطَبَ في الوهم؛ من أجل لفت نظرِه وإثارة مشاعره وشدِّ انتباهه، وهو مسلك دقيق المأخذ كثيرُ الفوائد لا يسلكه إلا الحذّاق من الخطباء والشعراء، يظهر هذا المعنى جليّاً فيما أسموه: تأكيدَ المدح بما يشبه الذمّ وعكسَه، حيث يسلك فيه المتكلّم سبيلاً للمدح يُوهِم أنّه ذمٌّ أو العكس، فيكون ذلك أقوى لمدحه أو ذمّه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ**﴾ [البروج: 8]ك، فالكفّار لم يَعيبوا من المؤمنين إلاّ ما هو أصل المناقب كلِّها، وهو الإيمان بالله العزيز الحميد، وتظهر بلاغة هذا الأسلوب فيما يشتمل عليه من إيهام؛ فإذا نطق التالي لهذه الآية بـ: **(إلا)** توهّم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أنّ ما يأتي بعدها ذمّ، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكّد المدح لكونه مدحاً على مدح، وشعر المخاطَب بأريحيّة مع مفاجأة فيها نكتة لطيفة لا يجدها في غير هذا الأسلوب، وهو أشبه ما يكون بالخداع في الكلام، والأمر نفسه إن كان في الذمّ، قال فتحي فريد: "ومِن أوضح السِّمات التي يتميّز بها كلامُ البليغِ عن كلام غيره ما يشتمل عليه من إيهامٍ إذا اقتضى المقام ذلك الإيهام؛ إذ يوهمك أنه يذمّ حيث يمدح، ويمدح حيث يذمّ، فيكون أبلغَ تأثيراً في مدحه أو ذمّه"(1).

أمّا الإبهام فهو عدم التبيين، ويُؤتى به لتفخيم الأمر، ومنه التعريض بذكر الوصف دون الاسم تعظيماً أو تحقيراً للمُبهم(2)، ومن أمثلته في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿**تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ**﴾ [البقرة: 253]م، فقوله ﷻ: **(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)** يُفسّر بأمرين، **أحدهما:** بما ثبت في حديث الإسراء حين رأى رسول الله ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوتِ منازِلهم عند الله ﷻ، وبهذا التفسير(3) تكون هذه الجملة مؤكِّدةً لما قبلها،

(1) – فتحي فريد: بحوث ومقالات في البلاغة، ص32.

(2) – قال السيوطي: "إنّ للإبهام أسباباً، منها: **تعظيم** المبهم بالوصف الكامل دون الاسم، ومنها: **تحقير** المبهم بالوصف الناقص". [معترك الأقران: مج1 ص485].

(3) – ينظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: مج1 ص179.

والثاني – ولعلّه الأصحّ – أنّ المقصود من قوله: **(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)** هو نبيّنا محمّد ﷺ الذي اجتمع فيه مِن الفضائل ما تفرّق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأوّلين والآخِرين، قال الزمخشري: "أي: ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضلَ منهم درجات كثيرة، والظاهر أنه أراد محمّداً ﷺ...، وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، ولِما فيه من الشهادة على أنه العَلَمُ الذي لا يَشتبِه والمتميِّز الذي لا يَلتبِس، ويُقال للرجل: مَن فعل هذا؟ فيقول: أحدَهم أو بعضَهم، يريد به الذي تُعُورِف واشتُهِر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخمَ من التصريح به وأنْوَهَ بصاحبه، وسُئل الحُطيئة عن أشعر الناس فذَكَر زُهيراً والنابغةَ ثم قال: ولو شئتُ لذكرتُ الثالثَ، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يفخِّم أمرَه، ويجوز أن يريدَ إبراهيمَ عليه السلام ومحمّداً ﷺ وغيرهما من أولي العزم من الرسل"[1]، ونحوه: ﴿**بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ**﴾ [العنكبوت: 49]ك، قال ابن عاشور: "فالمراد: صدر النبيّ ﷺ عبّر عنه بالجمع تعظيماً له"[2]، وفي إبهامه مزيد مدح وتعظيم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: 35]ك، كلّ الأنبياء والرسل صبروا وكلّهم أُولوا عزم، لكنّ المراد بأولي العزم خمسة: محمّد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى – عليهم الصلاة والسلام –؛ وإنما خُصّوا بهذا الوصف لأنهم تحمّلوا من الشدائد وصبروا على أقوامهم أكثر من غيرهم، وفي الإبهام بهذا الوصف من التنويه بهم والتفخيم لهم ما يزدادون به رفعة وسُموّاً.

ومن ذلك ما جاء في مدح موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾ [الدُّخان: 17]ك، فأبهمه بما يكون مدحاً له وإعظاماً لقَدره وتفخيماً لأمره، والمعنى: وجاءهم رسول من خِيرة الرسل أو من خِيرة الناس[3].

ومن ذلك أيضاً ما جاء في كثير من الآيات في مدح أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ** أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص (297– 298).

(2) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج21 ص12.

(3) – المرجع السابق: مج25 ص295.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 22]م، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[الزُّمَر: 33]ك، وقولِه: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: 40]م، وقولِه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى، ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ، وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ، إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ، وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ [الليل: 17 - 21]ك، والمراد في الكلّ: أبو بكر الصدّيق(1).

وممّا جاء من الإبهام للذمّ والتحقير قولُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ، يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ [البلد: 5- 6]ك، هذا تعريض بذمّ(2) الأشدّ بن كِلدة، أُبهم اسمه تحقيراً لشأنه؛ إذ عدّ نفسه عزيزاً لا يُغلب وغنيّاً لا يَترب.

ومِن خَفِيّ الإبهام بالتعريض بالوصف ما جاء في ذمّ أبي جهل القائل: ما بين جَبَلَيْها أعزُّ ولا أكرم منّي: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدُّخان: 49]ك، قال ابن رشيق القيرواني: "ومن أفضل التعريض ممّا يَجِلّ عن جميع الكلام قولُ الله ﷻ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾، أي: الذي كان يُقال له هذا أو يقوله، وهو أبو جهل...، وقيل: بل ذلك على معنى الاستهزاء به"(3)، فكلّ من عرَف صاحب تلك المقالة علم مَن هو المأمور بذوق العذاب، وهذا من خفيّ التعريض وأحسنه، وأبهمه بهذا الوصف زيادةً في التهكّم به وتنبيهاً على أنّ العزّة والكرامة لا تُنال إلا بطاعة الله ورسوله.

ومن الإبهام التنكيرُ(4) ويكون للتفخيم والتعظيم، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]م، قال السّعدي: "(عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ) أي: على هدى عظيم؛ لأنّ التنكير للتعظيم، وأيُّ هدايةٍ أعظمُ من تلك الصفات المذكورة المتضمّنة للعقيدة

---

(1) – ينظر معترك الأقران للسيوطي: مج1 ص485.

(2) – ينظر التحرير والتنوير لمحمّد الطاهر بن عاشور: مج30 ص352.

(3) – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مج1 ص304.

(4) – كما يكون التنكير للتفخيم مدحاً أو ذمّاً يكون التعريف كذلك، قال السيوطي: "فمِن التعظيم ذكرُ يعقوب عليه السلام بلقبه إسرائيل؛ لِما فيه من المدح والتعظيم بكونه صفوةَ الله، ومن الإهانة قولُه: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، ويكون للتحقير أيضاً، والتعريفُ بالإضافة؛ لكونها أخصر طريق لتعظيم المضاف، نحو: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ و﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ﴾، أي: الأصفياء في الآيتين، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنه وغيره". [الإتقان في علوم القرآن: مج1 ص192].

الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهدايةُ الحقيقيّة إلا هدايتهم؟ وما سواها ممّا خالفها فهو ضلالة"[1]، وقال صدّيق حسن خان: "والإبهام المفهوم من التنكير في: (هُدًى) لكمال تفخيمه، أي: على هدى أيُّ هدى، لا يُبلَغ كنهُه ولا يُقادَر قَدرُه"[2]، ونحوه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٌ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية:11]ك، قال الزمخشري: "(هذا) إشارةٌ إلى القرآن، يدلّ عليه قوله تعالى: (وَالذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)؛ لأنّ آياتِ ربهم هي القرآن، أي: هذا كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيدٌ رجل، تريد: كاملٌ في الرجوليّة وأيُّما رَجل"[3].

ومن التنكير للتفخيم قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحِجْر: 1]ك، قال الزمخشري: "(تلك) إشارة إلى ما تضمّنته السورةُ من آيات، والكتابُ والقرآنُ المبين: السورةُ، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آياتُ الكتابِ الكاملِ من كونه كتاباً وآيُ قرآنٍ مبين، كأنه قيل: الكتابُ الجامع للكمال والغرابةِ في البيان"[4].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا﴾ [الكهف: 65]ك، إنّ تنكير (عبد) – هنا – يفيد تفخيم أمره وأنه ليس كأيّ عبد من عباد الله؛ وذلك لما حَباه مولاه من النبوّة[5] والرحمةِ والعلم والحكمة والعمل الصالح، يعضّده قوله ﷻ بعده: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾، فالإضافة هنا إلى معظَّم، وهو الله تعالى، وفيها زيادةُ تكريم وتشريف، وقوله أيضا: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً﴾، وتنكيرُ (رَحْمَةً) و(عِلْماً) في وصف الخِضْر عليه السلام يفيد سَعة ما أوتي من رحمةٍ رُحم بها ورَحم بها – بإذن الله –، وهو أيضاً ذو علم عظيم من لدن حكيم عليم.

ومن التنكير للتفخيم قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النمل: 40]ك، تنكير العلم للتفخيم وأنّه علمٌ عظيم غيرُ معهود[6]، ولعلّه اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا دُعي به أجاب وإذا

(1) – السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص41.

(2) – القِنّوجي: صدّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص85.

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج4 ص287.

(4) – المصدر نفسه: مج2 ص569.

(5) – ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور: مج15 ص369.

(6) – ينظر تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السُعود، مج5 ص85.

سئل به أعطى.

ومن التنكير للتفخيم ما جاء في ذمّ اليهود في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: 13]م، أي: نسوا حظّاً وأيُّ حظّ! لقد نسوا ما فيه خيرهم وسعادتهم وفلاحهم، وفي هذا أبلغ الذمّ لهم حيث ارتكبوا ذنباً عِظيماً بعدم اكتراثهم بوصايا التوراة، قال ابن عاشور: "وتنكيره هنا للتعظيم أو التكثير بقرينة الذمّ، وما ذكّروا به هو التوراة"(1).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60- 61]ك. قال الزمخشري: "وتنكير الصراط يُراد به صراطٌ بليغ في استقامتِه جامعٌ لكل شرط يجب أن يكون عليه"(2)، لكن قد تُحمل هذه الجملة على الذمّ والتوبيخ، ولعل هذا المعنى أقرب إلى السياق، قال الزمخشري: "ويجوز أنْ يراد: هذا بعضُ الصُّرُط المستقيمة؛ توبيخاً لهم عن العدول عنه والتفادي عن سلوكه...، كما يقول الرجلُ لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده: هذا – فيما أظنّ – قولٌ نافع غيرُ ضارّ توبيخاً له على الإعراض عن نصائحه"(3).

المطلب الثاني

الالتفات(4) في المدح والذمّ

الفرع الأول: من الخطاب إلى الغَيبة:

إنّ الانتقال من الخطاب إلى الغَيبة أو العكس يزيد في قوة الكلام وشَدِّ الاهتمام، وقوة التأثير وجمال التعبير، فإن كان في المدح كان أقوى وأبلغ وأحسن، وإن كان في الذمّ كان أشدَّ وأوجع وألذع، وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة من ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج6 ص144.

(2) – الزمخشري: الكشاف، مج4 ص23.

(3) – المصدر نفسه: مج4 ص (23- 24).

(4) – قال ابن فارس: "ومن سنن العرب أنْ تخاطب الشاهد ثم تحوّل الخطاب إلى الغائب، أو تخاطب الغائب ثم تحوّله إلى الشاهد، وهو الالتفات". [ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة، ص219].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64]م، هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة، لم يقل: واستغفرت لهم ولكن عدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيماً لشأن الرسول ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أنّ شفاعة مَن اسمه الرسول هي مِن الله بمكان(1).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَ مَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]ك، قال الزمخشري: "وقوله تعالى: (فَأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُونَ) التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواصّ خلْقِه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون، والمعنى المضعِفون به"(2).

وممّا جاء منه في الذمّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولاً ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ، ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 34- 35]ك، الالتفات هنا في قوله: (الذِينَ يجَادِلُونَ في...)، والنكتة البلاغية في هذا الانتقال من الخطاب إلى الغَيبة تتمثّل في حسن المحاورة وشدّ الانتباه وعمق التأثير، فيكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب لحُسن محاورته لهم واستجلابِ قلوبهم، وإبرازِ ذلك في صورة تذكيرهم ولا يَفْجأهم بالخطاب، وفي قوله: (كَبُرَ مَقْتاً) ضربٌ من التعجّب والاستعظام لجدالهم وشهادةٌ على خروجه عن حدّ أَشكاله من الكبائر(3).

الفرع الثاني: من الغَيبة إلى الخطاب:

ومن الانتقال من الغَيبة إلى الخطاب ما جاء في قراءة ابن عامر: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50]م بدل (يَبْغُونَ) مع أنّ سياق الآيات في الغيبة، فقد قال قَبلها: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ

(1) - ينظر الإيضاح للقزويني: مج1 ص (160- 161).

(2) - الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص481.

(3) - ينظر تفسير البحر المحيط لأبي حيّان: مج7 ص465.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 49]م، فانتقل الكلام من الغَيبة إلى الخطاب، والنكتة في ذلك تقوية التوبيخ والتقريع[1]؛ إذ كيف يطلبون حكم الجاهلية المبنيّ على الجهل والظلم والبغي، ويُعرضون عن حكم الله المبنيّ على العلم والعدل والهدى[2].

إنّ في هذه الآية – على وجازتها – من التوبيخ للكفّار من الرهبان والأحبار من أهل الكتاب وغيرهم ما يَقُدّ السمع ويُفطِّر القلب، حيث صدّرها بالاستفهام البلاغيّ الذي لا يُراد به إجابةً ما ولكن أُريد به التوبيخ والإنكار والتعجيب أيضا، ثم تقديم المفعول للتّخصيص المقتضي تقوية الذمّ والإنكار؛ لأن التولّي عن حكم رسول الله ﷺ وطلبَ حكمٍ آخرَ مُنكرٌ عجيب، وطلبَ حكم الجاهلية أقبحُ وأعجب[3]، أضِفْ إلى ذلك الالتفاتَ المشعِرَ بزيادة التوبيخ والذمّ، وبعدها قال: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**، وهو استفهام يقصد به النفيُ المقترن بالتحدّي، أي: لا يوجد ولن يوجد حكم أحسن من حكم الله، فكلّ حكمٍ مخالفٍ لحكم الله فهو جاهليةٌ وظلم ومفسدة وإن ظنه أكثر الناس تنويراً وعدلاً ومصلحة، غير أنّ الفرق بين الحكمين ليس ظاهراً لكلّ أحد، بل لا يميّزه إلا أهل الإيقان والإتقان، وفي قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾** تيئيس من محاولة إيجاد البديل عن حكم الله، وفي قوله: **﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** تعريض بمدح المحكّمين لشرع الله بأنهم أهل علم ويقين، وفيها تعريض بذمّ مَن طلب غير حكم الله بأنهم أهلُ جهل وشكّ، فصدْر الآية توبيخ وآخرها برهان وتحدٍّ ومدحٌ وتوجيه، فأيُّ كلام أبلغ من هذا؟!![4].

ومن الالتفات أيضاً ما جاء في ذمّ قوم لوط عليه السلام في قوله تعالى: **﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾** [النمل: 55]ك، ولو قال: بل أنتم **قومٌ يجهلون،** لكانت الصفة موافقةً للموصوف، وحيث جاءت الصفةُ **(تجهلون)** بلفظ المخاطَب والموصوفُ **(قوم)** بلفظ الغائب فهنا يُطرح السؤال: لماذا عدل عن الغيبة إلى المخاطبة؟ والجواب: حتى يحصل الترقّي في الذمّ؛ لأن قوله: **(تجهلون)** أبلغ من حيث الأثر النفسي خلافاً لقوله: **(يجهلون)** فهو أقلّ

(1) – ينظر روح المعاني للآلوسي، مج2 ج4 ص156.

(2) – ينظر تفسير السعدي: ص235.

(3) – ينظر المصدر السابق: مج2 ج4 ص156.

(4) – هذا استطرادٌ قصدتُ به التنبيهَ على كثرة المعاني والأوجه البلاغية التي احتوتها هذه الآية الكريمة على قِصرها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أثراً؛ لأنّ فيه معنى الغيبة وهذا يخفّف شيئاً ما من قوة الذمّ وحدّته، قال الزمخشري: "اجتمعت الغَيبة والمخاطَبة فغُلِّبت المخاطبة؛ لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من الغيبة"[1].

الفرع الثالث: من المتكلِّم إلى المخاطَب:

قال الله تعالى على لسان مؤمن يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: 22]ك، كان الأسلوب قبل الالتفات هكذا: ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع، فحوّل الكلام من المتكلّم إلى المخاطب، والنكتة في ذلك هي أنّ الكلام من أول الأمر كان تعريضاً بتوبيخ قومه الذين كذّبوا المرسلين[2]، وهذا أبلغ ممّا لو خاطبهم فقال: ومالكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون؛ لأنّ المقام لا يحتمل التصريح.

الفرع الرابع: العدول عن استخدام الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

إنّ فائدة العدول عن استخدام الفعل الماضي في سياق الحكاية إلى الفعل المضارع هي استحضار ذلك الأمر في النفوس حتى يصير كأنه مرئيٌّ رأيَ العين، فإن كان في المدح والذمّ كان أدعى للتنبيه وأبعد في التأثير، كالتعبير بـ: (يَبْتَغُونَ) بدل (ابتغوا) في سياق مدح الصحابة ﭬ في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح: 29]م، وذلك لبيان استمرارهم ومداومتِهم على الصلاة التي هي خير الأعمال، قال ابن عاشور: "أي: تراهم كلّما شئتَ أن تراهم رُكّعاً سُجّداً، وهذا ثناءٌ عليهم بشدّة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكّية للنفس"[3].

وممّا جاء منه في الذمّ قولُه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]م، قال الزمخشري: "فإن قلتَ: هلاّ قيل: وفريقاً قتلتم قلتُ: هو على وجهين: أن تُراد الحالُ الماضية؛ لأنّ الأمر فظيع فأُريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يُراد تقتلونهم بعدُ؛ لأنكم تحومون حول قتلِ محمّد ﷺ لولا أني

(1) – الزمخشري: الكشاف، مج3 ص374.

(2) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص245، والإيضاح للقزويني: مج1 ص158.

(3) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج26 ص205.

أَعصِمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمَّمتُم له الشاة"[1]، فلو عبّر بالماضي لما حصلت تلك الفائدة العظيمة، وممّا يؤكّد هذا ويقرّره أنّ الله ﷻ ثنّى هذه الآية في سورة أخرى في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ [المائدة: 70]م، فأتى بالأسلوب نفسه مراعاةً – والله أعلم – لهذه الفائدة، وهذا سرٌّ عجيب من أسرار نظم القرآن المجيد يدلّ على أنه منزل من لدن حكيم حميد.

المطلب الثالث

الإضراب في المدح والذمّ

الإضراب كالالتفات إلاّ أنّ فيه إعراضاً عن الكلام السابق واستئنافاً لكلام جديد، ويُستخدم لهذا الأسلوب الحرف (بل) أو (أم) المنقطعة الدالاّن على الإضراب، وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب في سياقات متعدّدة منها المدح والذمّ، وفائدته الدلالة على أنّ المدح والذمّ الواقع بعد حرف الإضراب أشدُّ وقْعاً وأعظم أثراً ممّا كان قبلها، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى في ذمّ قوم لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [الأعراف:81]ك، إنّ إتيان الذُّكران أمر في غاية الشناعة، حتى أنه من شدّة شناعته وقبحه أنّ صاحبه قد استحقّ شيئاً أكبرَ من الإنكار عليه، ولهذا أضرب هذا النبيّ الكريم عن الإنكار إلى وصفهم بالوصف اللائق بهم المستوجب لذمّهم، قال الزمخشري: "أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتّباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوُز الحدود في كلّ شيء، فمِن ثمَّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد، ونحوه: (**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**)"[2]، وفائدته هنا الانتقال في ذمّهم من الوصف الخاص إلى العام، فيكون قد ذمّهم مرّتين مع الارتقاء فيه من أدنى إلى أعلى وهذا يزيد في تقوية الذمّ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:44]ك، إنّ المذمومين في هذه الآية هم كفّار العرب، وقد تقدّمها آيات كثيرة في ذمّهم ولكن هذه الآية كانت أشدّ وأنكى، فقد قصّ القرآن قبل ذلك أخبار

---

(1) – الزمخشري: الكشاف، مج1 ص162.

(2) – المصدر نفسه: مج2 ص125.

الرسل السابقين وكيف كانت سنته في أقوامهم المكذّبين تحذيراً لهؤلاء المعاندين من مغبّة الاستمرار على كفرهم وتكذيبهم، ثم وبّخهم على الغفلة وعدم النظر والاعتبار، فقال: ﴿**أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا**﴾ ثم وبّخهم مرّة أخرى بأنهم لم يكتفوا بتكذيب الرسول ﷺ الذي علموا صدقه وأمانته منذ نشأ فيهم بل احتقروه واتّخذوه هزؤاً، وزعموا أنّ مثله لا يستأهل أن يبعثه الله رسولاً إليهم وأنّ فيهم – كذبوا – من هو أفضل منه، وهذا يُنبئ عن جهلٍ وضلال وسفه لا مزيد عليه، ثم ذمّهم بأنّهم غارقون في الضلال إلى آذانهم حيث انقلبت عندهم الحقائق فظنّوا الضلال هدى والشرك توحيداً، ثمّ أخبر تعالى عنهم أنهم يُطيعون أهواءهم طاعةَ العابد لمعبوده، ثم بيّن لنبيّه الكريم أن مهمّته لا تتجاوز البلاغ المبين، وهنا جاءت الآية التي نحن بصددها لتستأنف كلاما جديداً لكن في السياق نفسه؛ لتؤذن أنّ ما يأتي بعدُ من الذم أشدّ من الذي قبله، قال الزمخشري: "(أم) هذه منقطعة، معناه: بل أتحسب، فإنّ هذه المذمّةَ أشدُّ مِن التي تقدّمتها حتى خُصَّت بالإضراب عنها إليها، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، بل لأنهم لا يُلقُون إلى استماع الحقّ أذناً ولا إلى تدبُّره عقلاً"(1)، وأمّا كونهم أضلَّ من الأنعام فهذا هو المَثَل المطابق لحقيقة حالهم؛ لأنّ الأنعام يَهديها راعيها فتهتدي، وهؤلاء يهديهم رسولهم فلا يهتدون؛ ولأنّ الأنعام تعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهؤلاء يعرفون طريق هلاكهم فيتبعونه: ﴿**وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً**﴾ [الأعراف: 146]ك، ثم إنّ هذه الأنعامَ أسلمُ عاقبةً من هؤلاء؛ لأنّ حياتها تنتهي بالموت أمّا هؤلاء فالنار مثواهم الأخير وبئس المصير، ولهذا قال: ﴿**بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾.

المطلب الرابع

الإيجاز(2) في المدح والذمّ

إنّ البلاغة تقتضي الإيجاز، ومن الإيجاز في المدح والذمّ في القرآن الكريم ما جاء من كثرة حذف المخصوص بالمدح أو الذم، وقد تقدّم أنّ المخصوص لا يحذف إلا إذا تقدّم مُشعِر به في الكلام، ولعلّ السببَ في كثرة حذفه هو ما يقتضيه الترتيب السياقي في أسلوب المدح والذمّ؛ إذ المدح والذمّ إنما يحسن في السياق إذا جاء بعد ذكر الشيء الممدوح أو المذموم(3)، ثم إنّ في ذكره مع

---

(1) – المصدر السابق: مج3 ص282.

(2) – قال السكّاكي: "الإيجاز: هو أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط". [مفتاح العلوم: ص277].

(3) – ينظر أساليب العطف في القرآن الكريم لمصطفى حميدة: ص127 .

تقدُّم المشعرِ به تكرار بلا علّة وتطويل بلا فائدة.

ومن الحذف للإيجاز تركُ إلحاق تاء التأنيث بـ: "نِعْمَ وبِئْسَ" إذا كان الفاعل أو المخصوص مؤنثاً، مع أنّ إلحاقها بهما جائز، ولعلّ السرّ في ذلك يكمن في أمرين، **أحدهما:** هو إرادة استخدام الأسلوب الأجود؛ إذ الترك أفضل من الإلحاق[1]، **والثاني:** الإيجاز، فكلّما حصل المقصود بأقلّ عبارةِ المتعارف من غير إخلال كان الكلام أبلغَ وأحسن.

ومن الإيجاز أيضاً ما ذكره السكّاكي في قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: 2]م، ذهاباً إلى أنّ المعنى: هدى للضالّين الصائرين إلى التقوى بعد الضلال، ذلك بأنّ الهداية إنما تكون للضالّ لا للمهتدي، ووجهُ حُسنِهِ قصدُ المجاز المستفيضِ نوعُه، وهو وصف الشيء بما يؤول إليه، والتوصّل به إلى تصدير أُولى الزهراوين بذكر أولياء الله[2].

ومن الإيجاز الذي ينبّه العقل ويدعو إلى إعمال الفكر بالتدبر والتفكّر ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ**﴾ [الرعد: 31]، أي: لكان هذا القرآن، وذلك تفخيماً لشأنه وأنه كلام عظيم من لدن حكيم عليم.

ومما جاء من الإيجاز بالحذف في القرآن قولُه تعالى مادحاً القرآن الكريم: ﴿**إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسراء: 9]ك، فلم يقل: يهدي للسبيل التي هي أقوم، وذلك لفهم المعنى بدون ذكر الموصوف، وفيه نكتة بلاغية، وهي التعظيم للملّة التي يهدي إليها هذا القرآن العظيم[3].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النمل: 15]ك، قدّر الزمخشري في هذه الآية محذوفاً على معنى: ولقد ءاتينا داود وسليمان علماً فعملاَ به وعلماه وعرَفا حقّ النعمة فيه والفضيلة وقالا: الحمد لله[4]، لكن لا بدّ من قرينة تدلّ على ذلك[5]، وهي – هنا – (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَا﴾[6].

(1) – ابن مالك: شرح تسهيل الفوائد، مج3 ص20.

(2) – السكّاكي: مفتاح العلوم، ص277.

(3) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج15 ص40.

(4) – الزمخشري: الكشاف، مج3 ص354.

(5) – قال ابن جنّي: "الأصل في الكلام الذِّكر، ولا يحذف منه شيء إلا بدليل أو قرينة لفظية أو قرينة المقام". [ابن جنّي: الخصائص، مج2 ص360]

(6) – ينظر مفتاح العلوم للسكّاكي: ص278.

ومن الإيجاز أيضاً ما جاء في كثير من الآيات الواردة في مدح نساء الجنة، مثل قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ [سورة الرحمن: 56]م، قال ابن عاشور: "(**قاصِرات**): صفة لموصوف محذوف تقديره: نساء، وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نُزّل منزلة الاسم[(1)].

المطلب الخامس

الإطناب[(2)]في المدح والذمّ

الإطناب فيه زيادةُ لفظٍ مع زيادة معنى، فهو تطويل بفائدة، فإن لم يكن بفائدة فهو إسهاب[(3)]أو حشو[(4)]، ومن أمثلته في كلام العرب ما جاء من قول عنترة العبسي[(5)]:

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّها *** أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالسُّيُوفُ كَأَنَّها *** لمعُ البَوَارِقِ فِي سَحَابٍ مُظْلِمِ

فالإطناب هنا في إعادة قوله: (**يَدْعُونَ عَنْتَرَ**)، وفائدته تقرير المعنى في نفس السامع وتثبيته، وعادةً ما يكون الإطناب في مواطن الفخر والمدح، وهو موجود في القرآن الكريم، أمّا الإسهاب أو الحشو فالقرآن الكريم منزَّهٌ عنه؛ إذ لا يخلو حرفٌ فيه من فائدة، والإطناب له صور كثيرة منها ما يكون من قبيل ذِكر الخاصِّ بعد العامّ للتنبيه على فضل الخاصّ، أو ذكر العامّ بعد الخاصّ لإعادة ذكره مرّة أخرى زيادةً في الاهتمام به، ومن صُوَره أيضاً الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال أو العكس؛ من أجل تقرير المعنى في ذهن السامع، أو التكرار لداعٍ كتمكين المعنى في النفس أو بسبب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج27 ص269.

(2) – قال ابن منظور: "**الإطناب**: البلاغة في المنطق والوصف مدحاً كان أو ذمّاً، وأطنب في الكلام: بالغ فيه...، **والإطناب** المبالغة في مدحٍ أو ذمّ والإكثار فيه، والمِطْنِب: المدّاح لكلّ أحد". [لسان العرب: مج1 ص514، مادّة: طنب]، **وفي الاصطلاح**: هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارات مُتعارَف الأوساط. [مفتاح العلوم للسكّاكي: ص277].

(3) – جاء في لسان العرب: "**والمسْهِب والمُسْهَب**: الكثير الكلام، قال الجعدي: غيرُ عَيِيٍّ ولا مُسهِب". [لسان العرب: مج1 ص435، مادّة: سهب]، وينظر تمام البيت في: معجم الشواهد الشعرية، مج12ص546، وقال الكفويّ: "**الإسهاب**: تطويل لفائدة أو لا لفائدة". [الكلّيات: 141].

(4) – مثال **الحشو** قول زهير: وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ **قَبْلَهُ** *** وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي [الزَّوْزَني: شرح المعلّقات السبع، ص79]، فالحشو في قوله: (**قَبْلَهُ**)؛ لأنّ الأمس لا يكون إلا قبل اليوم. [ينظر العمدة لابن رشيق: مج2 ص54].

(5) – الزَّوْزَني: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين، شرح المعلّقات السبع، ص140، وليس فيها البيت الثاني.

طول الفصل أو نحو ذلك من دواع التكرار، ومن الإطناب أيضاً الاعتراض في الكلام غير ما يجيء لدفع الإيهام.

يَعُدّ السكّاكي باب "نِعْمَ وبِئْسَ" موضوعاً على الإطناب، ويستدلّ على ذلك بأنّه لو أريد الاختصار لكفى: نِعْمَ زيدٌ وبِئْسَ عَمرٌو، وقال بأنّ الحكمة في ذلك هي توخّي تقرير المدح والذمّ لاقتضائهما مزيد التقرير؛ لكونهما للمدح العام والذمّ العام الشائعين في كل خَصلة محمودة ومذمومة المستبعدِ تحقّقُهما، فإذا قلت: نِعْمَ الرجلُ مُريداً باللام الجنسَ دون العهد؛ فإنّ المدح سيتوجّه إلى زيد أولاً على سبيل الإجمال؛ لكونه فرداً من أفراد ذلك الجنس، وإذا قلت: نِعْمَ رجلاً فأضمرته من غير ذكرٍ سابق له وفسّرته باسم جنسه ثم قلت: زيدٌ، فإنّ المدح سيتوجّه إليه ثانياً على سبيل التفصيل(1)، وفي هذا الأسلوب من النكت واللطائف ما يبعث على الدهشة والعجب، وفي هذا يقول السكّاكي: "وإنّ هذا الباب متضمّنٌ لِلَطائف وفيه من الإطناب الواقع في موقعه ما ترى، وفيه تقدير السؤال وبناء المخصوص عليه مقدّراً بعد: نِعْمَ الرجلُ أو نِعْمَ رجلاً، مَن هو؟ ويُبنى عليه: زيد، أي: هو زيد، وقد عرَفت فيما سبق لُطف هذا النوع، وفيه اختصار من جهة، وهو: ترك المبتدأ في الجواب، ولا يخفى حُسنُ موقعه، ولو لم يكن فيه شيء سوى أنه يُبرِز الكلام في معرض الاعتدال نظراً إلى إطنابه من وجهٍ وإلى اختصاره من آخر، أو إيهامِه الجمع بين المتنافيين في جمعه بين الإجمال والتفصيل في مبنى السحرِ الكلاميّ الذي يقرع سمعك على امتثال ذلك لكفى"(2).

ومن الإطناب المراد به المبالغة في المدح ما جاء في القرآن من التفصيل في ذكر ممادح العاملين من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ**﴾ [آل عمران: 195]م.

قال الزمخشري: "(**فَالَذِينَ هَاجَرُواْ**...) تفصيلٌ لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السَّنِيَّة الفائقة، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارّين إلى الله بدينهم من دار الفتنة، واضطرّوا إلى الخروج من ديارهم التي وُلدوا فيها وتَشوُّراً بما سامهم

(1) – ينظر مفتاح العلوم للسكّاكي: ص284، والتحرير والتنوير لابن عاشور: مج24 ص248.

(2) – المصدر نفسه: ص284.

المشركون من الخَسْف[1]"[2]، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2-4]م، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ، ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ، وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ إلى آخر الآيات. [المعارج: 22- 34]ك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات:109- 111]ك، وقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافّات: 120- 122]ك، وقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافّات: 130- 132]ك، يُحَيِّي الله تعالى في هذه الآيات أنبياءه الكرام، وما ذاك إلا لأنّهم متّصفون بأحسن الخصال وأحمد الخلال، وهذا إجمال ثمّ جاء التفصيل ليَصفَهم ﷻ بالإحسان مدحاً وتبجيلاً، وبالدخول في جملة المؤمنين تأكيداً وتعليلاً.

ومن ذلك ما جاء في مدح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ، لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: 41- 42]ك، فذكر أوّلاً أنه كتاب عزيز، أي: مَنيع من أن يحرّف أو يُنال بسوء، ثم أطنب في مدحه فقال: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليس قبله كتاب يُكذّبه ولا بعده[3]، لا يقربه شيطان جنّيّ أو إنسيّ لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه أو حذف ما هو منه، محفوظٌ في تنزيله محفوظ في ألفاظه ومعانيه، تنزيل من حكيم حميد، فهذا القرآن هو كلام من هذا وصفه لا كلامُ من ظهر ضعفه وبان من كلّ وجه عجزه، فشتّان بين كلام الخالق وكلام المخلوق، لقد أطنب في مدح القرآن حتى تظهر عظمته وربّانيّته، ويظهر للجميع أنّه معجز من جميع الوجوه، وأنّ غيره من الكلام لا يسلم من الاختلاف والريب والتحريف والتجديد والاستدراك عليه

(1) – **الخَسْف**: الذلّ والهوان، قال ابن منظور: "وأصله أن تُحبَس الدابّة على غير علَف ثمّ استُعير فوُضع موضع الهوان". [ابن منظور: لسان العرب، مج5 ص482، مادّة: خسف].

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص456.

(3) – المحلّي: تفسير الجلالين، ص404.

بل لا يسلم من الباطل، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]م.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في مدح الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206]ك، ففي قوله تعالى: (**وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**) إطنابٌ أريد به مزيد مدحٍ للملائكة الكرام؛ لأنه مدحهم قبلُ بأنهم لا يستكبرون عن عبادته ثم فسّر عدم الاستكبار بالخضوع الذي من أبرز علاماته السجود، وبالتسبيح الدالّ على الاعتراف بنقصهم وعجزهم وافتقارهم إلى الغنيّ الحميد، الموصوفِ بصفات الكمال المنعوت بنعوت الجمال والجلال، وفي هذا الإطناب فوائد منها:

1 – التنبيه على عِظم قَدر الملائكة عند الله ﷻ.
2 – للملائكة أخلاق عظيمة، وأعظمها أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله ﷻ.
3 – من علامات عدم الاستكبار عن عبادة الله كثرةُ تسبيحه والصلاة له.
4 – أصل العبادة ولُبّها الخضوع والتذلّل المقرون بالحبّ والتعظيم.
5 – لا ينبغي السجود لغير الله بل التوحيد شرط في صحّة جميع الأعمال.
6 – الحث على التأسّي بالملائكة الكرام في هذه الأخلاق المذكورة وفي غيرها ممّا ذُكر في غير هذا الموضع.
7 – التعريض بذمّ عصاة المكلّفين من الجنّ والإنس الذين ائتمّوا بإبليس المبعَد عن رحمة الله ﷻ، الذي أبى واستكبر وفسق عن أمر ربّه وكفر، ولم يأتمّوا بالملائكة المقرّبين الذين لا يستكبرون عن عبادة ربّهم ويُسبّحونه وله يسجدون.

ومن بلاغة الإطناب ما نلمحه من حسن الاحتراس في مدح نساء الجنة في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [سورة الرحمن: 74]م، فلم يكتف بمدحهن بأنهن أبكارٌ لم يمَسَسْهنّ إنس حتى أضاف إليه نفيَ مِساس الجنّ لهن أيضاً؛ مبالغةً في مدحهنّ ودفعاً للتوهّم الذي قد يحصل، قال ابن عاشور في هذه الآية: "تتميم واحتراس، وهو إطناب دعا إليه أنّ الجنة دارُ ثواب لصالحي الإنس والجنّ، فلمّا ذكر الإنس نشأ توهّمُ أن يمسّهن جنّ فدفع ذلك المتوهَّم بهذا الاحتراس"[1].

---

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج27 ص271.

ومن الإطناب في المدح ما جاء في سورة الإخلاص من ثناءٍ وتمجيدٍ لله ﷻ بتوحيده بما يختصّ به، حيث افتُتِحت السورة بفعل الأمر (**قُلْ**) وفيه دلالة على أنّ هذا القرآن ليس من كلام محمّد ﷺ؛ لأنّ من شأن المخاطَب بـ: (**قل**) أن يبلِّغ مقول القول دون ذكر (**قل**)، وهذا في القرآن كثير؛ لبيان أنّ الرسول الكريم لا تَصرُّف له في القرآن بشيء مطلقاً، إنما هو مستقبِلٌ عن الله مبلّغ عنه تبليغاً لفظيّاً[1]، وبعد ذلك جيء بضمير الشأن[2] (**هو**) الدالّ على أنّ القضيّةَ الأساسية المرادَ الإخبارِ عنها تكمن في ما بعد: (**هو**) من ذكر صفات الجلال والجمال، فالله أحد، هذه هي الحقيقة وهذا هو الحال سواءٌ وُجد من يقول بذلك أم لم يوجد، وقد ذكر الشعراوي نكتة بلاغيّة في ذكر ضمير الشأن هذا، وهي أنّ الأصل في الضمير أن يكون له مرجع، سواء رجع الضمير إليه أو إلى مثله أو جزئِه، ففي قوله تعالى: (**قُلْ هُوَ**)، فإنّ (**هو**) هنا ليس له مرجع[3]، فإذا أُطلق فلا مرجع له إلا واحد، وهو: (**الله**)، فالضمير (**هو**) يدلّ على أنه غائب، لكنّ غيبته هي سرّ عظمته، إذاً (**هو**): ضمير غيبٍ دالٌّ على أنّ الحقّ – سبحانه – ظاهرٌ بما خلق من أسبابٍ باطنٌ بما له من ذات[4].

ويستمرّ السياق في سرد صفاته – تعالى – الدالة على كماله في وَحدانيته؛ فهو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، جاء هذا الثناء بأسلوب خبري ابتدائيّ إشارةً إلى أنّ هذه الحقيقةَ موافقة لما هو مركوز في الفِطَر ولما دلّ عليه النظر، وفي استخدام هذا الأسلوب من الخصائص ما يناسب جلالة الواحد الأحد من حيث استحقاقُه للألوهيّة الحقّة من غير منازع.

ومن الإطناب في الذمّ ما جاء في سورة (التوبة) أو (الفاضحة) من ذمّ المنافقين وبيان مخازيهم، حيث جاءت في أكثرها تذّم المنافقين وتفضحهم وتوبخهم بسوء أفعالهم ومقاصدهم وأطنبت في ذلك، ومما جاء فيها قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ**

---

(1) – ينظر المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشعراوي: ج3 ص175.

(2) – قال الكفوي: "وإنّما سُمّي ضميرَ الشأن لأنه لا يدخل إلا على جملة عظيمة الشأن، نحو: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ فإنّ أَحَديّته جليلةٌ عظيمة". [الكلّيات: ص570].

(3) – قال الكفويّ: "ولا بدّ للضمير من مَرجع يعود إليه...، ويكون [المرجع] متأخِّراً لفظاً ورتبة وذلك في باب ضمير الشأن والقصّة و"نِعْمَ وبِئْسَ" والتنازع". [الكلّيات: ص569]، وهنا عاد ضمير الشأن على لفظ الجلالة (**الله**)، وهذا يخالف ما ذكره الشعراوي من أنّ ضمير الشأن هنا ليس له مرجع لفظيّ ولكن له مرجع معنوي، وهو ما رُكّز في جميع الفِطَر من معرفة الله بحيث إذا أطلق: (**هو**) فالمرجع: (**الله**)، وهذه نكتة بلاغيّة عجيبة عليها مَسحة صوفية مُريبة.

(4) – ينظر المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشعراوي: ج3 ص176.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: الآية (42) وما بعد]م، وقوله تعالى: ﴿**لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ، لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ**﴾، وقوله: ﴿**قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ، وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ**﴾، وقوله: ﴿**وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ، رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ**﴾ وقوله: ﴿**ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ**﴾ وغيرها كثير.

ومن ذلك أيضا ما جاء في سورة (المنافقون) فقد عدّدت مذامّهم ومثالبهم، والداعي إلى الإطناب في ذمّهم هو أنّهم تستّروا بظاهر الإسلام وهم في الحقيقة كفّار، فكان هذا خداعاً منهم ليس من السهل التفطن له، فهم الأعداء في صورة الأحبّاء، قال الله تعالى: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [المنافقون: 4]م، هم عدوّ يتنقّل بأمان في أمّة الإيمان، لأجل هذا أطنب في تعييرهم وكشْف عُوارهم وبيان حقيقتهم، وهكذا نجد القرآن الكريم كلّما تعرّض للمنافقين بذكرٍ أطنب واستطرد رحمةً وتسلية للمؤمنين، وإغاظةً للكافرين وتهديداً للمنافقين.

المطلب السادس

استتباع المدح والذمّ

قال التفتازاني[1]: "الاستِتْباع: هو المدح أو الذمّ على وجهٍ يَستَتْبِع المدحَ أو الذمّ بشيء آخر، كقوله[2]:

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ *** لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

مَدَحَه بالنهاية في الشجاعة [إذ كثُر قتلاه بحيث لو وُرِّث أعمارهم لخُلّد في الدنيا] على وجهٍ استتبعَ مدْحَه بكونه سبباً لصلاح الدنيا ونظامها [حيث جعل الدنيا مهنّأةً بخلوده]، وفيه أنّه نهبَ الأعمارَ دون الأموال، وأنّه لم يكن ظالماً في قتلهم"[3]، ويسمّى هذا أيضاً بالمدح أو الذمّ الموجّه[4] أو المفرَغ[5].

ولعل من استتباع المدح والذمّ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]ك، وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]ك، فقد مدح الثوابَ المشتمل على كلّ نعيم على وجه استتبع مدحه بشيء متفرّع عن المدح الأول وهو المرتفق الحسن، وكذلك في الذمّ؛ "لأنّ النعيم لا يتمّ للمتنعِّم إلا بطِيب المكان وسعته وموافقتِه للمراد والشهوة وأن لا تُنغَّص، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة[6] الموضع وضيقه وظلمته وجَمعه لأسباب الاجتواء[7] والكراهة"[8].

---

(1) – **التفتازاني:** هو سعد الدين مسعود بن عمر، عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان وغير ذلك، شافعي، من مصنّفاته: «شرح التلخيص» مطوّل وآخر مختصر، و«الإرشاد » في النحو، وغير ذلك، ولد سنة: (712هـ) ومات بسمرقند سنة: (791هـ). [بغية الوعاة للسيوطي: مج2 ص285].

(2) – البيت من من بحر الطويل، وهو من شواهد المفتاح: ص428، وقد نسبه القزويني إلى أبي الطيّب ولم أجده في ديوانه.

(3) – التفتازاني: سعد الدين مسعود بن عمر، المطوّل على تلخيص المعاني، ص81،

(4) – محمّد عليّ التّهانَويّ: موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، إشراف ومراجعة: د.رفيق العجم، مج2 ص1500

(5) – ينظر المعجم المفصّل في علوم البلاغة لإنعام نوال عكّاوي: ص642.

(6) – **الغَثاثة:** الفساد والرداءة. [ابن منظور: لسان العرب، مج1 ص887، مادّة: غثث].

(7) – **الاجتواء:** كراهة المقام بالمكان. [لسان العرب: مج8 ص148، مادّة: جوا].

(8) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص268.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب السابع

الترقّي والنزول في المدح والذمّ

إنّ من البراعة في المدح والذمّ أن يُتدرّج فيه من أدنى إلى أعلى والعكس، فالممدوح حين يمدح ويُرتَقى في مدحه من صفة إلى أعلى منها بحيث يترقّى منزلةً فوق منزلة حتى يبلغ به عَنان السماء فإنّ ذلك يحسن عنده، بخلاف ما لو نزل به مادحاً من أعلى إلى أدنى، وكذا في الذمّ والهجاء، فكلّما انتقل من صفة ذمّ إلى أشدَّ منها فإنه يَحُطّ من قدره ويُنقص من قيمته ولا يزال كذلك ينزله من دركة إلى دركة حتى يصل به إلى الحضيض، وبهذا تحصل المبالغة في الذمّ ويكون التأثير قويّاً، وكلّما عكس ضَعُف وخفّ.

وفي القرآن الكريم جاء المدح والذمّ على هذه الطريقة من الترقّي والنزول وفقاً لما يقتضيه قانون البلاغة والبراعة، وممّا ورد من ذلك ما جاء في ذمّ الوليد بن المغيرة المخزومي في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ، هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ، مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ، أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ، إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ، سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ**﴾ [القلم: 10-16]ك، فقد استهلّ ذمّه بـ: (**حَلَّافٍ مَهِينٍ**) ثم ازداد الذمّ حِدّة وشدّة بقوله: (**بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ**)، وهو الدعِيّ الملصق بقومه وليس منهم، أو أنه ابن زِنا، والعرب تَعدّ الطعن في النسب من أشدّ ما يُهجا به ويُشتم، وكانوا يُولون قضيّة العِرض أهمّية كبرى، ويكفي لبرهان ذلك ما ظهر فيهم من عادة وَأْد البنات، ومن هذا فإنّ تعيير الوليد بالزنيم يعتبر من أشدّ الذمّ وقعاً عليه، قال ابن عاشور: "ومعنى (**بَعْدَ ذَلِكَ**): علاوةً على ما عُدّ له من الأوصاف هو سيّء المعاملة، فالبعديّة هنا في الارتقاء في درجات التوصيف المذكور"[(1)]، ثم هو كَفّارٌ للنِّعم؛ إذ جحد كلام مَن أعطاه المال والبنين والصحة والسيادة والعافية والستر، وقال: (**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**). إنّ في هذا التدرّج في ذمّ الوليد ما يكشف عن وجهٍ من أوجه البلاغة القرآنية فريد، حيث تتأثّر النفوس وتنخلع الأفئدة وتطيش العقول من سماع هذا الذمّ الشديد، وهو كاف للتنفير من خلقه الذميم وطبعه البليد، وأنّ كلّ مَن عارض الحقّ فسيكون حظّه من الذمّ والوعيد مثلَ سلفه الوليد المكذّب العنيد.

هذا وقد وقع في القرآن الكريم في بعض الآيات ما يبدوا فيه التدرّجُ خارجاً عن قانون البلاغة،

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، مج29 ص74.

فقد ذكر السيوطي أنّ الصفة العامّة لا تأتي بعد الخاصّة، فلا يقال: رجل فصيح متكلّم بل متكلّم فصيح، وأشكل على هذا قوله تعالى في إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54]ك، وأُجيب بأنه حالٌ لا صفة، أي: مُرسلاً في حال نبُوّته[1]، وممّا أشكل في هذا الباب قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: 44]م؛ إذ كيف يمدح الله النبيّين بالإسلام والإسلام وصف مشترك بينهم وبين غيرهم[2]؟.

من أجل ذلك تعقّب ابن المنيّر الزمخشري حين جعل الإسلام صفة مدح للنبيّين في قوله: "(للذِينَ أَسْلَمُوا) صفةٌ أُجريت على النبيّين على سبيل المدح، كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتَّفْصِلة والتوضيح"[3]، فذكر ابن المنيّر أنّ هذا الكلام فيه نظر؛ ذلك بأنّ المدح إنما يكون غالباً بالصفات الخاصّة التي يتميّز بها الممدوح عمّن دونه، وأنّ الإسلام أمرٌ عامّ يتناول الأنبياءَ ومتّبعيهم، ثم ذكر الوجه الذي رآه صحيحاً، وهو أن يقال بأنّ الصفة قد تذكر للعِظَم في نفسها وليُنوَّه بها إذا وُصف بها عظيمُ القدر كما يكون تنويهاً بقدْر موصوفها، فكما يُراد إعظامُ الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعِظَم موصوفها، ثم مثّل لذلك بما يجري في القرآن الكريم من وصف الأنبياء بالصلاح، كما في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافّات: 112]ك، فليس المراد مدحُ إسحاق عليه السلام بالصلاح، بل هو مدح لصفة الصلاح نفسها بوصف العظيم بها تنويهاً بمقدارها؛ إذ جُعلت صفةً للنبيّ الكريم، وحثّاً لآحاد الناس على الدأب في تحصيلها، ومثّل أيضاً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: 7]ك، فذكر أنّ الله تعالى أخبر عن الملائكة المقرّبين بأنهم مؤمنون به تعظيماً لقدْر الإيمان وبعثاً للناس على الدخول فيه ليساووا الملائكة في هذه الصفة، وإلا فمفهومٌ أنّ الملائكة مؤمنون، فعلى هذا جرى وصف الأنبياء بالصلاح والإسلام، ثم استشهد على ذلك بقول أحدهم في مدح النبيّ ﷺ:

فَلَئِنْ مَدَحْتُ محمّداً بِقَصِيدَتي *** فَلَقَدْ مَدَحْتُ قَصِيدَتي بمحَمّد

---

(1) – ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: مج2 ص71.

(2) – قال الكفوي في قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: 103]ك: "والمدح في الشِّقّ الأخير [أي: ليس في: (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)]؛ إذ من الموجودات ما لا يُدرك بالأبصار، والامتداح بما وقع به الاشتراك بينه وبين ما ليس بممدوح محال؛ كما إذا قال: أنا موجود وذات". [الكلّيات: ص474].

(3) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص636.

وأخيراً قرّر أنّ الإسلام وإن كان من أشرف الأوصاف إلا أنّ النبوّة أشرف وأجلّ؛ لاشتمالها على عموم الإسلام مع خواصّ المواهب التي لا تَسَعها العبارة، وأنه لو لم يذهب في الفائدة المذكورة هذا المذهب لَلَزم من ذلك الخروجُ عن قانون البلاغة المألوف في الكتاب العزيز وفي كلام العرب الفصيح، وهو الترقّي من الأدنى إلى الأعلى لا النزول على العكس[1].

والذي بدا لي بعد التأمّل والنظر أنّ الخلاف بينهما معتبر، فالزمخشري قد بيّن حجّته في قوله: "كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح"[2]، فصفات الله تعالى من سمعٍ وبصر وعلمٍ وحكمة وما إلى ذلك ليست للبيان والتوضيح بل هي جاريةٌ على التمجيد والمدح، فهو سميعٌ ويُمدح بذلك وهكذا مع باقي الصفات؛ لأنه لا نقص في صفات الله تعالى بوجهٍ من الوجوه، فهي كلّها تدلّ على الكمال، ومن هنا رأى الزمخشري أنّ صفة الإسلام التي وُصف بها النبيّون هي على هذا النحو، ذلك بأنّ إسلامهم ليس كإسلام غيرهم وإن اشتركوا مع غيرهم في أصل الإسلام، فلا يشكّ عاقل عَرَفَ قَدْر الأنبياء أنّ إسلامهم أعظمُ من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من خلقه، وهذا نبيّنا الكريم يقول: ((**أَمَا إِنِي أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**))[3]، فكما كانت صفات الله محمولةً على الكمال المطلق وأنها لا يمكن أن تشبه صفات المخلوقين – وهي صفات مدحٍ لله تعالى –، فكذلك صفات الأنبياء محمولة على الكمال البشري الذي لا يلحقهم فيه أحد ممّن هو دونهم في الرتبة، قال القرطبي:"و(**الذِينَ أَسْلَمُواْ**) ههنا نعت فيه معنى المدح، مثل: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"[4]، وها هو ذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: حدّثنا الصادق المصدوق، ولا أحسبه يريد بهذا الوصف إلا المدح؛ لأنّ الرسول ﷺ لا يكون إلا صادقاً.

وهذا الذي ذكرتُ هو مناط المدح بتلك الصفات المذكورة آنفاً، وهي الإسلام وكذا صفة الصلاح التي مثّل بها ابن المنيّر على صحّة ما ذهب إليه، فالصلاح في أكمل صوره وأجلاها إنما يكون حاصلاً للأنبياء بالدرجة الأولى، قال الزمخشري: "والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو مُتمَنّى أنبياء الله، قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾

(1) – أحمد بن المنيّر: الانتصاف من الكشّاف مطبوع مع الكشّاف، مج1 ص (636- 637).

(2) – الزمخشري: الكشّاف، مج1 ص (636- 637).

(3) – أخرجه البخاري في كتاب النكاح عن أنس بن مالك ﷺ، مج3 ج6 ص116.

(4) – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مج6 ص188.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[النمل: 19]ك، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130]م. اهـ"[1]، وقال الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافّات: 112]ك: "(مِنَ الصَّالِحِينَ) حالٌ ثانية، ووُرُودها على سبيل الثناء والتقريظ؛ لأنّ كلّ نبيّ لا بدّ أن يكون من الصالحين"[2].

أمّا فيما يتعلّق بما قرّره ابن المنيّر من كون النبوّة أشرف وأجلّ من الإسلام والصلاح فهذا فيه نظر؛ لأنه لا يمكن المفاضلة بإطلاق بين النبوّة والإسلام والصلاح، ذلك أنّه إذا لوحظ في النبوّة الاصطفاء فإنها تكون أشرف؛ لأنه ليس مَن وُصف بوصف النبوّة كمن وُصف بالإسلام أو الصلاح، أمّا بالنظر في الصفة في حقيقتها دون اعتبار للموصوف فإنّ الوصف بالإسلام والصلاح أوْلى؛ إذ هما الغاية من الخلق والابتلاء، ثم إنّ الأنبياء بعد النبوّة أشدّ حرصاً على تكميل الإسلام والترقّي في مقاماته، بل الإسلام لله هو مُتمنّاهم ورجاؤهم ولا يُتمنّى إلا ما هو الأعلى؛ لذا سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربّهما أن يجعلهما وأمّتهما مسلمِين له، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة: 128]م، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]م، وعلى كلٍّ فلو قيل في قوله تعالى في وصف النبيّين: (**الذِينَ أَسْلَمُواْ**) أنه أراد المدح لكان قولاً له وجه، ولو قيل بأنّ قوله: (**الذِينَ أَسْلَمُواْ**) صفةٌ أُجريت على النبيّين للتنويه بمقدارها حيث جُعلت صفةً للنبيّين لكان قولاً معتبراً كذلك.

وخلاصة الأمر أنه على كِلا التفسيرين يبقى النصّ القرآني منزّهاً عن الريب متفوّقاً على سائر الكلام بلا ريب، والسرّ في مراعاة هذا الترقّي في المدح هو أنّه لو جاء على العكس لتوهّم السامع أنّ المادح قد تراجع عن مدحه، ولا بأس بالتنبيه على أنّ قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليس من هذا القبيل مع أنّ (**الرحمن**) أشدّ مبالغة في المدح من: (**الرحيم**)، فلا يُقال: هذا نزول من أعلى إلى أدنى وهو غير حسن في المدح، وإنما يقال كذلك لو كانت الصفة الأبلغ مشتملةً على ما دونها، لأنه لو قُدّم الأبلغ عندئذ لكان ذكر ما دونه لغواً لا فائدة فيه، كما في قولهم: رجلٌ فيّاض جوَاد وباسلٌ شجاع، أمّا إذا لم تكن الصفة الثانية داخلةً في الأولى كما هو الحال هنا فإنه لا يكون فيه ما يستنكر، ومجيء (**الرحيم**) بعد (**الرحمن**) فيه تتميم للمعنى واحتراسٌ عن

---

(1) – الزمخشري: الكشّاف، مج3 ص443.

(2) – المصدر نفسه: مج4 ص59.

الإيهام، ذلك أنه بالنظر إلى ما هو مقتضى الحال ندرك أنّ المطلوب بالقصد الأوّل في مقام العظمة والكبرياء وجلائل النِّعم (**الرحمن**)؛ فلأجل هذا قُدّم ثم أُردف بـ (**الرحيم**) كالتتمّة تنبيهاً على أنّ الكلّ منه؛ لئلا يُتوهّم أنّ محقَّرات النعم لا تليق بجنابه فلا تُطلب من بابه[1].

المطلب الثامن

الافتنان في المدح والذمّ

قال ابن حجّة الحموي: "وهو أن يفْتَنّ الشاعر فيأتي بفنَّين متضادّين[2] من فنون الشعر في بيت واحد فأكثر، ومما جُمع فيه بين التعزية والفخر قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ**﴾ [سورة الرحمن: 26- 27]م. اهـ"[3]، فإنه عزّى جميع المخلوقات وتمدّح بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصف ذاته بعد الانفراد بالبقاء بالجلال والإكرام[4].

إنّ التفنّن دليلُ التمكّن في إحكام الكلام؛ لأنّ فيه مزاوجةً بين الفنون المتضادّة مع المحافظة على سلامة التركيب وحسن التأليف، فإذا انتقل الكلام من الذمّ إلى المدح أو من التعزية إلى الفخر فإنه سيؤثّر في النفس ولا بدّ، ويَلفت الانتباه إلى الغرض المراد، وقد يدخل في ذلك ما يسمّى بالقَطْع، أي: قطع النعت أو العطف عمّا قبله، كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ **وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ** ۚ **وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ** وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162]م، قال ابن الأنباري: "إنما هو في موضع نصب على المدح بتقدير فِعلٍ، وتقديرُه: أعني المقيمين، وذلك لأنّ العرب تنصب على المدح عند تكرُّرِ العطف والوصف، وقد يُستأنَف فيُرفع"[5]، وقال صدّيق حسن خان في تفسيره لقوله

---

(1) – ينظر الكلّيات لأبي البقاء الكفوي: ص467.

(2) – قال الكفوي: "**الافْتِنَان**: هو أن يأتي المتكلّم بفنَّين من فنون الكلام وأغراضِه في بيت واحد، مثل النَّسيب والحماسة والفخر والمدح، كقوله: وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ *** مِنّي وَبِيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
والافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد، ولهذا ورد بعض آي القرآن متماثل المقاطع وبعضها غير متماثل". [الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكلّيات: ص154].

(3) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، مج1 ص138.

(4) – المرجع السابق: ص154.

(5) – ابن الأنباري: عبد الرحمن بن محمّد، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مج2 ص467.

تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: 177]م: "نُصب (وَالصَّابِرِينَ) على المدح، وقيل: على الاختصاص، ولم يُعطَف على ما قبله لمزيد شرف الصبر وفضيلته، قال أبو عليّ: إذا ذُكرتْ صفاتُ المدح أو الذمّ وخُولِف الإعراب في بعضها فذلك تفنُّن ويسمّى قطعاً؛ لأنّ تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيبٍ في استماع الذكر ومزيد اهتمامٍ بشأنه"(1).

المطلب التاسع

المشاكلة(2) في المدح والذمّ

قال الله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]ك، والمرتفق هو المتّكأ، قال الطبري: "المرتفق في كلام العرب المتّكأ، يُقال منه ارتفقت إذا اتّكأت"(3)، فعلى هذا كيف يكون في النار مرتفق وقد عُلم أنّ الارتفاق هو الاتّكاء وهو غاية الراحة؟! فتعيّن أن يكون من باب المشاكلة، قال الزمخشري: "(بِئْسَ الشَّرَابُ) ذاك (وَسَاءَتْ) النار (مُرْتَفَقاً) متكأً، مِن المرفق مشاكَلةً لقوله: (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) وإلاّ فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء"(4).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: 35]م، يذمّ الله تعالى صلاة المشركين عند البيت بأنّها مجرّدُ تصفير وتصفيق، لكن لِمَ سمّى الله فعلهم ذاك صلاةً؟ والجواب: إمّا أن يكون الكلام جارياً على الحقيقة، بمعنى أنّ ذلك التصفير والتصفيق صلاةٌ عندهم على معتقدهم الفاسد، وهذا غير مستبعد، قال السعدي: "فإذا كانت هذه صلاتهم فيه فكيف ببقيّة العبادات؟"(5)، والاحتمال الثاني – وهو الأقرب عندي – أنّ إطلاق الصلاة على فعلهم القبيح هو من باب المشاكلة؛ إذ لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لصدّ المسلمين عن دينهم والتشويش عليهم، ثم هو فعل ليس من جنس الصلاة وليس منها في شيء، فلم يبق سوى أن يقال هو من باب المشاكلة، كما صرّح بذلك ابن عاشور حيث قال:

(1) – القِنّوجيّ: صدّيق حسن خان، فتح البيان عن مقاصد القرآن، مج1 ص351.

(2) – **المُشَاكَلَةُ**: هي أن تَذكر الشيء بلفظِ غيرِه لوقوعه في صحبته، كقوله:

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئاً نجِدْ لَكَ طَبْخَهُ *** قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً [المفتاح: ص424].

(3) – الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج7 ج2 ص159.

(4) – الزمخشري: الكشّاف، مج2 ص719.

(5) – السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص320.

"لا تُعرف للمشركين صلاة، فتسمية مُكائهم وتصديتهم صلاةً مشاكلةٌ تقديرية؛ لأنهم لما صدّوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت كان من جملة قرائن صدّهم إيّاهم تشغيبهم عليهم وسخريّتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين بالمكاء والتصدية"(1).

المطلب العاشر

تجاهل العارف(2) أو سَوق الكلام مساق غيره للمدح والذمّ

تجاهل العارف: فنٌّ نبيل من فنون البلاغة العربية، وهو كما عرّفه السكّاكي: "سَوْق الكلام مَساقَ غيره لنُكتة، كالتوبيخ في قول الخارجيّة(3):

أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً *** كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

أو المبالغةِ في المدح:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحٍ *** أَم ابْتِسَامَتُهَا بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

أو في الذمّ:

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ"(4)

قال ابن حجّة الحموي: "فعُلم أنّ تجاهل العارف من حيث هو إنما يأتي لنكتة من نحو مبالغة في مدح أو ذمّ أو تعظيم أو تحقير أو توبيخ"(5).

---

(1) – محمّد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج9 ص339.

(2) – قال الكفوي: "هو عبارة عن سؤال المتكلّم عمّا يعلمه سؤال من لا يعلمه؛ ليوهم أنّ شدّة الشبه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباسَ المشبَّه بالمشبّه به، وفائدته: المبالغة في المعنى، نحو قولك: أوجهك هذا قمر أم بدر؟ فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلّم خالياً من التشبيه لم يكن من هذا الباب، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**﴾ [طه: 17] فإنّ القصد الإيناسُ لموسى ﷺ أو إظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه، وابن المعتزّ سمّى هذا الباب **تجاهل العارف**، ومن الناس من يجعله من تجاهل العارف مطلقاً سواء كان على طريق التشبيه أو على غيره". [الكلّيات: ص517]، ومن هؤلاء الناس السكّاكي في مفتاح العلوم: ص427.

(3) – هي **ليلى بنت طريف** ويقال لها **فارعة**، ترثي أخاها، توفيت سنة: (200هـ) [الأعلام للزركلي: مج5 ص128].

(4) – السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص427، وينظر المطوّل للتفتازاني: ص (81– 82).

(5) – ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، مج1 ص274.

وقد وقع في القرآن في قوله تعالى مخاطباً نبيّه عيسى عليه السلام وذامّاً لقومه الذين ألّهوه وأمّه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]م، فالسؤال هنا جاء لتوبيخ مَن ادّعى أنّ عيسى عليه السلام وأمَّه إلهين من دون الله، والله يعلم أنّ عبده ورسوله لم يدّعِ شيئاً من ذلك، ولكن سؤال الله له كان من باب سوق الكلام مساق غيره(1)؛ زيادةً في تهويل الأمر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: 8- 9]ك، فهذه الموءودة المظلومة تُسأل فكيف بالوائد الظالم؟ ولولا هذا الأسلوب ما حصلت تلك المبالغة في التوبيخ.

المطلب الحادي عشر

النزاهة في الذمّ

قال ابن حجّة الحموي: "النزاهة: هجوٌ في الأصل، ولكنّه عبارة عن الإتيان بالألفاظ فيها معنى الهجو الذي إذا سمعَتْه العذراء في خدرها لا تنفر منه، وهذه عبارة أبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) لما سُئل عن أحسن الهَجْو، وقد وقع من النزاهة في الكتاب العزيز عجائب منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [النور 48- 50]م، فإنّ ألفاظ الذمّ المخبَر عنها في كلام الآية أتت منزَّهةً عمّا يقع في غير هذا القِسم من الفُحش في الهجْو، والمرضُ هنا عبارةٌ عن إبطان الكفر"(2)، وألفاظ الذمّ هنا والتي أتت منزّهة عن الفحش هي: **(مرض)** و**(ارتابوا)** و**(يخافون** أن يَحيف الله عليهم ورسوله)، إنّ ما يميّز فنّ النزاهة هو تطلّب إسماع الحقّ على وجه لا يُورث مزيد غضب، مع حصول الأثر الكبير الذي يجده المستمع في نفسه، وكلّما كان الذوق سليماً والطبع رقيقاً كان الأثر عميقاً.

---

(1) - قال الكفوي: "...، ولا يخفى ما في التعبير به [أي: تجاهل العارف] في النظم الجليل [أي: القرآن] من سوء الأدب". [الكلّيات: ص517].

(2) - ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب: مج1 ص172.

المطلب الثاني عشر
الجناس والطباق والمقابلة في المدح والذمّ

يشتمل البديع – وهو العلم الثالث من علوم البلاغة – على مباحث كثيرة منها ما يتعلّق بالمحسّنات اللفظيّة كالجناس والسجع، والمعنويّة كالطِّبَاق والمقابلة وحُسن التعليل وغير ذلك، وبالنظر في أساليب المدح والذمّ التي وردت في القرآن الكريم نجد أنها احتوت على كثير من هذه المحسِّنات التي هي أشبه بتلك الألوان البديعة الزاهية التي تُحسّن الصورة وتجمّلها، ولعلّ من أحسن الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم تلك الآيات الكريمات في سورة الفرقان التي وردت في مدح عباد الرحمن وبيان صفاتهم والإشادة بفضائل أخلاقهم وأعمالهم، حيث جاءت في لغتها وأسلوبها ومعانيها في أعلى مراتب البلاغة؛ إذ هي من القرآن المعجز للعرب المشهورين بفصاحتهم وبلاغتهم ولغيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد وردت تلك الآيات في أغلبها بالأسلوب الخبري، وذلك ممّا يناسب الوصف، ولم يَرِد الإنشاء فيها إلا قليلاً، كقوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**﴾ [الفرقان: 65]ك، وقولِه: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: 74]ك، وجاء أسلوب الآيات مباشراً صريحاً لعدم الحاجة إلى الخيال والتشخيص بالصورة؛ لأنه يتكلّم عن حقائق ثابتة وأعمال حقيقيّة لعباد الرحمن.

إنّ أسلوب القرآن في هذه الآيات بديعٌ في تراكيبه وألفاظه، خاصّة ما يظهر من ذلك التراوُح للفواصل بين القِصر والطُّول، وانسجام الحروف في المفردة الواحدة والكلمات في الجملة القرآنية، فانظر – مثلاً – لفظ ﴿**هَوْناً**﴾ الوارد في مدح عباد الرحمن، وهي تعني: السكينة والتواضع، وتأمّل كلمة ﴿**مُهَاناً**﴾في ذمّ المشركين والفاسقين، فهما لفظتان قريبتان من بعضهما من حيث الحروف والجرْس الصوتي بعيدتان من جهة المعنى، وشتّان بين الثرى والثريّا وبين الهيِّن والمهِين، وانظر إلى الطباق في قوله تعالى: ﴿**سُجَّداً وَقِيَاماً**﴾ و﴿**لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُواْ**﴾ و﴿**سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾، والمقابلة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً**﴾ وقولِه: ﴿**حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً**﴾ ولا يخفى ما في الطِّباق والمقابلة من تجميلٍ للأسلوب وإبرازٍ للمعنى وإثارةٍ للانتباه والاهتمام وترسيخٍ للفكرة في الأذهان عن طريق ذكر الشيء وضده، وكما يقال: وبضدِّها تتبيّن الأشياء.

وتأمّل ذلك التكرار الذي لا يُفطن له في كلمتي: ﴿مُسْتَقَرّاً﴾ و﴿مُقَاماً﴾ وهما بمعنى واحد، وإنما جيء بهما لتأكيد المعنى وتقويته، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ فلم ينفِ عنهم مطلق الخُرور، ولكنْ نفى أن يكون خرورَ صمٍّ وعُميٍ، وفي ضمنه إثبات الخرور لهم حالَ كونهم سامعين ناظرين منتفعين، وهكذا نرى جمال الأسلوب القرآني الذي ليس له نظير، وهذا مثال واحد، والقرآن العظيم من أوله إلى آخره مليء بمثل هذه المحسِّنات البديعية اللفظية والمعنوية، في لفظٍ عذب فصيح، وأسلوب رَصين مليح، ومعنى دقيق صحيح.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من خلال هذه الدراسة تبيّن لي أنّ المدح والذمّ يُعدّان مقصدين هامّين من مقاصد القرآن الكريم، وأسلوبين ناجعين من أساليبه التربوية، فلا تكاد تقرأ آية من كتاب الله إلا وتجدها في سياق مدحٍ أو في معرض ذمّ، ولكنّ الغرض من الدراسة لم يكن ذاك، وإنّما هو في أساليب المدح والذمّ من حيثُ تنوّعُها واختلافُ أوجه بلاغتها، وهذا اللون من الدراسة لا بدّ منه؛ لأنّه يخدم قضيّة الإعجاز القرآني والبلاغة القرآنيّة، وبالتالي إثبات الحجّة الرساليّة على الخلق أجمع، وقد توصّلتُ من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج تمثّلت في ما يلي:

1 – ثبت من خلال الدراسة أنّ المدح والذمّ إمّا أن يكون قياسيّاً أو سياقيّاً، وأغلبه من الثاني، وفيه من الأسرار البلاغيّة ما ليس في الأول، ومعنى ذلك أنه قد ورد في القرآن بأساليب كثيرة ومتنوعة، منها ما هو صريح ومنها ما هو ضمني، وليس ما جاء ضمنيّاً بأبلغ ممّا هو صريح؛ إذ كلٌّ له مِيزاته وخصائصه البلاغيّة والأسلوبية، والعبرة في ذلك بمدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فالتصريح في مقام التصريح أفضل من التلميح وبالعكس، وهذا لا يمنع أن يكون الأسلوب الثاني (الضمني) أكثر اشتمالاً على المباحث البلاغيّة من الأول.

2 – استخدم القرآن الكريم صِيَغاً هي أساساً للمدح والذمّ بينما لم يستخدم صيغاً أخرى هي في الأصل كذلك، فاستخدم "**نِعْمَ**" ثماني عشرة مرّة و"**بِئْسَ**" تسعاً وثلاثين مرّة، و"**ساء**" ثلاثاً وعشرين مرّة، بيد أنه لم يستخدم "**حَبّذا**" و"**لا حَبّذا**" ولا مرّة، مع أنها ليست غريبة ولا مستهجنة، بل هي مستعملة كثيراً في كلام العرب، ولهذا يمكن القول بأنّ المدح بـ: "**نِعْمَ**" والذمّ **بـ: "بِئْسَ"** و"**ساء**" أبلغ وأدلُّ على المقصود من المدح والذمّ بـ: "**حَبّذا**" و"**لا حَبّذا**"، هذا هو الأصل، ولعلّ السبب في ذلك أنّ "**نِعْمَ وبِئْسَ**" هما الأصل في المدح والذمّ، أضفْ إلى ذلك كونهما أوسع استعمالاً من: "**حَبّذا**" و"**لا حَبّذا**".

3 – لم يَرِد ما يُلحق بـ: "**نِعْمَ وبِئْسَ**" من الفعل الثلاثيّ على وزن "فَعُلَ" – مضموم العين – في القرآن الكريم إلا في ستة مواضع منه، وهذا قد يشير إلى أنه أقلُّ رتبة من حيث الدلالة على المدح أو الذمّ ومن حيث الخصائص الأسلوبية.

4 – لقد أكثر القرآن الكريم من استخدام أسلوب الوصف الصريح، سواء كان بالإخبار عن الشيء بذكر مَمادحه أو مذامّه، أو بنعته بالإتباع أو القطع، أو إضافتِه إلى ممدوح أو مذموم، أو ندائه بالوصف، وما ذاك إلا لأنه أكثر وضوحاً وأدلّ على المراد، وهو أسلوب حسن لأنه يُدرَك معناه بمجرد سماع لفظه أو تلاوة نصّه من غير احتياجٍ إلى تأويل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5 – استخدم القرآن الكريم أساليب أخرى ذاتَ دلالةٍ ضمنيّة على المدح والذمّ بل وأكثرَ منها، ذلك بأنّ المدح والذمّ الضمني إنما يدرك بالقرائن المحتفّة مع دلالة السياق، وإذا كانت القرائن غيرَ خاضعة لقاعدة معيّنة فهذا يعني أنّ المدح والذمّ المفهوم بالقرائن راجع إلى المتكلّم ومدى قدرته على توظيف تلك القرائن المختلفة لتأدية ما يرومه من المدح والذمّ، وإذا كان هذا المتكلّم هو الله تعالى فلا غرو إذاً أن يجيء المدح والذمّ الضمني في القرآن الكريم بتلك الأساليب الكثيرة والمتنوعة التي هي في غاية الجمال والروعة والكمال، ومع كونها لا يدرك المدح والذمّ من خلالها إلا بالقرائن الحالية أو الكلامية إلا أنها جاءت خاليةً من الصعوبة والتعقيد أو الغرابة والغموض، حتى أنك لا تستطيع – أحياناً – أن تحكم على بعضها أهي صريحة أم ضمنيّة؟ وقديماً قيل: رُبَّ تلميحٍ لا يقاومه تصريح.

6 – ظهور صحّة ما ذكره الزركشي من أنّ الاعتماد على الألفاظ الموضوعة أساساً للمدح والذمّ غيرُ كافٍ في جعل الكلام في المدح أو الذمّ إلا بعد مراعاة السياق والقرائن، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً، وإن كانت ذمّاً بالوضع، وكل صفة وقعت في سياق الذمّ كانت ذمّاً، وإن كانت مدحاً بالوضع، كقوله تعالى: ﴿**ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ**﴾ [الدُّخَان: **49**]

7 – لم يُمدَح أحدٌ من المخلوقين في القرآن بلفظ الحمد، وإنما مدح به الله وحده، وهذا يؤيّد ما ذكره سيبويه من أنه ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيماً لله ﷻ يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين، فلو قلت: الحمد لزيد، تريد العظمة لم يَجُز وكان أمراً عظيماً.

8 – يُغلِّب القرآن الكريم استخدام بعض الأساليب على بعض، فتراه في الذمّ يُغلِّب أسلوب الاستفهام؛ وذلك أنه مناسب جدّاً في التوبيخ والتهكّم، ثم لا تراه في المدح يستخدم أسلوب الأمر؛ لأنه غير مناسب له؛ إذ قد عُدَّ من الآداب الحسنة واللطائف المستحسنة أن يُترك هذا الأسلوب في المدح إجلالاً للممدوح عن أن يكون مأموراً، وعليه فاستخدام القرآن لبعض الأساليب دون بعض مبنيّ على مدى تأدية ذلك الأسلوب للغرض المطلوب وموافقتِه التامّة لمقتضى الحال والاعتبار المناسب.

9 – كثيراً ما ينوّع القرآن الكريم حين يمدح أو يذمّ بين الأساليب في السياق الواحد، فينتقل من الصريح إلى الضمني وعكسه، أو من الإثبات إلى النفي، أو من النفي إلى الحصر، أو من الخبر إلى الإنشاء، والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً، والقرآن في تنويعه ذاك يرتقي من أدنى إلى أعلى، فحين مدح النسوة يوسف عليه السلام قلن له: ﴿**مَا هَٰذَا بَشَراً**﴾ فنَفَيْن عنه البشريّة وهذا مدح، ثم انتقلن في هذا المدح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلى أعلى منه فقلن: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فكأنه انحصرت فيه صفات المَلَكيّة حتى لم يبقَ فيه من صفات البشرية شيء، وكذلك الأمر في الذمّ، فقد قال تعالى ذامّاً للكفّار: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ ثم نزل بهم أدنى من ذلك مبالغةً في ذمّهم فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وهذا التدرّج في المدح والذمّ في القرآن كثير، وهو أحد العناصر الدالّة على بلاغته.

10 – روعِيَ في النصّ القرآني اللفظ المناسب للمقام المناسب بحيث لو استُبدل لفظ مكان لفظ لكان كاللّبنة الغريبة عن أخواتها في البناء المحكم المشيد؛ ممّا يدلّ على دقّة البناء اللغوي القرآني ورصانته وحُسن سَبك نظمه وتآلفه، يظهر ذلك جليّاً في مقام المدح والذمّ، وقد تقدّم بيانه وذكر الأمثلة عليه.

ومحصّل القول أنّ المدح والذمّ في القرآن الكريم كثيرٌ جدّاً، ولذا كثرت أساليبه وتنوّعت طرائقه، وقد تضمّنت جميع عناصر البلاغة والفصاحة وصارت إلى أبعد غايات البراعة والملاحة، وبلغت أقصى ذروة البيان والإتقان، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ وذلك من أجل الوصول إلى قلب المتلقّي وعقله؛ فتقوم الحجّة ويحصل كمال البلاغ؛ ليهلك من هلك عن بيّنة ويحي من حييَ عن بيّنة، قال عزّ مِن قائل: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾، وقال جلّ وعلا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وآله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس العامّة

- فهرس القراءات.
- فهرس الأحاديث والآثار.
- فهرس الأشعار.
- فهرس المفردات الغريبة.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القراءات

الرقم	القراءة	المقرئ	الصفحة
1	إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ.	الكِسائي ويعقوب	96
2	إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً.	الجرّاح والأعرابي	226
3	أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ.	ابن عامر، رواية الحسن	124
4	أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ.	ابن أبي عَبلة	126
5	بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.	منصور	119
6	بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبّاً غَفُوراً.	يعقوب وابن أبي عَبلة	123
7	جَاعِلُ المَلائِكَةِ.	الحسن البصري	123
8	جَنَّتَيْنِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.	ابن أبي عَبلة	123
9	وحَسْنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً.	أبو السِّمال العَدَوي	56
10	وَلَنِعْمَتُ دَارِ المُتَّقِينَ.	زيد بن علي	41
11	وَالمقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَالمؤْتُونَ الزَّكَاةَ.	ابن مسعود رضي الله عنه	120
12	وَالصَّابِرُونَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ.	الحسن والأعمش	4
13	الحَمْدُ للهِ رَبَّ العَالمينَ.	زيد بن علي	118
14	مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ.	أبو هريرة رضي الله عنه	118
15	مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللهِ.	ابن عامر، رواية الأهوازي	124
16	مَلِكَ يَومِ الدِّينِ.	أنس بن مالك رضي الله عنه	118
17	سَاءَ مَثَلُ القَوْمِ.	الجحدري	63
18	عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُوءِ.	الأعمش	116
19	فَالِقَ الإِصْبَاحِ.	.	121
20	فَنِعِمَ عُقْبَى الدَّارِ.	يحيى بن وثّاب	18
21	فَنَعْمَ عُقْبَى الدَّارِ.	يحيى بن وثّاب	18
22	قَالُوا أَسَاطِيرَ الأَوَّلِينَ.	أبي عمرو، رواية عبّاس	225

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	القراءة	المقرئ	الصفحة
23	قُلْ بَلَى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الغَيْبِ.	نافع وابن عامر	123
24	قُلْ بَلَى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمُ الغُيُوبِ.	.	123
25	قُلْ بَلَى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلاَّمُ الغَيْبِ.	حمزة والكِسائي	123
26	رَبَّ المِشْرِقِ وَالمِغْرِبِ.	زيد بن علي	124
27	رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ.	.	124
28	ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقَّ.	الحسن والأعمش	121
29	الذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ المِلاَئِكَةَ.	الضحّاك والزهري	123

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث والآثار

الرقم	طرف الحديث أو الأثر	النوع	الراوي	الصفحة
1	أَيْ وَاللهِ، إِنَّ صَلاَتَهُ لَتَأْمُرُهُ...	مقطوع	الحسن البصري	160
2	أَيْ: يحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاءً.	موقوف ومقطوع	ابن عبّاس وقتادة	165
3	أَيْ: لَسْتَ بِعَزِيزٍ وَلاَ كَرِيمٍ.	موقوف	عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه	234
4	ألحّ على النبيّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ...	مرفوع	أبو أمامة رضي الله عنه	207
5	أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي...	مرفوع	أبو سعيد الخدري رضي الله عنه	104
6	أَمَا إِنِّي أَخْشَاكُمْ للهِ...	مرفوع	أنس بن مالك رضي الله عنه	284
7	الأُمَّةُ: مُعَلِّمُ النَّاسِ الخَيْرَ.	موقوف	عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	77
8	أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ...	مرفوع	أبو هريرة وابن عبّاس وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم	259
9	إِنَّكَ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ.	موقوف	عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه	76
10	إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمُ	مرفوع	عويم بن ساعدة الأنصاري	112
11	الثَّنَاءَ...	مرفوع	أبو هريرة رضي الله عنه	172
12	أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخِيَانَةِ...	موقوف	عبيدة الأنصاري رضي الله عنه	71
13	بِاسْمِ الإِلَهِ وبِهِ بَدِينَا...	مقطوع	قتادة بن دعامة	171
14	بَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ...	مقطوع	إبراهيم[أحد شيوخ الأعمش]	176
15	جَلَسَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى زَيْدِ بن صُوحَانَ...	مرفوع	عمرو بن العاص رضي الله عنه	218
16	الوَسِيلَةُ دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ...	موقوف	عائشة رضي الله عنها	77
17	كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنُ...	مرفوع	أنس بن مالك رضي الله عنه	172
18	لاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ.	مرفوع	عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه	192
19	لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ...	مقطوع	عطيّة بن قيس	76
20	لَعَلَى أَدَبٍ عَظِيمٍ.	/	من كلام أبي جهل الهالك	234
21	مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَلاَ أَكْرَمُ مِنِّي.	مرفوع	أبو هريرة رضي الله عنه	104
22	مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ...	موقوف	جابر بن زيد	5
	مَا نَعْرِفُ المذْءُومَ والمذْمُومَ إِلاَّ...			

الرقم	طرف الحديث أو الأثر	النوع	الراوي	الصفحة
23	مَا فِي القُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ تَوْبِيخاً...	موقوف	عبد الله بن عبّاس ﵄	255
24	مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ...	موقوف	أبو بكر الصدّيق ﵁	203
25	مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الجُمُعَةِ...	مرفوع	سَمُرة بن جُندب ﵁	20
26	مُسِخَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُمْسَخُوا...	مقطوع	مجاهد بن جَبر	194
27	(مَذْءُوماً)، أَيْ: لَعِيناً.	مقطوع	قتادة بن دعامة	5
28	(مَذْءُوماً)، أَيْ: مَمْقُوتاً.	موقوف	عبد الله بن عبّاس ﵄	5
29	(مَذْءُوماً)، أَيْ: مَنْفِيّاً.	مقطوع	إسماعيل السُدّي	5
30	(مَذْءُوماً)، أَيْ: مَنْفِيّاً.	مقطوع	مجاهد بن جبر	5
31	نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ...	لا أصل له	ورد في: (سالم) مرفوعاً عن عمر ﵁ [الديلمي]	213
32	(النَّجَسُ): الكَلْبُ والخِنْزِيرُ.	موقوف	عبد الله بن عبّاس ﵄	182
33	(قَاتَلَهُمُ اللهُ): لَعَنَهُمُ اللهُ.	موقوف	عبد الله بن عبّاس ﵄	200
34	قُلْ يَا أَيُّهَا الذِينَ تَابُوا، لِلْيَهُودِ.	موقوف	جابر بن زيد	129
35	قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي...	مرفوع	أبو هريرة ﵁	109،76
36	تَبّاً لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ أَلِهَذَا...	/	من قول أبي جهل رواه عبد الله بن عبّاس ﵄	201
37	خَرَجْتُ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْهُمْ...	موقوف	أسامة بن زيد ﵄	11
38	ذَكَرَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ:...	مقطوع	شَريك بن عبد الله النخعي	19

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأشعار

الرقم	صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الصفحة
1	لَيْتَ شِعْرِي وأَيْنَ مِنّي لَيْتٌ...	ء	الخفيف	أبو زبيد الطائي	225
2	ومَا أَدْرِي ولَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي...	ء	الوافر	زهير بن أبي سُلمى	300
3	ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ...	ب	الطويل	النابغة الذُّبياني	103،104
4	صُغْ مِنْ مَصُوغٍ مِنْهُ للتَّعَجُّبِ...	ب	الرَّجز	ابن مالك النحوي	170
5	فَأَخبِبْ بِهِ طَالِباً قَهْرَهُمْ...	ب	المتقارِب	أبو الطيّب المتنبّي	177
6	هَجَرَتْ غَضُوبٌ وحَبَّ مَنْ يَتَجَنَّبُ	ب	الطويل	ساعِدة بن جُؤْية	72
7	فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ...	د	المتقارِب	أبو العَتاهية	179
8	وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ...	د	المتقارِب	أبو العَتاهية	179
9	نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ...	د	الطويل	أبو الطيّب المتنبّي	280
10	أو حُرَّةٌ عَيْطَلٌ ثَبْجَاءُ مُجْفِرَةٌ...	د	البسيط	ذو الرُّمّة	48، 65
11	فَلَئِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِقَصِيدَتِي...	د	الطويل	.	284
12	نِعْمَ الفَتَى المرِّيُّ أَنْتَ إِذَا هُمُ...	د	الطويل	زُهير بن أبي سُلمى	28
13	نِعْمَتْ جَزَاءُ المتَّقِينَ الجَنَّه...	هـ	الرَّجز	مجهول	48، 211
14	أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطَايَا...	ح	الوافر	جَرير بن عطيّة	135
15	أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ...	ح	البسيط	.	300
16	أَفِي السِّلْمِ أَعْيَاراً جَفَاءً وغِلْظَةً...	ك	الطويل	هند بنت عتبة	185
17	ويَأْوِي إلى نِسْوَةٍ عُطَّلٍ...	ل	المتقارب	أميّة بن أبي عائذ	119
18	واجْعَلْ كَ "بِئْسَ" "ساء" واجْعَلْ...	ل	الرَّجز	ابن مالك النحوي	54
19	وبِهِمَا التَّحْضِيضُ مِزْ وهَلاَّ...	ل	الرَّجز	ابن مالك النحوي	237
20	فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمُ بِمِزَاجِهَا...	ل	الطويل	الأخطل التغلِبي	69
21	حَ‌ُبَّ بالزَّوْرِ الذي لاَ يُرَى...	م	المديد	الطِّرِمَّاح بن حكيم	54
22	يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّمَاحُ كَأَنَّهَا...	م	الطويل	عنترة بن شدّاد	275
23	فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ إِنْ رُمْتَ المدِيحَ فَقُلْ...	م	الطويل	ابن حِجّة الحموي	103
24	مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي...	م	البسيط	أبو الطيّب المتنبّي	177

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	صدر البيت	القافية	البحر	القائل	الصفحة
26	هُمْ وَسَطٌ يَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ...	م	الطويل	زُهير بن أبي سُلمى	110
27	دُفِعْتُ إلى شَيْخٍ بِجَنْبِ فِنَائِهِ...	م	الطويل	.	183
28	وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَهُ...	م	الطويل	زُهير بن أبي سُلمى	275
29	يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً...	ن	البسيط	قُرَيْط بن أُنَيْف	12
30	كَأَنَّ رَبَّكَ لم يَخْلُقْ لخَشْيَتِهِ...	ن	البسيط	قُرَيْط بن أُنَيْف	12
31	تَزِينُ مَعَانِيهِ أَلْفَاظَهُ...	ن	المتقارِب	.	15
32	فَنِعْمَ صَاحِبُ قَوْمٍ لاَ سِلاَحَ لَهُمْ...	ن	البسيط	كُثيِّر بن عبد الله	22
33	بِاسْمِ الإِلَهِ وبِهِ بَدِينَا...	ن	الرَّجز	عُبيدة الأنصاري	71
34	دَعِ المكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا...	س	الطويل	الحطيئة	206
35	بِئْسَ مَقَامُ الشَّيْخِ أَمْرِسْ أَمْرِسْ...	س	الرَّجز	مجهول	45
36	بِئْسَ المرْءُ قَدْ مُلِئَ ارْتِيَاعاً...	ع	الرَّجز	مجهول	45
37	تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ...	ع	الطويل	جَرير بن عطيّة	238
38	أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً...	ف	الطويل	ليلى بنت طريف	300
39	مَعاً نِعِمَّا افْتَحْ (كَ)مَا (شَ)فَا وَفي	ف	الرَّجز	ابن الجَزَرِي	37
40	وإِنْ تَقَدَّمْ مُشْعِرٌ بِهِ كَفَى...	ف	الرَّجز	ابن مالك النحوي	44
41	والتَّغْلِبِيُّونَ بِئْسَ الفَحْلُ فَحْلُهُمُ...	ق	البسيط	جَرير بن عطيّة	42
42	لاَ نَوْمَ أو تَغْسِلُوا عَاراً أَظَلَّكُمُ...	ر	الطويل	الخنساء	185
43	مَا أَقَلَّتْ قَدَمِي أَنَّهُمُ...	ر	الرمل	طَرَفة بن العبد	17
44	هَلْ تَعْرِفُ الدَّارَ يُعْفِيهَا المورْ...	ر	الرَّجز	مجهول	40
45	هَلْ تَعْرِفُ الدَّارُ بِأَعْلَى ذِي القُورْ...	ر	مشطور السريع	منظور بن مَرْثَد الأسدي	40
46	النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكِ...	ر	الكامل	الخِرنِق بنت بدر	121
47	لاَ يَبْعُدَنْ قَوْمِي الذِينَ هُمُ...	ر	الكامل	الخِرنِق بنت بدر	121
48	فَلَوْ كُنتَ ضَبِّيّاً عَرَفْتَ مَكَانَتِي...	ر	الطويل	الفرزدق	256
49	كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ...	ت	الطويل	.	228
50	ومِثْلُ "نِعْمَ" "حَبَّذَا" الفَاعِلُ "ذا"...	ذ	الرَّجز	ابن مالك النحوي	70

فهرس المفردات

الرقم	المفردة	الجذر اللغوي	الصفحة
1	الاجْتِوَاء	جوا	281
2	الجَوْنة	جون	250
3	مُجْفِرَة	جفر	48
4	الدَّخْل	دخل	224
5	الزَّوْر	زور	48
6	زَلاَّء	زلل	42
7	الطَّنْز	طنز	160
8	كُبْكِبُو	كبب	216
9	الكَمِيّ	كمي	232
10	المور	مور	40
11	أَمْرِس	مرس	45
12	مِنْطِيق	نطق	42
13	النِّيب	نيب	238
14	نَصِيفُها	نصف	287
15	عَيْطَل	عطل	48
16	العَوَارِك	عرك	185
17	فُلُول	فلل	103
18	الفَوَارِك	فرك	185
19	المقَنَّع	قنع	238
20	اقْعَنْسِس	قعس	45
21	المتَقَشِّف	قشف	223
22	الرَّجْلَة	رجل	191
23	رَحْرَحَ	رحح	202
24	تَشَوُّراً	شور	256

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	المفردة	الجذر اللغوي	الصفحة
25	الشُّطَّار	شطر	223
26	تَبَّ	تبب	201
27	ثَبْجَاء	ثبج	48
28	التَّثْوِيب	ثوب	232
29	خَزَمَ	خزم	191
30	الخَسْف	خسف	276
31	ضَوْطَرَى	ضطر	238
32	الغَثَاثَة	غثث	281

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

الرقم	العلم	سنة الوفاة	الصفحة
1	أبيّ بن كعب ﷺ.	20هـ	120
2	ابن أبي الإصبع.	654هـ	11
3	الأهوازي: الحسن بن علي.	446هـ	124
4	الأزهري: محمّد بن أحمد.	370هـ	6
5	أحمد بن محمّد بن حنبل.	241هـ	112
6	الآلوسي: السيّد محمود شكري بن عبد الله.	1280هـ	4
7	ابن الأنباري: أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد.	577هـ	6
8	أسامة بن زيد ﷺ.	54هـ	11
9	الأعمش: سليمان بن مِهران.	148هـ	121
10	الأصمعي: عبد الملك بن قريب.	216هـ	202
11	الأخطل: غِياث بن غَوث.	90هـ	53
12	الأخفش: أبو الحسن سعيد بن مَسعَدة.	211هـ	34
13	ابن بَرهان: أبو القاسم عبد الواحد بن علي.	456هـ	70
14	البغوي: أبو محمّد الحسين بن مسعود.	516هـ	77
15	جابر بن زيد.	93هـ	5
16	الجَوهري: أبو نصر إسماعيل بن حمّاد.	393هـ	10
17	ابن الجَزَري: أبو الخير محمّد بن محمّد.	833هـ	37
18	الجَحدري: الفُضيل بن الحسين.	237هـ	63
19	أبو جعفر الطبري: محمّد بن جَرير.	310هـ	5
20	أبو جعفر المدني: يزيد بن القعقاع المخزومي.	130هـ	18
21	أبو جعفر النحّاس: أحمد بن محمّد المصري.	337هـ	32
22	الجُرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن.	471هـ	138
23	ابن دُرُستُويه: أبو محمّد عبد الله بن جعفر.	347هـ	71
24	أبو هريرة ﷺ: عبد الرحمن بن صخر الدَّوسي.	58هـ	109

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	العَلَم	سنة الوفاة	الصفحة
25	ابن هشام: أبو محمّد جمال الدين عبد الله بن يوسف.	761هـ	28
26	وَرْش: عثمان بن سعيد المصري.	197هـ	18
27	الزَّجّاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ.	311هـ	96
28	زيد بن علي.	121هـ	118
29	الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر.	538هـ	29
30	ابن الحاجب: جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر.	646هـ	18
31	ابن حِجّة الحموي: تقيّ الدين أبوبكر بن علي.	837هـ	11
32	أبو حيّان: محمّد بن يوسف الغرناطي.	745هـ	4
33	حمزة بن حبيب أبو عمارة (أحد القرّاء السبعة).	156هـ	18
34	الحسن البصري: أبو سعيد الحسن بن يسار.	110هـ	121
35	حفص (الراوي عن عاصم).	180هـ	5
36	يحيى بن وَثّاب.	103هـ	18
37	الكِسائي: أبو الحسن علي بن حمزة (أحد القرّاء السبعة)	189هـ	33
38	ابن كثير: عبد الله بن كثير المكّي (أحد القرّاء السبعة).	120هـ	37
39	ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر.	774هـ	76
40	ابن مالك: أبو عبد الله جمال الدين محمّد بن عبد الله.	672هـ	19
41	المبرِّد: أبو العبّاس محمّد بن يزيد.	280هـ	18
42	مجاهد بن جَبر.	103هـ	5
43	المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد.	864هـ	135
44	ابن المنَيِّر: أبو العبّاس ناصر الدين أحمد بن محمّد.	683هـ	47
45	المنتجَب بن أبي العز أبو يوسف.	643هـ	46
46	ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم.	711هـ	2
47	مسلم بن الحَجّاج أبو الحسين النيسابوري.	261هـ	109
48	المتنبّي: أحمد بن الحسين.	354هـ	177
49	نظام الدين النيسابوري: الحسن بن محمّد القُمّي.	بعد 850هـ	47
50	السُدّي: إسماعيل بن عبد الرحمن.	127هـ	5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	العَلَم	سنة الوفاة	الصفحة
51	السُوسي: صالح بن زياد.	261هـ	18
52	سيبويه: أبو بِشر عمر بن عثمان.	180هـ	17
53	السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.	911هـ	4
54	السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله.	368هـ	21
55	السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر.	626هـ	98
56	أبو السُّعود: محمّد بن محمّد العِمادي.	982هـ	7
57	ابن السرّاج: أبو بكر محمّد بن السريّ	316هـ	25
58	عائشة بنت الصدّيق رضي الله عنها.	58هـ	77
59	عاصم بن بَهدلة أبي النُّجود الكوفي (أحد القرّاء السبعة).	127هـ	05
60	عبد الله بن عامر بن يزيد (أحد القرّاء السبعة).	118هـ	37
61	عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه.	68هـ	5
62	عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.	32هـ	77
63	العَوفي: الحسين بن الحسن.	201هـ	76
64	عطيّة بن قيس.	110هـ	76
65	علي بن أبي طالب رضي الله عنه.	40هـ	19
66	أبو عمرو بن العلاء (أحد القرّاء السبعة).	154هـ	37
67	ابن عصفور: أبو الحسن علي بن مومن.	663هـ	70
68	ابن عَقيل: بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن.	769هـ	43
69	أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم.	211هـ	179
70	الفارابي: إسحاق بن إبراهيم.	450هـ	10
71	ابن فارس: أبو الحسين أحمد الرازي اللغوي.	395هـ	8
72	الفارسي: أبو علي الحسن بن أحمد.	377هـ	28
73	الفيّومي: أحمد بن محمّد بن علي.	770هـ	6
74	الفرّاء: أبو زكريّا يحي بن زياد.	207هـ	20
75	قالون: عيسى بن مينا.	220هـ	37
76	القزويني: جلال الدين محمّد بن عبد الرحمن.	739هـ	158

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرقم	العَلَم	سنة الوفاة	الصفحة
77	القِنَّوجي: صِدِّيق حسن خان.	1307هـ	139
78	القرطبي: محمّد بن أحمد (المفسِّر).	671هـ	78
79	قتادة بن دعامة السدوسي.	117هـ	5
80	الشوكاني: محمّد بن علي.	1250هـ	104
81	شعبة= أبو بكر بن عيّاش (الراوي عن عاصم).	193هـ	37
82	الشعراوي: محمّد متولّي.	1420هـ	251
83	شريك بن عبد الله النخَعي.	177هـ	19
84	التِّبريزي: أبو زكريّا يحيى بن علي.	502هـ	7
85	التفتازاني: سعد الدين مسعود بن عمر.	712هـ	281
86	الخُوارزمي: مجد الدين القاسم بن الحسين.	617هـ	64
87	خلف بن هشام أبو محمّد البزّار(أحد القرّاء العشرة).	229هـ	37
88	ابن خروف: أبو الحسن علي بن محمّد.	609هـ	70

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أ – كتب التفسير:

1 – الآلوسي: شهاب الدين السيّد محمود شكري بن عبد الله، رُوح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، دون ط، سنة: 1403– 1983.

2 – الأخفش الأوسط: أبو الحسن سعيد بن مَسعدة، معاني القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، ط1، سنة: 1411– 1990، القاهرة – مصر.

3 – البغوي: أبو محمّد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العكّ ومروان سوار، دار المعرفة، ط5، سنة: 1423– 2002، بيروت – لبنان.

4 – ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، حقّقه وكتب هوامشه: محمّد ابن عبد الرحمن بن عبد الله، خرّج أحاديثه: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الفكر، ط1، سنة: 1407– 1987، بيروت – لبنان.

5 – الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي، الكشّاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتّبه وضبطه وصحّحه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، ط3، سنة: 1407– 1987، بيروت – لبنان.

6 – زكريّا الأنصاري: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: بهاء الدين عبد الموجود محمّد، دار الكتاب الجامعي، دون ط، دون ت.

7 – ابن أبي حاتم الرازي: عبد الرحمن بن محمّد، تفسير القرآن العظيم مسنَداً عن الرسول والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمّد الطيّب، المكتبة العصرية، ط2، سنة: 1419– 1999، بيروت – لبنان.

8 – أبو حيّان الأندلسي الغرناطي: محمّد بن يوسف، البحر المحيط، دار الفكر، ط2، سنة: 1403– 1983، بيروت– لبنان.

9 – الطبري: أبو جعفر محمّد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، وبهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين القُمّي النيسابوري، دار الفكر، دون ط، سنة: 1398– 1978، بيروت – لبنان.

10 – ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، 1422– 2002، بيروت – لبنان.

– نسخة أخرى: دار الأندلس، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

11 – المحلّي: جلال الدين محمّد بن أحمد، تفسير الجلالين، المكتبة الشعبية، دون ط، دون ت.

12 – محمّد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، دون ط، سنة: 1984، الجزائر.

13 – ابن المنيِّر: أحمد بن محمّد، الانتصاف من الكشّاف، مطبوع بهامش تفسير الكشّاف للزمخشري، رتّبه وضبطه وصحّحه: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، ط3، سنة: 1407– 1408، بيروت – لبنان.

14 – نظام الدين القُمّي النيسابوري: الحسن بن محمّد، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مطبوع بهامش تفسير الإمام الطبري، دار الفكر، دون ط، سنة: 1398– 1978، بيروت – لبنان.

15 – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

– تفسير الجلالين، المكتبة الشعبية، دون ط، دون ت.

– الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ومعه تفسير منسوب لابن عبّاس، دار المعرفة، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

16 – السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، مؤسّسة الرسالة ط1، سنة: 1422– 2001، بيروت – لبنان.

17 – أبو السعود العمادي: محمّد بن محمّد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، ط2، سنة: 1411– 1990، بيروت – لبنان.

18 – أبو عُبيدة: مَعمر بن المثنّى التيميّ، مَجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلّق عليه: د. محمّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، دون ط، دون ت، القاهرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

19 – عبد الرحمن الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: د. عمّار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، دون ط، دون ت، الجزائر.

20 – الفرّاء: أبو زكريّا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: د. عبد الفتّاح إسماعيل شلبي، مراجعة: أ. علي النجدي ناصف، دون ط، دون ت.

21 – القنّوجي: أبو الطيّب صدّيق حسن خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، عني بطبعه وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، دون ط، سنة: 1412– 1992، صيدا – بيروت – لبنان.

22 – القرطبي: محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أبو اسحاق أبو إبراهيم إطفيش وغيره، دون ط، سنة: 1380– 1981.

23 – ابن قتيبة: أبو محمّد عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، تحقيق: السيّد أحمد صقر، دار الكتب العلميّة، دون ط، سنة: 1398– 1978، بيروت – لبنان.

24 – الشوكاني: محمّد بن علي، فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من التفسير، ضبطه وصحّحه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، دون ط، سنة: 1415– 1994، بيروت – لبنان.

25 – الشنقيطي: محمّد الأمين بن محمّد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، خرّج آياته وأحاديثه: محمّد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، ط2، سنة: 1424– 2003، بيروت – لبنان.

26 – الشعراوي: محمّد متولّي، المختار من تفسير القرآن الكريم، دار الشهاب، دون ط، سنة: 1987، باتنة – الجزائر.

27 – الخفّاجي: شهاب الدين أحمد بن محمّد، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسمّاه: عناية القاضي وكفاية الراضي، ضبطه وخرّج أحاديثه الشيخ عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1417– 1997، بيروت – لبنان.

ب – كتب علوم القرآن:

28 – الواحدي النيسابوري: أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، ط2، سنة: 1411– 1991، بيروت – لبنان.

29 – الزركشي: بدر الدين محمّد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط3، دون ت.

30 – ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي، العُجاب في بيان معرفة الأسباب، تحقيق: عبد الكريم محمّد الأنيس، دار ابن الجوزي، دون ط، سنة: 1997، الرياض – المملكة العربية السعودية.

31 – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

– الإتقان في علوم القرآن وبهامشه كتاب إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاّني، دار الفكر، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

– معترك الأقران، تحقيق: د. محمّد علي البجاوي، دار الفكر العربي، دون ط، سنة: 1970، القاهرة – مصر.

ج – كتب القراءات:

32 – ابن الجزري: شهاب الدين أبو بكر أحمد بن محمّد الدمشقي، شرح طيّبة النشر في القراءات العشر، ضبطه وعلّق عليه: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1418– 1997، بيروت – لبنان.

33 – ابن مجاهد: العبّاس، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، دون ط، دون ت، القاهرة – مصر.

34 – عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، دار سعد، ط1، سنة: 1422– 2002، دمشق – سورية.

35 – عبد الفتاح القاضي: البدور الزاهرة في القراءات المتواترة من طريقَي الشاطبيّة والدرّة، دار الكتاب العربي، ط1، سنة: 1401– 1981، بيروت – لبنان.

د – كتب إعراب القرآن الكريم:

36 – ابن الأنباري: أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق: طه عبد الحميد طه، مراجعة: مصطفى السقّا، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، دون ط، سنة: 1400– 1980، مصر.

37 – محمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، دون ط، سنة: 1995 الإسكندرية – مصر.

38 – المنتجَب: حسين بن أبي العزّ الهمذاني، الفريد في إعراب القرآن المجيد، تحقيق، د. فهمي حسن النمر، د. فؤاد علي مخيمر، دار الثقافة، ط1، سنة: 1411– 1991، الدوحة – قطر.

39 – النحّاس: أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل: إعراب القرآن، زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط3، سنة: 1409– 1988، بيروت – لبنان.

40 – السمين الحلبي: شهاب الدين أبو العبّاس، أحمد بن يوسف، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الشيخ علي محمّد معوّض وآخرون، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1414– 1994، بيروت – لبنان.

41 – العُكبَري: أبو البقاء عبد الله بن الحسن، تحقيق: علي محمّد البجاوي، دار الجيل، دون ط، سنة: 1407– 1987، بيروت – لبنان.

42 – ابن خالويه: أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب القراءات السبع وعللُها، حقّقه وقدّم له: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، ط1، سنة: 1413– 1992، القاهرة – مصر.

هـ – كتب النحو والتصريف:

43 – ابن الأنباري: أبو البركات عبد الرحمن بن محمّد.

– الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

– كتاب أسرار العربية، تحقيق: د. فخر صالح قدارة، دار الجيل، ط1، سنة: 1415– 1995، بيروت – لبنان.

44 – ابن جنّي: أبو الفتح عثمان.

– اللُّمَع في العربية، تحقيق: حامد المؤمن، مكتبة النهضة العربية، ط2، سنة: 1405– 1985.

– سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، ط2، سنة: 1413– 1993، دمشق – سورية.

45 – ابن هشام: جمال الدين أبو محمّد عبد الله بن يوسف:

– شرح قَطر الندى وبلّ الصدى، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الثقافة، دون ط، دون ت، القاهرة – مصر.

– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حقّقه وخرّج شواهده: د. مازن مبارك، محمّد علي عبد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2، سنة: 1969.

46 – ابن الحاجب: جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المالكي، الكافية في النحو، دار الكتب العلمية، دون ط، سنة: 1415– 1995، بيروت – لبنان.

47 – ابن مالك: أبو عبد الله جمال الدين، شرح تسهيل الفوائد، تحقيق: د. عبد الرحمن السيّد، محمّد بدوي المختون، ط1، سنة: 1410– 1990، هَجَر – مصر.

48 – المبرّد: محمّد بن يزيد، المقتضَب، تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

49 – محمّد الأنطاكي: المحيط في أسرار العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، ط3، دون ت، بيروت – لبنان.

50 – محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، دون ط، دون ت، القاهرة – مصر.

51 – مصطفى حميدة: أساليب العطف في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية، دون ط، سنة: 1999، مصر.

52 – سيبويه: أبو بِشر عمر بن عثمان بن قَنبَر، الكتاب، مكتبة الخانجي، ط3، سنة: 1408– 1988، القاهرة – مصر.

53 – ابن سِيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي، المخصِّص، دار الفكر، دون ط، سنة: 1398– 1978، بيروت – لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

54 – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

– المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمّد جاد المولى، محمّد أبو الفضل إبراهيم، محمّد علي البجاوي، المكتبة العصرية، دون ط، سنة: 1408- 1987، صيدا – بيروت.

– الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق: غازي مختار طليمات، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دون ط، دون ت، دمشق – سورية.

55 – ابن السرّاج: أبو بكر محمّد بن السريّ، الأصول في النحو، تحقيق: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط3، سنة: 1408- 1988، بيروت – لبنان.

56 – عبّاس حسن: النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجدّدة، دار المعارف ط8، سنة: .1987

57 – عبد الحميد مصطفى السيّد: الأفعال في القرآن الكريم دراسة استقرائيّة في جميع قراءاته، دار حامد، ط1، سنة: 1428- 2007.

58 – عبد العال سالم مكرم، تطبيقات نحوية وبلاغية، دار البحوث العلمية، ط1، سنة: 1399- 1979، الكويت.

59 – ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمذاني المصري، شرح ابن عقيل، المكتبة العمرية، 1418- 1997، صيدا – بيروت – لبنان.

60 – الخُوارزمي: القاسم بن الحسين: شرح المفصَّل في صنعة الإعراب، الموسوم بـ: التجمير، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي، دون ط، دون ت.

و – كتب البلاغة والأدب:

61 – أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

62 – الجرجاني: عبد القادر، دلائل الإعجاز، تقديم علي أبو زقية، موفم للنشر، دون ط، سنة: 1991.

63 – ابن حِجّة الحموي: أبو بكر علي، خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

64– محمّد بركات حمدي أبو علي: فصول في البلاغة، دار الفكر، ط1، سنة: 1403– 1983.

65 – المراغي: أحمد مصطفى، علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، دار الآفاق العربية، دون ط، سنة: 2000، القاهرة – مصر.

66 – السكّاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب حواشيه وعلّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العالمية، ط2، سنة: 1407– 1987، بيروت – لبنان.

67 – عبد العزيز أبو سريع ياسين: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، سنة: 1989، عمان.

68 – عبد القادر حسين: القرآن والصور البيانية، مكتبة النهضة المصرية، دون ط، سنة: 1984، القاهرة – مصر.

69 – ابن فارس: أبو الحسين أحمد الرازي اللغوي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، حقّقه وضبط نصوصه وقدّم له: د. عمر فاروق الطابع، مكتبة المعارف، ط1، سنة: 1414– 1993، بيروت – لبنان.

70 – فتحي أحمد عامر: بلاغة القرآن بين الفنّ والتاريخ، دراسة تاريخية فنيّة مقارنة، منشأة المعارف، دون ط، دون ت، الإسكندرية – مصر.

71 – فتحي فريد.

– المدخل إلى دراسة البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، دون ط، سنة: 1978، مصر.

– بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، دون ط، سنة: 1984، القاهرة – مصر.

72 – القزويني: محمّد بن عبد الرحمن: الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمّد عبد المنعم خفّاجي، الشركة العالمية، دار الكتاب العالمي، ط3، سنة: 1989، بيروت – لبنان.

– نسخة أخرى: دار الجيل، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

73 – ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ط5، سنة: 1981، بيروت – لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

74 – التفتازاني: سعد الدين مسعود بن عمر، المطوَّل شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية الشريف الجرجاني، تصحيح وتعليق: أحمد عزّو عناية، دار إحياء التراث العربي، دون ط، سنة: 2004.

ز – كتب أصول الفقه:

75 – الإسنوي: جمال الدين عبد الرحيم، نهاية السُّول في شرح منهاج الأصول، عالم الكتب، ومعه حواشيه المسمّاه: سلّم الوصول بشرح نهاية السُّول، دون ط، دون ت.

76 – البَدَخشي: محمّد بن الحسن، مناهج العقول، ومعه شرح الإسنوي، كلاهما شرح منهاج الوصول في علم الأصول للقاضي للبيضاوي، دار الكتب العلمية، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

77 – ابن قدامة المقدسي: روضة الناظر وجُنّة المناظِر، الدار السلفية، ط1، سنة: 1991، الجزائر.

ح – المعاجم والقواميس:

78 – إميل بديع يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العربية، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1417– 1997، بيروت – لبنان.

79 – إنعام نوال عكّاوي: المعجم المفصَّل في علوم البلاغة: البديع والبيان والمعاني، راجعه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط2، سنة: 1417– 1996، بيروت – لبنان.

80 – الجَوهري: إسماعيل بن حمّاد، الصِّحاح تاج اللغة وصِحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط3، سنة: 1404– 1984، بيروت – لبنان.

81 – ابن دُريد: أبو بكر محمّد بن الحسن، جمهرة اللغة، حقّقه وقدّم له: د. رمزي منير بَعلبَكِّي، دار العلم للملايين، ط1، سنة: 1987، بيروت – لبنان.

82 – الزَّبيدي: محبّ الدين أبو فيض السيّد محمّد مرتضى الحسيني الواسطي، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر، دون ط، سنة: 1414– 1994، بيروت – لبنان.

83 – الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار الفكر، دون ط: سنة: 1989، دمشق – سورية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

84 – الكفوي: أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسيني، الكلّيات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمّد المصري، مؤسسة الرسالة، ط2، سنة: 1413–1993، بيروت – لبنان.

85 – مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم أنيس وغيره، دار الفكر، ط2، دون ت، لبنان – بيروت.

86 – محمّد علي التهانوي: موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان، ط1، سنة: 1996، لبنان.

87 – ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرّم، لسان العرب، حقّقه وعلّق عليه ووضع حواشيه: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1426 – 2005، بيروت – لبنان.

– نسخة أخرى بتحقيق: عبد الله علي الكبير وغيره، دار المعارف، دون ط، دون ت.

88 – مِتري عبد المسيح، هاني جورج تابري: الخليل معجم مصطلحات النحو العربي، تصدير: نائب رئيس مجمع اللغة العربية، د. محمّد مهدي علاّم، مكتبة لبنان، ط1، سنة: 1410–1990، لبنان.

89 – ابن فارس: أبو الحسين أحمد الرازي اللغوي ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر، دون ط، دون ت.

90 – الفيّومي: أحمد بن محمّد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، دار القلم، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

91 – الفيروز آباري: مجد الدين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

92 – الرازي: محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصِّحاح، عني بترتيبه: محمّد خاطر بك: راجعه وحقّقه: لجنة من علماء العربية، دار الفكر، دون ط، سنة: 1401– 1981، بيروت – لبنان.

93 – الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمّد سيّد كيلاني، دار المعرفة، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ط – الدواوين الشعرية:

94 – الأخطل: غياث بن غَوث التغلِبي: ديوان الأخطل بشرح: إيليا سليم الحاوي، دار الثقافة، ط2، سنة: 1979، بيروت – لبنان .

95 – جرير بن عطية: ديوان جرير بشرح: يوسف عيد، دار الجيل، ط1، سنة: 1992، بيروت – لبنان.

96 – زهير بن أبي سُلمى: ديوان زهير، دار بيروت، دون ط، سنة: 1406– 1986، بيروت – لبنان.

97 – الزَّوزني: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين: شرح المعلّقات السبع، دار الكتاب العربي، دون ط، سنة: 1425– 2004، بيروت – لبنان.

98 – طَرَفة بن العبد: ديوان طرفة، دار بيروت، دون ط، سنة: 1406– 1986، بيروت – لبنان.

99 – المتنبّي: أبو الطيّب أحمد بن الحسين: ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العُكبَري، ضبطه وصحّحه: مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري، دار الفكر، دون ط، سنة: 1978، دمشق – سورية.

100 – النابغة الذبياني: زياد بن معاوية، ديوان النابغة، قدّم له وبوّبه وشرحه: د. علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال، ط1، سنة: 1411– 1991، بيروت – لبنان.

101 – الفرزدق: همّام بن غالب، ديوان الفرزدق، دار بيروت، دون ط، سنة: 1404– 1984، بيروت – لبنان.

ي – كتب التراجم:

102 – الزِّركلي: خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، سنة: 1986، بيروت – لبنان.

103 – ياقوت الحموي: أبو عبد الله ابن عبد الله الرومي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار الكتب العلمية، ط1، سنة: 1411– 1991، بيروت – لبنان.

104 – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، بُغية الوُعاة في طبقات اللغويّين والنُّحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، سنة: 1399– 1979.

105 – عادل نويهض: معجم المفسّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط1، سنة: 1404– 1984.

106 – ابن العِماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحيّ، شذرات الذهب في أخبارِ مَن ذهب، دار الكتب العلمية، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

107 – القِفطي: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرُّواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية، ط1، سنة: 1406– 1986، القاهرة، بيروت.

108 – ابن خِلِّكان: وَفَيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، دون ط، دون ت.

109 – الذهبي: شمس الدين محمّد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، حقّقه: شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة: 1405– 1984، بيروت – لبنان.

ك – مصادر السُّنة:

110 – أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني: المسند وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، دار الفكر، دون ت، دون ط.

111 – الألباني: محمّد ناصر الدين بن نوح.

– إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط2، سنة: 1405– 1985، دمشق – سورية.

– صحيح سنن أبي داوود، مكتبة المعارف، ط1، سنة: 1419، الرياض – السعودية.

112 – البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي: السنن الكبرى وبذيله: الجَوهر النقيّ لابن التُّركماني، دار الفكر، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

113 – البخاري: أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل، صحيح البخاري، شركة الشهاب، دون ط، دون ت، الجزائر.

– نسخة أخرى: دار الفكر، دون ط، سنة: 1401– 1981، بيروت – لبنان.

114 – أبو داود السِّجستاني: سليمان بن الأشعث الأزدي، سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

115 – ابن حجر الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، الكتاب العربي، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

116 – الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، حقّقه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، ط1، سنة: 1400– 1980.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

117 – ابن ماجة القزويني: أبو عبد الله محمّد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، دون ط، دون ت، بيروت – لبنان.

118 – مسلم: أبو الحسين ابن الحجّاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، دون ط، سنة: 1401– 1981، بيروت – لبنان.

119 – الترمذي: محمّد بن عيسى بن سَوْرة، الجامع الصحيح، حقّقه وصحّحه: عبد الرحمن محمّد عثمان، دار الفكر، ط2، سنة: 1403– 1983، بيروت – لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	(أ – م)
مبحث تمهيدي	1
المطلب الأوّل: معنى المدح والذمّ في اللغة والقرآن	2
الفرع الأوّل: معنى المدح والذمّ في اللغة	2
أوّلاً: معنى المدح في اللغة	2
ثانياً: معنى الذمّ في اللغة	3
الفرع الثاني: معنى المدح والذمّ في القرآن الكريم	3
أوّلاً: معنى المدح في القرآن الكريم	3
ثانياً: معنى الذمّ في القرآن الكريم	4
المطلب الثاني: المعاني الداخلة في المدح والذمّ أو القريبة منهما	6
الفرع الأوّل: المعاني القريبة من معنى المدح	6
الفرع الثاني: المعاني القريبة من معنى الذمّ	10
المطلب الثالث: حول أساليب المدح والذمّ في القرآن الكريم	14

الفصل الأوّل

المدح والذمّ الصريح في القرآن الكريم

المبحث الأوّل: صيغ المدح والذمّ واستعمالاتها في القرآن الكريم	17
المطلب الأوّل: "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم	17
الفرع الأوّل: "نِعْمَ وبِئْسَ": أصلهما – معناهما – فِعليّتهما	17
أوّلاً: أصل "نِعْمَ وبِئْسَ"	17
ثانياً: معنى "نِعْمَ وبِئْسَ"	19
ثالثاً: فِعليّة "نِعْمَ وبِئْسَ"	20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" 22
البند الأوّل: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" اسم ظاهر محلّى بالألف واللام 23
البند الثاني: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" مضافٌ إلى ما فيه الألف واللام 30
البند الثالث: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" ضمير مستتر 31
البند الرابع: فاعل "نِعْمَ وبِئْسَ" كلمة "ما" الواقعة بعدهما 32
أوّلاً: حين يَلِي "نِعْمَ ما" و"بِئْسَ ما" اسم مفرد 34
ثانياً: حين يَلِي "نِعْمَ ما" و"بِئْسَ ما" جملة فعليّة 36
الفرع الثالث: علاقة "نِعْمَ وبِئْسَ" بالفاعل 39
أوّلاً: من حيث الإفراد والتثنية والجمع 39
ثانياً: من حيث التذكير والتأنيث 40
الفرع الرابع: المخصوص بالمدح أو الذمّ 41
أوّلاً: حاجة "نِعْمَ وبِئْسَ" إلى اسم مرفوع بعدهما هو المقصود بالمدح أو الذمّ 41
ثانياً: شروط المخصوص بالمدح أو الذمّ 41
ثالثاً: إعراب المخصوص بالمدح أو الذمّ 43
رابعاً: حذف المخصوص بالمدح أو الذمّ 44
الفرع الخامس: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالفعل والفاعل والتمييز 48
أوّلاً: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالفعل والفاعل 48
ثانياً: علاقة المخصوص بالمدح أو الذمّ بالتمييز 49
المطلب الثاني: ما يلحق بـ "نِعْمَ وبِئْسَ" في القرآن الكريم 51
الفرع الأوّل: ما جاء على وزن "فَعُل" مراداً به المدح أو الذمّ 51
الفرع الثاني: "ساء" في القرآن الكريم 59
المطلب الثالث: صيغ المدح والذمّ التي لم تستخدم في القرآن الكريم 68
الفرع الأوّل: "حَبّذا" و"لا حَبّذا": معناهما ودلالتهما 68
الفرع الثاني: أصل"حَبّذا" 69
الفرع الثالث: إعراب"حَبّذا" 70
الفرع الرابع: فاعل "حبّ" والمخصوص بالمدح أو الذمّ 72

المبحث الثاني: المدح والذمّ بالوصف في القرآن الكريم 75
المطلب الأول: المدح والذمّ بالإخبار عن الشيء بذكر ممادحه أو مذامّه 75
الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب الإثبات 76
أوّلاً: إثبات الممادح (دراسة نماذج) 76
ثانياً: إثبات المذامّ (دراسة نماذج) 85
الفرع الثاني: المدح والذمّ بأسلوب النفي 92
أوّلاً: نفي المذامّ (دراسة نماذج)........................ 93
ثانياً: نفي الممادح (دراسة نماذج)........................ 95
الفرع الثالث: المدح والذمّ بأسلوب الحصر والقصر 98
أوّلاً: المدح بأسلوب الحصر والقصر (دراسة نماذج) 98
ثانياً: الذمّ بأسلوب الحصر والقصر (دراسة نماذج) 100
الفرع الرابع: تأكيد المدح بما يشبه الذمّ وعكسه 103
البند الأوّل: تأكيد المدح بما يشبه الذمّ 103
البند الثاني: تأكيد الذمّ بما يشبه المدح 107
المطلب الثاني: النعت للمدح أو الذمّ وما يلحق به 108
الفرع الأوّل: ما جاء من النعت للمدح أو الذمّ على الإتباع 109
أوّلاً: النعت للمدح (دراسة نماذج) 109
ثانياً: النعت للذمّ (دراسة نماذج) 115
الفرع الثاني: ما جاء من النعت للمدح أو الذمّ على القطع 118
أوّلاً: قطع النعت للمدح (دراسة نماذج) 118
ثانياً: قطع النعت للذمّ (دراسة نماذج) 125
الفرع الثالث: خطاب المدح أو الذمّ (أسلوب النداء) 126
أوّلاً: خطاب المدح 127
أ – النداء باسم الإيمان 127
ب – النداء بـ: (يا أيّها النبيّ) 127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جـ – النداء بـ: (يا أيّها الرسول) 128
د – النداء بـ: (يا أيّها الصِّدِّيق) 128
هـ – النداء بـ: (يا أيّها الذين هادوا) 129
و – النداء بـ: (يا أيّها الملأ) 129
ز – النداء بـ: (يا أولي الألباب) 129
ثانياً: خطاب الذمّ 130
أ – النداء باسم الكفر 130
ب – الخطاب بـ: (أيّها المجرمون) 130
جـ – الخطاب بـ: (أيّها الجاهلون) 130
د – الخطاب بـ: (أيّها الضالّون المكذّبون) 131
هـ – النداء بـ: (يا أيّها الساحر) 131
و – النداء بـ: (يا أيّها الذي نُزِّل عليه الذكر) على وجه التهكّم 132

الفصل الثاني

المدح والذمّ الضمني

المبحث الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب الاستفهام (الاستخبار) في القرآن الكريم 134
المطلب الأوّل: استفهام المدح 135
أوّلاً: همزة الاستفهام 135
ثانياً: (مَن) الاستفهاميّة 136
المطلب الثاني: استفهام التوبيخ 138
أوّلاً: همزة الاستفهام 138
ثانياً: (ما) و(ماذا) 145
ثالثاً: (أين) 151
رابعاً: (هل) 153

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامساً: (أيّ) 155
سادساً: (مَن) الاستفهاميّة 156
سابعاً: (كيف) 157
ثامناً: (كم) 159
المطلب الثالث: استفهام التهكّم والسخرية 160
أوّلاً: همزة الاستفهام 160
ثانياً: (ما) الاستفهاميّة 163
ثالثاً: (متى) 164
رابعاً: (هل) 165
خامساً: (أيّ) 166
المطلب الرابع: استفهام التحقير 167
أوّلاً: همزة الاستفهام 167
ثانياً: (ما) الاستفهاميّة 168
المبحث الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل والتعجّب في القرآن الكريم 170
المطلب الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التفضيل 170
الفرع الأوّل: المدح بأسلوب التفضيل 171
الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب التفضيل 174
المطلب الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التعجّب 177
الفرع الأوّل: المدح بأسلوب التعجّب 178
الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب التعجّب 178
المبحث الثالث: المدح والذمّ بأساليب التشبيه والتسوية والتمثيل في القرآن الكريم ... 180
المطلب الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه والتسوية 180
الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب التشبيه 180
أوّلاً: المدح بالتشبيه (دراسة نماذج) 180
ثانياً: الذمّ بالتشبيه (دراسة نماذج) 182

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: المدح والذمّ بالتسوية 184
أوّلاً: المدح بالتسوية (دراسة نماذج) 184
ثانياً: الذمّ بالتسوية (دراسة نماذج) 185
المطلب الثاني: المدح والذمّ بأسلوب التمثيل 186
أوّلاً: المدح بالتمثيل (دراسة نماذج) 187
ثانياً: الذمّ بالتمثيل (دراسة نماذج) 188
المبحث الرابع: الذمّ بأسلوب الأمر والدعاء في القرآن الكريم 193
المطلب الأوّل: الذمّ بأسلوب الأمر 194
المطلب الثاني: إجراء الدعاء مجرى الذمّ والتوبيخ 198
أوّلاً: الدعاء بـ: (غير مُسمَع) 198
ثانياً: الدعاء باللّعن 198
ثالثاً: الدعاء بالقتل 199
رابعاً: الدعاء بالتبَاب 200
المبحث الخامس: المدح والذمّ بالتعريض والإشارة في القرآن الكريم 202
المطلب الأوّل: المدح والذمّ بالتعريض 202
أوّلاً: المدح بالتعريض (دراسة نماذج) 202
ثانياً: الذمّ بالتعريض (دراسة نماذج) 205
المطلب الثاني: المدح والذمّ بالإشارة 208
الفرع الأوّل: المدح والذمّ من خلال وضع الظاهر موضع المضمر 208
أوّلاً: المدح (دراسة نماذج) 208
ثانياً: الذمّ (دراسة نماذج) 209
الفرع الثاني: المدح والذمّ باستعمال اسم الإشارة 210
أوّلاً: المدح باستعمال اسم الإشارة (دراسة نماذج)........ 210
ثانياً: الذمّ باستعمال اسم الإشارة (دراسة نماذج)........ 211
الفرع الثالث: المدح بالإضافة إلى معظّم 212
الفرع الرابع: المدح والذمّ من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب 213

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أوّلاً: المدح من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب (دراسة نماذج)........................ 213
ثانياً: الذمّ من خلال إيحاء اللفظ أو التركيب (دراسة نماذج)........................ 214
الفرع الخامس: المدح من خلال التخصيص بالذكر 216
المبحث السادس: أساليب أخرى للمدح والذمّ 220
المطلب الثاني: الخبر الدالّ على المدح أو الذمّ بالقرائن 220
الفرع الأوّل: الخبر للمدح 220
الفرع الثاني: الخبر للذمّ والتهكّم 221
المطلب الثاني: الذمّ بأسلوب التهكّم 229
أوّلاً: (البِشارة) في موضع الإنذار 230
ثانياً: (الهداية) في معرض الإضلال 231
ثالثاً: (الثواب) في معنى العقاب 232
رابعاً: (الحليم الرشيد) في معنى: السفيه الغويّ 233
خامساً: (العزيز الكريم) في معنى: الذليل المهان 234
سادساً: (قادرين) في معنى عاجزين 234
سابعاً: (الإغاثة) في مقام الإهلاك 235
ثامناً: التيسير مكان التعسير 235
المطلب الأوّل: المدح والذمّ بأساليب النفي والترجّي والتحضيض والقَسَم 236
الفرع الأوّل: المدح والذمّ بأسلوب النفي 236
الفرع الثاني: الذمّ بأسلوب الترجّي 236
الفرع الثالث: الذمّ بأسلوب التحضيض 237
الفرع الرابع: المدح بأسلوب القسم 239

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

بلاغة المدح والذمّ في القرآن الكريم

المبحث الأول: الأساليب الدالة على المبالغة في المدح والذم في القرآن الكريم 242

المطلب الأول: استخدام صِيَغ المدح والذمّ الدالّة على المبالغة 242

المطلب الثاني: استخدام صيغة المبالغة في المدح والذمّ 245

المطلب الثالث: تكرير اللفظ من أجل المبالغة في المدح والذمّ 247

المطلب الرابع: استخدام أسلوب التوكيد للمبالغة في المدح والذمّ 249

المطلب الخامس: تعكيس الكلام وحُسن انتقاء اللفظ المناسب لمقام المدح أو الذمّ ... 250

المطلب السادس: استخدام الألفاظ المحتملة للمدح والذمّ بحسب متعلّقها 257

المطلب السابع: استخدام ضمير الجمع بدل ضمير الإفراد للتعظيم 258

المطلب الثامن: من بلاغة أسلوب الحصر والقصر في المدح والذمّ 259

المطلب التاسع: من بلاغة التشبيه والتمثيل في المدح والذم 264

المطلب العاشر: المجاز والكناية في المدح والذم 269

المبحث الثاني: الأساليب البديعية للمدح والذم في القرآن الكريم 277

المطلب الأول: الإيهام والإبهام في المدح والذمّ 277

المطلب الثاني: الالتفات في المدح والذم 281

الفرع الأول: من الخطاب إلى الغَيبة........ 281

الفرع الثاني: من الغَيبة إلى الخطاب 282

الفرع الثالث: من المتكلِّم إلى المخاطَب 284

الفرع الرابع: **ال**عدول عن استخدام الفعل الماضي إلى الفعل المضارع 284

المطلب الثالث: الإضراب في المدح والذمّ 285

المطلب الرابع: الإيجاز في المدح والذمّ 286

المطلب الخامس: الإطناب في المدح والذمّ 288

المطلب السادس: استتباع المدح والذمّ 294

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب السابع: الترقي والنزول في المدح والذمّ 295

المطلب الثامن: الافتنان في المدح والذمّ 299

المطلب التاسع: المشاكلة في المدح والذمّ 300

المطلب العاشر: تجاهل العارف أو سوق الكلام مساق غيره للمدح والذمّ 301

المطلب الحادي عشر: النزاهة في المدح والذمّ 302

المطلب الثاني عشر: الجناس والطباق والمقابلة في المدح والذم 303

خاتمة 305

مُلخّص 308

الفهارس العامّة 314

فهرس القراءات 315

فهرس الأحاديث والآثار 317

فهرس الأشعار 319

فهرس المفردات 321

فهرس الأعلام 323

فهرس المصادر والمراجع 327

فهرس الموضوعات 340

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية